٦٧٩٧٥٧
٢٠١٢ ١٦١٤

جـــــامعة عين شمس
كـــــــلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الاســـــــم : كريم فاروق أحمد عبد الدايم الخولي
الجـــــامعة : عين شمس
الكـــــــلية : الآداب
القـــــسم : اللغة العربية
ســـــنة التخرج : ١٩٩٦
المـــــاجستير : ٢٠٠٨
الدرجة المتقدم لها : الدكتوراة
ســـــنة التسجيل : ٢٠٠٩
ســـــنة المنح : ٢٠١١

تمت الموافقة على إيفاد سيادته للكلية في ١٥/ ١٨/ ٢٠١١
بالتقويم سكتب الكلية في ١٨/ ٧/ ٢٠١١
مدرس اللغة العربية من ١٩/ ٤/ ٢٠١١ بالتقويم
سكتب الكلية في ١٩/ ٤/ ٢٠١٠

جـــــامعة عين شمس
كـــــــلية الآداب
قسم اللغة العربية و آدابها

قضايا الأسلوب في تراث علوم القرآن

"البرهان في علوم القرآن للزركشي نموذجا"

بحث لنيل درجة الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها

الباحث
كريم فاروق أحمد عبد الدايم الخولي

إشراف

أ.د .**طارق سعد شلبي**
أستاذ النقد والبلاغة

د. **إسلام حسن الشرقاوي**
المدرس بالقسم

إهداء

إلى كل أساتذتي الذين تعلمت على أيديهم أن اللغة العربية رسالة يتشرف بها حاملها أهدي هذه الدراسة المتواضعة وأرجو أن تكون استكمالا لجهدهم .

إلي أستاذي المحترم الأستاذ الدكتور/ طارق شلبي لرعايته المستمرة لي على مدى سنوات طويلة، وإنما هذا البحث هو ثمرة من الثمار التي سبق بغرسها، ورواها بعلمه الغزير، وليس في الإمكان لوفاء حقه إلا الدعاء له وهذا البحث المتواضع .

إلى رفيقة العمر لما وفرته لي من وقت لمتابعة البحث العلمي والمساندة الروحية المستمرة، ولأبنائي الأعزاء: مريم ومحمد ومنة الرحمن، فالوقت الذي قضيته في البحث كان مستقطعا من وقتهم، ولا يسعني أن أعوضهم عن هذا إلا أن يكون هذا البحث جزءا من ميراثهم

والحمد لله

المقدمة

تتوجه هذه الدراسة إلي قراءة تراث علوم القرآن في ضوء الدرس الأسلوبي الحديث ولاستحالة تتبع ذلك التراث في دراسة واحدة فقد تم التوجه إلي مصدر مهم من مصادر علوم القرآن حمل كثيرًا من ملامح ذلك التراث ونعني كتاب البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، علي أن تكون هذه الدراسة قراءة راصدة في هذا المصدر، تربط بين دراسة النص قديمًا ودراسته من وجهة نظر الدرس الأسلوبي حديثًا .

وقد عمدنا إلى أن تكون هذه الدراسة قراءة راصدة في كتاب البرهان في علوم القرآن تربط بين النتائج التي انتهى إليها الكتاب قديما، ومنجزات الدرس الأسلوبي حديثا، كما نرصد تصور الزركشي للدرس الأسلوبي خاصة فيما قدمه من محاولات تهدف إلى الكشف عن أسلوب عام للقرآن الكريم بكل مستوياته بغرض فهم مراد الله منه من ناحية، وتمييزه عن أي نص آخر من النصوص من ناحية أخرى .

ومن هذا المنطلق، فإن هذه الدراسة تقوم على رصد قضايا الأسلوب في كتاب البرهان وتحليلها عن طريق رصد مكونات الأسلوب العام للقرآن الكريم كما أوضحه الزركشي وتحليلها مع رصد أدوات يمكن أن تفيدنا في الدرس الأسلوبي الحديث، وذلك برصد تصور الزركشي لمستويات الأسلوب من صوت وصرف وتركيب وتصوير ودلالة، مع رصد تصور الزركشي لوحدة النص القرآني والكشف عن الأدوات التي تسلح بها في رحلته لإثبات هذه الوحدة، ورصد تصوره لقضايا التلقي وصور التلقي للنص القرآني والقدرة التأثيرية للنص القرآني على المتلقي، مع رصد أدوات الزركشي المنهجية في تناوله لقضايا الأسلوب .

بصرف النظر عن انبهار البحث بما قدمه الزركشي في كتابه البرهان من تصور أسلوبي يتقاطع مع التصور الأسلوبي الحديث إلا أن دراسة الزركشي وكتابه لا تعد استكشافًا لهذا التصور الأسلوبي فحسب، بل استكشافًا لخلاصة النشاط العقلي لعلماء اللغة والبلاغة والنقد منذ عصور أوجها حتي نهاية القرن الثامن الهجري فكان اختيار الزركشي من وجهتي النظر الزمانية والمكانية، وطبيعة الاهتمام البحثي، ومكانة الدرس الأسلوبي في الواقع النقدي.

أما الأهمية الزمانية فتتمثل في أن الزركشي قد عاش حتي نهاية القرن الثامن الهجري وذلك جعل عنده خلاصة مجمعة لكل من سبقه من علماء النحو والبلاغة واللغة استطاع بفطرته السليمة ودأبه علي الاطلاع التمييز بينها بعد جمعها في بوتقة واحدة ومن ثم اعتماد درس أسلوبي مميز يتقاطع مع الدرس الأسلوبي الحديث تظهر آثاره في محاولة تحديد أسلوب عام للقرآن الكريم يجعل له خصوصيته التي تميزه عن أي جنس لغوي آخر علاوة على ما استقر عنده من تصور لوحدته والتأثير على متلقيه والصور المختلفة لتلقيه .

وتنبع الأهمية المكانية من مولد الزركشي في مصر التي اتسمت بنور العلم تحت مظلة الأزهر الشريف بعدما خمدت جذوة العلم بعض الشيء من عواصم الخلافة الإسلامية بغداد ودمشق مما يضفي أهمية علي المكان الذي ذخر بحركة علمية واسعة أفاد منها الزركشي في كتابه البرهان، وانتظامه في حلقات الدرس علي يد كوكبة من علماء عصره الذين عمرت بهم مصر، علاوة علي الاهتمام بما ألفه السابقون ونسخ تلك المؤلفات في حوانيت الوراقين، وقد أفاد الزركشي من ذلك الاهتمام بتردده علي حوانيت الوراقين .

وللأهمية المكانية مع الأهمية الزمانية كانت دراسة كتاب البرهان وصاحبه بمثابة دراسة خلاصة النشاط اللغوي والبلاغي لعلماء العربية بفروعها منذ نزول القرآن الكريم حتي نهاية القرن الثامن الهجري بفضل الزركشي الذي حاور من سبقوه ومن عاصروه، ناقش آراءهم، و حلل تفسيراتهم، وعلل توجهاتهم من علماء النحو والبلاغة واللغة والمفسرين والفقهاء، وقدم مع كل ذلك تصوره لأسلوب القرآن الكريم بما يحقق - كما أوضح في مقدمة البرهان - فهم القرآن علي مراد الله .

من اللافت للنظر توجه بعض المهتمين بالدرس اللغوي والبلاغي القديم إلي تناول أعمال علماء النقد والبلاغة واللغة والنحو بهدف الكشف عن تلك الأعمال والربط بينها وبين الدرس الأسلوبي الحديث والوقوف علي مدي التقارب والتباعد بينهما في حين أن تراث علوم القرآن لا يلاقي ذلك الاهتمام ذاته بذلك القدر من المهتمين بالدرس الأسلوبي بالرغم من ثراء ذلك التراث بالأدوات النقدية واللغوية والنحوية والبلاغية ثراءً قد يفوق في مجمله غيره من العلوم .

هذا وقد حققت الأدوات الأسلوبية قدرة علي سبر أغوار النصوص بمختلف أشكالها فما قدمه – ويقدمه - المهتمون بالدرس الأسلوبي من ميراث تناول آيات القرآن الكريم، ودواوين الشعر، والنثر، والأدب بأجناسه غني عن التعريف بتلك القدرة .

ومن هذا المنطلق فإن هذه الدراسة تطمح إلي إلقاء الضوء علي تراث علوم القرآن حتي تستطيع لفت نظر الباحثين إلي أهمية ذلك التراث في باب الدرس الأسلوبي .

كما تطمح إلي الكشف عن قدرة تراث علوم القرآن علي إمداد حركة الدرس النصي بأدوات نافعة في مواجهة النص من ناحية، وبيان قدرة تلك الأدوات علي سبر أغوار النصوص والكشف عن خصائصها وسماتها بما يحقق للدرس الأسلوبي الحديث جذورًا تمتد إلي التراث العربي القديم وليس اعتمادًا كليًا علي الوافد وحده من ناحية أخري .

ولاستحالة تتبع تلك الأدوات في تراث علوم القرآن كله فقد اتجهت هذه الدراسة إلي كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي للأسباب السالفة الذكر محاولة الكشف عن أدوات الدرس الأسلوبي من ناحية، والكشف عن ملامح الأسلوب العام للقرآن الكريم كما تصوره الزركشي من ناحية أخري

وأشرف ما تطمح إليه الدراسة الكشف عن تأثير خصوصية النص القرآني في توجيه الدرس اللغوي والبلاغي القديم من خلال دراسة كتاب البرهان في علوم القرآن .

ينبع المنهج المتبع في الدراسة من معطيات الدرس الأسلوبي الحديث، وهو قائم علي الاستقراء والتحليل، فيرصد القضايا المختلفة التي تضمنها كتاب البرهان، ويعمد إلي تصنيفها والكشف عن أبعادها من خلال الإفادة من التطور الذي شهده الدرس الأسلوبي الحديث .

ومن أهم ملامح المنهج الحرص علي أن يكون الرصد والتحليل في إطار كتاب البرهان دون أن نقحم فيه ما لم يتطرق إليه المؤلف مما توصل إليه الدرس الأسلوبي الحديث .

فبداية عمدنا إلى القراءات الأول لكتاب البرهان بطريقة شمولية وأعقب تلك القراءات قراءة متأنية راصدة قضايا الأسلوب وظواهره ظاهرة ظاهرة، وبعد رصد وترتيب تلك الظواهر حددنا كل ظاهرة وأفردنا لها فصلا من فصول الدراسة للكشف عن أبعادها عند الزركشي على أن ترتيب الفصول حسب الظواهر وليس حسب ترتيب ورودها في أجزاء البرهان .

هذا وقد تعددت الدراسات السابقة لقضايا الأسلوب وكتاب البرهان وصاحبه الزركشي ونشير من تلك الدراسات التي اهتمت بقضايا الأسلوب ضمن

قضايا الحداثة إلي كتاب **"قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني"** للدكتور/ **محمد عبد المطلب** وقد هدف إلي تأصيل تلك القضايا في التراث النقدي العربي بالكشف عن الأدوات النقدية القديمة وتحليلها عند أكثر من واحد من النقاد القدامي الأجلاء خاصة عند عبد القاهر الجرجاني بهدف تصور صحيح للقديم ورصد لظواهره وتحديد خطوطه النظرية والتطبيقية وذلك كله لرصد قضايا الحداثة بدقة كما اصطلح عليه بتسميته بـ"إحياء التراث"، وكان لذلك التوجه عظيم الأثر في محاولتنا إحياء تراث علوم القرآن من وجهة نظر الدرس الأسلوبي الحديث .

أما الزركشي وكتابه البرهان فقد تناوله الدكتور/ **طارق سعد شلبي** في كتابه **" الدرس التطبيقي في النقد العربي "** ضمن فصله الرابع تحت عنوان " جماليات التلقي" بصورة جزئية بهدف تأصيل نظرية التلقي في الدرس النقدي العربي القديم، وبهدف الإفادة من الأدوات النقدية القديمة في الدرس النقدي الحديث خاصة في الجانب التطبيقي، وكان لدراسته الزركشي عظيم الإفادة في التعريف بتوجهات الزركشي الأسلوبية خاصة في التلقي مما حدا بالبحث إلي رصد ذلك التوجه في كتاب البرهان بنظرة أوسع من وجهة نظر الدرس الأسلوبي ضمن قضايا أخري .

أما الدراسات اللغوية والبلاغية التي تناولت الزركشي وكتابه البرهان بالرغم من ندرتها إلا أنها قد اتسمت باضطلاع بعض الباحثين بالاحتفاء بالزركشي وكتابه البرهان وإظهار بعض جهوده في اللغة والبلاغة فكانت دراساتهم نعم العون للبحث في دراسة قضايا الأسلوب في كتاب البرهان فمن أهمها:

"أهم القضايا النحوية والصرفية من كتاب البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي" رسالة ماجستير نوقشت في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة سنة ١٩٨٦ ، للباحث /عاطف محمد عبد المجيد أبو سعيد، أشار الباحث في الجزء الثاني منها إلي بعض القضايا الصرفية والنحوية التي تناولها الزركشي، وقد غلب علي ذلك الجزء من الرسالة النقل الكثير من كتاب البرهان علي حساب التحليل .

"مباحث علم المعاني في كتاب البرهان للإمام الزركشي " رسالة ماجستير نوقشت في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة سنة ١٩٨٨ للباحث / خليفة قرني محمد خليفة ، أشار الباحث فيها إلي بعض المباحث التي تناولها الزركشي في علم المعاني في كتابه البرهان.

"بديع القرآن من كتاب البرهان للعلامة الزركشي" رسالة ماجستير نوقشت في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة سنة ١٩٨٨ للباحث / عبد المجيد عبد المجيد هنداوي جعفر تناول فيها الباحث بعض ألوان البديع في كتاب البرهان بهدف الكشف عن ملمح من بعض ملامح إعجاز النص القرآني .

" الجهود النحوية لبدر الدين الزركشي" رسالة ماجستير نوقشت في دار العلوم بجامعة القاهرة سنة ١٩٨٩ للباحث/ علي سعد الخولي تضمنت رصدًا لجهود الزركشي النحوية فيما تناوله من مصطلحات نحوية في كتابه البرهان .

وتتألف الدراسة من أربعة فصول يسبقها مقدمة وتمهيد ويليها خاتمة وثبت بالمصادر والمراجع وفهرس مفصل لأجزاء الدراسة وملخص باللغتين العربية والانجليزية

تناولت المقدمة التعريف بطبيعة الموضوع والدافع إلى اختياره وأبرز معالم المنهج المتبع في الدراسة وبيان أقسامها وأبرز الصعوبات التي واجهت البحث وكيفية التغلب عليها، وضمنت بإشارات موجزة عن الدراسات السابقة سواء عن الزركشي أو كتابه البرهان .

أما التمهيد فقد تناول الزركشي وعصره وأبرز ملامح المنهج المتبع في الدراسة وأدواته، فتمت الإشارة فيه إلى ألقاب الزركشي وحياته ومماته ومؤلفاته بصورة مقتضبة، والعصر الذي عاش فيه واتسامه بالقوة العسكرية والاقتصادية التي صبغت هذا العصر بالاهتمام بالعلم والعلماء وانتشار المدارس والمكتبات وحوانيت الوراقين مما هيأ للزركشي أسباب العلم، وختم التمهيد بالأدوات المنهجية التي اعتمد عليها البحث في دراسة قضايا الأسلوب عند الزركشي .

أما الفصل الأول فجاء بعنوان " مستويات الأسلوب " ورتبنا هذه المستويات حسب ما تصوره أساتذتنا فكان ذلك الترتيب منطقيا بحيث بدأ بالظواهر الإفرادية منتهيا بالظواهر التركيبية، فجاءت الظواهر الصوتية في المبحث الأول، ورصدنا فيه تصور الزركشي لمخارج الأصوات وصفاتها وعلاقة الصوت بالدلالة في النص القرآني ، وختمنا هذا المبحث بتجليات الدرس الصوتي عند الزركشي من خلال تناوله للقراءات .

وجاءت الظواهر الصرفية في المبحث الثاني، ورصدنا فيه تصور الزركشي لأهمية الصيغ الصرفية في الكشف عن الدلالة في النص القرآني، مع رصد علاقة الصرف بالدلالة من رصد دلالة الصيغ الصرفية ورصد الفروق

الدلالية بين تلك الصيغ وختمنا هذا المبحث بتصور الزركشي للعدول الصرفي وأسبابه ودلالة ذلك العدول ومدى ارتباطه بالسياق في النص القرآني .

وجاءت الظواهر التركيبية في المبحث الثالث، ورصدنا فيه تصور الزركشي للعلاقات التركيبية المختلفة القائمة بين مكونات التركيب وتصوره لبناء التركيب داخله ووحدة التركيب واكتماله في النص، كما تناولنا في هذا المبحث علاقة التركيب بالدلالة، كما رصدنا دلالات بعض التراكيب عند الزركشي منها دلالة التركيب البدلي والعطفي علاوة على رصد مؤكدات الجملة الاسمية والفعلية، ودلالات التكرار، ورصدنا فيه أيضا القوالب التركيبية ودلالاتها ومن ذلك تراكيب الشرط والوصف والعطف والبدل وتصور الزركشي لوحدة هذه التراكيب باعتبارها وحدات دلالية داخل النص القرآني، وتصوره أيضا للروابط التركيبية القائمة بين مكونات تلك التراكيب، علاوة على رصد دلالاتها المختلفة، وختمنا هذا المبحث بتصور الزركشي للعدول التركيبي ودلالاته من خلال الالتفات والحذف والزيادة والتقديم والتأخير والاعتراض

وجاءت الظواهر الدلالية في المبحث الرابع، ورصدنا فيه تجليات الدرس الدلالي عند الزركشي من خلال تناوله لقضية التفسير والتأويل، ورصدنا تصور الزركشي للعلاقات الدلالية القائمة بين مفردات النص وتراكيبه ومن ذلك التناسب والطباق والمقابلة، كما رصدنا أدوات الزركشي في استخراج الدلالة وتصوره للأدوات اللغوية وغير اللغوية، وارتباط تلك الأدوات بالإجمال الدلالي في النص القرآني، ثم رصدنا تصور الزركشي لأقسام الدلالة وما تناوله من الدلالات الكلية والجزئية وذكره أسباب هذا الربط ، كما رصدنا في هذا الجزء تصور الزركشي لأقسام دلالات اللفظ من الدلالة اللغوية والشرعية والعرفية والاصطلاحية، وأعقبنا ذلك بتصور الزركشي للتعدد الدلالي في النص القرآني على مستوى الآية أو المفردات.

وأعقبنا ذلك بالكشف عن تصور الزركشي للفروق الدلالية بين المفردات، كما رصدنا تصور الزركشي للعدول الدلالي وأسبابه، وختمنا هذا المبحث بتصور الزركشي للسياق وأهميته وأنماطه ودلالته في النص وتأثيره في مستويات الأسلوب.

وجاءت الظواهر التصويرية في المبحث الخامس، ورصدنا فيه الصورة الجزئية من التشبيه والاستعارة والكناية، والصورة الكلية الجامعة بين الصور الجزئية وتناول الزركشي للتمثيل وربط ذلك كله بالدلالة والمتلقي في تصور الزركشي .

وجاء الفصل الثاني كاشفا عن تصور الزركشي لوحدة النص عموما ووحدة النص القرآني خصوصا وذلك على المستويين النظري والتطبيقي وقمنا برصد الإجراءات العملية التي اتخذها الزركشي في هذا الصدد من رصد لسمات النص مما أورده الزركشي نظريا وتطبيقيا، ومن أبرز تلك السمات ما رصدناه من تصور الزركشي لسبعة أنماط للتناسب بين أجزاء النص القرآني بما يفضي إلى التناسب العام بينها باعتبارها سمة أساسية من سمات النص، ورصدنا من تلك الإجراءات أيضا تفسير الزركشي للنص بالنص بالاعتماد على أقواله النظرية التي تفضي بأن أفضل وسيلة للتفسير هي تفسير القرآن بالقرآن، ورصدنا في هذا الفصل أيضا دور التكرار والمقارنة باعتبارهما من الإجراءات العملية التي اتخذها الزركشي ليعبر عن تصوره لوحدة النص القرآني .

وتناول الفصل الثالث قضايا التلقي عند الزركشي، ورصدنا فيه تصور الزركشي لصور التلقي من تلقي سمعي وبصري وربط الزركشي بين تلك الصور وبين الدلالة في النص ، وأعقبنا صور التلقي برصد تصور الزركشي لأحوال التلقي وتصوره مراعاة الصياغة لأحوال المتلقي، ورصد تصور الزركشي لدرجات المتلقين، كما رصدنا في ختام هذا الفصل تصور الزركشي للعلاقة بين المتلقي والنص التي اتسمت عنده بالتجاوب والتأثير .

وجاء في ختام تلك الفصول الكشف عن الأدوات المنهجية - وذلك في الفصل الرابع - التي تسلح بها الزركشي في رحلته للكشف عن الدلالة في النص القرآني وتناوله لقضايا الأسلوب، ووصلت تلك الأدوات بما يتفق أو يفترق مع الأدوات المنهجية الحداثية بهدف ترسيخ جذور تلك الأدوات في تراثنا من ناحية، والكشف عن أدوات قد تفيدنا في الدرس الأسلوبي الحديث من ناحية أخرى .

ومن أهم تلك الأدوات اعتماد الزركشي للجمع بين مستويات الأسلوب كما رصدناها عنده في تصوره الشامل لتلك المستويات مجموعة خلال تناوله للنص القرآني بالتحليل وذلك على المستويين النظري والتطبيقي بما يعبر عن وحدة الأسلوب عنده فجاءت هذه السمة المنهجية تحت عنوان وحدة الأسلوب .

ورصدنا تحت السمة المنهجية الثانية اعتماد الزركشي في استخراج الدلالة في النص القرآني أو تفسير الظواهر اللغوية على البحث في ملابسات النص وما يحيط به خاصة عند الإجمال الدلالي في النص القرآني وقد اعتمد الزركشي في ذلك على أسباب النزول والمكي والمدني والحديث الشريف تنظيرا وتطبيقا .

كما رصدنا تحت السمة المنهجية الثالثة اعتماده للإحصاء، ورصدنا قيام الزركشي بعملية الإحصاء – بجانب إحصاء سور القرآن وحروفه – للدلالات الكلية للنص القرآني، وإحصاء لبعض الألفاظ الواردة فيه وعدد ورودها، وإحصاء للدلالات المعجمية المختلفة والهدف من ذلك بيان اختلاف الدلالات المعجمية للفظ باختلاف موضعه أو سياقه، وإحصاء للتراكيب المتكررة والظواهر الأسلوبية المختلفة، علاوة على إحصاء التصانيف والكتب التي تناولت النص القرآني أو علومه

ورصدنا تحت السمة المنهجية الرابعة اعتماد الزركشي للتقسيم، بما يشبه الخريطة الذهنية

ورصدنا تحت السمة المنهجية الخامسة اعتماد الزركشي للاستدلال وقد تنوعت مصادر الاستدلال عند الزركشي فمنها القرآن نفسه، والقراءات، والحديث الشريف، والشعر، والاستدلال العلمي

ورصدنا تحت السمة المنهجية السادسة اعتماد الزركشي على عرض الآراء وعرض أقوال العلماء ومناقشتها

ورصدنا تحت السمة المنهجية الأخيرة اعتماد الزركشي للتنظير والتطبيق

وقد أعقبنا تلك الفصول بخاتمة تناولت التعريف بفصول الدراسة ومباحثها وجزئياتها والإشارة إلى أبرز ما رصدناه فيها، وأعقبنا الخاتمة بثبت بالمصادر والمراجع وفهرس مفصل لفصول الدراسة ومباحثها ثم ختمناها بملخص باللغتين العربية والانجليزية .

والحمد لله رب العالمين

التمهيد

الزركشي وعصره

لقب الزركشي ببدر الدين، أبي عبد الله، المنهاجي، المصنف، المفتي [1] ، أما لقب الزركشي فراجع إلى عمله في الصغر في صناعة الزركش

وأما ما يلفتنا في ألقاب الزركشي لقب المنهاجي، وقد عزا المؤرخون هذا اللقب إلى حفظ الزركشي لكتاب المنهاج في الفروع للإمام النووي [2] في بداية اهتمامه بالعلم، وهو ما قدم لنا تصورا لاهتمام الزركشي بالعلم منذ صغره من ناحية، وتميز الزركشي بسعة الذاكرة من ناحية أخرى .

وبالرغم من اختلاف المصادر في اسم الزركشي إلا أن المرجح ما ذكره في مقدمة سلاسل الذهب " يقول العبد الفقير الراجي عفو ربه القدير، عبد الله فقيره محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي "[3]

ولد الزركشي في القاهرة " سنة خمس وأربعين وسبعمائة "[4] لأب مصري من أصل تركي، وقد كان الزركشي " فقيها، أصوليا، أديبا فاضلا في جميع ذلك، ودرّس وأفتى وولي مشيخة خانقاه كريم الدين بالقرافة الصغرى "[5] ، حتى مات في القاهرة سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وبالرغم من هذا العمر القصير إلا أن مؤلفات الزركشي قد تعدت الخمسين مؤلفا في مختلف العلوم الدينية واللغوية والأدبية التي اختلفت في الطول والقصر[6]

ولعل السبب في كثرة مؤلفات الزركشي – نظرا لعمره القصير– انقطاعه للعلم بالقراءة في مختلف المصنفات وانشغاله بالتأليف مما حدا بالزركشي أن يعيش مغمورا بين أقران عصره، مشهورا بعد موته فـ " لم يشتهر إمامنا الزركشي مع علو قدره إلا بعد موته، وذلك بسبب انقطاعه في منزله؛ فقد كان لا يتردد إلى أحد إلا إلى سوق الكتب من أجل المطالعة والاستفادة ثم التصنيف، ومع هذا فلم يجهل

---

[1] انظر معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة ، ص ١٠٥ ، ج٩ ، مكتبة المثنى ، بيروت ، ١٩٥٧

[2] انظر مقدمة المحقق لكتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي ، تحقيق ، د. محمد متولي منصور ، دار التراث ، القاهرة ،٢٠٠٨ ، ص٧ ، و ما بعدها

[3] سلاسل الذهب ، الزركشي ، ص١٠٣ ، تحقيق و تقديم ، د. صفية أحمد خليفة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٨

[4] شذرات الذهب ، ابن العماد ، ص ٥٧٣ ، ج٨ ، ت محمود الأرناؤوطي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٦

[5] شذرات الذهب ، ابن العماد ، ص٥٧٣ ، ج٨

[6] انظر البرهان في علوم القرآن ، ص١٣ ، ج١، طبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة ص٢٦٢ ، موقع مكتبة المصطفي الالكترونية على الشبكة الدولية ، هدية العارفين أسماء المؤلفين و آثار المصنفين ، اسماعيل باشا البغدادي ، ص١٧٣ ، ج٢ ، وكالة المعارف ، استانبول ، ١٩٥٥ ، إنباء الغمر بانباء العمر ، ابن حجر العسقلاني ، ص٢٣٣ ، ج١ ، مكتبة المصطفى الالكترونية على الشبكة الدولية

قدر علمه أحد من العلماء الذين عاصروه، والذين جاءوا من بعده، فقد استفادوا كثيرا منه "[7]

هذا ولم يكن الزركشي منقطعا للعلم مدى حياته بين منزله وأسواق الكتب فحسب، بل ارتحل إلى حلب ودمشق ليأخذ العلم عن مشايخها وعلمائها بجانب انتظامه في حلقات العلم للمشايخ والعلماء في القاهرة فقد " أخذ عن الشيخين جمال الدين الإسنوي وسراج الدين البلقيني، ورحل إلى الشيخ شهاب الدين الأذرعي، وسمع الحديث بدمشق وغيرها "[8]

وبالرغم من قلة شيوخ الزركشي الذين تلقى العلم وصنوفه على أيديهم مما ذكره من ترجم للزركشي، إلا أن سعة اطلاع الزركشي على الكتب والمصنفات في مختلف العلوم الدينية والأدبية واللغوية والبلاغية يجعلنا نذهب إلى كثرة شيوخ الزركشي، وقد ترجم ذلك في البرهان فيما نقله عن الزمخشري وابن جني وابن الزملكاني والباقلاني والرازي وأبي عبيدة والفراء وغيرهم كثير .

واطلاع الزركشي على مختلف العلوم في عصره كان من الأهمية بحيث شكلت تلك العلوم عنده أدوات لفهم النص القرآني، وهذا ما فطن إليه محقق كتابه البرهان " فقد كان غرضه من ذلك محاولة فهم بعض معاني القرآن الكريم؛ لأن تلك العلوم أدوات ووسائل يجب توافرها للمفسر "[9]

على أن الاطلاع على الكتب المختلفة من الأهمية بحيث يتضح لنا أن التأليف يعتبر ناقصا بدونه عند الزركشي، وهو ما صرح به في مقدمة كتابه البرهان " واعلم أن بعض الناس يفتخر ويقول: كتبت هذا وما طالعت شيئا من الكتب، ويظن أنه فخر ولا يعلم أن ذلك غاية النقص، فإنه لا يعلم مزية ما قيل على ما قاله، فبماذا يفتخر !، ومع هذا ما كتبت شيئا إلا خائفا من الله مستعينا به معتمدا عليه، فما كان حسنا فمن الله وفضله بوسيلة مطالعة كلام عباد الله الصالحين، وما كان ضعيفا فمن النفس الأمارة بالسوء "[10]

وكان للزركشي – حال العلماء المسلمين – تلاميذ كثيرون سواء بتلقي العلم عنه بالمشافهة، أو بالاطلاع على مؤلفاته المختلفة، وخير دليل على ذلك تأثر السيوطي به خاصة في تصنيف كتابه الإتقان في علوم القرآن .

[7] سلاسل الذهب ، ص٥٣
[8] شذرات الذهب ، ص٥٧٣ ، ج٨
[9] البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ص٨ ، ج١ ،
[10] البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ص٥٦ ، ج١ ، و انظر مقدمة المحقق ص٩ ، و ما بعدها

أما العصر الذي عاش فيه الزركشي فقد تميز بسيطرة المماليك البحرية والجركسية على مجريات الأمور في مصر سواء باعتلائهم رأس السلطة، أو تسيير مجريات الأمور بتدبيرهم حال وجود الخليفة العباسي .

وبالرغم من انتشار الصراع على السلطة داخليا، والصراع على السيادة خارجيا، إلا أن القوة العسكرية والثقل السياسي للمماليك قد جعل لمصر عموما، والقاهرة خصوصا دورا مهما في قلب العالم خاصة السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب .

أما على مستوى العالمين الإسلامي والعربي نجد أن القاهرة في عصر المماليك قد غدت منارة على كل الأصعدة، خاصة للعلم وأصحابه وطلابه، وهذا – بجانب الأهمية التاريخية لمصر في رعايتها للعلم والعلماء – بفضل الاستقرار الذي شهدته في هذا العصر مقارنة بما أصاب العالمين الإسلامي والعربي من الضعف، فقد " أصبحت مصر على مر سلاطين المماليك محورا لنشاط علمي كبير، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار شرقيها وغربيها، وخير دليل على هذا النشاط ما خلفه علماء ذلك العصر من تراث ضخم في مختلف العلوم والفنون .

ومما جعل مصر محورا للنشاط العلمي ما أصاب المسلمين في القرن السابع الهجري من كوارث على أيدي المغول في العراق والشام، وعلى أيدي المسيحيين في الأندلس "[11]

وبلغ الاهتمام بالعلم والعلماء وطلاب العلم في هذا العصر إلى اهتمام المماليك بإنشاء خزانات الكتب العامة، وإنشاء المدارس النظامية[12]، ومنها المدارس الظاهرية والناصرية والمنصورية، علاوة على انتشار حوانيت الوراقين وأسواق الكتب، والاهتمام بالأزهر الشريف، مما يلفتنا إلى البيئة التي توفر فيها للزركشي أسباب العلم .

هذا وقد دللت محققة كتاب سلاسل الذهب للزركشي في مقدمتها على ازدهار العلم في مصر في هذا العصر بكثرة العلماء الذين عدهم ابن حجر العسقلاني " ويكفينا للدلالة على عظمة هذا العصر علميا، وخصوبة نتاجه ما ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني حيث بلغ ما عده من الأعيان أكثر من خمسة آلاف عالم "[13]

[11] المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، ص١٥٧ ، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٩٢
[12] انظر الحركة العلمية و مظاهرها في هذا العصر ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص١٥٧ ، و ما بعدها
[13] سلاسل الذهب ، الزركشي ، ص٨٩

المنهج وأدواته

إن ارتباط الأدب بوجود الإنسان منذ فجر التاريخ جعل له من الأهمية في حياة الإنسان ما لا يستطيع الفكاك منه أو الاستغناء عنه، إذ يمثل الأدب سجلا لحياة الإنسان الفكرية والثقافية والاجتماعية والنفسية على مر مراحل وجوده في الحياة .

ولهذه الأهمية انشغل المهتمون بالأدب على مر العصور بوضع أسس منهجية لسبر أغوار النصوص الأدبية بأنواعها المسموعة والمرئية لتحقيق التواصل الإنساني بين النص ومبدعه ومتلقيه، ذلك التواصل الذي يكشف لنا عن ممارسة الإنسان لوجوده ضمن جماعات نشأ في ظلها منذ نشأته الأولى على الأرض.

ولما كان التواصل بين البشر عن طريق الأدب يتم بين مرسل ومستقبل يتوسط بينهما النص الذي يضمن ذلك التواصل، كان من الضروري تناول تلك النصوص بمناهج نقدية من وضع الإنسان ذاته للكشف عن إشاراتها التي يستقبلها المتلقي.

وباعتبار تلك الإشارات لغوية تسمو على لغة الخطاب المألوف لدى الإنسان، إذ تتميز بالتأثير عليه لضمان تواصله مع النص، فإن أولى المناهج النقدية للكشف عن تلك الإشارات من المناسب أن يكون مستمدا من الأدوات اللغوية ذاتها من ناحية، ومن الأدوات البلاغية التي ترصد التأثير على المتلقي من ناحية أخرى.

ومما لا شك فيه أن الإنسان يعيش في بيئة يتأثر بها ويؤثر فيها، فعندما يصدر هذا الإنسان نصا أدبيا يصبح النص متأثرا أيضا ببيئته والعوامل المؤثرة في صدوره، ولهذا يمكننا أن نضيف إلى الأدوات اللغوية والأدوات البلاغية أدوات تهتم برصد ملابسات النص وما يحيط به.

فنحن إذن في رحلتنا مع النصوص الأدبية بإزاء أدوات منهجية مستمدة من اللغة بفروعها، والبلاغة بفروعها، وأدوات تكشف عن ملابسات النص.

وإذا تأملنا هذا المنهج المفترض نكون قد ارتمينا في أحضان المنهج الأسلوبي النقدي الذي يجمع كل ما سبق في بوتقة تهدف إلى الكشف عن الإشارات التي تصل بين النص ومرسله، وبين مستقبله لتحقيق الغاية من الأدب في ضمان التواصل بين الإنسان والإنسان ليكمل مسيرته في الحياة.

وباعتبار النصوص الدينية من أرقى النصوص الأدبية، مع التسليم بأن النص القرآني أرقى وأعظم تلك النصوص على الإطلاق " نرجو ألا نكون قد جاوزنا الصواب حين نذهب إلى أن المنهج الأسلوبي هو من أقدر المناهج على تناول النص القرآني تناولا لغويا وبلاغيا بما يمكن أن يعد تطويرا معتبرا ومشروعا للدرس التراثي القديم "[14]

وبهذا الاعتبار فإن قدرة الدرس الأسلوبي على الكشف عن دلالات النص القرآني تكشف لنا عن صلاحيته في الكشف عن دلالات النصوص الأدبية – الأقل رقيا بالطبع – مقارنة بالمناهج الأخرى.

وربما ينخدع المتأمل في الحركة النقدية الحديثة خاصة المنهج الأسلوبي في اعتباره خلاصة نشاط غربي صرف وفد إلينا بما يصادر أي جهد نقدي للقدماء من أمتنا، ولهذا نستطيع أن نحيل إلى الجهد المبارك الذي قام به أساتذتنا[15] في الكشف عن الأدوات المنهجية التي تتقاطع مع الدرس الأسلوبي الحديث عند العديد من اللغويين والبلاغيين والنقاد العرب القدامى في مختلف مؤلفاتهم، وتطبيق تصوراتهم المنهجية على مختلف النصوص من النثر والشعر، وكان أعظم ما تناوله القدماء من تلك النصوص النص القرآني.

وحسبنا أن تكون هذه الدراسة استكمالا لجهد أساتذتنا في ترسيخ جذور الدرس الأسلوبي عند القدماء من السلف خاصة عند الزركشي كما يظهر لنا من كتابه البرهان.

وهذا لا يعني أننا نذهب إلى نشأة الدرس الأسلوبي في ظل التراث دون اعتبار للوافد الحديث، بل ما نعنيه أن لكل أدواته المنهجية التي قد تتفق أو تفترق، ونسلم بأن جذور الأسلوبية وإرهاصاتها قد وجدت عند العديد من النقاد واللغويين والبلاغيين القدامى من علمائنا الأجلاء وزخرت مكتبة التراث بأعمالهم النظرية والتطبيقية.

وإذا اعتبرنا أن الإنسان نشأ في جماعة يتواصل معها وتتواصل معه للقيام برسالته كإنسان، فإن ما تنتجه قريحته في مختلف بقاع الأرض وعلى مر العصور من علوم وآثار أدبية ليست لإنسان دون آخر، ولهذا لا يجب علينا إهمال ما أنتجته قريحته وخبرته من مناهج " لكن ما ينبغي أن نستحضره دائما إنما هو ضرورة

[14] محمد و الفتح ، د. طارق سعد شلبي ، ص١٧ ، دار الفردوس ، القاهرة ، ٢٠٠١

[15] انظر على سبيل المثال ، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ، و البلاغة و الأسلوبية ، و جدلية الإفراد و التركيب ، و البلاغة العربية قراءة أخرى للدكتور محمد عبد المطلب ، الدرس التطبيقي في النقد العربي للدكتور طارق سعد شلبي ، الأسلوبية و البيان العربي للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، و الدكتور محمد فرهود ، و الدكتور عبد العزيز شرف

الاستحصاد المنهجي، والتذرع بأدوات التحليل العلمي التي تصبح بمجرد الاهتداء إليها في لغة من اللغات ملكا للإنسانية بأجمعها، ووسيلة من وسائل رقيها وتقدمها، ولا ينفعنا في شيء أن نعمى عنها أو نتجاهلها بدعوى الوفاء لتراثنا "[16]

ومن هذا المنطلق عمدنا إلى أن تكون هذه الدراسة قراءة راصدة في كتاب البرهان في علوم القرآن تربط بين النتائج التي انتهى إليها الكتاب قديما، ومنجزات الدرس الأسلوبي حديثا، كما نرصد تصور الزركشي للدرس الأسلوبي خاصة فيما قدمه من محاولات تهدف إلى الكشف عن أسلوب عام القرآن الكريم بكل مستوياته بغرض فهم مراد الله منه من ناحية، وتمييزه عن أي نص آخر من النصوص من ناحية أخرى.

ومن هذا المنطلق، فإن هذه الدراسة تقوم على رصد قضايا الأسلوب في كتاب البرهان وتحليلها عن طريق رصد مكونات الأسلوب العام للقرآن الكريم كما أوضحه الزركشي وتحليلها مع رصد أدوات يمكن أن تفيدنا في الدرس الأسلوبي الحديث.

ومن ثم فإن المنهج المتبع في هذه الدراسة المتواضعة ينبع من معطيات الدرس الأسلوبي الحديث، وهو قائم على الاستقراء والتحليل، فيرصد القضايا المختلفة التي تضمنها كتاب البرهان، ويعمد إلى تصنيفها والكشف عن أبعادها من خلال الإفادة من التطور الذي شهده الدرس اللغوي والبلاغي والنقدي الحديث.

فبداية عمدنا إلى القراءات الأول لكتاب البرهان بطريقة شمولية وأعقب تلك القراءات قراءة متأنية راصدة قضايا الأسلوب وظواهره ظاهرة ظاهرة، وبعد رصد وترتيب تلك الظواهر حددت كل ظاهرة وأفرد لها فصلا من فصول الدراسة للكشف عن أبعادها عند الزركشي على أن ترتيب الفصول حسب الظواهر وليس حسب ترتيب ورودها في أجزاء البرهان، وكان ذلك الترتيب منطقيا بحيث بدأ بالظواهر الإفرادية منتهيا بالظواهر التركيبية وذلك في الفصل الأول من الدراسة، فجاءت الظواهر الصوتية في المبحث الأول، ورصد فيه تصور الزركشي لمخارج الأصوات وصفاتها، ودلالة الصوت ودلالة تكراره، وختم بتجليات الدرس الصوتي عند الزركشي من خلال تناوله للقراءات، وجاءت الظواهر الصرفية في المبحث الثاني، ورصد فيه تصور الزركشي لأهمية الصيغ الصرفية في الكشف عن الدلالة في النص القرآني، والفروق الدلالية بين تلك الصيغ، وختم هذا المبحث بالعدول الصرفي ودلالة ذلك العدول، ووصل بالتصور الحديث لقضية العدول الصرفي، وجاءت الظواهر التركيبية في المبحث الثالث، ورصد فيه العلاقات التركيبية

[16] علم الأسلوب ، د. صلاح فضل ، ص٧ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٨

المختلفة كالعلاقة الترتيبية سواء النحوية أو المنطقية، وتصور الزركشي لوحدة التركيب واكتماله في النص، كما رصد فيه علاقة التركيب بالدلالة متناولا دلالة الذكر والتكرار، ورصد فيه أيضا القوالب التركيبية ودلالاتها كتراكيب الشرط والوصف والعطف والبدل، وختم هذا المبحث بتصور الزركشي للعدول التركيبي ودلالاته من خلال الالتفات والحذف والزيادة والتقديم والتأخير والاعتراض، وجاءت الظواهر الدلالية في المبحث الرابع، ورصد فيه تجليات الدرس الدلالي عند الزركشي من خلال تناوله لقضية التفسير والتأويل، ورصدت العلاقات الدلالية القائمة بين مفردات النص وتراكيبه كالتناسب والطباق والمقابلة، ورصدت أدوات الزركشي في استخراج الدلالة، ثم أقسام الدلالة وما تناوله من الدلالات الكلية والجزئية، وأعقب بتصور الزركشي للتعدد الدلالي في النص القرآني على مستوى الآية أو المفردات، وأعقب ذلك بالفروق الدلالية بين المفردات، ورصد العدول الدلالي وأسبابه، وختم هذا المبحث بالسياق وأنماطه ودلالته في النص، وجاءت الظواهر التصويرية في المبحث الخامس، ورصد فيه الصورة الجزئية من التشبيه والاستعارة والكناية، والصورة الكلية الجامعة بين الصور الجزئية وتناول الزركشي للتمثيل وربط ذلك كله بالدلالة في تصور الزركشي مع رصد إفادته من البلاغيين القدامى .

وجاء الفصل الثاني كاشفا عن تصور الزركشي لوحدة النص عموما ووحدة النص القرآني خصوصا وذلك على المستويين النظري والتطبيقي، ووصل ذلك التصور بقضية وحدة النص في التصور الحداثي لها، واتسم الكشف عن تصور الزركشي لوحدة النص برصد القضايا التي تفضي إلى وحدة النص القرآني ومن ذلك قضية موهم الاختلاف، وبرصد الإجراءات العملية التي اتخذها الزركشي في هذا الصدد من رصد لسمات النص، ورصد عدة أنماط للتناسب بين أجزائه بما يفضي إلى التناسب العام بينها باعتبارها سمة أساسية من سمات النص القرآني، ورصد تفسير الزركشي للنص بالنص ودور التكرار والمقارنة باعتبارها إجراءات عملية اتخذها الزركشي توضح تلك الوحدة، وتناول الفصل الثالث قضايا التلقي عند الزركشي، ورصدت صور التلقي من تلقي سمعي وبصري وربط الزركشي بين تلك الصور والدلالة في النص، ورصد تصوره للعلاقة بين المتلقي والنص التي اتسمت عنده بالتجاوب والتأثير، مع رصد أحوال التلقي ودرجاته وتصوره مراعاة أحوال المتلقي، وختمت الدراسة بالكشف عن الأدوات المنهجية –وذلك في الفصل الرابع - التي تسلح بها الزركشي في رحلته للكشف عن الدلالة في النص القرآني وتناوله لقضايا الأسلوب، ووصلت تلك الأدوات بما يتفق أو يفترق مع الأدوات المنهجية الحداثية بهدف ترسيخ جذور تلك الأدوات في تراثنا من ناحية، والكشف عن أدوات قد تفيدنا في الدرس الأسلوبي الحديث من ناحية

أخرى، ومن أهم تلك الأدوات اعتماد الزركشي للجمع بين مستويات الأسلوب كما رصدناها عند الزركشي في تصوره الشامل لتلك المستويات مجموعة خلال تناوله للنص القرآني بالتحليل وذلك على المستويين النظري والتطبيقي بما يعبر عن وحدة الأسلوب عنده فجاء تحت عنوان وحدة الأسلوب.

ورصد في تلك الأدوات اعتماده للإحصاء والتقسيم والاستدلال وعرض الآراء والتنظير والتطبيق والبحث في ملابسات النص وما يحيط به.

ومن أهم ملامح المنهج الحرص على أن يكون الرصد والتحليل في إطار كتاب البرهان دون أن نقحم فيه ما لم يتطرق إليه الزركشي مما توصل إليه الدرس الأسلوبي الحديث، وهذا لا يعني أن الأدوات المنهجية معدة بالفعل، بل نتناول منها ما يأتي مناسبا للكتاب موضوع الدراسة.

هذا وقد اعتمدنا على النسخة المحققة من قبل د. محمد متولي منصور لكتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي لما اعتمده المحقق من منهج علمي بدأ من حيث انتهى د. محمد أبو الفضل إبراهيم في نسخته المحققة للكتاب، وذلك بمزيد من التنقيح من خلال المعارضة بين المخطوطات المختلفة للكتاب بطريقة أوسع وأشمل، علاوة على إرجاعه للنصوص التي أوردها الزركشي لأصحابها وذكر مصادرها الأصلية.

الفصل الأول

مستويات الأسلوب

المستوى الصوتي

شغل الصوت اللغوي حيزا كبيرا من الدراسة والاهتمام من قبل القدماء والمحدثين، وقد كان هذا الاهتمام بالصوت اللغوي من عدة جوانب: منها الكشف عن صفات الصوت ومخرجه[1]

وكان من أبرز جوانب الاهتمام بالصوت اللغوي ذلك الجانب الذي يُعنى بربط الصوت بالدلالة في النص " وقد ظهر جليا أن القدماء لم يتعاملوا مع ملامح المستوى الصوتي ومكوناته بوصفها مظاهر شكلية خالصة، بل كان الأمر على النقيض؛ إذ صادفنا عناية واضحة بالجانب الدلالي، وهي عناية بلورت أن ثمة تلازما استشعره القدماء بين الجانب الصوتي للفظ وما يحمله من دلالة "[2]

مخارج الأصوات وصفاتها

ورد في ثنايا البرهان خلال تناول الزركشي الحروف المقطعة وصف عام لصفات بعض الأصوات ومخارجها، وهو ما يظهر من إيراده مقولة للزمخشري " ثم تجدها مشتملة على أصناف أجناس الحروف المهموسة والمجهورة والشديدة والمطبقة والمستعلية والمنخفضة وحروف القلقلة "[3]، ثم يعلق على تلك المقولة موردا باقي صفات تلك الأصوات " وبقى عليه من الأصناف الشديدة المنفتحة، وقد ذكر تعالى نصفها، أما حروف الصفير فهي ثلاثة ليس لها نصف، فجاء منها السين والصاد ولم يبق إلا الزاي، وكذلك الحروف اللينة ثلاثة ذكر منها اثنين: الألف والياء، أما المكرر وهو الراء، والهاوي وهو الألف، والمنحرف وهو اللام فذكره ولم يأت خارجا عن هذا النمط إلا ما بين الشديدة والرخوة، فإنه ذكر فيه أكثر من النصف، وهذا التداخل موجود في كل قسم قبله ولولاه لما انقسمت هذه الأقسام كلها

[1] راجع بيان المقصود من الحرف و الحديث عن المخرج و اختلاف خصائص الصوت باختلاف المخرج – سر صناعة الإعراب، ابن جني ،ص٣ ،و ما بعدها ، ت د . حسن هنداوي ، جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، القصيم ، المملكة العربية السعودية ، د.ت

[2] جماليات الصوت و خصائص الصورة في القرآن الكريم ، د. طارق سعد شلبي ، ص٢٨ ، القاهرة ، ١٩٩٩

[3] البرهان ، ص١٩٤ ، ج ١

ووهم الزمخشري في عد حروف القلقلة، إنما ذكر نصفها، فإنها خمسة ذكر منها حرفان: القاف والطاء "[4]

ويورد وصفا لبعض الأصوات التي تكررت في الحروف المقطعة في النص القرآني منها: الألف واللام والميم، أو "ألم" ذاكرا أن مخارج تلك الأصوات أصل لمخارج الأصوات الأخرى على حد قوله " الألف إذا بدئ بها أولا كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف، ومخرجها من الفم، وهذه الثلاثة أصل مخارج الحروف أعني الحلق واللسان والشفتين.....

والهمزة من الرئة فهي أعمق الحروف، واللام مخرجها من طرف اللسان ملصقة بصدر الغار الأعلى من الفم[5]، فصوتها يملأ ما وراءها من هواء الفم، والميم مطبقة، لأن مخرجها من الشفتين إذا أطبقت، ويرمز بهن إلى باقي الحروف "[6]

وبصرف النظر عن مدى توافق وصف الزركشي لمخارج الأصوات أو صفاتها مع الوصف المعملي الحديث، فإن الزركشي لم يهتم بالأصوات وصفاتها فحسب، بل تحدث عن نوع من أنواع التقابل في تلك الصفات بين صوتين اجتمعا في تركيب ليس له دلالة من الناحية المعجمية – نقصد بذلك الحروف المقطعة – دون ذكر دلالة ذلك الاجتماع " وتأمل اقتران الطاء والسين والهاء – يقصد في " طه" و " طس" – فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها، وهي الجهر[7]، والشدة والاستعلاء والإطباق والإصمات، والسين مهموس رخو مستفل صفير منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء، فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف "[8]

وقد كان حديث الزركشي عن الأصوات في بداية السور حديثا صوتيا خالصا غير منشغل بالدلالة، لكن هذا الدرس الصوتي الخالص لم يكن سمة مطردة عن حديث الزركشي عن الأصوات ومن مظاهر ذلك علاقة الصوت المفرد بالتركيب في سياق النص القرآني، فللصوت المفرد علاقة قوية بالتركيب عند

[4] البرهان ، ص١٩٤ ، ج١

[5] لم يتفق وصف الزركشي لصوت اللام مع الدرس المعملي الحديث اتفاقا كليا ، فصوت اللام ينطق بأن يتصل طرف اللسان باللثة و ليس بصدر الغار كما قال الزركشي ، انظر في وصف صوت اللام ، المدخل إلى علم اللغة ، د. رمضان عبد التواب ، ص٤٧ و ما بعدها ، الخانجي ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٧

[6] البرهان ، ص١٩٦ ، ج١

[7] اختلف علماء اللغة المحدثون في وصف الطاء مع العلماء القدامى ، و كان وجه الاختلاف في أن القدماء وصفوا الطاء بالجهر كما فعل الزركشي ، في حين أثبتت التجارب المعملية الحديثة أن الطاء صوت مهموس ، و أرجع البعض ذلك الاختلاف بين القدماء و المحدثين إلى التطور الصوتي كما هو الحال مع بعض الأصوات الأخرى التي اختلف المحدثون و القدماء في وصفها ، انظر ما كتبه د. رمضان عبد التواب في كتابه المدخل إلى علم اللغة " بيننا و بين القدماء في وصف بعض الأصوات " ، ص٦٢ ، و ما بعدها

[8] البرهان ، ص١٩٧ ، ج١

الزركشي، وتتجلى تلك العلاقة في تأثير ذلك الصوت في ترتيب المفردات داخل التركيب، فمن خلال تناول الزركشي لأحد ظواهر التركيب وهو التقديم والتأخير نجد أنه يرصد عدة مظاهر تؤثر في ترتيب المفردات داخل التركيب، ما يهمنا منها هنا هو الصوت المفرد، فيذهب في البرهان إلى أن خفة اللفظ لها تأثير في ذلك الترتيب، وقد أرجع تلك الخفة كما اتضح من تناوله للتراكيب بصورة تطبيقية إلى توالي الحركات، وكيفية تواليها، وكان الداعي عنده في تقديم لفظ على آخر بصورة دائمة في الاستعمال اللغوي هو تأثير توالي الحركات، فالسبب " الرابع والعشرون (من أسباب التقديم والتأخير): خفة اللفظ كما في قولهم: ربيعة ومضر، مع أن "مضر" أشرف لكون النبي صلى الله عليه وسلم منهم؛ لأنهم لو قدموا "مضر" لتوالي حركات كثيرة، وذلك يثقل، فإذا قدموا "ربيعة" ووقفوا على "مضر" بسكون الراء نقص الثقل لقلة الحركات المتوالية "[9]

من اللافت للنظر أن إرجاع الزركشي للتقديم والتأخير هنا – وقد افترض ترتيبا معينا لأسبقية مضر على ربيعة – لتوالي الحركات بكثرة مع ما ذكره من الوقوف على "مضر" بسكون الراء لتخفيف الثقل من توالي الحركات؛ فهذا الإرجاع يوجهنا إلى المقاطع الصوتية[10] للكلمات فـ"مضر وربيعة" تتكون من خمسة مقاطع صوتية مفتوحة من النوع الأول " مُـ ضُـ رُ وَ رَ"، ثم مقطع مفتوح من النوع الثاني " بيـ"، ثم مقطع مغلق من النوع الثالث " عَـلْ"، أما الترتيب الثاني " ربيعة ومضر" فيتكون من مقطع مفتوح من النوع الأول " رَ"، ثم مقطع مفتوح من النوع الثاني " بيـ"، ثم أربعة مقاطع مفتوحة من النوع الأول " عَـ هُ وَ مُـ "، ثم مقطع مغلق من النوع الثالث " ضُـر"، ومن هذا الترتيب الثاني الذي أشار إليه الزركشي من تأخير "مضر" نجد أن القصد كان تخفيف توالي ثلاث حركات متجانسة – الضمة – إلى حركتين متجانستين وسكون.

ونلاحظ أن التقديم والتأخير قد منع توالي خمسة مقاطع من النوع الأول ليجعلها أربعة مقاطع فقط، وذلك باستبدال مقطع مغلق من النوع الثالث بمقطع مفتوح من النوع الأول، وبهذا نرى مدى اقتراب الزركشي من الدرس اللغوي الحديث عندما نطالع آراء علماء اللغة المحدثين في أن " اللغة العربية في تطورها تميل إلى التخلص من توالي النوع الأول "[11] ، أي النوع الأول من المقاطع الصوتية.

---

[9] البرهان ، ص٢٦٩ ، ج٣

[10] انظر المقصود بالمقاطع الصوتية على سبيل المثال : المدخل إلى علم اللغة ، د. رمضان عبد التواب ، ص ١٠١ ، و ما بعدها

[11] الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ، ص١٣٥ ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٩

وبصورة أوضح نجد أن الأصوات المفردة المتقاربة المخرج عند الزركشي تؤثر في ترتيب المفردات داخل التركيب، وذلك الترتيب يفرضه النحو، فكان الصوت المفرد هو الموجب لفض ذلك الترتيب النحوي داخل التركيب إلى ترتيب نحوي آخر مناسب للصوت، على حد ما فهمناه من تناول الزركشي للآيات بصورة تطبيقية " ومنه قوله تعالى ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ ﴾[12] ، فإنه نشأ في الآية سؤال وهو أن الترتيب في الجمل الفعلية تقديم الفعل وتعقيبه بالفاعل ثم المفعول، فإن كان في الكلام مفعولان : أحدهما يُعدى وصول الفعل إليه بالحرف، والآخر بنفسه قدم ما تعدى إليه الفعل بنفسه، وعلى ذلك جاء قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم ﴾[13] ، إذا ثبت هذا فقد يقال: كيف تُوخي حسن الترتيب في عجز الآية دون صدرها ؟، والجواب أن حسن الترتيب منع منه في صدر الآية مانع أقوى، وهو مخافة أن يتوالى ثلاثة أحرف متقاربات المخرج – الظاهر إنه يقصد أصوات الطاء والتاء والياء- فيثقل الكلام بسبب ذلك، فإنه لو قيل " لئن بسطت يدك إلى" ، والطاء والتاء متقاربة المخرج، فلذلك حسن تقديم المفعول الذي تعدى الفعل إليه بالحرف على الفعل الذي تعدى عليه بنفسه، ولما آمن هذا المحذور في عجز الآية لما اقتضته البلاغة من الإتيان باسم الفاعل موضع الجملة الفعلية ....."[14]

ومن الجدير بالذكر أن الثقل الناتج عن توالي ثلاثة أصوات متقاربة المخرج هي الطاء والتاء والياء[15] - نظن أن الزركشي يقصد هذه الأصوات – ذلك الثقل الذي جعله الزركشي مؤثرا في ترتيب المفردات داخل التركيب في النص القرآني – بصرف النظر عن مدى قرب مخرج صوت الياء الصامت من مخرج صوت الطاء أو صوت التاء – قد تناوله القدماء والمحدثون من علماء اللغة بالدراسة تحت عدة مسميات، وكان ذلك التناول في كثير من الأحيان يدرس من خلال تأثير الأصوات المتقاربة المخرج أو الصفات في بعضها البعض تحت اسم المماثلة[16] أو الإبدال أو غيرهما " غير أن الذي نود أن نؤكده هنا، ولا نمل من تأكيده أبدا حتى يصبح من المفاهيم البدهية لدى الدارسين – هو ضرورة وجود علاقة صوتية بين الصوتين المتجاورين ليتم التأثير إبدالا أو مماثلة، هذه العلاقة ترجع إلى اعتبارين أساسيين:

---

[12] المائدة ، الآية ٢٨

[13] الفتح ، الآية ٢٤

[14] البرهان ، ص٣٧٣ ، ج٣

[15] صوت الياء الصامت صوت غاري بينه و بين مخرج الطاء و التاء الأصوات اللثوية ، فليس قريبا منهما لهذا الدرجة فربما أخطأ الزركشي في عده متقاربا من الطاء و التاء في المخرج ، أو ربما اعتبره متقاربا معهما إذا ما قورن بمخرج الهمزة من حرف الجر " إلى" في التركيب المعدول إليه في الآية الكريمة

[16] انظر ما كتبه د. أحمد مختار عمر عن المماثلة الكاملة في كتابه دراسة الصوت اللغوي ، ص٣٨٧ و ما بعدها ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧

الأول: تقارب المخرج أو اتحاده، والثاني: كون الصوتين من مجموعة واحدة من الصوامت أو الحركات، فلا يمكن أن يؤثر صوت في آخر بعيد عنه مخرجا "[17]

وعلى هذا النحو فإننا نستطيع أن نقر للزركشي فطنته لما يحدث للأصوات المتقاربة من تغيير أو تبديل عن طريق ذلك التأثير الذي أقره علماء اللغة، أما الثقل الصوتي الذي أثر في ترتيب المفردات داخل التركيب – كما رصده الزركشي – فيمكننا أن نرجعه ببساطة إلى ميل الإنسان إلى تخفيض الجهد العضلي عند عملية النطق، وهو ما تناقله علماء اللغة في العصر الحديث وعزوا إليه العديد من الظواهر اللغوية " ولهذا نجد بعض اللغويين ينظرون إلى التطور اللغوي – بصورة عامة – على أنه نتيجة الصراع المستمر بين حاجات الإنسان الاتصالية، وميله إلى خفض نشاطه العضلي والعقلي "[18]

فإذا سلمنا بتأثير الأصوات المتقاربة في المخرج أو الصفات في بعضها البعض لتخفيف الجهد العضلي في عملية النطق، فإن الثقل الصوتي الذي أورده الزركشي يفسر ذلك الاقتصاد في الجهد العضلي أو الرغبة في تخفيفه خلال عملية النطق، أو بمعنى آخر إن الثقل الصوتي نابع من الجهد العضلي في عملية نطق الطاء الساكنة ثم التاء التي اعتبرها اللغويون النظير المرقق لها أو متحدة معها في كثير من الصفات، ثم الياء الصامتة القريبة المخرج منهما مقارنة بصوت الهمزة، وكان هذا الترتيب من الأصوات بهذه الكيفية متطلبا لجهد عضلي كبير، ولهذا تم العدول بالتقديم والتأخير في المفردات من " بسطت يدك إلي "، إلى ﴿ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ ﴾ لتلافي هذا الجهد أو تخفيفه على حد ما أورده الزركشي خاصة أن صوت الهمزة أبعد مخرجا من صوت الياء فلا يستدعي هذا الثقل.

وليس الهدف من استقراء النصين السابقين وما سبقهما من نصوص وردت في ثنايا البرهان الإدعاء بعلم الزركشي بعلم الأصوات، بل تحركه من صفات الأصوات ومخارجها صوب التأثير الذي يحدثه الصوت في التركيب أو علاقته بـ من ناحية، والكشف عن الأساس الذي انطلق منه الزركشي لربط تلك الأصوات بالدلالة في النص القرآني من ناحية أخرى.

17 المنهج الصوتي للبنية العربية ، د. عبد الصبور شاهين ، ص٢١١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠
18 دراسة الصوت اللغوي ، د. أحمد مختار عمر ، ص٣٨٦

الصوت والدلالة

بدا لنا فيما مر تناول البرهان للصوت من حيث مخرجه وصفاته من ناحية، وعلاقة ذلك الصوت ببعض مظاهر التركيب من ناحية أخرى، ولعل أبرز ما ورد في البرهان من تناول للصوت ذلك الذي تعلق بالدلالة في النص القرآني، فصفات الصوت تمثل – في رأينا – نواة ينطلق منها الزركشي للكشف عن دلالة الصوت المفرد من ناحية، وعلاقته بالسياق العام للسورة أو الدلالة الكلية في النص القرآني من ناحية أخرى، فقد ربط الزركشي خلال بحثه عن سر الحروف المقطعة في النص القرآني بين صفات تلك الأصوات مجتمعة في " ألم " وبين الدلالة، فخلع صفات مخارجها من بداية المخارج للألف، ونهاية المخارج للميم، والتوسط بينهما للام على دلالة البداية والنهاية والتوسط بينهما، وذلك في النص القرآني خاصة في السور التي بدأت بـ" ألم" ، " فهذه الحروف تعتمد المخارج الثلاثة التي يتفرع منها ستة عشر مخرجا ليصير منها تسعة وعشرون حرفا عليها مدار كلام الخلق أجمعين مع تضمنها سرا عجيبا، وهو أن الألف للبداية، واللام للتوسط، والميم للنهاية، فاشتملت هذه الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما، وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف فهي مشتملة على مبدأ الخلق ونهايته وتوسطه مشتملة على خلق العالم وغايته وعلى التوسط بين البداية من الشرائع والأوامر؛ فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة وسورة الروم "[19]

ولم يفطن الزركشي إلى دلالة الصوت المفرد فحسب، بل فطن إلى دلالة تكرار هذا الصوت، وربط ذلك التكرار بالدلالة في سياق السورة، واستقى تلك الدلالة من صفات ذلك الصوت، فمن خلال تناوله للحروف المقطعة نجد أنه قد ربط بين الصوت المفرد خاصة المتكرر في سياق السورة، وبالطبع كان هذا الربط نابعا من صفات ذلك الصوت الذي اعتبرناه نواة الانطلاق للكشف عن إسهامات الصوت الدلالية

فصوت القاف المتكرر في سورة " ق " الذي يتصف بالشدة والجهر والقلقلة والانفتاح - على حد تعبير الزركشي – يصبغ الدلالة في السورة بتلك الصفات " وتأمل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك: ﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾[20] ، فإن السورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن، ومن ذكر الخلق، وتكرار القول ومراجعته مرارا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد، وذكر الرقيب، وذكر السابق

19 البرهان ، ص١٩٧ ،ج١
20 ق ، الآية ١ ، و الزركشي يقصد بهذه الآية سورة "ق"

والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرن، والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل والرزق، وذكر القوم وخوف الوعيد وغير ذلك، **وسرا آخر وهو أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح**[21]"

ولم يرتبط الصوت المفرد في البرهان بالدلالة في النص القرآني على مستوى السورة فحسب، بل ارتبط أيضا بالدلالة المعجمية للمفردات، أو بمعنى آخر كان الصوت المفرد أحد المظاهر الكاشفة عن الفروق الدلالية بين المفردات، فقد انطلق الزركشي من صفات الصوت المفرد خاصة الأصوات المشتركة في بعض صفاتها إلى الفروق الدلالية بين المفردات في النص القرآني، فلنتأمل قوله في البرهان " فصل في حروف متقاربة تختلف في اللفظ لاختلاف المعنى مثل :﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾[22] ،

﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾[23] ،﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[24] ،و﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾[25] ، فبالسين السعة الجزئية كذلك علة التقييد، وبالصاد السعة الكلية بدليل علو معنى الإطلاق وعلو الصاد مع الجهارة والإطباق، وكذلك ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ ﴾[26] ، و ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ ﴾[27] ،﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾[28] ،﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾[29] ، فبالسين ما يحصر الشيء خارجا عنه، وبالصاد ما تضمنه منه ..... وهذا الباب كثير يكفي فيه اليسير "[30]

ومن النص السابق يتضح لنا كيف استقى الزركشي دلالة " بصطة ، يبصط " بصوت الصاد على السعة الكلية من صفات صوت الصاد نفسه من الجهارة

21 البرهان ، ص١٩٨ ،ج١
22 البقرة ، الآية ٢٤٧
23 الأعراف ، الآية ٦٩
24 الرعد ، الآية ٢٦
25 البقرة ، الآية ٢٤٥
26 البقرة ، الآية ٢٣
27 الانفطار ، الآية ٨
28 الحديد ، الآية ١٣
29 يس ، الآية ٥١
30 البرهان ، ص٤٦٦ ، ج١

والإطباق والعلو مقارنة بصوت السين الذي يفتقر إلى هذه الصفات، فكان لهذا الافتقار الدلالة على السعة الجزئية

ومن اللافت للنظر من عنوان الفصل " حروف متقاربة تختلف في اللفظ لاختلاف المعنى " أن الزركشي على أغلب الظن قد تناول تلك الأصوات ليخرج بنتيجة محددة هي أن الأصوات ترتبط بالدلالة، ولا يعني اقترابها في الصفات أو الاتحاد فيها؛ الاتحاد في الدلالة داخل النص من ناحية، وارتباط الصوت المفرد بالدلالة من ناحية أخرى، وربما تكون إشارته الأخيرة " هذا الباب كثير يكفي فيه اليسير " موضحة لما ذهبنا إليه

الدرس الصوتي في القراءات

انطوى تناول الزركشي للقراءات المختلفة للنص القرآني على العديد من الظواهر الصوتية التي قام بتطبيقها على تلك القراءات، فالاختلاف بين القراءات – كما رصدناه عند الزركشي – يندرج جزء منه تحت الاختلاف بين الأصوات، وهو ما يظهر من تعريف الزركشي للقراءات فـ " هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف، أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما "[31]

وأول ما نصادفه من أثر الاختلاف الصوتي على اختلاف القراءات هو المد وكيفيته، فتقدير المد وكيفية أدائه يعد من الفوارق بين القراءات السبع من حيث طول المد أو قصره أو المبالغة فيهما، ويتراوح أداؤه بين مد الصامت بثلاث حركات إلى اثنتي عشرة حركة، أو ألف ونصف إلى ست ألفات على حد تعبير الزركشي " اختلف القراء في تقدير المد، فمنهم من رآه قصيرا، ومنهم من بالغ في القصر، ومنهم من تزايد، فحمزة وورش بمقدار ست ألفات، وقيل: خمس، وقيل: أربع، وعن عاصم ثلاث، وعن الكسائي ألفان ونصف، وقالون ألفان، والسوسي ألف ونصف .....

فعلم بهذا أن أصل المد متواتر، والاختلاف والطرق إنما هو في كيفية التلفظ به"[32]

ويرصد الزركشي أثر الإمالة وكيفيتها في أداء النص القرآني مما استتبع اختلاف القراءات، وانطواء الإمالة على التأرجح بين الفتحة والكسرة، أو بين الألف

31 البرهان ، ص٣٥٨ ، ج١
32 البرهان ، ص٣٥٩ ، ج١

والياء ينتج عدة أصوات، وهو ما يظهر من تكوين تلك الأصوات بالمزج بين صوتي الفتحة والكسرة، وتكون تلك الأصوات المكونة منهما متجانسة معهما من حيث اعتبارها كلها صوائت أنتجت صوائت من ناحية، والقرب في الصفات بين صوتي الفتحة والكسرة أو القرب في الصفات بين صوتي الألف والياء من ناحية أخرى " ذكر القراء أن الإمالة قسمان: إمالة محضة، وهي أن ينحى بالألف إلى الياء، وتكون الياء أقرب، وبالفتحة إلى الكسرة وتكون الكسرة أقرب، وإمالة تسمى بين بين وهي كذلك إلا أن الألف والفتحة أقرب، وهذه أصعب الإمالتين وهي المختارة عند الأئمة، ولا شك في تواتر الإمالة أيضا، وإنما اختلافهم في كيفيتها مبالغة وحضورا "[33]

ومن النص السابق نجد أن هناك ربطا بين صوت الفتحة وصوت الألف، وربطا بين الكسرة وصوت الياء مما يلفت إلى تكوّن الألف والياء من الفتحة والكسرة

وفي إشارة الزركشي إلى أن الإمالة بين بين أصعب الإمالتين من حيث الخروج من الألف نحو الياء بما يقربها من الألف نقترب من تصور الزركشي للأصوات من حيث صعوبة الانتقال بين مخارج الأصوات القريبة المتجانسة من حيث إن الصوتين من الصوائت

وما أشار إليه الزركشي يندرج تحت تأثير أصوات اللين في بعضها البعض من حيث القرب من الكسرة أو من الفتحة، وهذا يحدث تفاعلا بين الأصوات ينتج عنه عدة أصوات، وهو ما أقره علماء اللغة لأنه " يحدث بين الأصوات المتجاورة والمتقاربة في الكلمة من ظواهر التفاعل أنواع كثيرة يؤدي كل منها إلى نتائج ذات بال في التطور الصوتي "[34]

هذا وللإمالة غرض آخر نستشفه من اعتبار الزركشي الإمالة وسيلة من وسائل التناسب الصوتي بين فواصل النص القرآني " والإمالة أن تنحو بالألف نحو الياء، والغرض الأصلي منها التناسب .....

---

[33] البرهان ، ٣٦١ ، ج١

[34] علم اللغة ، د. علي عبد الواحد وافي ، ص٢٩٨ ، نهضة مصر ، ط١٠ ، القاهرة ، ١٩٩٧

كألف " تلا" في قوله تعالى ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾[35] ، فأميلت ألف ﴿تَلَىٰهَا﴾ ليشاكل اللفظ بها اللفظ الذي بعدها مما ألفه غير ياء نحو ﴿جَلَّىٰهَا﴾[36] ،﴿يَغْشَىٰهَا﴾[37] ، "[38]

ويرصد الزركشي في تخفيف الهمزة أربع وسائل لتلافي الجهد العضلي المبذول في نطق صوت الهمزة، وذلك حسب القراءات ووسيلة كل قراءة في تخفيف الهمزة

أول تلك الوسائل النقل بمعنى نقل حركة الهمزة إلى ما قبلها ومن ثم إسقاطها في مرحلة تالية، ولا يبقى منها إلا حركتها على الصامت قبلها، وهو ما يعبر عن تصور الزركشي لتخفيف الجهد العضلي خلال عملية تلاوة النص القرآني من ناحية، وتصوره للتأثير الذي يحدث بين الأصوات المتجاورة كما يظهر من تحليله لمراحل إسقاط الهمزة من ناحية أخرى[39] " أما تخفيف الهمزة- وهو الذي يطلق عليه تخفيف وتليين وتسهيل أسماء مترادفة – فإنه يشمل أربعة أنواع من التخفيف، وكل منها متواتر بلا شك:

أحدها: النقل، وهو نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها نحو﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾[40] ، بنقل حركة الهمزة، وهي الفتحة إلى دال " قد"، وتسقط الهمزة فيبقى اللفظ بدال مفتوحة بعدها فاء ، وهذا النقل قراءة نافع من طريق ورش في حال الوصل والوقف، وقراءة حمزة في حال الوقف "[41]

أما الوسيلة الثانية لتخفيف الهمزة فعن طريق إبدال الهمزة بحرف مد من جنس حركة الصامت قبلها، وهو ما يعبر عن تأثير الصامت فيما بعده من ناحية، وتحول صوت الهمزة الصامت إلى حركة صائتة من جنس الصائت قبلها، وتلك الوسيلة تميز القراءات عن بعضها البعض من حيث الأصوات وكيفية أدائها " الثاني أن تبدل الهمزة حرف مد من جنس حركة ما قبلها، إن كان قبلها فتحة أبدلت ألفها

---

[35] الشمس ، الآية ٢

[36] الشمس ، الآية ٣

[37] الشمس ، الآية ٤

[38] البرهان ، ص١٠٦ ، ج١

[39] انظر أنواع التأثير بين الأصوات المتجاورة ، الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ص١٤٥ ، و ما بعدها

[40] المؤمنون ، الآية ١

[41] البرهان ، ص٣٦١ ، ج١

نحو " باس "، وهذا البدل قراءة أبي عمرو بن العلاء ونافع عن طريق ورش في فاء الفعل، وحمزة إذا وقف على ذلك "[42]

وقد أشار الدكتور إبراهيم أنيس إلى ذلك حيث ربط بين هذا النوع من التخفيف وبين تلافي الجهد العضلي المبذول في تحقيق الهمزة " وقد مالت اللهجات العربية في العصور الإسلامية إلى تخفيف الهمزة والفرار من نطقها محققة، لما تحتاج إليه حينئذ من جهد عضلي ، فالهمزة المشكلة بالسكون قد تسقط من الكلام ويستعاض عن سقوطها بإطالة صوت اللين قبلها "[43]

أما الوسيلة الثالثة لتخفيف الجهد العضلي المبذول في نطق صوت الهمزة فتتمثل في تحوّل الهمزة إلى صائت من جنس حركتها بما يعبر عن تأثير الصائت في الصامت قبله، وتتميز بتلك الوسيلة معظم القراءات " الثالث: تخفيف الهمزة بين بين، ومعناه أن تسهل الهمزة بينها وبين الحرف الذي منه حركتها، فإن كانت مضمومة سهلت بين الهمزة والواو، أو مفتوحة فبين الهمزة والألف ، أو مكسورة فبين الهمزة والياء، وهذا يسمى إشماما، وقرأ به كثير من القراء وأجمعوا عليه في قوله تعالى﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ ﴾[44] ، ونحوه، وذكره النحاة عن لغات العرب "[45]

وهنا يمكن الإشارة إلى التجانس الذي يحدث بين حركة الهمزة وبين الصائت الناتج عنها من التفاعل بين المتجاورات بهدف المماثلة أو التجانس فـ " الأصوات في تأثيرها تهدف إلى نوع من المماثلة أو المشابهة بينها، ليزداد مع مجاورتها قربها في الصفات أو المخارج، ويمكن أن يسمى هذا التأثير بالانسجام الصوتي بين أصوات اللغة "[46]

أما الوسيلة الرابعة لتخفيف الهمزة فتتضح من إسقاط الهمزة وحركتها إذا تكررت مع حركتها دون فاصل صوتي، وهو ما يعبر عن كراهة تكرار الصوت خاصة إذا كان حلقيا يبذل فيه جهدا عضليا مثل الهمزة " الرابع: تخفيف الإسقاط وهو أن تسقط الهمزة رأسا، وقد قرأ به أبو عمرو في الهمزتين من كلمتين إذا اتفق في الحركة فأسقط الأولى منهما على رأي الشاطبي، وقيل: الثانية في نحو ﴿ جَآ

42 البرهان ، ص٣٦٢ ، ج١
43 الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ، ص٧٨
44 الأنعام ، الآية ١٤٣
45 البرهان ، ص٣٦٢ ، ج٣
46 الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ، ص٧٩

أَجَلُهُمْ ﴾[47] ، ووافقه على ذلك في المفتوحتين نافع عن طريق قالون وابن كثير من طريق البزي "[48]

وهذا الإسقاط للهمزة سببه تخفيف الجهد العضلي المبذول في نطقها خاصة إذا تكررت " وإذا كانت الهمزة المفردة قد احتاجت إلى جهد عضلي جعل اللهجات العربية تفر منها بتسهيلها مرة وسقوطها مرة أخرى، فمما لا شك فيه أن توالي همزتين أشق، ويحتاج إلى جهد عضلي أكثر في نطقها "[49]

ويرصد الزركشي أوجه الاختلاف بين القراءات، وقد حددها في سبعة أوجه، أرجع بعضها إلى الصوت - من حيث النطق أو الرسم في الخط - والدلالة، بمعنى رصد الاختلاف في الأصوات سواء الحركات أو الصوامت، أو الاختلاف في الصوت آخر الكلمة المتمثل في حركة الإعراب، وما يتبع ذلك من تغير في رسم الأصوات ودلالاتها، وهو ما يعبر عن اختلاف الدلالة تبعا لاختلاف الأصوات في القراءات من ناحية، أو ثبات الدلالة بالرغم من تغير الأصوات خلال القراءات من ناحية أخرى

وقبل رصد تلك الأوجه عند الزركشي نود أن نشير إلى أن ربط الزركشي بين الصوت والخط والدلالة من حيث التماثل أو التخالف بين الألفاظ هي محاولة غير مسبوقة للزركشي، وقد وجدنا ذلك عند أحد الدارسين المعاصرين للأسلوب، وهو هنريش بليت[50] الذي رصد في كتابه البلاغة والأسلوبية التماثل والتخالف بين الألفاظ من زاوية ثلاثية، هي الصوت والخط والدلالة من حيث تماثل اثنين ومخالفة الثالث، أو تخالف اثنين مع الثالث وهكذا إلى آخر تلك العلاقات

أما الوجه الأول فيرصد فيه الزركشي الاختلاف في الأصوات الصائتة – سواء في البنية الصرفية للكلمة أو النحوية – مع ثبات الدلالة والرسم في الخط " أن حاصل اختلاف القراء يرجع إلى سبعة أوجه:

الأول: الاختلاف في إعراب الكلمة أو في حركات بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها نحو ﴿بِٱلْبُخْلِ ﴾[51] ، و " البَـــــخَـل "[52] ،

47 النحل ، الآية ٦١
48 البرهان ، ص٣٦٣ ، ج١
49 الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ، ص٧٩
50 انظر ، البلاغة و الأسلوبية ، د. هنريش بليت ، ص٧٨ ، و ما بعدها ، ت . د محمد العمري ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، ١٩٩٩
51 النساء ، الآية ٣٧
52 قراءة حمزة و الكسائي و خلف بفتح الباء و الخاء

، و﴿ مَيۡسَرَةٖ ﴾[53] ، و " مَيۡسُرة "[54] ، و﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ ﴾[55] ، و﴿ هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۚ ﴾[56] ، و " أطهرَ لكم "[57] ،﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾[58] ، " و هل يُجازَى إلا الكفورُ "[59] ، "[60]

ويرصد في الوجه الثاني الاختلاف في الأصوات الصائتة من حيث البنية النحوية بما يغير دلالتها من قراءة لأخرى، ولا يغير رسمها من حيث الخط " الثاني: الاختلاف في إعراب الكلمة في حركات بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها في الخط نحو﴿ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا ﴾[61] ، و" ربُّنا باعَدَ بين أسفارنا "[62] ،﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ ﴾[63] ، و " تلقَونه "[64] ،﴿وَٱذَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ ﴾[65] ، و " بعد أمَة "[66] ، وهو كثير يقرأ به لما صحت روايته ووافق العربية "[67]

ويرصد في الوجه الثالث الاختلاف في الأصوات الصامتة المتشابهة في رسم الخط مع اختلاف الدلالة من قراءة لأخرى حسب الصوت المنطوق والمرسوم فيها " الثالث: الاختلاف في تبديل حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يغير صورة الخط بها في رأي العين نحو ﴿ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ﴾[68] ،"ننشرها"،و﴿ فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾[69] ، " فَزَّعَ عن قلوبهم "[70] ، و ﴿ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ ﴾[71] ، و " يقضي

53 البقرة ، الآية ٢٨٠
54 قراءة نافع بضم السين
55 المجادلة ، الآية ٢
56 هود ، الآية ٧٨
57 قراءة الحسن و عيسى بن عمرو بفتح الراء
58 سبأ ، الآية ١٧
59 قراءة نافع ، و ابن كثير، و أبي عمرو، و ابن عامر، و أبي بكر، و أبي جعفر
60 البرهان ، ص٣٧٦ ، ج١
61 سبأ ، الآية ١٩
62 قراءة يعقوب بصيغة الماضي " باعد"
63 النور ، الآية ١٥
64 قراءة محمد بن السميقع بفتح القاف دون التشديد
65 يوسف ، الآية ٤٥
66 قراءة ابن عباس بفتح الهمزة و الميم دون تشديد الميم
67 البرهان ، ص٣٧٧ ، ج١
68 البقرة ، الآية ٢٥٩
69 سبأ ، الآية ٢٣
70 قراءة الحسن بفتح الفاء و الزاي مع تشديد الزاي
71 الأنعام ، الآية ٥٧

الحق" ، وهو كثير ويقرأ به إذا صح سنده ووجهه لموافقته لصورة الخط في رأي العين "[72]

وهذا الربط بين انطواء الاختلاف بين القراءات من حيث الأصوات، وبين الدلالة ملفت إلى أهمية الصوت في فهم النص القرآني، وتزداد تلك الأهمية عندما تكون الدلالة خاصة بالأحكام التي تمثل قواعد الدين، وهذا ما رصده الزركشي خلال تناوله للقراءات، فالاختلاف الصوتي بين البنى الصرفية مثل " لمستم " ، " لامستم " ، يستتبع اختلاف أحكام نقض الوضوء في القراءتين " أن باختلاف القراءات يظهر الاختلاف في الأحكام، ولهذا بنى الفقهاء نقض وضوء الملموس وعدمه على اختلاف القراءات في: " لمستم " و ﴿ لَٰمَسۡتُمُ ﴾[73] ، وكذلك وطء الحائض عند الانقطاع وعدمه إلى الغسل على اختلافهم في ﴿ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ ﴾[74] ، "[75]

72 البرهان ، ص٣٧٧ ، ج١
73 النساء ، الآية ٤٣
74 البقرة ، الآية ٢٢٢ ، يقصد قراءة حمزة و الكسائي " يطَّهَّرن"
75 البرهان ، ص٣٦٨ ، ج١

المستوى الصرفي

ترجع أهمية هذا المستوى في الدرس اللغوي الحديث – بجانب الصحة اللغوية – إلى طبيعة علم الصرف التوليدية، تلك الطبيعة التي تضفي على مفردات أي لغة ثراء كميا يمكّن مستخدمي اللغة من التواصل مع بعضهم البعض من ناحية، والتعبير عما يدور في أذهانهم بغرض التأثير الجمالي على المتلقي من ناحية أخرى فـ " لكل لغة من اللغات الإنسانية وسائلها الخاصة في توليد الألفاظ، وتنمية الثروة اللفظية، وتتحدد هذه الوسائل وفق النظم الصرفية لكل لغة "[٧٦]

ولتلك الأهمية نجد أن المستوى الصرفي من الركائز الأساسية في الدرس الأسلوبي، أو بمعنى آخر يمثل المستوى الصرفي أداة من الأدوات اللغوية الأساسية للمهتمين بالدرس الأسلوبي فـ " دارس الأسلوب لا يمكنه التقدم في حقله ما لم يلم بالنحو بكل فروعه، وبالصوتيات وعلم الأصوات الدالة، وبالصرف والتركيب وعلم المعاجم والمعاني "[٧٧]

وبجانب تلك الأهمية، فإن البعد الصرفي داخل النص الأدبي لا يرتبط بمقاصد مبدع النص في عملية الاختيار من البنى الصرفية المختلفة فحسب، بل يرتبط بالمتلقي أيضا، فإننا " نلاحظ أن البعد الصرفي للدال داخل النص الأدبي ينطوي على طاقة لافتة تحدث تأثيرها على المتلقي؛ إذ تستدعي هذه البنية الصرفية في أذهان المتلقين صورا أخرى يمكن أن ترد بالتداعي في ظل الاشتراك في الأصل المأخوذة منه الصور كلها "[٧٨]

إن تكاملية الدرس الأسلوبي تنبع من تكامل مستوياته وأدواته، وهذا ما يحيلنا إلى العلاقة التي تجمع المستوى الصرفي ببقية مستويات الأسلوب، فذلك المستوى لا ينفصل بحال من الأحوال عن الصوت أو الصورة أو التركيب أو الدلالة داخل النص، فمما لا شك فيه إن لوجود البنى الصرفية المتجاورة في النص تأثيرا صوتيا نابعا من الاتحاد في الصيغة الصرفية مع اختلاف دلالة كل بنية، أو ذلك الجرس الموسيقي من تكرار صيغة صرفية معينة " ولا ريب أن بعضا من الفروق القائمة بين البنى الصرفية المأخوذة من جذر واحد تتضح عبر مستواها الصوتي المسموع

.....

[76] جماليات تحول الوحدة الصرفية لدى النحاة و البلاغيين ، د. سامي عوض ، عادل نعامة، ص٧ ، مجلة جامعة تشرين للدراسات البحوث ، سلسلة الآداب و العلوم الإنسانية ، المجلد(٢٨)، العدد (١) ، ٢٠٠٦

[77] مفاهيم نقدية، رينيه ويليك ، ص٤٣١ ، ت د. محمد عصفور ، عالم المعرفة ، القاهرة ، ١٩٨٧

[78] توظيف البناء الصرفي في الشعر الجاهلي ، د. طارق سعد شلبي ، ص٣٩ ، زهرة المدائن ، القاهرة ، ٢٠٠٣

مما يكشف عن طبيعة الالتقاء بين المستوى الصوتي من ناحية، والمستوى الصرفي من ناحية أخرى "[٧٩]

فهذا الارتباط بين البنى الصرفية وبقية مستويات الأسلوب " هو ما جعل التماس دلالة ما لظاهرة صرفية مرتبطا بالدلالة المعجمية للمفردة وموقعها التركيبي ودورها في السياق الدلالي "[٨٠]

ومن المسلم به وجود صلات بين البنى الصرفية والتصوير داخل النص، فهناك بعض من تلك البنى ذات طبيعة تصويرية منها على سبيل المثال صيغة المضارع التي تنطوي على طاقات تصويرية نابعة من دلالته على التجدد والاستمرار علاوة على وقوع البنى الصرفية باعتبارها جزءا من مكونات الصورة داخل النص

ولا ينفصل هذا المستوى عن الدلالة بحال من الأحوال، فقد انتشرت دلالات البنى الصرفية في ثنايا كتب التراث والمحدثين على السواء، فدلالة الكلمة لا تكتمل إلا بـ " دراسة التركيب الصرفي للكلمة وبيان المعنى الذي تؤديه صيغتها، فلا يكفي لبيان معنى" استغفر" بيان معناها المعجمي المرتبط بمادتها اللغوية " غ ف ر "، بل لا بد أن يضم إلى ذلك معنى الصيغة وهي هنا وزن "استفعل"، أو الألف والسين والتاء التي تدل على الطلب "[٨١]

وبالطبع فكما للبنية الصرفية دور في دلالة الكلمة، فإن لها دورا في الكشف عن الفروق الدلالية بين المفردات، فالفرق بين الفعل الماضي "نزل"، والفعل الماضي "أنزل" على سبيل المثال لا الحصر يتحدد دلاليا من صيغتهما الصرفية "فعل" و"أفعل"

يتناول الزركشي الصرف بالتعريف، فـ " هو ما يلحق الكلمة ببنيتها "[٨٢] ، وهذا التعريف على اقتضابه يحيلنا إلى العلاقة بين الكلمات من حيث وجود بنية واحدة تلحق بها العديد من الكلمات مثل عودة الفروع إلى أصولها

وقد قسم الزركشي إلحاق الكلمة ببنيتها الأصلية إلى قسمين " أحدهما: جعل الكلمة على صيغ مختلفة بضروب من المعاني، وينحصر في التصغير والتكبير والمصدر واسمي الزمان والمكان واسم الفاعل واسم المفعول والمقصور والممدود

[79] توظيف البناء الصرفي في الشعر الجاهلي ، د.طارق سعد شلبي ، ص٤٦

[80] السابق ، ص٤٤

[81] علم الدلالة ، د. أحمد مختار عمر ، ص١٣ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٩٨

[82] البرهان ، ص٣٣٥ ، ج١

والثاني: تغيير الكلمة لمعنى طارئ عليها، وينحصر في الزيادة والحذف والإبدال والقلب والنقل والإدغام "[83]

وبصرف النظر عن سقوط بعض الصيغ الصرفية من تعريف الزركشي – إذ كان المقصود هو التقسيم لا الحصر لجميع الصيغ الصرفية – فإن تقسيم الزركشي لعلم الصرف يشمل جانبين أولهما الصيغ الصرفية المختلفة، وثانيهما التغير الذي يصيب الصيغة عبر الاستخدام اللغوي لها، ومن هذا التقسيم تتضح لنا العلاقات القائمة بين الكلمات، فهي إما علاقة الفرع والأصل بمعنى أن كلمة هي أصل لكلمة أو عدة كلمات أخرى وهي ما نعبر عنه بالمشتقات، أو علاقة تأثيرية بين الكلمات في التركيب، أو بين الأصوات داخل الكلمة وهو ما يدخل تحت درس التطور اللغوي، وما يهمنا في هذا التقسيم بهذا الشكل هو فكرة العلاقات بين الصيغ المختلفة مما يجعل اللغة من هذا المنظور كائنا مترابطا ترتبط أجزاؤه مع بعضها البعض

ويظهر لنا من تعريف الزركشي أن التغير في بنية الكلمة ليس تغيرا في الشكل فحسب، بل يتبعه تغير في الدلالة أيضا، وربما كان اهتمام الزركشي بذلك التغير من الناحية الدلالية أكثر منه من الناحية الشكلية، وما دعانا لهذا القول هو فائدة التصريف عند الزركشي الذي ربط فيها بين تلك الفائدة وبين تحصيل المعاني وتشعبها عن معنى واحد فـ " فائدة التصريف حصول المعاني المختلفة المتشعبة عن معنى واحد "[84]

ولهذا فإن الصرف يفوق النحو أهمية " فالعلم به أهم من معرفة النحو في تعرف اللغة، لأن التصريف نظر في ذات الكلمة، والنحو نظر في عوارضها "[85]

وتتجلى تلك الأهمية في جعل الأدوات الصرفية من الأدوات اللغوية التي يحتاج إليها المتلقي لفهم النص القرآني " وهو من العلوم التي يحتاج إليها المفسر "[86] ، وهذا التوجيه للمفسر – باعتباره أهم المتلقين للنص القرآني – يكشف عن أهمية تلك الأدوات في الكشف عن الدلالة في النص القرآني، وهو ما نحاول رصده وتحديد ملامحه في كتابه البرهان

إن اعتبار الأدوات الصرفية أدوات لغوية تكشف عن الدلالة داخل النص فهي لا تنفصل عن الأدوات اللغوية الأخرى عند الزركشي، أو بمعنى آخر لا

83 البرهان ، ص٣٣٥ ، ج١
84 البرهان ، ص ٣٣٥ ، ج١
85 البرهان ،ص٣٣٥ ، ج١
86 البرهان ص٣٣٥ ، ج١

ينفصل المستوى الصرفي عن بقية المستويات الأخرى للأسلوب من صوت وصورة وتركيب ودلالة؛ يجعلنا نفهم بعض ملامح الدرس الأسلوبي عند الزركشي، فكما ارتبط المستوي الصوتي – فيما مر بنا – بمستويات الأسلوب فقد ارتبط أيضا الصرف بالصوت والتركيب والصورة والدلالة، وذلك من خلال استقرائنا لكتاب البرهان

فمن الناحية التطبيقية نجد أن الزركشي قد رصد أهمية الحركات وتأثيرها في التمييز بين الصيغ الصرفية ودلالاتها، فالحركة تقوم بهذا التمييز، فالعرب " فرقوا بالحركات وغيرها بين المعاني فقالوا " مِفتح" للآلة التي يفتح بها، و"مَفتح" لموضع الفتح، و"مِقص" للآلة، و"مَقص" للموضع الذي يكون فيه القص "[87]

أما تكرار الألفاظ باعتباره تجليا صوتيا ينشأ عنه الاستثقال من ناحية النطق أو السماع؛ فنجد أن هذا التكرار مؤثر في الصيغة الصرفية، أو بمعنى آخر كان التكرار داعيا إلى العدول عن صيغة إلى صيغة أخرى، فالعرب " قد يستثقلون تكرار اللفظ فيعدلون لمعناه كقوله تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[88] ، فإنه لما أعيد اللفظ غير "فعّل" إلى "أفعل"، فلما ثلث ترك اللفظ أصلا فقال "رويدا" ، "[89]

أما التناسب بين المفردات داخل التركيب فقد امتد إلى التناسب بين الصيغ الصرفية، فالزركشي يورد التناسب بين فعلين بينهما علاقة العطف، جاء أحدهما رباعيا وقياسه الأفصح ثلاثي - على حد تعبير الزركشي - بما يعد نوعا من التأثير التركيبي على الصيغ الصرفية " ونظيره في مراعاة المناسبة أن الأفصح أن يقال "بدأ " ثلاثي، قال الله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[90]، وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[91] ، ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾[92] ، فجاء به رباعيا فصيحا لما حسنه من التناسب بغيره وهو قوله " يعيده " ، "[93]

87 البرهان ، ص٣٤ ، ج١
88 الطارق ، الآية ١٧
89 البرهان ، ص٣٣ ، ج٣
90 الأعراف ، الآية ٢٩
91 العنكبوت ، الآية ٢٠
92 العنكبوت ، الآية ١٩
93 البرهان ، ص١٠٦ ، ج١

ويرصد الزركشي دلالات الفعل المضارع كغيره من الصيغ وما له من استخدام داخل النص، وقد فطن إلى استخدام المضارع بديلا عن الفعل الماضي لأنه ذو طبيعة تصويرية نابعة من دلالة المضارع على التجدد والاستمرار " ولهذا جاءت الحال في صورة المضارع مع أن العامل الذي يفيده ماض كقولك: جاء زيد يضرب، وفي التنزيل ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾[94] ، إذ المراد أن يريد صورة ما هم عليه وقت المجيء وأنهم آخذون في البكاء يجددونه شيئا بعد شيء "[95]

وعلى هذا الأساس أرجع الزركشي استخدام المضارع " يكون " بديلا عن الماضي " كان " لأن الصياغة أرادت تصوير التكوّن على حد فهمنا لتعبير الزركشي " وقوله ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[96] ، أي فكان استحضارا لصورة تكوّنه "[97]

هذا ولا تنفصل أي من عناصر اللغة – على اختلافها - عند الزركشي عن الدلالة بأي حال من الأحوال، فكما ارتبط المستوى الصوتي بالدلالة عنده، نجد أن المستوى الصرفي يرتبط بالدلالة عنده أيضا، فلا يكاد يخلو تناوله للصيغ الصرفية المختلفة من استخراج لدلالات تلك الصيغ، فقد أفرد الزركشي في البرهان دلالة التوكيد ورصد لها الأدوات اللغوية الدالة عليها، ومن هذه الأدوات المصدر وصيغ المبالغة، أما المصدر فهو من مؤكدات الفعل " ويلتحق بالتأكيد الصناعي أمور أحدها: تأكيد الفعل بالمصدر، ومنه قوله تعالى ﴿ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴾[98] ، وقوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[99] .....

ثم التأكيد بالمصدر تارة يجيء من لفظ الفعل كما سبق، وتارة يجيء من مرادفه، كقوله تعالى ﴿ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴾[100] ، فإن الجهار أحد نوعي الدعاء

94 يوسف ، الآية١٦
95 البرهان ، ص٦٥ ، ج٤
96 آل عمران ، الآية ٥٩
97 البرهان ، ص٣٦٧ ، ج٣
98 الإسراء ، الآية ٦٣
99 النساء ، الآية ١٦٤
100 نوح ، الآية ٨

وقوله ﴿ لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ ﴾[101] ، فإنه منصوب بقوله ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ ﴾[102] ، لأن ﴿ لَيَّۢا ﴾ نوع من التحريف "[103]

أما صيغ المبالغة فتدل على التكثير والمبالغة من ناحية، وهو ما جعل الزركشي يربط بين دلالة التكثير والتوكيد من ناحية أخرى، فدرسها ضمن النوع العاشر من الأدوات الدالة على التوكيد " القسم العاشر: تجيء اللفظة الدالة على التكثير والمبالغة من صيغ المبالغة كفعال وفعيل وفعلان .....

وفعال بالتخفيف والتشديد "[104] ، وهكذا حتى يرصد جميع صيغ المبالغة تحت دلالة التوكيد

ولم يرصد الزركشي دلالات الصيغ الصرفية فحسب، بل كانت دلالة كل صيغة منطلقا للكشف عن الفروق الدلالية بين المفردات داخل النص القرآني، أو بمعنى آخر نجد أن الزركشي قد فطن إلى اختيار الصياغة لصيغة صرفية دون أخرى بما يخدم مقاصد الصياغة مستندا في ذلك على الفروق الدلالية بين الصيغ الصرفية، فعلى سبيل المثال تختلف دلالة المضارع عن دلالة اسم الفاعل، والصياغة تختار منهما " الفعل يدل على التجدد والحدوث، والاسم على الاستقرار والثبوت، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر، فمنه قوله تعالى: ﴿ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۖ ﴾[105] ، لو قيل: " يبسط " لم يؤد الغرض لأنه لم يؤذن بمزاولة الكلب البسط، وأنه يتجدد له شيء بعد شيء، فـ "باسط" أشعر بثبوت الصفة، وقوله ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم ﴾[106] ، لو قيل: " رازقكم " لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئا بعد شيء، ..... ومن هذا يعرف لم قيل: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ ﴾[107] ، ولم يقل " المنفقين " في غير موضع ؟، وقيل كثيرا: " المؤمنون " و " المنفقون "، لأن حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد بخلاف الإيمان فإن له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها .....

101 النساء ، الآية ٤٦
102 النساء ، الآية ٤٦
103 البرهان ، ص ٣٧٦ ، ج٢
104 البرهان ، ص٤٨٥ ، ج٢
105 الكهف ، الآية ١٨
106 فاطر ، الآية ٣
107 البقرة ، الآية ٢٧٤

فحيث يراد تجدد حقائقها أو آثارها فالأفعال وحيث يراد ثبوت الاتصاف بها فالأسماء "[108]

والمقصود بالأسماء في النص السابق كما رصدها الزركشي بصورة تطبيقية هي الصيغ الصرفية المشتقة، وهو ما فهمناه من قوله " هذا الذي ذكرناه من دلالة الاسم على الثبوت، والفعل على التجدد والحدوث هو المشهور عند البيانيين .....، وأكثر الأسماء دلالتها على معانيها فقط، وإنما ذلك في الأسماء المشتقة "[109]

إذا فالفعل المضارع يدل على التجدد والحدوث، واسم الفاعل يدل على الاستقرار والثبوت بالرغم من الاتحاد في الدلالة المعجمية بين " باسط " و" يبسط " على سبيل المثال، فإن هناك دلالة أخرى وتلك الدلالة تضاف إلى الدلالة المعجمية للكلمة، وهي نابعة بالطبع من الصيغة الصرفية للكلمة

وللفروق الدلالية بين الصيغ الصرفية عند الزركشي مظهر آخر يتمثل في وجود مراتب للصيغ الصرفية تتبعها بالطبع مراتب دلالية، تلك المراتب تحدد بالزيادة أو النقصان في الصيغة الصرفية، أو بمعنى أخر تكون تلك المراتب بين صيغ صرفية تتحد في المادة اللغوية أو الدلالة المعجمية وتنضاف إليها تلك الدلالة الصرفية حسب مرتبتها " واعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه، فلابد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا، لأن الألفاظ أدلة على المعاني، فإذا زيدت في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة، ومنه قوله تعالى﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[110]، فهو أبلغ من "قادر" لدلالته على أنه متمكن القدرة، لا يرد شيء عن اقتضاء قدرته، ويسمى هذا قوة اللفظ لقوة المعنى .....

واعلم أن زيادة المعنى في هذا القسم مقيد[111] بنقل صيغة الرباعي غير موضوعة لمعنى، فإنه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثي إلى مثل تلك الصيغة فقوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[112]، لا يدل على كثرة صدور الكلا منه لأنه غير منقول من ثلاثي "[113]

108 البرهان ، ص٦٥ – ٦٦ ، ج٤
109 البرهان ، ص٧٠ ، ج٤
110 القمر ، الآية ٤٢
111 هكذا وردت في المتن " مقيد "
112 النساء ، الآية ١٦٤
113 البرهان ، ص٣٤-٣٦ ، ج٣

وعلى ضوء النص السابق نرى أن الزركشي قد افترض أن صيغة "قادر" أي "فاعل" في مرتبة أقل دلاليا من صيغة " مقتدر " أي " مفتعل "، والصيغتان لاسم الفاعل ومتحدتان في المادة اللغوية " قدر"، وبالرغم من هذا فإن تلك المرتبة الأعلى لـ " مقتدر" أتبعتها مرتبة دلالية بزيادة معنى التمكن في القدرة عن القدرة فقط من صيغة " قادر" حسب ما فهمناه من النص

وقد حدد الزركشي شرطا للمراتب بين الصيغ الصرفية يتبدى لنا من الجزء الأخير من النص السابق، ألا وهو النقل من صيغة إلى صيغة على أن تكون الصيغة التي في مرتبة أقل مستعملة، وهو الذي منع النقل إلى " كلم " لأنه ليس له صيغة ثلاثية مستعملة

وقد تأثر الزركشي بابن جني في كتابه الخصائص، وابن الأثير في كتابه المثل السائر عند تناولهما لموضوع " قوة اللفظ لقوة المعنى" حتى إن مقولة الزركشي النظرية تشابهت كثيرا إلى حد التطابق مع مقولة ابن الأثير النظرية، مع اختلاف التناول الدلالي بعض الشيء في رصد الآية السابقة في النص السابق للزركشي من جهة التطبيق، حتى إن شرط النقل من صيغة إلى أخرى قد ذكره ابن الأثير، فلنتأمل قول ابن الأثير " اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانه، وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة، فمن ذلك قولهم: خشن واخشوشن، فمعنى " خشن" دون معنى " اخشوشن" لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو نحو " فعل " و" افعوعل " .....

ومما ينتظم بهذا السلك " قدر" و" اقتدر"، فمعنى " اقتدر" أقوى من معنى " قدر"، قال الله تعالى ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[114]، فـ" مقتدر" ههنا أبلغ من " قادر"، إنما عُدِل إليه للدلالة على تفخيم الأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة الغضب، أو للدلالة على بسطة القدرة، فإن " المقتدر" أبلغ في البسطة من " القادر"، وذاك أن مقتدرا اسم فاعل من "اقتدر"، و" قادر" اسم فاعل من " قدر"، ولا شك أن " افتعل" أبلغ من فعل .....

وههنا نكتة لابد من التنبيه عليها، وذلك أن قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم إلا في نقل صيغة على صيغة أكثر منها كنقل الثلاثي إلى الرباعي، وإلا فإذا كانت صيغة الرباعي مثلا موضوعة لمعنى، فإنه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثي إلى

114 القمر ، الآية ٤٢

مثل تلك الصيغة ألا ترى أنه إذا قيل في الثلاثي " قتل" ثم نقل على الرباعي فقيل " قتّـل" - بتشديد التاء – فإن الفائدة في هذا النقل هي التكثير "[115]

العدول الصرفي

شغل العدول الصرفي حيزا لا بأس به في درس الزركشي اللغوي لنص القرآن الكريم، ومن يتأمل البرهان يكشف عن هذه الظاهرة في ثناياه بكل وضوح، ويجد أن الزركشي قد حدد الصيغ الصرفية التي يُعدل عنها، والتي يُعدل إليها من ناحية، ودلالة هذا العدول الصرفي وتأثيره في الدلالة والمتلقي من ناحية أخرى

أما الصيغ الصرفية فيرصدها الزركشي ويعبر عن العدول الصرفي بينها بعدة مصطلحات منها: إقامة صيغة مكان صيغة أخرى، أو التغير، أو قال ولم يقل، وفي كثير من الأحيان ذكر العدول صراحة، وفي كلٍّ ذكر أسباب العدول أو الدلالة المستقاة منه " إقامة صيغة مقام أخرى وله صور فمنه " فاعل" بمعنى " مفعول"، كقوله: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[116] ، أي لا معصوم، وقوله تعالى ﴿ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾[117] ، أي مدفوق .....

ومنه " فعيل" بمعنى " مفعول" كقوله ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾[118] ، أي مظهورا فيه .....

ومنه مجيء المصدر على " فعول" كقوله تعالى ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَا شُكُورًا ﴾[119] ، وقوله ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[120] ، فإنه ليس المراد الجم هنا، بل المراد: لا نريد منكم شكرا أصلا، وهذا أبلغ في قصد الإخلاص في نف الأنواع .....

115 المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، ابن الأثير ، ص٥٦-٥٩ ، ج٢ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصري بيروت ، ١٩٩٠
116 هود ، الآية ٤٣
117 الطارق ، الآية ٦
118 الفرقان ، الآية ٥٥
119 الفرقان ، الآية ٦٢
120 الإنسان ، الآية ٩

ومنه إقامة الفاعل مقام المصدر نحو ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾[121] ، أي تكذيب، وإقامة المفعول مقام المصدر نحو ﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾[122] ، أي الفتنة .....

ومجيء المصدر بمعنى المفعول كقوله تعالى ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾[123] ، أي من معلومه.....

ومنه " فعيل" بمعنى الجمع كقوله تعالى ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[124] ، ....."[125]

ويرصد الزركشي العدول عن صيغ الفعل إلى صيغ أخرى له، ويؤطر ذلك العدول نظريا موضحا أن العدول له حدود سياقية، فعلى سبيل المثال يُعدل عن صيغة المستقبل في النص القرآني في سياق الأمور الهائلة المتوعد بها إلى صيغة الماضي، والغرض من العدول هنا هو بروز دلالة التقرير والتحقيق المستقاة من صيغة الماضي فـ " التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه، قد سبق منه كثير في نوع الالتفات، ويغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعد بها، فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريرا وتحقيقا لوقوعه كقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[126] ، وقوله في الزمر ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ ﴾[127] .....

ثم تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع فيؤتى بصيغة الماضي مرادا به المضي تنزيلا للمتوقع منزلة ما وقع فلا يكون تعبيرا عن المستقبل بلفظ الماضي، بل جعل المستقبل ماضيا مبالغة "[128]

121 الواقعة ، الآية ٢
122 القلم ، الآية ٦
123 البقرة ، الآية ٢٥٥
124 التحريم ، الآية ٤
125 البرهان ، ص٢٧٥- ٢٧٨ ، ج٢
126 انظر ما كتبه ابن الأثير في هذه الآية في المثل السائر ، ص١٦، ج٢
127 النمل ، الآية ٨٧
128 الزمر ، الآية ٦٨
129 البرهان ، ص٣٦٦ ، ج٣

هذا ويرصد بطريقة تطبيقية العدول عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع ليبرز لنا دلالة المبالغة بجانب دلالة التحقيق بمعنى أن العدول عن صيغة الماضي الدال على التحقيق إلى صيغة المضارع أضفى دلالة المبالغة على دلالة التحقيق المستقاة من صيغة الماضي " وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ١٣٠ ﴾[131] ، فعدل عن لفظ " أصبحت " إلى" تصبح " قصدا للمبالغة في تحقيق اخضرار الأرض لأهميته إذ هو المقصود بالإنزال "[١٣٢]

وقد يكون العدول عن صيغة الماضي إلى المضارع بهدف إضفاء المبالغة من ناحية، واستغلال القدرة التصويرية لصيغة المضارع للتأثير على المتلقي للنص القرآني من ناحية أخرى " ومنه قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ١٣٣ ﴾[134] ، فقال " تثير " مضارعا، وما قبله وما بعده ماضيا مبالغة في تحقيق إثارة الرياح السحاب للسامعين، وتقدير تصوره في أذهانهم "[١٣٥]

وفيما مر بنا نجد أن العدول الصرفي يكون بين المصادر والمشتقات فيما بينها من ناحية، أو بين صيغ الفعل فيما بينها من ناحية أخرى، وقد مزج الزركشي في درس العدول الصرفي بين كل الصيغ الصرفية، بمعنى أن العدول ليس محددا بالمشتقات فيما بينها، أو الأفعال فيما بينها، بل هناك عدول عن صيغة الفعل إلى صيغتي اسم الفاعل واسم المفعول، والداعي إلى هذا العدول بجانب بروز دلالة معينة مستقاة بالطبع من الصيغة التي عُدِل إليها؛ هو التناسب بين الصيغ الصرفية في النص القرآني " ومن لواحق ذلك العدول عن المستقبل إلى اسم المفعول لتضمنه معنى الماضي كقوله ﴿ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ١٣٦ ﴾[137] ، تقريرا للجمع فيه، وأنه لابد أن يكون معادا للناس مضروبا لجميعهم، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾[١٣٨] ، لتعرف صحة هذا المعنى، فإن قلت: الماضي أدل على

130 انظر ما كتبه ابن الأثير في هذه الآية في المثل السائر ص١٥ ،ج٢
131 الحج ، الآية ٦٣
132 البرهان ، ص٣٦٨ ، ج٣
133 انظر ما كتبه ابن الأثير في هذه الآية في المثل السائر ص١٣ ، ج٢
134 فاطر ، الآية ٩
135 البرهان ، ص٣٦٩ ، ج٣
136 بالرغم من تشابه ما تناوله الزركشي هنا و ما تناوله ابن الأثير في المثل السائر ص١٦ ، ج٢ ، إلا أن الزركشي قد ربط بين العدول و التناسب في الصيغ الصرفية و هذا ما لم يفعله ابن الأثير
137 هود ، الآية ١٠٣
138 التغابن ، الآية ٩

المقصود من اسم المفعول فلم عُدِل عنه إلى ما دلالته أضعف ؟ قلت: لتحصل المناسبة بين "مجموع" و" مشهود" في استواء شأنهما طلبا للتعديل في العبارة

ومنه العدول عن المستقبل إلى اسم الفاعل كقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾[١٣٩] ، فإن اسم الفاعل ليس حقيقة في الاستقبال، بل في الحال "[١٤٠]

139 الذاريات ، الآية ٦
140 البرهان ، ص٣٧٠ ، ج٣

المستوى التركيبي

ترجع أهمية هذا المستوى من الدرس الأسلوبى إلي ربط مكونات اللغة في بوتقة جامعة لتلك المكونات تنصهر فيها الوحدات اللغوية الأصغر في وحدات أكبر منها تتميز بدلالة قد تتفق مع دلالات مكوناتها أو تفترق عنها، أو بعبارة أخرى إن التركيب يمثل قالبا للمفردات اللغوية التي تقوم بينها علاقات وروابط تميزها عن غيرها من المفردات من ناحية، وكاشفا عن الطاقات الدلالية للمفردات التي تختلف بالطبع باختلاف موقعها في التركيب من ناحية أخرى.

ولهذه الأهمية نجد أن التركيب ليس من الأركان الأساسية للأسلوب فحسب، بل إن بعض المهتمين بعلم الأسلوب قد ربطوا بينه وبين التركيب وذلك من خلال تعريفهم للأسلوب، فالأسلوب عند "فينو جرادوف" ، هو" جهاز الروابط القائمة بين العناصر اللغوية والمتفاعلة مع قوانين انتظامها "[١٤١]

ويتفق كل من"والاك" و" فاران"، على "أن الأسلوب يمكن أن يحدد من ركن زاوية علاقة الألفاظ بالأشياء ثم يردفان أنه يحدد أيضا من خلال روابط الألفاظ بعضها ببعض، وكذلك من خلال علاقة مجموع الألفاظ بجملة الجهاز اللغوي الذي تتنزل فيه "[١٤٢]

هذا وقد أولى النحاة العرب الروابط والعلاقات التركيبية القائمة بين المفردات اهتماما كبيرا، فتلك العلاقات والروابط تميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات " فالعربية لها سماتها المميزة في مجال العلاقات التركيبية التي أخذت اهتماما خاصا من بعض النحاة حيث أدركوا أن الخبرة بتراكيب اللغة هي في الوقت ذاته خبرة بالأغراض التي تعبر عنها "[١٤٣]

وإذا وضعنا في الاعتبار أن لكل مفردة دلالة تميزها عن بقية المفردات اللغوية نجد أن لارتباط المفردات في تركيب واحد تأثيرا من جهة الدلالة الكلية لهذ التركيب بمعنى إن للتركيب دلالة قد تبتعد عن دلالات مكوناته أو تقترب منها، أو تستقل ذاتيا باعتبارها وحدة دلالية خاصة بالتركيب، فالتركيب أو الجملة عند بعض اللغويين " من أهم وحدات المعنى، بل ويعتبرها بعضهم أهم من الكلمة نفسها

141 الأسلوبية و الأسلوب،د.عبد السلام المسدي،ص٩١،الدار العربية للكتاب،طرابلس
142 السابق ،ص٩١
143 جدلية الإفراد و التركيب،د.محمد عبد المطلب،ص٢٧١، القاهرة ، ١٩٩٠

وعند هؤلاء لا يوجد معنى منفصل للكلمة، وإنما معناها في الجملة التي ترد فيها، فإن قلت إن كلمة أو عبارة تحمل معنى فهذا يعني أن هناك جملا تقع فيها الكلمة أو العبارة وهذه الجمل تحمل معنى "[١٤٤]

إن تعدد العلاقات والروابط داخل التركيب لا يهب التركيب تعددا شكليا فحسب، بل ويهبه تعددا دلاليا، أو بعبارة أخرى إن لاختلاف العلاقات والروابط القائمة بين مكونات التركيب تأثيرا في تعدد التراكيب وتمايزها عن بعضها البعض، وذلك التمايز بين التراكيب له شقان أولهما تمايز شكلي، وآخرهما تمايز دلالي ولهذا " فإننا ندرك أن رصد المتلقي الوحدات التركيبية ليس أمرا شكليا يتغيا التماس " أنماط " بعينها ترد عليها التراكيب بما يتجاوز الدلالة، إن الرصد المبتغى لهذه الوحدات هو ذلك المعني باكتناه الدلالة الذاتية للتراكيب من حيث هي، ثم التماس طبيعة الصلة بين هذه الدلالة الذاتية من ناحية، والدلالة المعجمية لمكونات التراكيب من ناحية أخرى، وذلك وصولا إلي الدور الدلالي للتركيب في رحاب النص في مجموعه "[١٤٥]

اهتم الزركشي في كتابه البرهان بالتركيب اهتماما واسعا فلا يكاد يخلو أي مما تناوله من موضوعات من تناول للظواهر التركيبية أو دلالاتها في النص القرآني، سواء على المستوى النظري أو التطبيقي، وهذا ما يجعلنا نبدأ هذا الجزء من الدراسة بأهمية هذا المستوى باعتباره من المستويات الأساسية في الدرس الأسلوبي عند الزركشي.

وترجع أهمية التركيب عند الزركشي من أهمية قضية شغلت كل من تناول النص القرآني بالدراسة من القدماء أو المحدثين ألا وهي قضية الإعجاز، فقد أرجع الزركشي ذلك الإعجاز إلى عدة أسباب ما يهمنا منها هنا هو الجانب اللغوي من تلك الأسباب، فهذا الإعجاز عنده مرتبط بتفرد الألفاظ والمعاني والملاءمة بينها، وترجع هذه الملاءمة بالطبع إلى التراكيب التي جمعت الألفاظ، أو نظوم التأليف على حد تعبير الزركشي " في أن الإعجاز يكون في اللفظ والمعنى والملاءمة: وقد سبق لنا في باب الإعجاز أن إعجاز القرآن لاشتماله على تفرد الألفاظ التي يتركب منها الكلام مع ما تضمنه من المعاني، مع ملاءمته التي هي نظوم تأليفه، فأما الأول: وهو معرفة الألفاظ فهو أمر نقلي يؤخذ من أرباب التفسير.....

وأما المعاني التي تحتملها الألفاظ فالأمر في معاناتها أشد لأنها نتائج العقول، أما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر؛لأنها لجام الألفاظ وزمام

144 علم الدلالة،د.أحمد مختار عمر،ص٣٤
145 شعر الدعوة عند حسان بن ثابت،د.طارق سعد شلبي،ص١٣٦،زهرة المدائن،القاهرة،٢٠٠٣

المعاني وبها يتصل أجزاء الكلام ويتسم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان، فليس المفرد بذرب اللسان وطلاقته كافية لهذا الشأن، ولا كل من أوتي خطاب بديهة ناهضا بحمله ما لم يجمع إليها سائر الشروط "[١٤٦]

اللافت للنظر في النص السابق هو ما أورده الزركشي لرسوم النظم من فوائد دونما ذكر فوائد الألفاظ ذاتها التي يتكون منها التركيب، فالتركيب يربط الألفاظ بعضها ببعض " لجام الألفاظ "، ويتحكم في المعنى أو يكشف عنه " زمام المعاني "، ويتضح هذا أكثر من ربط أجزاء الكلام على حد تعبير الزركشي، أما الألفاظ ودلالاتها فهي عند العارفين باللغة من المفسرين يمكن معرفتها بالرجوع إليهم.

وتبدو أهمية التركيب في تحديد الدلالة المعجمية للكلمة فرفض الزركشي للترادف بين الألفاظ نابع من قدرة التركيب على الكشف عن الفروق الدلالية بينها " في ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه ولهذا وزعت بحسب المقامات فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام[١٤٧] الأخر، فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات والقطع بعدم الترادف ما أمكن؛ فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الأخر في التركيب وإن اتفقوا على جوازه في المفرد "[١٤٨]

العلاقات التركيبية

مما لا شك فيه قيام علاقات مختلفة بين المفردات داخل التركيب، وتقوم تلك العلاقات بدور مهم في تقوية التركيب داخل النص، ولتلك الأهمية نجد أن الزركشي قد تناول العديد من تلك العلاقات في كتابه البرهان، فمكونات التركيب تقوم بينها علاقات ارتباط يقوم بها النحو من ناحية، ودلالات المفردات من ناحية أخرى، وهو ما يبدو من إشارة الزركشي العابرة لأنواع الارتباط بين المفردات داخل التركيب " فإن الارتباط خمسة أنواع: وجودي ولزومي وخبري وجوابي وعطفي "[١٤٩]

ومن المظاهر التركيبية التي تبرز العلاقات بين المفردات داخل التركيب من ناحية، وتبرز تصور الزركشي لكيفية بناء التركيب من ناحية أخرى، ذلك المظهر

146 البرهان ، ص١٧١-١٧٢،ج٢.
147 من الممكن أن تكون كلمة"مقام" هنا بمعنى المكان
148 البرهان،ص٧٦،ج٤.
149 البرهان،ص١١٨،ج٣

الذي يحدد ترتيب تلك المفردات داخله باعتباره نوعا من العلاقة المكانية لكل لفظ داخل التركيب، وهذا الترتيب إما ترتيب نحوي يفرض النحو فيه ترتيبا معينا للمفردات، أو ترتيب تفرضه علاقات منطقية قائمة بين تلك المفردات .

أما الترتيب النحوي فقد تأثر فيه الزركشي بمن سبقه من القدماء من خلال الترتيب في الجملة الاسمية وكيفية بنائها كأسبقية المبتدأ، والترتيب في الجملة الفعلية وكيفية بنائها كأسبقية الفعل وهكذا حتى نهاية التركيب فـ " على النحوي بيان مراتب الكلام، فإن مرتبة العمدة قبل مرتبة الفضلة، ومرتبة المبتدأ قبل مرتبة الخبر، ومرتبة ما يصل إليه الفعل بنفسه قبل مرتبة ما يصل إليه بحرف الجر – وإن كانا فضلتين - ، ومرتبة المفعول الأول قبل مرتبة المفعول الثاني"[١٥٠]

ولا يقتصر ذلك الترتيب على أركان الجملة الاسمية والفعلية فحسب، بل يمتد إلى التابع والفضلة من خلال التعدد داخل التركيب، ونعني بذلك ما رصده الزركشي من ترتيب للأحوال والصفات داخل التركيب بطريقة تطبيقية، فالأولوية في الترتيب للمفرد ثم شبه الجملة وأخيرا الجملة الفعلية، فبناء التركيب يشمل التابع والفضلة بما يوضح تصور الزركشي لعدم اعتباطية بناء التركيب وأن لكل مفردة مكانها داخله " إذا اجتمع مختلفان في الصراحة والتأويل قدم الاسم المفرد ثم الظرف أو عديله ثم الجملة كقوله تعالى:﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[١٥١]، فقوله ﴿ وَجِيهًا ﴾ حال، وكذلك ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ ، وقوله ﴿ وَيُكَلِّمُ ﴾ ، وقوله ﴿ وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ ، فهذه أربعة أحوال انتصبت عن قوله ﴿ بِكَلِمَةٍ ﴾، والحال الأولى جيء بها على الأصل اسما صريحا، والثانية في تأويله جار ومجرور، وجيء بها هكذا لوقوعها فاصلة في الكلام ولو جيء بها اسما صريحا لناسبت الفواصل، والثالثة جملة فعلية، والرابعة جار ومجرور، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾[١٥٢]، ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾[١٥٣] ، ولما كان الظرف فيه شبه من المفرد وشبه من الجملة جعل بينهما "[١٥٤]

150 البرهان،ص٣٤٩،ج١
151 آل عمران،الآيتان ٤٥، ٤٦
152 غافر ، الآية ٢٨
153 المائدة، الآية ٢٣
154 البرهان،ص٤٢٦،ج٢

إن هذا الترتيب بهذا الشكل يحدد مكانا لكل مفردة داخل التركيب، وذلك المكان المحدد يرتبط بأماكن المفردات النحوية الأخرى داخل التركيب، أو بمعنى آخر إن العلاقة المكانية لا تتحدد من تلقاء نفسها، بل ببقية العلاقات المكانية للمفردات داخل التركيب، وهذا ما جعلنا نربط بين الترتيب النحوي والعلاقات التركيبية القائمة بين مكونات التركيب.

ولترتيب المفردات داخل التركيب مظهر آخر يتمثل في العلاقات المنطقية القائمة بين مكوناته، تلك العلاقات تؤثر في الترتيب النحوي لها، فيرصد الزركشي السبق في الإيجاد الزمني على سبيل المثال لذكر مفردة قبل تلك المتأخرة عنها في الإيجاد الزمني، ومنها العلاقة العددية كأسبقية " مثنى" على " ثلاث" في التركيب، ومنها أسبقية ورود السبب على المسبب منه إلى آخر العلاقات المنطقية التي تربط بين المفردات داخل التركيب في النص القرآني.

وأول تلك العلاقات علاقة السبق التي يتقدم فيها أحد الألفاظ في التركيب على غيره لأن له أسبقية زمنية أو أسبقية وجود أو أسبقية التنزيه أو الشرف أو التعظيم.

فأسبقية الوجود في الزمن يمثل لها الزركشي بعدة شواهد قرآنية يرصد فيها العلاقة الترتيبية بين المفردات من خلال أسبقية اللفظ على غيره لأنه أسبق زمنا في الوجود " السبق وهو أقسام : منها السبق بالزمان والإيجاد كقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾[155] ،قال ابن عطية: المراد بالذين اتبعوه في زمن الفترة.

وقوله ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[156]، فإن مذهب أهل السنة تفضيل البشر، وإنما قدم الملك لسبقه في الوجود.

وقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾[157]، فإن الأزواج أسبق بالزمان لأن البنات أفضل منهن لكونهن بضعة منه صلى الله عليه وسلم "[158].

155 آل عمران،الآية ٦٨
156 الحج،الآية٧٥
157 الأحزاب، الآية٥٩
158 البرهان،ص٢٣٥،ج٣

من النص السابق نجد أن الزركشي قد رصد العلاقة التركيبية بين أتباع إبراهيم – عليه الصلاة والسلام - والنبي- عليه الصلاة والسلام - في الآية الأولى، وبين الملائكة والبشر في الآية الثانية، وبين الأزواج والبنات في الآية الثالثة، وافترض ترتيبا لهذه المفردات داخل التركيب توجبه أسبقية الوجود الزمني لأتباع إبراهيم على النبي، والملائكة على البشر، ولأزواج النبي على بناته.

وتتضح لنا تلك العلاقة الترتيبية بين المفردات حسب أسبقية وجودها في الزمن من تعليق الزركشي أن البشر مقدم على الملك حسب مذهب أهل السنة، وبنات الرسول أفضل من أزواجه على حد تعبيره، وبالرغم من تلك الأفضلية فإن ترتيب المفردات داخل التركيب خضع لعلاقة الأسبقية الزمنية في الوجود.

وتتضح تلك العلاقة المنطقية من تقديم السنة على النوم لأسبقية السنة على النوم زمنيا " ومن التقديم بالإيجاد تقديم السنة على النوم في قوله﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[159]، لأن العادة في البشر أن تأخذ العبد السنة قبل النوم، فجاءت العبارة على حسب العادة "[160].

وتقديم الظلمة لأسبقيتها في الإدراك الحسي على النور[161] " ومنه تقديم الظلمة على النور في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[162]، فإن الظلمات سابقة على النور في الإحساس، وكذلك الظلمة المعنوية سابقة على النور المعنوي، قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾[163]، فانتفاء العلم ظلمة وهو متقدم بالزمان على نور الإدراكات"[164].

ومن ذلك ما أسماه الزركشي التقديم بالذات، وقد تناول فيه العلاقة العددية القائمة بين المفردات في التركيب، فالواحد مقدم على الاثنين بذاته فوجب ذكره أولا داخل التركيب "كقوله تعالى ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾[165]، ونحوه:﴿ مَا يَكُونُ مِن

159 البقرة، الآية ٢٥٥
160 البرهان،ص٢٣٦،ج٣
161 ومن علاقة السبق الموجبة لتقديم المفردات على غيرها في التركيب في النص القرآني ما تناوله الزركشي من تقديم الليل على النهار، و الموت على الحياة ، و المكان على الزمان ، و تقديم التوراة و الإنجيل علي القرآن لسبق الإنزال ، و تقديم الركوع على السجود لسبق الوجوب ، انظر البرهان ص٢٣٧،ج٣، و ما بعدها
162 الأنعام،الآية ١
163 النحل،الآية ٧٨
164 البرهان،ص٢٣٧،ج٣
165 النساء،الآية٣

﴿ نَجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾[166]، وكذلك جميع الأعداد كل مرتبة هي متقدمة على ما فوقها بالذات "[167].

وكسر تلك العلاقة الترتيبية عند الزركشي يعد عدولا له دلالته في النص القرآني "أما قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾[168]، فوجه تقديم المثنى أن المعنى حثهم على القيام بالنصيحة لله وترك الهوى مجتمعين متساويين أو منفردين متفكرين ولا شك أن الأهم حالة الاجتماع فبدأ بها "[169].

هذا ويرصد الزركشي في العلاقة السببية ما يربط بين الألفاظ من الترتيب السببي ومن ذلك نشأة لفظة عن أخرى أو ترتبها عليها " الثالث بالعلة والسببية كتقديم " العزيز" على " الحكيم " لأنه عز فحكم، وتقديم " العليم " على " الحكيم " لأن الإتقان ناشئ عن العلم، وكذا أكثر ما في القرآن من تقديم وصف العلم على الحكمة: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[170]، "[171]

فالعلاقة الترتيبية عند الزركشي لا تتعلق بالنحو وحده، بل تتعلق بروابط منطقية قائمة بين المفردات، وقد توسع في ذكر تلك العلاقات مما يضفي على النص القرآني خصوصية تميزه عن بقية النصوص الأخرى خاصة من جهة التركيب الذي تخضع مكوناته في بنائها – بجانب الروابط النحوية القائمة فيما بينها – إلى نظام ترتيبي يظهر بالقواعد النحوية من ناحية، وبرصد العلاقات الدلالية والمنطقية القائمة بين مكونات التركيب من ناحية أخرى، وخير مثال على ذلك – علاوة على ما مر بنا- فطنة الزركشي للعلاقة الترتيبية بين النساء والبنين والمال من حيث محبة الإنسان لها وحاجته إليها في " قوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾[172]، وأخر ذكر الذهب والفضة عن النساء والبنين لأنهما أقوى في الشهوة الجبلية من المال، فإن الطبع يحث على بذل المال فيحصل النكاح، والنساء أقعد من الأولاد في الشهوة الجبلية، والبنون أقعد

166 المجادلة،الآية ٧
167 البرهان،ص٢٤٢،ج٣
168 سبأ،الآية ٤٦
169 البرهان،ص٢٤٣،ج٣
170 البقرة،الآية٣٢
171 البرهان،ص٢٤٤،ج٣
172 آل عمران، الآية١٤

من الأموال، والذهب أقعد من الفضة، والفضة أقعد من الأنعام، إذ هي وسيلة إلى تحصيل النعم، فلما صدرت الآية بذكر الحب وكان المحبوب مختلف المراتب اقتضت حكمة الترتيب أن يقدم ما هو الأهم فالأهم في رتبة المحبوبات "[173]

من النص السابق نجد أن الرابط النحوي بين النساء والبنين والمال هو رابط العطف في هذه الآية، وقد افترض الزركشي ترتيبا دلاليا منطقيا بين تلك المعطوفات، وهذا ما يحيلنا إلى أن الترتيب داخل التركيب ليس ترتيبا اعتباطيا، بل هو محكوم بعلاقات تركيبية قائمة بين مكونات التركيب .

ومن تلك العلاقات المنطقية القائمة بين المفردات التي توجب ترتيبا معينا داخل التركيب ما أسماه الزركشي التقديم بالرتبة والمقصود الرتبة المكانية، فالأقرب من الناحية المكانية يقدم في التركيب على الأبعد والأكثر بعدا وهكذا، ومثل الزركشي لذلك الترتيب بين " الطائفين " و " العاكفين " و " الركع " و" السجود " حسب القرب من البيت الحرام، فقرب الطائفين من البيت كان سببا في التقديم، ويليهم العاكفون في القرب فالركع السجود " ومنه قوله تعالى ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[174]، فقدم الطائفين لقربهم من البيت، ثم ثنى بالقائمين وهم العاكفون لأنهم يخصون موضعا بالعكوف والطواف بخلافه فكان أعم منه، والأعم قبل الأخص، ثم ثلث بالركوع لأن الركوع لا يلزم أن يكون في البيت ولا عنده "[175]

وقد رصد الزركشي في ترتيب المفردات داخل التركيب حسب الأشرفية ثلاثة عشر نوعا[176] يقدم فيها الأشرف على الشريف في التركيب، ومن ذلك تقديم الرسول على النبي في النص القرآني لشرف الرسالة " الشرف وهو أنوع، منها شرف الرسالة، كقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾[177]، فإن الرسول أفضل من النبي خلافا لابن عند السلام.

173 البرهان،ص٢٤٤،ج٣
174 البقرة ، الآية ١٢٥
175 البرهان ،ص٢٤٦،ج٣
176 هي شرف الرسالة ، شرف الذكورة ، شرف الحرية ، شرف العقل ، شرف الإيمان ، شرف العلم ، شرف الحياة ، شرف المعلوم ، شرف الإدراك ، شرف المجازاة ، شرف العموم ، شرف الإباحة ، شرف الفضيلة ، انظر البرهان ص٢٤٨، ج٣، و ما بعدها
177 الحج، الآية ٥٢

وقولـــــه ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾[178] ،﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾[179] ، "[180].

ومن ذلك شرف العموم ومثل له الزركشي بأسبقية العفوّ على الغفور في الترتيب داخل التركيب في النص القرآني لعموم العفو وخصوص المغفرة " ومنها شرف العموم، فإن العام أشرف من الخاص كتقديم العفو على الغفور، أي عفو عما لا يؤاخذنا به مما نستحقه بذنوبنا، غفور لما واخذنا به في الدنيا قبلنا ورجعنا إليه، فتقدم العفو على الغفور لأنه أعم، وأخرت المغفرة لأنها أخص "[181].

ومن العلاقات المؤثرة في ترتيب المفردات داخل التركيب الغلبة والكثرة ومثل لها الزركشي بالعلاقة الترتيبية بين السارق والسارقة، والزانية والزاني في النص القرآني من خلال تقديم السارق لغلبة السرقة في الذكور عن الإناث، وتقديم الزانية لكثرة الزنا في الإناث عن الذكور على حد تعبير الزركشي " وجعل من هذا النوع قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾[182]،لأن السرقة في الذكور أكثر، وقدم في الزنى المرأة في قوله ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾[183]، لأن الزنى فيهن أكثر"[184]

ومن الجدير بالذكر أن الزركشي قد ربط بين العلاقة الترتيبية القائمة بين المفردات في التركيب وبين الدلالة، فتقديم مفردة على أخرى في التركيب يكون لغرض دلالي، ومن ذلك دلالة الحث ومثل لها بتقديم " الوصية " على " الدين "، وتقديم "الإناث " على " الذكور" ليربط بين هذا الترتيب في التراكيب وبين دلالة الحث على الوفاء بالوصية، والحث على الإحسان إلى الإناث " الحادي عشر للحث عليه خيفة من التهاون به: كتقديم تنفيذ الوصية على وفاء الدين في قوله ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾[185] ، فإن وفاء الدين سابق على الوصية، لكن قدم الوصية لأنهم كانوا يتساهلون بتأخيرها بخلاف الدين.

178 الأعراف،الآية ١٥٧
179 مريم،الآية ٥٤
180 البرهان ، ص٢٤٨،ج٣
181 البرهان،ص٢٥٠،ج٣
182 المائدة،الآية ٣٨
183 النور،الآية ٢
184 البرهان،ص٢٥٦،ج٣
185 النساء ، الآية ١١

ونظيره: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا ﴾[186] ، قدم الإناث حثا على الإحسان إليهن "[187]

ومن ذلك دلالة التعجب ومثل لها الزركشي بتقديم " الجبال " على " الطير" ليربط بين هذا الترتيب وبين أسبقية الأعجب والأدل على القدرة وهي الجبال وتسخيرها من الطير" التعجيب من شأنه كقوله تعالى ﴿ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ ﴾[188] ، قال الزمخشري: قدم الجبال على الطير لأن تسخيرها له وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز لأنها جماد، والطير حيوان ناطق "[189].

هذا وقد ربط الزركشي بين ترتيب المفردات داخل التركيب العطفي وبين ترتيب الأسباب " للتنبيه على أن السبب مرتب كقوله تعالى ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ ﴾[190] ، قدم الجباه ثم الجنوب لأن مانع الصدقة في الدنيا كان يصرف وجهه أولا عن السائل ثم ينوء بجانبه ثم يتولى بظهره "[191]

اكتمال التركيب ووحدته

إن الصورة المثالية للتركيب التي تحقق للتركيب اكتماله من الناحية الشكلية والدلالية عند الزركشي تتمثل في الوقف أثناء تلاوة آيات القرآن الكريم، فبالرغم من أن الوقف والوصل خلال تلاوة القرآن الكريم منقول عن القراء عن الرسول- عليه الصلاة و السلام - إلا أننا نجد أن الزركشي يرجع ذلك – حسب ما فهمنا من تناوله للوقف والوصل- إلى اكتمال التركيب بشقيه الشكلي والدلالي فلا وقف على تركيب له متعلقات لفظية أو دلالية بعده كما لا يجوز الفصل بين المفردات النحوية ومتبوعاتها مثل التركيب الوصفي – على سبيل المثال- خلال عملية التلاوة "

186 الشورى، الآية ٤٩
187 البرهان ، ص٢٦٠،ج٣
188 الأنبياء ، الآية ٧٩
189 البرهان ، ص٢٦٨،ج٣
190 التوبة ، الآية ٣٥
191 البرهان ، ص٢٦٣ ،ج٣

والحسن هو الذي لا يحسن الوقوف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعده لتعلقه به في اللفظ والمعنى نحو: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[192]،.....

والقبيح هو الذي لا يفهم منه المراد نحو﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾[193] ، فلا يوقف عليه ولا على الموصوف دون الصفة، ولا على البدل دون المبدل منه، ولا على المعطوف دون المعطوف عليه نحو:﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ ﴾[194]، ولا على المجرور دون الجار.....

والحاصل أن كل شيء كان تعلقه بما قبله كتعلق البدل والمبدل منه أو أقوى لا يجوز الوقوف عليه "[195] .

اكتمال تلك التراكيب التي تناولها الزركشي في النص السابق من التركيب الوصفي والعطفي وغيرهما مما لا يحسن الوقوف على مكون منه دون الآخر- بجانب الاكتمال الشكلي- له اكتمال دلالي حيث إن للتركيب دلالة لا تتحقق إلا بمجموع مكونات التركيب، فالتركيب العطفي خاصة بين مترادفين- على سبيل المثال- يتميز بدلالة تزيد على دلالة مكوناته كل على حدا، فينبه الزركشي على ذلك بقوله: " مما يدفع وهم التكرار في هذا النوع أن يعتقد أن مجموع المترادفين يحصل معنى لا يوجد عند انفراد أحدهما فإن التركيب يحدث معنى زائدا، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى فكذلك كثرة الألفاظ "[196] .

إن وحدة التركيب عند الزركشي التي نستشفها من النصين السابقين بمعنى أن التركيب العطفي قائم بذاته وله دلالة معينة ربما تختلف عن دلالة مكوناته- ومثله التركيب الوصفي والبدلي- هي ما جعلنا نربط بين ما تناوله الزركشي في درس الوقف والوصل خلال تلاوة القرآن الكريم وبين مثالية التركيب واكتماله، فإن الزركشي قد منع الوقوف على أحد مكونات التركيب دون الآخر ولم يذكر أسباب ذلك كأنها تنبيهات عامة، وهذا ما حدا بنا بالبحث عن تلك الأسباب، وتم ذلك عن طريق الكشف عن تصور الزركشي لتلك التراكيب ووحدتها.

192 الفاتحة ، الآية ٢
193 الفاتحة، الآية ٢
194 الحاقة، الآية ٤
195 البرهان، ص٣٩٤-٣٩٩ ،ج١
196 البرهان ، ص٤٦١ ،ج٢

دلالة التركيب

إن التركيب مثله مثل بقية مستويات الأسلوب مرتبط عند الزركشي بالدلالة في النص القرآني، فلا يكاد يخلو تناول الزركشي للتراكيب المختلفة في النص القرآني من البحث عن دلالة تلك التراكيب من ناحية، أو على الأقل رصد تأثير تلك التراكيب على وضوح الدلالة أو غموضها من ناحية أخرى.

ويتضح تأثير التركيب في الدلالة من خلال بحث الزركشي في ظاهرة الإجمال باعتبارها مظهرا من مظاهر غموض الدلالة، فقد أورد الزركشي العديد من المؤثرات التي تؤدي إلى الإجمال الدلالي في النص القرآني، ما يهمنا منها هنا ما يخص التركيب، وقد أرجع الزركشي هذا الإجمال إلى عدم وضوح العلاقة النحوية بين مكونات التركيب، ومن ذلك – على سبيل المثال- أن عدم الجزم بعودة الضمير على أحد مكونات التركيب جعل الزركشي يختار عودته على أحد مكونات التركيب مستندا على القواعد الشرعية ليخرج بالآية عن هذا الإجمال " الثالث: من تعيين الضمير كقوله تعالى ﴿ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحُ ﴾[197] ، فالضمير في " يده " يحتمل عوده على الولي وعلى الزوج، ورجح الثاني لموافقته للقواعد، فإن الولي لا يجوز أن يعفو عن مال يتيمه بوجه من الوجوه، وحمل الكلام المحتمل على القواعد الشرعية أولى "[198]

ومن تلك العلاقات التركيبية علاقة العطف واحتمالها بتركيب آخر، بمعنى أن أحد مكونات التركيب يحتمل في ارتباطه بغيره رابطة العطف أو لا يحتمل وذلك يؤثر في الإجمال الدلالي " الرابع: من مواقع الوقف والابتداء كقوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[199]، فقوله " الراسخون " يحتمل أن يكون معطوفا على اسم الله تعالى، ويحتمل أن يكون ابتداء كلام، وهذا الثاني هو الظاهر"[200] .

197 البقرة ،الآية ٢٣٧
198 البرهان ،ص٢٠٥ ،ج٢
199 آل عمران ، الآية ٧
200 البرهان ،ص٢٠٦ ،ج٢

دلالة التركيب على التوكيد

أفرد الزركشي لدلالة التوكيد كمّا لا بأس به من الشواهد القرآنية التي تدل على التوكيد، وما لفت نظرنا أن الزركشي قد رصد التراكيب المختلفة التي تدل على التوكيد في النص القرآني باعتبار التوكيد أسلوبا على حد تعبيره .

وتناول الزركشي للتوكيد بهذه الكيفية جعلنا نفرد له مساحة في هذا الفصل باعتبار أن الزركشي قد أورد دلالة التوكيد أولا ثم حدد لها ما يدل عليها من القوالب التركيبية أو الظواهر التركيبية " الأسلوب الأول التأكيد: والقصد منه الحمل على ما لم يقع ليصير واقعا "[٢٠١].

وقد أدرج الزركشي تحت التوكيد ثمانية وعشرين نوعا هي على حد تعبيره: التوكيد الصناعي، الصفة، البدل، عطف البيان، ذكر الخاص بعد العام، ذكر العام بعد الخاص، عطف أحد المترادفين على الآخر، الإيضاح بعد الإبهام، وضع الظاهر موضع المضمر، الألفاظ الدالة على التكثير والمبالغة، المثنى و إرادة الواحد، إطلاق الجمع وإرادة الواحد،إطلاق لفظ التثنية والمراد الجمع، التكرار على وجه التأكيد، الزيادة في بنية الكلمة، التفسير، خروج اللفظ مخرج الغالب، القسم، إبراز الكلام في صورة المستحيل، الاستثناء والاستدراك، المبالغة، الاعتراض، الاحتراس، التذييل، التتميم، الزيادة، الاشتغال، التعليل.

ويقسم الزركشي المؤكدات إلى صناعية ومعنوية " في تقسيمه: وهو صناعي يتعلق باصطلاح النحاة، ومعنوي و أقسامه كثيرة "[٢٠٢]

ومن ذلك دلالة المصدر أو مرادفه على التوكيد " فاللفظي تقرير معنى الأول بلفظه أو مرادفه فمن المرادف ﴿ فِجَاجًا سُبُلًا ﴾[٢٠٣] ، "[٢٠٤]

أما المصدر فيشترط أن يكون نكرة " واللفظي يكون في الاسم النكرة بالإجماع نحو﴿ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا ﴾[٢٠٥] ، "[٢٠٦]

201 البرهان ، ص ٣٧٠ ، ج ٢
202 البرهان ، ص ٣٧١ ، ج ٢
203 الأنبياء ، الآية ٣١
204 البرهان ، ص٣٧١ ،ج٢
205 الإنسان ، الآيتان ١٥- ١٦
206 البرهان ، ص ٣٧١ ،ج ٢

ودلالة الحال على التوكيد وقد ربط الزركشي بين دلالتها على التوكيد والسبب في هذا الربط " الثاني الحال المؤكدة: وهي الآتية على حال واحدة عكس المبينة، فإنها لا تكون إلا منتقلة وهي لتأكيد الفعل كما سبق في المصدر المؤكد لنفسه؛ وسميت مؤكدة لأنها تعلم قبل ذكرها، فيكون ذكرها توكيدا لأنها معلومة من ذكر صاحبها كقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[٢٠٧] ، "[٢٠٨]

ويرصد الجملة الاسمية والأدوات المؤكدة لها، ومن ذلك الجملة الاسمية المنسوخة فيحدد لها من الأدوات الناسخة " إن ، أن ، كأن ، لكن " دون بقية الأدوات " مؤكدات الجملة الاسمية: الأول التأكيد بـ" إن" قال تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾[٢٠٩] ، "[٢١٠]

ويمثل لدلالة الجملة الاسمية المنسوخة على التوكيد ذاكرا فائدة التوكيد من إزالة حيرة المخاطب " ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢١١] ، فإن قوله تعالى ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ ﴾ ، أورث المخاطب حيرة: كيف لا ينزه نفسه مع كونها مطمئنة زكية ! فأزال حيرته بقوله تعالى﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾في جميع الأشخاص ﴿ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ إلا المعصوم "[٢١٢]

ويشير الزركشي إلى التدرج الدلالي للجملة الاسمية الدالة على التوكيد بورود " لام الابتداء " في الجملة المنسوخة بـ" إن " ، فتدل الجملة الاسمية على زيادة التوكيد " لام الابتداء: نحو ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[٢١٣] ، وهي تفيد تأكيد مضمون الجملة ولهذا زحلقوها في باب " إن " عن صدر الجملة كراهية ابتداء الكلام بمؤكدين ولأنها تدل بجهة التأكيد، و"إن " تدل بجهتين: العمل والتأكيد، والدال بجهتين مقدم على الدال بجهة كنظيره في الإرث وغيره، وإذا جاءت " إن"

207 مريم ، الآية ٣٣
208 البرهان ، ص ٣٨٦ ، ج٢
209 فاطر ، الآية ٥
210 البرهان ، ص٣٨٩ ،ج٢
211 يوسف ، الآية ٥٣
212 البرهان ، ص٣٩٠ ،ج٢
213 إبراهيم و الآية ٣٩

كان بمنزلة تكرار الجملة ثلاث مرات، لأن " إن" أفادت التكرير مرتين؛ فإذا دخلت " اللام " صارت ثلاثا "[٢١٤]

ويرصد الزركشي دلالة الجملة الفعلية وأدواتها على التوكيد، ومن ذلك الجملة الفعلية المصدرة بـ" قد "، " وأما مؤكدات الجملة الفعلية فأنواع: أحدها " قد"، فإنها حرف تحقيق وهو معنى التأكيد "[٢١٥].

وتدل الجملة الفعلية المصدرة بـ" قد " مع الفعل الماضي أو المضارع على التوكيد ويربط الزركشي بين دلالة المضارع المسبوق بـ" قد" على التعليل وبين دلالته على التوكيد في سياق الوعيد في بعض الآيات " وتدخل على الماضي نحو:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[٢١٦] ، والمضارع نحو:﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾[٢١٧] ،﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾[٢١٨] ، قال الزمخشري: دخلت " قد " لتوكيد العلم، ويرجع ذلك لتوكيد الوعيد، وبهذا يجاب عن قولهم : إنما تفيد التعليل مع المضارع "[٢١٩].

ويرصد دلالة النون الداخلة على الفعل المضارع على التوكيد ذاكرا مواضعها في النص القرآني " النون الشديدة، وهي بمنزلة ذكر الفعل ثلاث مرات، وبالحقيقة فهي بمنزلة ذكره مرتين قيل: وهذان النونان لتأكيد الفعل في مقابلة تأكيد الاسم بـ" إن" و" اللام "، ولم يقع في القرآن التأكيد بالحقيقة إلا في موضعين:﴿ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[٢٢٠]، وقوله تعالى ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾[٢٢١] ، "[٢٢٢]

ويرصد الزركشي عطف البيان باعتباره واحدا من التراكيب الدالة على التوكيد، ويربط بين دلالة التوكيد والإيضاح، ومن الجدير بالذكر أن الزركشي تناول عطف البيان مع متبوعه باعتباره تركيبا واحدا دالا على الإيضاح والبيان، وذلك برفض ما شرطه الزمخشري بوجوب دلالة عطف البيان على زيادة الوضوح بالنسبة إلى متبوعه " عطف البيان: وهو كالنعت في الإيضاح وإزالة الاشتراك

214 البرهان ، ص٣٩٢ ،ج٢
215 البرهان ، ص٤٠٢ ، ج ٢
216 الشمس ، الآية ٩
217 الأنعام ، الآية ٣٣
218 النور ، الآية ٦٤
219 البرهان ، ص٤٠٣، ج٢
220 يوسف ،الآية ٣٢
221 العلق ،الآية ١٥
222 البرهان ، ص٤٠٤ ،ج٢

الكائن فيه، وشرط صاحب الكشاف فيه أن يكون وضوحه زائدا على وضوح متبوعه، ورد ما قاله بأن الشرط حصول زيادة الوضوح بسبب انضمام عطف البيان مع متبوعه، لا أن الشرط كونه أوضح وأشهر من الأول، لأن من الجائز أن يحصل باجتماع الثاني مع الأول زيادة وضوح لا تحصل حال انفراد كل واحد منهما، كما في " خالي أبو عبد الله زيد " مع أن اللقب أشهر؛ فيكون في كل واحد منهما خفاء بانفراده ويرفع بالانضمام "[٢٢٣].

ويرصد دلالة عطف البيان ومتبوعه على المدح بجانب دلالة الإيضاح " عطف البيان وضع ليدل على الإيضاح باسم يختص به، وإن استعمل في غير الإيضاح كالمدح، كما في قوله تعالى ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾[٢٢٤] ، فإن ﴿ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ عطف جيء به للمدح لا للإيضاح "[٢٢٥]

دلالة الذكر

رصد الزركشي الذكر في عدة مواضع من كتابه البرهان، وقد ربط بين الذكر من ناحية والدلالة في النص القرآني من ناحية أخرى، بمعنى أن تحرك الزركشي لرصد الذكر لا يخلو من رصد دلالاته، وذلك على المستويين النظري والتطبيقي .

ومن ذلك دلالة الذكر على الاختصاص " قلنا لتخصيص الشيء بالذكر فوائد منها: اختصاصه في جنسه بشيء لا يشركه فيه غيره من جملة الجنس كما في هذه الآية، أعني قوله ﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا ﴾[٢٢٦] ، إلى قوله ﴿ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾[٢٢٧] ، إن المتعمد إنما خص بالذكر لما عطف عليه في آخر الآية من الانتقام الذي لا يقع إلا في العمد دون الخطأ "[٢٢٨].

ومن ذلك دلالة الذكر على التعظيم الذي يميز الشيء عن جنسه ومثل بذلك بذكر الأشهر الحرم لتعظيمها وبيان أفضليتها على بقية الشهور في النص القرآني "

223 البرهان ، ص٤٤٥ ،ج٢
224 المائدة ، الآية ٩٧
225 البرهان ،ص٤٤٥ ، ج٢
226 المائدة ، الآية ٩٥
227 المائدة، الآية ٩٥
228 البرهان ،ص٢١ ،ج٢

ومنها ما يخص بالذكر تعظيما له على سائر ما هو من جنسه كقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[229] ، فخص النهي عن الظلم فيهن وإن كان الظلم منهيا عنه في جميع الأوقات تفضيلا لهذه الأشهر وتعظيما للوزر فيها "[230]

ومن ذلك دلالة الذكر في النص القرآني على غلبة الوصف على المذكور " ومنها أن يكون ذلك الوصف هو الغالب عليه كقوله تعالى ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾[231] ، الآية، فإن الغالب من حال الربيبة أنها تكون في حجر أمها "[232]

دلالة التكرار

اتضح فيما مر بنا ما تناوله الزركشي من دلالات التراكيب المختلفة، وإذا كان التركيب عند الزركشي مرتبط بالدلالة، فإن تكرار التركيب مرتبط أيضا بالدلالة عنده، وهو ما تناوله الزركشي تحت البنى الدالة على التوكيد من ناحية، وارتباطه بدلالات أخرى علاوة على تأثيره على المتلقي للنص القرآني من ناحية أخرى.

فالتكرار مرتبط عند العرب عموما والنص القرآني خصوصا بسياق الوعد والوعيد والمواعظ على حد تعبير الزركشي من ناحية، ومرتبط بالتأثير على المتلقي للنص القرآني، وهذا التأثير من تكرار التراكيب في السياقات السابقة من ناحية أخرى، وهو ما عبر عنه الزركشي بأن التكرار يقمع شهوات الإنسان التي جبل عليها " وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظنا أنه لا فائدة له، وليس كذلك، بل هو من محاسنها لا سيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه أو قصدت الدعاء عليه كررته توكيدا، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء عليه حيث تقصد الدعاء، وإنما نزل القرآن بلسانهم وكانت مخاطباته جارية فيما بين

229 التوبة ، الآية ٣٦
230 البرهان ،ص٢١ ،ج ٢
231 النساء ، الآية ٢٣
232 البرهان ،ص٢١ ،ج٢

بعضهم البعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة، وعلى ذلك يحمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة، وكلها داعية إلى الشهوات ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع "[233]

أما دلالات التكرار فمنها دلالة التقرير المرتبطة بتذكير المتلقي بالتركيب " وفائدته العظمي التقرير، وقد قيل: إن الكلام إذا تكرر تقرر.....

وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسي الأول لطول العهد به"[234]

ويدل تكرار النداء في النص القرآني على زيادة التنبيه المرتبط بالتأثير على المخاطب لضمان تجاوبه مع النص " الثاني: زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة؛ ليكمل الكلام بالقبول، ومنه قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾[235] ، فإنه كرر فيه النداء لذلك "[236]

ومن ذلك دلالة تكرار التركيب على التعجب وذلك في التراكيب الدالة على الدعاء على المخاطب في النص القرآني " السادس التعجب كقوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[237] ، فأعيد تعجبا من تقديره وإصابته الغرض، على حد: قاتله الله ما أشجعه! "[238]

233 البرهان ،ص٩ ،ج٣
234 البرهان ،ص١٠ ،ج ٣
235 غافر ، الآيتان ٣٨-٣٩
236 البرهان ، ص ١٤،ج ٣
237 المدثر ، الآيتان ١٩-٢٠
238 البرهان ،ص١٧ ،ج٣

القوالب التركيبية

- التركيب الشرطي

يعد الشرط من القوالب التركيبية التي أفرد لها الزركشي الدرس في كتابه البرهان، ويتجلى في تناول الزركشي للشرط ارتباط التراكيب في قالب واحد تنصهر فيه التراكيب في بوتقة الشرط لتخرج قالبا واحدا يتميز بدلالة محددة، وهذا ما نجده خلال تناول الزركشي لقالب الشرط المتكون من جملتين هما جملة فعل الشرط وجملة جواب الشرط " المجازاة إنما تنعقد بين جملتين أولاهما فعلية لتلائم الشرط مثل قوله تعالى ﴿ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ ﴾[239] ، ﴿ كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ ﴾[240]، ﴿ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ ﴾[241] ﴿ نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾[242]، ﴿ يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى ﴾[243].

وثانيهما قد تكون اسمية، وقد تكون فعلية جازمة وغير جازمة أو ظرفية أو شرطية كقوله تعالى ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾[244] ، ﴿ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ ﴾[245] ، ﴿ فَأۡتِ بِهَآ ﴾[246]، ﴿ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِۖ ﴾[247]، ﴿ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ﴾[248]، ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾[249].

فإذا جمع بينهما وبين الشرط اتحدتا جملة واحدة نحو قوله ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾[250]، وقوله سبحانه ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ ﴾[251]، .....

239 الأنعام ،الآية ١٢٥
240 الأعراف ، الآية ١٠٦
241 الأعراف ، الآية ١٤٣
242 يونس ، الآية ٤٦
243 البقرة ، الآية ٣٨
244 النساء ، الآية ١٢٤
245 الأنعام ، الآية ١٢٥
246 الأعراف ، الآية ١٠٦
247 الأعراف ، الآية ١٤٣
248 يونس ، الآية ٤٦
249 البقرة ، الآية ٣٨
250 النساء ، الآية ١٢٤
251 الأنعام ، الآية ١٢٥

فالأولى من جملة المجازاة تسمى شرطا والثانية تسمى جزاء، ويسمي المناطقة الأول مقدما والثاني تاليا، فإذا انحل الرباط الواصل بين طرفي المجازاة عاد الكلام جملتين كما كان "[252].

من النص السابق تتضح نظرة الزركشي لقالب الشرط باعتباره تركيبا واحدا ارتبطت فيه جملة الشرط بجملة الجزاء وهو ما أوضحه بسرد جمل الشرط وحدها وسرد جمل الجزاء وحدها ثم الجمع بين جمل الشرط والجزاء لتكوّن قوالبا من جمل الشرط.

واعتبار الزركشي لوحدة التركيب الشرطي يتضح أكثر من خلال تناوله للحذف من التركيب الشرطي لأجل التخفيف من طول التركيب ويصرح خلال هذا التناول بأن الشرط والجواب جملة واحدة " والسر في حذفه في هذه المواضع أنها لما ربطت إحدى الجملتين بالأخرى حتى صارا جملة واحدة أوجب ذلك لها فضلا وطولا؛ فخفف بالحذف خصوصا مع الدلالة على ذلك "[253].

ويتضح الشرط باعتباره رابطا في حد ذاته من تحديد الزركشي للقوالب المختلفة للشرط، بمعنى أن قالب الشرط المتكون من جملتين فعليتين يكون الرابط بينهما هو ترتب الجزاء على الشرط بدون رابط لفظي، أما الشرط المتكون من جملتين وتكون جملة الجزاء غير فعلية، أو فعلية صدرت بفعل الأمر فتحتاج إلى رابط لفظي " لا يمكن أن يرتبط التالي بذاته ارتباطا، وذلك إن كان افتتح بغير الفعل كقوله ﴿ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ ﴾[254] ، وقوله سبحانه ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ ﴾[255]، لأن الاسم لا يدل على الزمان فيجازى به.

وكذلك الحرف إن كان مفتتحا بالأمر كقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[256]، لأن الأمر لا يناسب معناه الشرط، فإن كان مفتتحا بفعل ماض أو مستقبل ارتبط بذاته، نحو قولك:" إن جئتني أكرمتك "، ونحو قوله ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾[257] ، "[258]

252 البرهان ،ص٣٣٨ ، ج٢
253 البرهان ،ص١٨٠ ، ج ٣
254 البقرة ، الآية ١١٥
255 الأنعام ، الآية ١٦٠
256 الحجرات ، الآية ٦
257 محمد ، الآية ٧

بالتأمل في النص السابق نستطيع أن نلتمس التناسب بين جملتي القالب الشرطي من خلال الأسباب التي أبداها الزركشي في حاجة الجملة الاسمية الواقعة جزاء لجملة الشرط – وهي جملة فعلية تتضمن الزمن عكس الجملة الاسمية - إلى الفاء لأنها لا تحقق التناسب مع جملة الشرط حيث إن الجملة الاسمية لا تدل على الزمان.

كذلك جملة الأمر الواقعة جزاء لجملة الشرط – وهي جملة فعلية تدل على الشرط - في حاجة إلى الرابط اللفظي لأنها لا تحقق التناسب مع جملة الشرط حيث إن جملة الأمر لا تدل على الشرط أو المجازاة.

وهذه الأسباب تعكس التناسب بين جملتي الشرط الفعليتين سواء صدرتا بالفعل الماضي أو المضارع، ومن الممكن أن يكون هذا التناسب بهذه الكيفية هو الرابط بين الجملتين ليكونا قالبا واحدا من التركيب الشرطي، وهو ما فهمناه من ارتباط جملة الجزاء الفعلية بذاتها دون رابط لفظي مع جملة الشرط على حد تعبير الزركشي.

يرتبط التركيب الشرطي عند الزركشي بالمستقبل حيث تمثل قاعدة الشرط عنده دلالة فعل الشرط ودلالة جواب الشرط على المستقبل، ولما خرجت بعض قوالب التركيب الشرطي عن هذه القاعدة بورود صيغة الماضي، كشفنا النقاب عن تصور الزركشي لهذا الخروج بالعدول اللفظي عن صيغة المستقبل إلى صيغة الماضي المرتبط بالدلالة في النص القرآني، بمعنى أن الشرط صيغته مستقبل ودلالته مستقبل والعدول عن صيغة المستقبل يكون لغرض دلالي " أنه لا يتعلق إلا بمستقبل؛ فإن كان ماضي اللفظ كان مستقبل المعنى كقولك " إن مت على الإسلام دخلت الجنة " ثم للنحاة فيه تقديـــــران :

أحدهما : أن الفعل يغير لفظا لا معنى فكأن الأصل " إن تمت مسلما تدخل الجنة " فغير لفظ المضارع إلى الماضي تنزيلا له منزلة المحقق.

والثاني:أنه يغير معنى، وأن حرف الشرط لما دخل عليه قلب معناه إلى الاستقبال وبقى لفظه على حاله.

والأول أسهل؛ لأن تغيير اللفظ أسهل من تغيير المعنى "[٢٥٩].

---

258 البرهان ، ص٣٤٠ ،ج٢
259 البرهان ، ص٣٤٢ ، ج٢

ومن هذا النص نكشف عن نظرة الزركشي للعدول اللفظي من المستقبل إلى الماضي بتبني رأي النحاة الأول لتضاف إلى دلالة الشرط دلالة التحقق المستقاة من صيغة الماضـــي.

هذا وقد رصد الزركشي دلالات التركيب الشرطي الوارد بصيغة الماضي علاوة على رصد تأثيره على المتلقي، ومن ذلك دلالة الإيهام التي توهم المتلقي بأن غير الحاصل مثل الحاصل " يجيء فعل الشرط ماضي اللفظ لأسباب: منها إيهام جعل غير الحاصل كالحاصل ، كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا ﴾[٢٦٠] ، "[٢٦١]

ودلالة إظهار الرغبة في وقوع الشرط " ومنها: إظهار الرغبة من المتكلم في وقوعه، كقولهم " إن ظفرت بحسن العاقبة فذاك "، وعليه قوله تعالى ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾[٢٦٢] ، أي امتناعا من الزنا، جيء بلفظ الماضي ولم يقل " يردن" إظهارا لتوفير رضا الله، ورغبة في إرادتهن التحصين "[٢٦٣]

ومنها دلالة التعريض " ومنها: التعريض بأن يخاطب واحدا ومراده غيره، كقوله تعالى ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[٢٦٤] ، "[٢٦٥]

اتضح فيما مر بنا أن الزركشي تناول التركيب الشرطي باعتباره تركيبا واحدا انصهرت فيه جملتا الشرط والجزاء، ونقترب من تصور الزركشي لتلك الوحدة التركيبية من شقين مرتبطين ارتباطا وثيقا بالقوالب التركيبية عند الزركشي، يتمثل الشق الأول في رصد الزركشي لدلالة التركيب الشرطي في النص القرآني، والشق الثاني في رصد تأثير التركيب الشرطي على المتلقي.

ومن ذلك تناول الزركشي لـ " إن" الشرطية باعتبارها أم الباب ورصد دلالتها على الشرط في النص القرآني " وأقواها دلالة على الشرط دلالة "إن" لبساطتها ولهذا كانت أم الباب "[٢٦٦].

---

260 الإنسان ،الآية ٢٠
261 البرهان ، ص٣٤٤ ،ج٢
262 النور ،الآية ٣٣
263 البرهان ، ص٣٤٥ ،ج٢
264 الزمر ، الآية ٦٥
265 البرهان ،ص٣٤٥ ،ج٢
266 البرهان ، ص٣٤٦ ،ج٢

ويحدد للتركيب الشرطي المتصدر بـ" إن" عدة دلالات ترتبط بالتأثير على المتلقي مثل دلالة تحقق الجواب ووضوح تحققه " منها أن تأتي على طريقة وضع الشرط المتصل الذي يوضع شرطه تقديرا لتبيين مشروطه تحقيقا، كقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾[267]، وقوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[268]، "[269].

ودلالة تبيين الحال المؤثرة في تجاوب المتلقي مع التركيب الشرطي " ومنها أن تأتي على طريق تبيين الحال على وجه يأنس به المخاطب، وإظهارا للتناصف في الكلام، كقوله تعالى﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾[270]، "[271].

ودلالة التوبيخ المرتبطة بتجاوب المتلقي مع النص القرآني بالامتناع عما نهي عنه " ومنها لقصد التوبيخ والتجهيل في ارتكاب مدلول الشرط وأنه واجب الانتفاء حقيق ألا يكون، كقوله تعالى﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾[272]، فيمن كسر " إن"، فاستعملت " إن" في مقام الجزم بكونهم " مسرفين" لتصور أن الإسراف ينبغي أن يكون منتفيا، فأجراه لذلك مجرى المحتمل المشكوك "[273].

ومن ذلك تنبيه المتلقي وتهييجه للتجاوب مع النص القرآني والامتثال لما أمر به " ومنها تنبيه المخاطب وتهييجه، كقوله تعالى ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[274]، والمعنى عبادتكم لله تستلزم شكركم له، فإن كنتم ملتزمين عبادته فكلوا من رزقه واشكروه، وهذا كثيرا ما يورد في الحجاج والإلزام "[275].

267 الزخرف ، الآية ٨١
268 الأنبياء ، الآية ٢٢
269 البرهان ، ص٣٤٦ ،ج٢
270 سبأ ،الآية ٥٠
271 البرهان ، ص٣٤٧ ،ج٢
272 الزخرف ، الآية ٥
273 البرهان ، ص٣٤٧ ،ج٢
274 البقرة ، الآية ١٧٢
275 البرهان ، ص٣٤٧ ،ج٢

ومن ذلك دلالة التركيب الشرطي على التغليب " ومنها التغليب كقوله تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾[276]، وقوله تعالى:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾[277]، فاستعمل " إن" مع تحقق الارتياب منهم، لأن الكل لم يكونوا مرتابين، فغلب غير المرتابين منهم على المرتابين، لأن صدور الارتياب من غير المرتاب مشكوك في كونه، فلذلك استعمل " إن" على حد قوله ﴿ إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم ﴾[278]، "[279].

- التركيب الوصفي

تناول الزركشي التركيب الوصفي من عدة جوانب تكشف لنا عن تصوره للقوالب التركيبية والعلاقات الداخلية القائمة بين مكونات التركيب من ناحية، ووحدة التركيب ودلالته من ناحية أخرى .

فالتركيب الوصفي تقوم داخله علاقات بين الموصوف والصفة مثل علاقة التبعية التي تقتضي أن تكون الصفة في مرتبة متساوية أو أقل من الموصوف من حيث الدلالة على التعريف " إن الصفة إنما تكون مثل الموصوف أو دونه في التعريف، وأما أن تكون فوقه فلا؛ لأنها تابعة، والتابع دون المتبوع "[280].

كما تقتضي تلك التبعية أن يقدم الموصوف على الصفة، ويعد العدول عن هذا الترتيب بتقديم الصفة على موصوفها متأثرا بالسياق لتحقيق التناسب بين التراكيب الوصفية المتتالية في سياق واحد من جهة التركيب والدلالة معا " في اجتماع التابع والمتبوع أنهم يقدمون المتبوع فيقولون: أبيض ناصع، وأصفر فاقع، وأحمر قان، وأسود غربيب، قال الله تعالى: ﴿ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾[281]، والمعنى أن التبع فيه زيادة الوصف، فلو قدم لكان ذكر الموصوف بعده عيبا، إلا أن يكون لمعنى أوجب تقديمه.

276 الحج ، الآية ٥
277 البقرة ، الآية ٢٣
278 الأعراف ، الآية ٨٩
279 البرهان ، ص٣٤٧ ، ج٢
280 البرهان ، ص٤٠٩ ،ج٢
281 البقرة ، الآية ٦٩

وقد أشكل على هذه القاعدة قوله تعالى ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[٢٨٢]، .....والذي يظهر في ذلك أن الموجب لتقديم " الغربيب " هو تناسب الكلم وجريانها على نمط متساوي التركيب، وذلك أنه لما تقدم البيض والحمر[٢٨٣] دون إتباع كان الأليق بحسن النسق وترتيب النظام أن يكون " السود" كذلك، ولكنه لما كان في " السود" هنا زيادة الوصف كان الأليق في المعنى أن يتبع بما يقتضي ذلك وهو " الغرابيب" فيقابل حظ اللفظ وحظ المعنى فوفى الخطاب وكمل الغرضان جميعا، ولم يطرح أحدهما الأخر فيقع النقض من جهة الطرح، وذلك بتقديم "الغرابيب" على " السود" فوقع في لفظ " الغرابيب" حظ المعنى في زيادة الوصف، وفي ذكر " السود" مفردا من الإتباع حظ اللفظ؛ إذ جاء مجردا على صورة البيض والحمر، فاتسقت الألفاظ كما ينبغي وتم المعنى كما يجب ولم يخل بواحدة من الوجهين ولم يقتصر على " الغرابيب "، وإن كانت متضمنة لمعنى " السود" لئلا تتنافر الألفاظ "[٢٨٤]

ومن النص السابق نستشف اهتمام الزركشي بالتناسب الواقع بين التراكيب الوصفية من حيث الشكل من ناحية، والدلالة من ناحية أخرى، فتقديم الصفة "غربيب" على الموصوف "سود" أوقع المناسبة بين التراكيب الوصفية في السياق من حيث وقوع اللفظ الدال على اللون تاليا في التركيب من ناحية، وأفاد الدلالة المرادة من حيث زيادة الوصف على السواد من ناحية أخرى.

ويرصد الزركشي العلاقة الترتيبية بين الصفات في التركيب الوصفي من حيث الدلالة، فالصفة الدالة على العموم تقدم على الصفة الدالة على الخصوص في التركيب الوصفي المتعدد الصفات، وعند الإشكال في هذه القاعدة التي حددها الزركشي يخرج بالتركيب الوصفي إلى الحال من الناحية الإعرابية " الصفة العامة لا تأتي بعد الصفة الخاصة: اعلم أن الصفة العامة لا تأتي بعد الصفة الخاصة، لا تقول: هذا رجل فصيح متكلم؛ لأن المتكلم أعم من الفصيح، إذ كل فصيح متكلم ولا عكس.

وإذا تقرر هذا أشكل قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾[٢٨٥]، إذ لا يجوز أن يكون" نبيا " صفة لـ" رسول"؛ لأن النبي أع من الرسول، إذ كل رسول من الآدميين نبي ولا عكس، والجواب أن يقال: أنه حال

[282] فاطر ، الآية ٢٧
[283] يقصد قوله تعالى (و من الجبال جدد بيض و حمر مختلف ألوانها و غرابيب سود) ،فاطر ، الآية ٢٧
[284] البرهان ، ص٤٢٧ ،ج٢
[285] مريم ، الآية ٥٤

من الضمير في " رسولا" والعامل في الحال ما في " رسول" من معنى " يرسل"، أي كان إسماعيل مرسلا في حال نبوته وهي حال مؤكدة "[٢٨٦].

ومن الجدير بالذكر أن التركيب الوصفي مثله مثل بقية القوالب التركيبية يعد كاشفا عن تصور الزركشي لوحدة التركيب، فالقالب التركيبي – فضلا عن العلاقات الداخلية القائمة بين مكوناته – وحدة واحدة، وهذه الوحدة تميز التركيب بدلالة محددة، فدلالة التركيب الوصفي على التعريف – على سبيل المثال – تستفاد من مجموع مكونات التركيب الوصفي من الصفة والموصوف معا؛ لأنهما كالشيء الواحد على حد تعبير الزركشي " فإن قيل: كيف يصح أن يزال إبهام الشيء بما هو أبهم منه ؟

فالجواب: أن التعريف لم يقع بمجرد الصفة، وإنما حصل بمجموع الصفة والموصوف؛ لأنهما كالشيء الواحد "[٢٨٧]

وتتضح وحدة التركيب الوصفي من خلال استكراه الزركشي حذف الموصوف وقيام الصفة مكانه، ويعول في ذلك على دلالات التركيب الوصفي على البيان والتخصيص والمدح والذم بمجموع الصفة والموصوف من ناحية، وتناقض الحذف مع سياق الإطالة التي ترد فيه تلك الدلالات للتركيب الوصفي وتتناسب معه من ناحية أخرى، فنجد الزركشي يدلل على ذلك بمقولة ابن عمرون " الصفة لا تقوم مقام الموصوف إلا على استكراه: لأنها إنما يؤتى بها للبيان والتخصيص، أو المدح والذم، وهذا في موضع الإطالة لا الاختصار، فصار من باب نقص الغرض .

وقال ابن عمرون: عندي أن البيان حصل بالصفة والموصوف معا، فحذف الموصوف ينقص الغرض، ولأنه ربما أوقع لبسا، ألا ترى أن قولك: مررت بطويل، يحتمل أنه رجل أو قوس أو غير ذلك، إلا إذا ظهر أمره ظهورا يستغنى به عن ذكـــره "[٢٨٨]

ويرتبط التركيب الوصفي بالسياق الوارد فيه ارتباطا وثيقا بحيث يتناسب مع سياق الإيجاز من خلال تتابع الصفات في حالة إعرابية واحدة من ناحية، ويتأثر بسياق الإطناب من خلال قطع التتابع الإعرابي للصفات والنصب على المدح أو الذم من ناحية أخـــرى.

[286] البرهان ، ص٤١٣ ،ج٢
[287] البرهان ، ص٤٠٩ ، ج ٢
[288] البرهان ، ص٤٣٥ ، ج٢

ويمثل الزركشي بذلك الارتباط بين التركيب الوصفي والسياق بقول الفارسي ويورد الشواهد التطبيقية التي توضح هذا الارتباط " فصل الجمل في مقام المدح والذم أبلغ من جعلها نمطا واحدا، قال أبو علي الفارسي: إذا ذكرت صفات في معرض المدح والذم، فالأحسن أن يخالف في إعرابها؛ لأن المقام يقتضي الإطناب، فإذا خولف في الإعراب كان المقصود أكمل، لأن المعاني عند الاختلاف تتنوع وتتفنن، وعند الإيجاز تكون نوعا واحدا .

ومثله في المدح قوله ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[289]، فانتصب ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ﴾ على القطع، وهو من صفة المرفوع الذي هو ﴿ وَٱلْمُؤْتُونَ ﴾، وقيل: بل انتصب بالعطف على قوله ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾، وهو مجرور، وكأنه قال " يؤمنون بالذي أنزل إليك وبالمقيمين" أي بإجابة المقيمين، والأول أولى؛ لأن الموضع للتفخيم، فالأليق به إضمار الفعل حتى يكون الكلام جملة لا مفردا "[290].

كما سبق أوضحنا أن تناول الزركشي للتراكيب لا يخلو من الكشف عن دلالاتها، فنجده يرصد التركيب الوصفي في النص القرآني رابطا ذلك التركيب بالدلالة معززا ذلك الربط بالشواهد التطبيقية من آيات القرآن الكريم، فهذا التركيب له عدة دلالات تتحدد بطبيعة مكونات التركيب من الصفة والموصوف، من تلك الدلالات المدح والثناء " الصفة: وتأتي لأسباب، أحدها لمجرد المدح والثناء ومنه صفات الله تعالى كقوله ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[291] ، فليس ذكر الوصف هنا للتمييز؛لأنه ليس له مثل – تعالى الله عن ذلك – حتى يوضح بالصفة "[292].

ومن تلك الدلالات التعميم " قد تجيء للتنبيه على التعميم كقوله تعالى ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾[293]، مع أن المعلوم أنما يؤكل إذا أثمر، فقيل فائدته نفي توهم توقف الإباحة على الإدراك والنضج بدلالته على الإباحة من أول إخراج الثمرة "[294].

289 النساء ، الآية ١٦٢
290 البرهان ، ص٤٢٩، ج٢
291 الفاتحة ، الآية ١
292 البرهان ، ص٤٠٧ ، ج٢
293 الأنعام ، الآية ١٤١
294 البرهان ، ص٤١٦ ،ج٢

ومن ذلك الدلالة على التوكيد " منها قوله ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾[295]، ومعلوم بقوله ﴿ ٱلثَّالِثَةَ ﴾ أنها ﴿ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾، وفائدته التأكيد "[296]

ومن تلك الدلالات، الدلالة على الجنسية " لتعيينه الجنسية كقوله تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾[297]، لأن المعنى بدابة، والذي سيق له الكلام الجنسية لا الإفراد، بدليل قوله ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ ﴾[298] ، فجمع ﴿ أُمَمٌ ﴾ محقق إرادة الجنس من الوصف اللازم للجنس المذكور، وهو كون الدابة غير منفكة عن كونها في الأرض، وكون الطائر غير منفك كونه طائرا بجناحيه؛ لينتفي توهم الفردية "[299]

هذا ويشير الزركشي إلى التعدد الدلالي للتركيب الوصفي، فيرصد في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾[300]، عدة دلالات منها الدلالة على التوكيد، ودلالة الصفة على الفاعلية والوحدة، سواء العددية أو الوحدة النوعية، والدلالة على نفي التوهم " ومنها قوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾[301]، قال ابن عمرون: لما فهم منها التأكيد ظن بعضهم أنها ليست بصفة، وليس بجيد؛ لأنها دلالة على بعض أحوال الذات، وليس في ﴿ وَٰحِدَةٌ ﴾ دلالة على نفخ، فدل على أنها ليست تأكيدا . انتهى

وفي فائدة ﴿ وَٰحِدَةٌ ﴾ خمسة أقوال:

أحدها: التوكيد، مثل قولهم " أمس الدابر"

الثاني: وصفها ليصح أن تقوم مقام الفاعل، لأنها مصدر، والمصدر لا يقوم مقام الفاعل إلا إذا وصف .....

295 النجم ، الآية ٢٠
296 البرهان ، ص٤٢٥ ، ج٢
297 الأنعام ، الآية ٣٨
298 الأنعام ، الآية ٣٨
299 البرهان ، ص٤٠٩ ، ج٢
300 الحاقة ، الآية ١٣
301 الحاقة ، الآية ١٣

الثالث: أن الوحدة لم تعلم من " نفحة " إلا ضمنا وتبعا؛ لأن قولك " نفخة " يفهم منها أمران: النفخ والوحدة، فليست " نفخة " موضوعة للوحدة، فلذلك صح وصفها .

الرابع: وصفت النفخة بواحدة لأجل نفي توهم الكثرة كقوله تعالى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[302]، فالنعمة في اللفظ واحدة وقد علق عدم الإحصاء بعدها.

الخامس: أتي بالوحدة ليدل على أن " نفخة" لا اختلاف في حقيقتها، فهي واحدة بالنـــوع "[303]

- التركيب العطفي

تناول الزركشي التركيب العطفي من خلال رصد العلاقات التركيبية والدلالية القائمة بين المعطوف والمعطوف عليه من ناحية، والدلالات المختلفة للتركيب العطفي من ناحية أخرى.

أما العلاقات التركيبية فقد تمثلت في علاقة المشاركة في الناحية الإعرابية مثل الفاعلية أو المفعولية، وعبر عن هذه العلاقة بقدرة التركيب العطفي على تحقيق الاتصال في التركيب من هذا المنظور " فأما العطف المفرد ففائدته تحصيل مشاركة الثاني للأول في الإعراب؛ ليعلم أنه مثل الأول في فاعليته أو مفعوليته، ليتصل الكلام بعضه بـــبعض"[304] .

ويشير إلى إمكانية تبادل المعطوف العلاقة الإسنادية القائمة بين المعطوف عليه والمسند إليه باعتباره شرطا للعطف بين المفردات، فيورد لذلك الشرط قولا لابن عمرون ويدعمه الزركشي بالشواهد من النص القرآني " عطف الاسم على الاسم، وشرط ابن عمرون وصاحبه ابن مالك فيه أن يصح أن يسند أحدهما إلى الأخر، ولهذا منع أن يكون ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ في ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ﴾[305] ، معطوف

302 إبراهيم ، الآية ٣٤ ، النحل ، الآية ١٨
303 البرهان ، ص٤٢٤ ، ج٢
304 البرهان ، ص٩٨ ، ج٤
305 البقرة ، الآية ٣٥

على الضمير المستكن فـــي " أنت" وجعله من عطف الجمل، بمعنى أنه مرفوع بفعل محذوف، أي ولتسكن زوجـــك.

ونظيره قوله تعالى ﴿ لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾[306]، لأن من حق المعطوف حلوله محل المعطوف عليه، ولا يصح حلول " زوجك" محل الضمير، لأن فاعل فعل الأمر الواحد المذكر نحو " قم" لا يكون ضميرا مستترا، فكيف يصح وقوع الظاهر موقع المضمر الذي قبله ! "[307]

ويرصد الزركشي العلاقات الدلالية القائمة بين المعطوف والمعطوف عليه في التركيب العطفي، فالارتباط القائم بين مكونات التركيب العطفي ارتباط تركيبي ـ كما مر بنا- وارتباط دلالي.

ويظهر الارتباط الدلالي بين مكونات العطف من خلال دلالة المعطوف عليه على العموم، ودلالة المعطوف على الخصوص، وعلى هذا الترتيب يربط الزركشي بين التركيب العطفي وبين دلالة التوكيد، فيورد التركيب العطفي الذي دل فيه المعطوف عليه على العموم، وأتبع بمعطوف دل على الخصوص في القسم الخامس من التراكيب الدالة على التوكيد لتنبيه المتلقي على فضل المعطوف على المعطوف عليه ويورد على ذلك بيتا من الشعر للمتنبي "القسم الخامس: ذكر الخاص بعد العام، فيؤتى به معطوفا عليه بالواو للتنبيه على فضله؛ حتى كأنه ليس من جنس العام تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات وعلى هذا بنى المتنبي قوله:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال "[308]

ويشير إلى العلاقة الدلالية القائمة بين مكونات التركيب العطفي من دلالة المعطوف عليه على الخصوص، ودلالة المعطوف على العموم، وربط بين هذا الترتيب من ذكر العام بعد الخاص في التركيب العطفي وبين دلالة التوكيد، وذلك في القسم السادس من التراكيب الدالة على التوكيد " القسم السادس: ذكر العام بعد الخاص، وهذا أنكر بعض الناس وجوده، وليس بصحيح، والفائدة في هذا القسم واضحة، والاحتمالان المذكوران في العام قبله ثابتان هنا أيضا، ومنه قولـــــه ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى ﴾[309]، والنسك العبادة، فهو أعم من الصلاة "[310]

306 طه ، الآية ٥٨
307 البرهان ،ص١٠٤ ،ج٤
308 البرهان ، ص٤٤٧ ،ج٢
309 الأنعام ، الآية ١٦٢

ويشير إلى علاقة الترادف بين المعطوف عليه والمعطوف سواء في عطف الجمل أو المفردات، ويربط بين التركيب العطفي على هذا النحو وبين دلالة التوكيد " عطف أحد المترادفين على الآخر أو ما هو قريب منه في المعنى، والقصد منه التأكيد: وهذا إنما يجيء عند اختلاف اللفظ، وإنما يحسن بالواو، ويكون في الجمل كقوله تعالى﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾[311].

ويكثر في المفردات كقوله ﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾[312]، "[313]

ويشير إلى علاقة المغايرة من الناحية الدلالية للمعطوف عليه والمعطوف، بمعنى أن دلالة المعطوف عليه تغاير دلالة المعطوف وذلك في العطف بين الجمل، ويرصد ذلك خلال تناوله لأحوال الجمل من حيث الارتباط " الحال الثالثة: أن يغاير ما قبلها، لكن بينهما نوع ارتباط، وهذه هي التي يتوسطها العاطف كقوله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[314]، "[315]

ويورد الزركشي التناسب بين المعطوف عليه والمعطوف من حيث الدلالة على الزمن ذاته، وذلك في التركيب العطفي الذي عطف فيه فعل على آخر، بمعنى أن المعطوف عليه إذا كان مضارعا كان المعطوف مضارعا أيضا لتحقيق التناسب في الزمن بين المعطوف عليه والمعطوف، وعند الخروج عن هذا الشرط يؤول التركيب العطفي " عطف الفعل على الفعل، قال ابن عمرون وغيره: يشترط فيه اتفاق زمانهما، فإن خولف رد إلى الاتفاق بالتأويل، لا سيما إذا كان لا يلبس وكانت مغايرة الصيغ اتساعا قال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[316]، فعطف الماضي على المضارع لأنهما من صلة " الذين" وهو يضارع الشرط لإيهامه، والماضي في الشرط في حكم المستقبل، فقد تغايرت الصيغ في هذا كما ترى "[317]

310 البرهان ، ص٤٥٤ ،ج٢
311 القيامة ، الآيتان ٣٤- ٣٥
312 آل عمران ، الآية ١٤٦
313 البرهان ، ص٤٥٥ ،ج٢
314 البقرة ، الآية ٥
315 البرهان ، ص ١٠٣ ،ج٤
316 الأعراف ، الآية ١٧٠
317 البرهان ، ص١٠٤ ، ج٤

- التركيب البدلي

رصد الزركشي البنية التركيبية المكونة من البدل والمبدل منه آخذا برأي سيبويه والزمخشري باعتبارهما تركيبا واحدا يكشف عن دلالة التأكيد ودلالة التبيين " وهذا معنى قول الزمخشري: وإنما يذكر الأول لتجوز التوطئة، وليفاد من مجموعهما فضل تأكيد وتبيين لا يكون في الإفراد "[318]

ويورد الزركشي في تعريفه للبدل دلالات البدل المختلفة مثل دلالة البيان ودلالة التوكيد ودلالة رفع الإبهام، رابطا بين هذه الدلالات والأسباب التي جعلته يربط بينها وبين البدل " البدل: والقصد به الإيضاح بعد الإبهام، وهو يفيد البيان والتأكيد، أما البيان فإنك إذا قلت: " رأيت زيدا أخاك " بينت أنك تريد بزيد الأخ لا غير، وأما التأكيد فلأنه على نية تكرار العامل، ألا ترى أنك إذا قلت: " ضربت زيدا " جاز أن تكون ضربت رأسه أو يده أو جميع بدنه، فإذا قلت: " يده" فقد رفعت ذلك الإبهام، فلا بدل جار مجرى التأكيد لدلالة الأول عليه أو المطابقة كما في بدل الكل، أو التضمن كما في بدل البعض أو الالتزام كما في بدل الاشتمال، فإن قلت: " ضربت زيدا رأسه" كأنك قد ذكرت الرأس مرتين، مرة بالتضمن وأخرى بالمطابقة، وإذا قلت: " شربت ماء البحر بعضه" فإنه مفهوم من قولك " شربت ماء البحر" أنك لم تشربه كله فجئت بالبعض تأكيدا "[319]

ومن اللافت للنظر أن الزركشي قد ربط بين البدل بأنواعه وبين التكرار مما جعله يربط بين دلالة التكرار على التوكيد ودلالة البدل على التوكيد لأنه اعتبره من البنى التكرارية، ويتجلى الربط بين البدل والتكرار في اعتبار ذكر الشيء مرتين – كما مر في النص السابق – في تناول الزركشي الشواهد القرآنية بالتحليل وقد استشف منها دلالة التوكيد على هذا الاعتبار " واعلم أن في كلا البدلين – أعني بدل البعض وبدل الاشتمال – بيانا وتخصيصا للمبدل منه، وفائدة البدل أن ذلك الشيء يصير مذكورا مرتين: إحداهما بالعموم والثانية بالخصوص "[320]، ومثل ذلك بـ" قوله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾[321]، فـ" قتال" بدل من " الشهر" بدل الاشتمال، لأن الشهر يشتمل على القتال وعلى غيره، كما كان زيد يشتمل على العقل وغيره، وهو مؤكد لأنهم لم يسألوا عن الشهر الحرام فإنهم يعلمونه، وإنما سألوا عن القتال فيه، فجاء به تأكيدا "[322].

318 البرهان ، ص٤٣٧ ،ج٢
319 البرهان ، ص٤٣٦ ،ج٢
320 البرهان ، ص٤٣٩ ، ج٢
321 البقرة ، الآية ٢١٧
322 البرهان ، ص ٤٣٩ ، ج٢

العدول التركيبي

تعد ظاهرة العدول من الظواهر التي شغلت المهتمين بالدرس اللغوي من النحاة والبلاغيين والنقاد على السواء " وإذا كان النحاة واللغويون قد أقاموا مباحثهم على رعاية الأداء المثالي، فإن البلاغيين ساروا في اتجاه آخر حيث أقاموا مباحثهم على أساس انتهاك هذه المثالية والعدول عنها في الأداء الفني "[323]

إن العدول باعتباره خرقا وانتهاكا للرتب النحوية التي تخضع لقواعد النحو داخل التركيب، يعد سمة من السمات التي تميز النص عن غيره من النصوص وتهبه تأثيرا على المتلقي بالرغم من ذلك الانتهاك من ناحية، وكاشفا عن سمات الأسلوب من ناحية أخرى، وفي كل لا ينفصل العدول عن الدلالة داخل النص لأن " الخروج على مألوف تركيب العبارة ليس غاية في ذاته، بل هو وسيلة يكتسب بها الأسلوب فنيته ويغدو بفضلها قادرا على إبداع الدلالة "[324].

درس الزركشي العدول من عدة زوايا منها العدول الصرفي – كما مر بنا -، والعدول بمعنى الالتفات، والعدول بالحذف، والعدول بالزيادة، والعدول بالتقديم والتأخير، والعدول بالاعتراض.

- العدول بالالتفات

الالتفات عند الزركشي هو مظهر من مظاهر العدول، بمعنى أن الالتفات عن الغيبة إلى التكلم – على سبيل المثال- يعبر عنه بـ" عدل عن الغيبة إلى التكلم "، ويرصد دلالة ذلك العدول من هذه الزاوية مع رصد تأثيره على المتلقي، فمن خلال تعريف الزركشي للالتفات نجد أنه يعبر عنه بالنقل من تركيب إلى آخر وربط ذلك النقل بالتأثير على المتلقي فـ " الالتفات: وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرارا للسامع وتجديدا لنشاطه وصيانة لخاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه "[325].

ونجد أن الزركشي قد تأثر بتقسيم البلاغيين للالتفات خاصة ابن الأثير، ومن مظاهر هذا التأثر تقسيم الالتفات بطريقة كيفية وطريقة كمية، تمثلت الطريقة الكيفية بالالتفات بين التكلم والخطاب والغيبة، وتمثلت الطريقة الكمية بالالتفات بين المفرد

323 البلاغة و الأسلوبية،د.محمد عبد المطلب ،ص٢٦٩، لونجمان ، القاهرة ١٩٩٤
324 في النص الشعري،د.طارق سعد شلبي ، ص٩٧ ، القاهرة ، ٢٠٠٣
325 البرهان ، ص٣١٠ ، ج٣

والمثنى والجمع مع إلحاق نوع آخر خاص بالالتفات بين صيغ الفعل من ماض ومضارع وأمر وما يندرج تحت العدول الصرفي – كما مر بنا - وما يهمنا من هذا التقسيم هو ربط الزركشي لتلك الأقسام خصوصا، والالتفات عموما بالعدول من ناحية، مع رصد دلالة هذا النوع من العدول وتأثيره على المتلقي من ناحية أخرى.

فالالتفات من التكلم إلى الخطاب يؤثر على انتباه المتلقي من ناحية، ويكشف عن الدلالة من ناحية أخرى وهو المفهوم من قول الزركشي " الالتفات من التكلم إلى الخطاب: ووجهه حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه، وأنه أعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة.....

منه قوله ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[326]،عدل عن قوله " رحمة منا" إلى قوله " رحمة من ربك" لما فيه من الإشعار بأن ربوبيته تقتضي رحمته وأنه رحيم بعبده "[327]

ومن الجدير بالذكر أن الزركشي قد صرح بلفظ العدول عند تناوله للنص القرآني من الناحية التطبيقية ذاكرا دلالات العدول، فيكشف عن دلالة العدول على التعجب بالجمع بين لفظ الالتفات والعدول معا " كقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾[328]، فقد التفت عن " كنتم" إلى ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ ، وفائدة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم التعجب من فعلهم وكفرهم، إذ لو استمر خطابهم لفاتت تلك الفائدة "[329]

والتصريح بلفظ العدول وحده كما في " قوله ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ ﴾[330]، وفائدته أنه لما كان سوق السحاب إلى البلد إحياء للأرض بعد موتها دالا على القدرة الباهرة والآية العظيمة التي لا يقدر عليها غيره؛ عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم لأنه أدخل في الاختصاص وأدل عليه وأفخم "[331]

326 الكهف ، الآية ٨٢
327 البرهان ،ص٣١١ ، ج٣
328 يونس ، الآية ٢٢
329 البرهان ، ص٣١٤ ، ج٣
330 فاطر ، الآية ٩
331 البرهان ، ص٣١٥ ، ج٣

هذا وقد أفرد الزركشي مساحة لا بأس بها لدلالات العدول معززا ذلك بالشواهد من النص القرآني نورد منها " قصد الاهتمام كقوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[332]، فعدل عن الغيبة في " قضاهن " و " أوحى " إلى التكلم في " وزينا السماء الدنيا" للاهتمام بالإخبار عن نفسه، فإنه تعالى جعل الكواكب في سماء الدنيا للزينة والحفظ، وذلك لأن طائفة اعتقدت في النجوم أنها ليست في سماء الدنيا وأنها ليست حفظا ولا رجوما؛ فعدل إلى التكلم والإخبار عن ذلك لكونه مهما من مهمات الاعتقاد ولتكذيب بطلانه[333].

ومنها: قصد التوبيخ، كقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾[334]، عدل عن الغيبة إلى الخطاب للدلالة على أن قائل مثل قولهم ينبغي أن يكون موبخا ومنكرا عليه ولما أراد توبيخهم على هذا أخبر عنه بالحضور فقال﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ ﴾لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الإهانة له "[335]

ومن اللافت للنظر أن الزركشي في الشاهد الأول من النص السابق قد ربط بين دلالة العدول والمتلقي، فدلالة الاهتمام بالإخبار عن النفس مرتبطة بتصحيح شبهة الاعتقاد الخاطئ لدى المتلقي بوجود النجوم خارج سماء الدنيا، وعدم فاعليتها في حفظ السموات عموما من الشياطين وذلك في الآيات الأول، وفي الآيات الأخر في الشاهد الثاني من النص السابق نجد أن التوبيخ أيضا مرتبط بإنكار وحدانية الله بتوبيخ المنكر.

للعدول عند الزركشي مظهر آخر تكشّف عند تناوله للضمير وخلال هذا التناول ذكر كيفية ورود الضمير في التركيب ثم عبر عن العدول عن كيفية ورود بالخروج عن الأصل ورصد أسباب هذا الخروج " الخروج على خلاف الأصل

332 فصلت ، الآيتان ١١-١٢
333 انظر ما كتبه ابن الأثير في هذه الآيات ، المثل السائر ، ص٦ ، ج٢
334 مريم ، الآيتان ، ٨٨-٨٩
335 البرهان ، ص٣٢٤ ، ج٣

وأسبابه: واعلم أن الأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، وأصل المحدث عنه كذلك، والأصل أنه إذا ذكر ثانيا أن يذكر مضمرا للاستغناء عنه بالظاهر السابق.....

وللخروج عن الأصل أسباب: أحدها قصد التعظيم كقوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[336] ، "[337]

وخلال التناول التطبيقي للخروج عن الأصل يصرح بلفظ العدول فمن أسبابه " الاستلذاذ بذكره..... قوله تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ ﴾[338]، ولم يقل " منها"، ولهذا عدل عن ذكر الأرض إلى الجنة، وإن كان المراد بالأرض الجنة "[339]

ومن دلالات العدول بهذه الكيفية " قصد الخصوص: كقوله تعالى ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ ﴾[340]، ولم يقل " لك" لأنه لو أتى بالضمير لأخذ جوازه لغيره كما في قوله تعالى ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ ﴾[341]، فعدل عنه إلى الظاهر للتنبيه على الخصوصية وأنه ليس لغيره ذلك "[342]

ومن اللافت للنظر أن هذا النوع من العدول عند الزركشي مرتبط بالأصل والخروج عنه، سواء أكان هذا الأصل الظاهر أو الضمير حسب ما حدده من شروط، ففي الآية الأولى تم العدول عن الضمير إلى لفظ الجلالة الظاهر " الله" ودلالة العدول التعظيم، وفي الآية الثانية تم العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر " الجنة" بتأويل معنى " الأرض" ليكشف عن دلالة اللذة بذكر الجنة، أما الآية الثالثة فقد تم العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر " للنبي" ليكشف عن دلالة الاختصاص .

336 البقرة ، الآية ٢٨٢
337 البرهان ، ص٤٦٨ ،ج٢
338 الزمر ، الآية ٧٤
339 البرهان ، ص٤٧١ ، ج٢
340 الأحزاب ، الآية ٥٠
341 الأحزاب ، الآية ٥٠
342 البرهان ، ص٤٧٨ ، ج٢

- العدول بالحذف

يعد الحذف من ظواهر العدول التي رصدها الزركشي بما يكشف عن اقترابه من مفهوم العدول في الدرس الأسلوبي الحديث، فمن خلال تعريف الزركشي للحذف نجد أن الحذف مرتبط عنده بالإسقاط أو الطرح من التركيب فالحذف " هو لغة الإسقاط ومنه حذفت الشعر إذا أخذت منه، واصطلاحا: إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل "[٣٤٣] ، " وأما الحذف؛ فمن حذفت الشيء قطعته، وهو يشعر بالطرح "[٣٤٤]

وهذا الإسقاط أو الطرح كما عبر عنه الزركشي خلاف الأصل، إذ الأصل عنده هو عدم التغيير في التركيب، والأولوية لاكتمال التركيب من الناحية الشكلية " والحذف خلاف الأصل، وعليه ينبني فرعان:

أحدهما: إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه كان الحمل على عدمه أولى؛ لأن الأصل عدم التغيير.

والثاني: إذا دار الأمر بين قلة المحذوف وكثرته كان الحمل على قلته أولى"[٣٤٥].

إن الصورة المثالية للتركيب ذات تأثير واضح في الكشف عن دلالة التركيب، وتتجلى تلك المثالية في اكتمال مكونات التركيب حتى تتضح دلالاته للمتلقي، ولكن ثراء اللغة العربية بالأساليب المتعددة يحول بين الاكتمال الشكلي للتراكيب مما حدا بالمهتمين بالعربية إلى شرح تلك الأساليب من ناحية، وتقدير التركيب المثالي من ناحية أخرى .

وقد اهتم الزركشي بدوره بمثالية التركيب من الناحية الشكلية، وقد تجلى هذا الاهتمام عند درسه لظاهرة الحذف التي تعد من أهم الظواهر التي تنتهك مثالية التركيب، أو بالأحرى العدول عنه، لهذا فالزركشي يأخذ بقول النحاة في تقدير اللفظ المحذوف من التركيب " وإنما يقدر النحوي القواعد حقها، وإن كان المعنى مفهوما وتقديرهم هنا أو غيره ليروا صورة التركيب من حيث اللفظ مثالا لا من حيث المعنى "[٣٤٦]

343 البرهان ، ص١٠٠، ج٣
344 البرهان ، ص١٠١ ، ج٣
345 البرهان ،ص ١٠٢ ، ج٣
346 البرهان ، ص١١٥ ، ج٣

وهذه المثالية الشكلية للتركيب جعلته يتجاوز النحاة بتحقيق المثالية في التركيب من حيث اللفظ والمعنى معا، ولهذا فإن الحذف عنده لا يستقيم إلا بتحقق التقدير للمحذوف حتى لا يخل بتلك المثالية من حيث الشكل والدلالة معا " أن يكون في المذكور دلالة على المحذوف، إما من لفظه أو من سياقه، وإلا لم يتمكن من معرفته فيصير اللفظ مخلا بالفهم، ولئلا يصير الكلام لغزا فيهجن في الفصاحة.....

أما إذا كان المحذوف فضلة فلا يشترط لحذفه دليل ولكن يشترط ألا يكون في حذفه إخلال بالمعنى أو اللفظ "[٣٤٧]

وتلك العلامة المشترطة للحذف كما يبدو من النص السابق لها شقان: الأول الاكتمال الشكلي للتركيب، والثاني الاكتمال الدلالي للتركيب ووضوحه للمتلقي، وقد عبر الزركشي عن هذين الشقين بالدلالة المقالية والحالية " وتلك الدلالة مقالية وحالية، فالمقالية قد تحصل من إعراب اللفظ وذلك كما إذا كان منصوبا فيعلم أنه لا بد له من ناصب، وإذا لم يكن ظاهرا لم يكن بد من أن يكون مقدرا نحو: أهلا وسهلا ومرحبا .....

والحالية قد تحصل من النظر إلى المعنى، والنظر العلم، فإنه لا يتم إلا بمحذوف وهذا يكون أحسن حالا من النظم الأول لزيادة عمومه كما في قولهم: فلان يحل ويربط، أي يحل الأمور ويربطها، أي ذو تصرف "[٣٤٨]

ولاهتمام الزركشي بالصورة المثالية للتركيب من ناحية، والدلالة من ناحية أخرى، نجد أنه مهتم بأدلة الحذف حتى لا يخل باكتمال التركيب أو وضوح دلالته، ومن تلك الأدلة التعلق التركيبي بين المفردات، كتعلق الجار والمجرور بفعل، وهذا التعلق دال على الفعل المحذوف " ومنها أن يدل اللفظ على الحذف، والشروع في الفعل على تعيين المحذوف كقوله ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾[٣٤٩]، فإن اللفظ يدل أن فيه حذفا؛ لأن حرف الجر لابد له من متعلق ودل الشروع على تعيينه، وهو الفعل الذي جعلت التسمية في مبدئه من قراءة أو أكل أو شرب ونحوه، ويقدر في كل موضع ما يليق، ففي القراءة: أقرأ، وفي الأكل: آكل و نحوه "[٣٥٠].

ومن ذلك تعلق " لام التعليل" بفعل سابق عليها، وهذا التعلق دال على الفعل المحذوف المسبب لورود لام التعليل في التركيب " كقوله تعالى ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ

347 البرهان ، ص١١١ ، ج٣
348 البرهان ، ص١١١ ، ج٣
349 الفاتحة ، الآية ١
350 البرهان ، ص١٠٩ ، ج٣

ٱلْبَـٰطِلَ ﴾[351]، فإن اللام الداخلة على الفعل لا بد لها من متعلق يكون سببا عن مدخول اللام، فلما لم يوجد لها متعلق في الظاهر وجب تقديره ضرورة، فيقدر: فعل ما فعل ليحق الحـــق "[352]

ويرتبط الحذف بالسياق في النص القرآني، سواء على المستوى الكلي أو الجزئي، وهذا الارتباط من أهم أدلة الحذف عند الزركشي، فالدليل على المحذوف في آية، آية أخرى في سورة أخرى في السياق العام للنص القرآني، ومن ذلك ما مثل له الزركشي بحذف " لا" من آية في سورة " ص"، بدليل وجودها في سورة الأعراف، وحذف المبتدأ " هذا" من آية في سورة الأحقاف بدليل وجوده في سورة إبراهيم " ومنها: تقدم ما يدل على المحذوف وما في سياقه كقوله ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾[353]، وفي موضع آخر ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾[354]، وفي موضع ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾[355]، وكقوله ﴿ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ بَلَـٰغٌۚ ﴾[356]، أي هذا بلاغ بدليل ظهوره في سورة إبراهيم، فقال تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾[357]، ونظائره "[358]

وفي السياق الجزئي للآية يستدل الزركشي على الحذف من ختام الآية ويقوم بتقدير المحذوف من صدر الآية وذلك في " قوله ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾[359]، أي كمن قسا قلبه وترك على ظلمه وكفره، ودل على المحذوف قوله ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ﴾[360]، "[361]

هذا ولأدلة الحذف عند الزركشي ارتباط بتقبل العقل للتركيب على صورته من الحذف من حيث الإسناد داخل التركيب، ولهذا يقدر المحذوف حتى يصح تقبل العقل للعلاقة الإسنادية في التركيب " فمنها: أن يدل عليه العقل حيث تستحيل صحة

351 الأنفال ، الآية ٨
352 البرهان ، ص١٩١ ، ج٣
353 الصافات ، الآية ١٧٩
354 ص ، الآية ٧٥
355 الأعراف ، الآية ١٢
356 الأحقاف ، الآية ٣٥
357 إبراهيم ، الآية ٥٢
358 البرهان ، ص١١٠ ، ج٣
359 الزمر ، الآية ٢٢
360 الزمر ، الآية ٢٢
361 البرهان ، ص١٩٢ ، ج٣

الكلام عقلا إلا بتقدير محذوف كقوله تعالى ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[362]، فإنه يستحيل عقلا تكلم الأمكنة إلا معجزة "[363]

وبجانب أدلة الحذف التي تناولها الزركشي نجد ما يشبه الطريقة الهندسية في الحذف من التركيب، وربما تكون تلك الطريقة الهندسية من أجل التناسب بين التراكيب في النص القرآني عند الزركشي، فيورد نوعا من الحذف تحت اسم " الحذف المقابلي " ويعلق عليه بالاكتفاء من كل متناسبين بأحدهما بعد تقدير المحذوف من التركـــــيب " الحذف المقابلي: وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه، كـــقوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾[364]، الأصـــل: فإن افتريته فعلي إجرامي وأنتم براء منه، وعليكم إجرامكم وأنا بريء مما تجرمون، فنسبة قوله تعالى ﴿ إِجْرَامِى ﴾ وهو الأول إلى قوله " وعليكم إجرامكم" وهو الثالث كنسبة قوله " وأنتم براء منه" وهو الثاني إلى قوله تعالى ﴿ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ وهو الرابع، واكتفى من كل متناســـبين بأحـــــدهما " [365]

ومن النص السابق نكشف عن التناسب الهندسي بين تراكيب الآية، فالمـــحذوف " وأنتم براء منه" متناسب مع المذكور في الآية ﴿ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾، وترتيبهما الثاني والرابع على حد تعبير الزركشي، والمحذوف الآخر " وعليكم إجرامكم " متناسب مع المذكور في الآية﴿ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى ﴾وترتيبهما الأول والثالث على حد تعبير الزركشي والذي بقى من التراكيب في الآية الأول والرابع بعد الاكتفاء من كل متناسبين بأحدهما، وهو ما يتضح من تناول الزركشي لآية سورة البقرة في " قوله تعالى ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴾[366]، فتقديره: لا تقربوهن حتى يطهرن

362 يوسف ، الآية ٨٢
363 البرهان ، ص١٠٨ ،ج٣
364 هود ، الآية ٣٥
365 البرهان ، ص١٢٨ ، ج٣
366 البقرة ، الآية ٢٢٢

ويطّهّرن، فإذا طهرن وتطهّرن فأتوهن، وهو قول مركب من أربعة أجزاء نسبة الأول إلى الثالث كنسبة الثاني إلى الرابع، ويحذف من أحدهما لدلالة الآخر عليه، واعلم أن دلالة السياق قاطعة بهذه المحذوفات، وبهذا التقدير يعتضد القول بالمنع من وطء الحائض إلا بعد الطهر والتطهر جميعا "[٣٦٧]

ومن خلال هذا النص يمكن أن نكشف عن نقطة انطلاق الزركشي لتحديد القاعدة الشرعية من وطء الحائض بعد الطهر والتطهر معا حسب تقديره للمحذوف من التراكيب في الآية بطريقة هندسية، وهذا التحديد للقاعدة الشرعية يكشف عن أهمية العدول بالحذف عند الزركشي من ناحية، وأهميته في دراسة النص القرآني من ناحية أخرى.

وتقدير الزركشي للمحذوف بهذا الشكل قد يكون نابعا من تصوره للتناسب العام في النص القرآني عموما، والتناسب بين تراكيبه خصوصا.

يعد العدول بالحذف عند الزركشي من الظواهر التركيبية التي تؤثر في ظاهرة الإجمال بمعنى غموض الدلالة، إذ يمثل التعدد في تقدير المحذوف من التركيب تعددا دلاليا، وعندما يكون هذا التعدد – حسب ما فهمناه من تطبيق الزركشي على الآيات في النص القرآني- مؤديا إلى التقابل الدلالي يصبح العدول بالحذف مؤثرا في ظاهرة الإجمال، بمعنى عدم تحديد دلالة معينة للتركيب من الدلالات المتعددة، واحتمال التركيب - بفضل العدول بالحذف - لتلك الدلالات على السواء، ومن ذلك حذف حرف الجـــر من " ترغبون"، فيحتمل تقدير الحذف أن يكون المحذوف " في"، أو " عن"، وبذلك يحتمل التركيب الرغبة في الشيء، أو مقابله الرغبة عنه بمعنى الزهد فيه أو عدم الرغبة فيه، وهو ما أورده الزركشي خلال تناوله لآية سورة النساء ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾

" وأما ما فيه من الإجمال في الظاهر فكثير وله أسباب .....

الثاني: من حذف في الكلام كقوله ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾[٣٦٨]، قيل: معناه ترغبون في نكاحهن لمالهن، وقيل: معناه عن نكاحهن لزمانتهن وقلة مالهن، والكلام يحتمل الوجهين؛ لأن العرب تقول: رغبت عن الشيء إذا زهدت فيه، ورغبت في

367 البرهان ، ص١٢٩ ،ج٣
368 النساء ، الآية ١٢٧

الشيء إذا حرصت عليه، فلما ركب الكلام تركيبا حذف معه حرف الجر احتمل التأويلين جميعا "[٣٦٩]

- دلالات العدول بالحذف

إن العدول بالحذف عن التركيب الأصلي – كما عبر عنه الزركشي – مرتبط بالدلالة ارتباطا وثيقا من ناحية، ومؤثر في المتلقي من ناحية أخرى، إذ يمثل الإبهام النابع من العدول بالحذف نشاطا لذهن المتلقي خلال البحث عن المحذوف والكشف عنه للوصول إلى دلالة التراكيب المتضمنة للعدول بالحذف، وهذا النشاط المبذول في عملية البحث يصبغ التركيب بدلالة التفخيم والتعظيم من منظور الجهد المبذول للكـــشف عنه " فمنها التفخيم والإعظام، لما فيه من الإبهام لذهاب الذهن في كل مذهب وتشوفه إلى ما هو المراد، فيرجع قاصرا عن إدراكه، فعند ذلك يعظم شأنه، ويعلو في النفس مكانه، ألا ترى أن المحذوف إذا ظهر في اللفظ زال ما كان يختلج في الوهم من المراد، وخلص للمذكور "[٣٧٠]

ومن هذا النص نجد أن الزركشي لم يورد دلالة العدول بالحذف على التفخيم والتعظيم فحسب، بل حلل كيفية الربط بين العدول وتلك الدلالة عن طريق تأثير العدول بالحذف على المتلقي، وترتب دلالة التعظيم على هذا التأثير وهو ما يتضح أيضا من خلال اللذة التي يشعر بها المتلقي عند الكشف عن المحذوف من التركيب والوصول إلى الدلالة على حد تعبير الزركشي " ومنها: زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر؛ كان الالتذاذ به أشد وأحسن "[٣٧١]

ومن دلالات العدول بالحذف عند الزركشي المتصلة بالمتلقي دلالة التنبيه، والتنبيه هنا موجه للمتلقي ليعلمه عن ضيق المدة الزمنية للتركيب من ناحية، ويلفته إلى أهمية المذكور في التركيب عن المحذوف منه من ناحية أخرى " ومنها التنبيه أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم، وهذه هي فائدة باب التحذير، نحو: إياك والشر، والطريق الطريق، الله الله، وباب الإغراء هو لزوم أمر يحمد به، وقد اجتمعا في قوله تعالى ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ

369 البرهان ، ص٢٠٥ ، ج٢
370 البرهان ، ص١٠٣ ، ج٣
371 البرهان ، ص١٠٣ ، ج٣

وَسُقۡيَٰهَا ﴾[372]، على التحذير، أي احذروا ناقة الله فلا تقربوها، و" سقياها " إغـــــراء بتقدير الزموا ناقة الله "[373]

وقد كشف الزركشي خلال تناوله للبنى التركيبية دلالات العدول بحذف المفردات النحوية كالفاعل والمفعول والصفة وحرف النداء وغيرها من البنى.

ومن ذلك حذف جملة الشرط من التركيب الشرطي للدلالة على عدم الفاعلية للمحذوف، في مقابل الفاعلية للمذكور مع التصريح بلفظ العدول في قوله تعالى " ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ ﴾[374]، بمعنى إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم، فعدل عن الافتخار بقتلهم فحذف لدلالة الفاعلية "[375]

ومن ذلك حذف حرف الجر للاختصار والدلالة على التوكيد، وعبر الزركشي عن العدول بالحذف بالخروج عن الأصل، فافترض التركيب الأصلي في آية بتكرار حرف الجر، وقاس على هذا الأصل العدول بالحذف في آية أخرى " ومنه في آل عمران ﴿ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾[376]، و في فاطر ﴿ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾[377]، والفرق أن الأولى حذفت الباء فيها للاختصار استغناء بالتي قبلها، وخرجت عن الأصل للتوكيد "[378]

ويحذف الفاعل في صيغة المبني للمجهول للتعظيم " أما حذفه وإقامة المفعول مقامه مع بناء الفعل للمفعول فله أسباب ..... منها تعظيمه كقوله ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾[379]، إذ كان الذي قضاه عظيم القدر "[380]

ويحذف المفعول به ليكشف عن عدة دلالات منها الاحتقار أو التعميم" والغرض حينئذ بالحذف أمور .....منها قصد الاحتقار كقوله ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ

372 الشمس ، الآية ١٣
373 البرهان ، ص ١٠٤ ، ج٣
374 الأنفال ، الآية ١٧
375 البرهان ، ص١٧٨ ، ج٣
376 آل عمران ،الآية ١٨٤
377 فاطر ، الآية ٢٥
378 البرهان ، ص٢١٤ ، ج٣
379 يوسف ، الآية ٤١
380 البرهان ، ص ١٤٣،ج٣

أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ ﴾[381] ، أي الكفار، ومنها قصد التعميم ولا سيما إذا كان في حيز النفي كقوله تعالى ﴿ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾[382] ، "[383]

ويحذف النعت للدلالة على التفخيم أو التعظيم " حذف الصفة: وأكثر ما يرد للتفخيم والتعظيم في النكرات، وكأن التنكير حينئذ علم عليه كقوله تعالى ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾[384] ، أي وزنا نافعا، وقوله ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ ﴾[385] ، أي من جوع شديد وخوف عظيم "[386]

ويحذف النداء ليكشف عن دلالة التعظيم والتنزيه " ومنه حذف حرف النداء كقوله ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[387]، أي يا هؤلاء .....، وكثر ذلك في نداء الرب سبحانه، وحكمة ذلك دلالته على التعظيم والتنزيه؛ لأن النداء يتشرب معنى الأمر، لأنك إذا قلت: يا زيد، فمعناه أدعوك يا زيد، فحذفت " يا " من نداء الرب ليزول معنى الأمر ويتمخض التعظيم والإجلال "[388]

ومن اللافت للنظر أن الزركشي قد فطن إلى العلاقة بين بنية النداء وبنية الأمر عن طريق العدول بالحذف، وكان الحذف هو أحد الوسائل لاستقلال النداء عن الأمر مما حدا به إلى الدلالة على التعظيم والإجلال حسب ما فهمنا من النص السابق .

- العدول بالزيادة

تعد الزيادة في بنية النص من مظاهر العدول التي تناولها الزركشي راصدا دلالة ذلك العدول، وقد اختصت الزيادة بالأدوات والحروف في النص، وتنطلق دلالة الحروف عند الزركشي من رفضه إطلاق الزائد في النص القرآني، فالحروف

381 المجادلة ، الآية ٢١
382 يونس ، الآية ١٠١
383 البرهان ، ص١٦١، ج٣
384 الكهف ، الآية ١٠٥
385 قريش ، الآية ٤
386 البرهان ، ص١٥٣ ، ج٣
387 آل عمران ، الآية ٦٦
388 البرهان ، ص٢١٠ ، ج٣

الزائدة هي زائدة على مستوى التركيب، إنما على المستوى الدلالي فهي ذات دلالات محددة في النص القرآني " والأولى اجتناب مثل هذه العبارة في كتاب الله تعالى، فإن مراد النحويين بالزائد من جهة الإعراب لا من جهة المعنى "[389]

ويعد العدول بزيادة الحروف دال في عمومه على التوكيد " أهل الصناعة يطلقون الزائد على وجوه: منها ما يتعلق به هنا وهو ما أقحم تأكيدا نحو ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[390]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً ﴾[391]، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[392]، ومعنى كونه زائدا أن أصل المعنى حاصل بدونه دون التأكيد؛ فبوجوده حصل فائدة التأكيد، والواضع الحكيم لا يضع الشيء إلا لفائدة "[393]

وقد رصد الزركشي حروف الزيادة في النص القرآني رابطا بين تلك الحروف ودلالة التوكيد " وحروف الزيادة سبعة إن ، وأن ، ولا ، وما ، ومن ، والباء ، واللام، بمعنى أنها تأتي في بعض الموارد زائدة، لا أنها لازمة للزيادة، ثم ليس المراد حصر الزوائد فيها، فقد زادوا الكاف وغيرها، بل المراد أن الأكثر في الزيادة أن تكون بها "[394]

ومن الناحية التطبيقية يرصد الزركشي دلالة العدول بزيادة تلك الحروف على التوكيد، نذكر منها " فأما إن الخفيفة فتطرد زيادتها مع ما النافية كقول امرئ القيس:

حلفت لها بالله حلفة فاجر * لناموا فما إن من حديث ولا صال

أي فما حديث، فزاد إن للتوكيد "[395]

وتأتي زيادة " لا " لتدل على التوكيد أيضا في قوله تعالى " ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن

389 البرهان ، ص٧١ ،ج٣
390 آل عمران ، الآية ١٥٩
391 البقرة ، الآية ٢٦
392 الشورى ، الآية ١١
393 البرهان ، ص٧٣ ، ج٣
394 البرهان ، ص٧٤ ، ج٣
395 البرهان ، ص٧٤ ، ج٣

كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ﴾[396]، على قراءة من نصب " يأمركم" عطفا على " يؤتيه"، ف" لا " زائدة مؤكدة لمعنى النفي السابق "[397]

- العدول بالتقديم والتأخير

يعد التقديم والتأخير من بنى العدول عند الزركشي، فمن خلال تناوله للتقديم والتأخير نجد أنه يعبر عنه بالنقل من الرتبة المكانية إلى رتبة أخرى، وذلك في المفردات النحوية داخل التركيب، وهو ما يظهر في مناقشته للتقديم والتأخير هل هو من المجاز أو لا " وقد اختلف في عده من المجاز، فمنهم من عده منه؛ لأنه تقديم ما رتبته التأخير كالمفعول، وتأخير ما رتبته التقديم كالفاعل نقل كل واحد منهما عن رتبته وحقه "[398]

ومن هذه المقولة نستطيع أن نكشف عن تصور الزركشي للعدول بالتقديم والتأخير عن طريق نقل الفاعل بتأخيره، ونقل المفعول بتقديمه عن رتبته في التركيب، هذا وقد صرح الزركشي بلفظ العدول خلال تناوله لأسباب التقديم والتأخير فيورد المفردات النحوية التي من حقها التقديم داخل التركيب ويعلق بقوله " ولا مقتضى للعدول عنه"، بمعنى أن الأصل تقديم الفاعل والمبتدأ وصاحب الحال على حد قوله، والخروج عن هذا الأصل هو من ظواهر العدول حسب ما فهمنا من تعليقه " في أسبابه: وهي كثيرة، أحدها: أن يكون أصله التقديم، ولا مقتضى للعدول عنه، كتقديم الفاعل على المفعول، والمبتدأ على الخبر، وصاحب الحال عليها نحو: جاء زيد راكبا "[399]

ومن الجدير بالذكر أن الزركشي تناول العدول بالتقديم والتأخير في النص القرآني باعتباره ظاهرة من الظواهر التي تؤثر في وضوح الدلالة، فالعدول عن التركيب الأصلي ربما يؤثر في وضوح دلالة التركيب ولهذا يقدر الزركشي التركيب الأصلي قبل العدول عنه حتى تتضح الدلالة، فيرصد تأثير العدول بالتقديم والتأخير في الإجمال الدلالي تحت النوع السابع من الأنواع المؤثرة فيه " السابع:

396 آل عمران ، الآيتان ٧٩ - ٨٠
397 البرهان ، ص٨٢ ، ج٣
398 البرهان ، ص٢٢٩ ، ج٣
399 البرهان ، ص ٢٢٩ ، ج٣

من جهة التقديم والتأخير: كقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[400]، وتقديره " ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما "، ولولا هذا التقدير لكان منصوبا كـــــالإلزام "[401]

ومن اللافت للنظر أن الزركشي قد قام بتقدير التركيب الأصلي للآية ليحدد الدلالة فيها حتى لا تختلط على المتلقي للنص القرآني، ودلل على هذا التقدير برفع " أجل" مما يعني تبعيتها بالعطف لـ" كلمة" المرفوعة، وهذا بنفي تبعيتها بالعطف لـ" لزاما" لأنها لم تنصب، وهو المفهوم من قوله " ولولا هذا التقدير لكان منصوبا كالإلزام"، هذا ولم يشر الزركشي إلى الهدف من التقديم والتأخير في الآية أو ربطها بالفواصل في الآيات قبلها أو بعدها، وربما يكون مرد هذا إلى رصد تأثير التقديم والتأخير على الإجمال الدلالي في النص القرآني دون النظر في أسبابه في هذه الآية .

وعلى العكس من هذا قد تكون الدلالة مؤثرة في التركيب بالعدول عن التركيب الأصلي في النص القرآني لوضوح الدلالة، ومثل الزركشي لذلك التأثير الدلالي على التركيب بتقديم النعت شبه الجملة " من آل فرعون" على النعت الجملة " يكتم إيمانه" في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾، حتى لا يعتقد المتلقي أن شبه الجملة "من آل فرعون" متعلقة بالفعل" يكتم" فتتجه الدلالة إلى أنه يكتم إيمانه من آل فرعون، أما العدول بالتقديم فيدل على أن هذا الرجل المؤمن من آل فرعون وليس من أهل موسى – عليه السلام- ، وقد عبر الزركشي عن ذلك بقوله " فلا يفهم أنه منهم"، أي من آل فرعون " أن يكون في التأخير إخلال ببيان المعنى كقولـــــه تعالى ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾[402]، فإنه لو أخر قوله " من آل فرعون" فلا يفهم أنه منهم "[403]

وكما ارتبط التركيب عند الزركشي بالدلالة، فقد ارتبطت ظاهرة العدول بالتقديم والتأخير – عنده أيضا – بالدلالة في النص القرآني، ومن ذلك دلالة العدول بالتقديم والتأخير على أهمية المتقدم وانعقاد الهمة عليه " أن يكون الخاطر ملتفتا إليه

400 طه ، الآية ١٢٩
401 البرهان ، ص٢٠٧ ، ج٢
402 غافر ، الآية ٢٨
403 البرهان ، ص٢٢٩ ، ج٣

والهمة معقودة به، وذلك كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾[404] ، بتقديم المجرور على المفعول الأول، لأن الإنكار متوجه إلى الجعل لله، لا إلى مطلق الجعل "[405]

ودلالة التبكيت والتعجب المرتبطة بالتأثير على المتلقي " أن يكون التقديم لإرادة التبكيت والتعجب من حال المذكور، كتقديم المفعول الثاني على الأول في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾[406]، والأصل " الجن شركاء"، وقدم لأن المقصود التوبيخ، وتقديم الشركاء أبلغ في حصوله "[407]

ومن ذلك دلالة الحصر ودلالة الاختصاص وقد عزز الزركشي الربط بين العدول بالتقديم والتأخير وبين هاتين الدلالتين في النص القرآني بكم من الآيات محللا في بعضها كيفية الربط بين العدول بالتقديم والتأخير ودلالتي الحصر والاختصـــاص " مواضع إفادة الحصر: لا تختص إفادة الحصر بتقديم الضمير المبتدأ، بل كذلك إذا تقدم الفاعل أو المفعول أو الجار والمجرور المتعلقات بالفعل ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[408] ، فإن الإيمان لما يكن منحصرا في الإيمان بالله، بل لابد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه بخلاف التوكل، فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين – قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره، لأن غيره لا يملك ضرا ولا نفعا فيتوكل عليه ولذلك قدم الظرف في قوله ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾[409]، ليفيد النفي عنها فقط واختصاصها بذلك بخلاف تأخيره فـــــي ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[410]، لأن نفي الريب لا يختص بالقرآن، بل سائر الكتب المنزلة كذلك "[411]

أما دلالة الاختصاص فمن خلال تقديم المتعلقات على الفعل " الاختصاص وذلك بتقديم المفعول والخبر والظرف والجار والمجرور ونحوها على الفعل كقوله

404 الأنعام ، الآية ١٠٠
405 البرهان ، ص٢٣١ ، ج٣
406 الأنعام ، الآية ١٠٠
407 البرهان ، ص٢٣٢ ، ج٣
408 الملك ، الآية ٢٩
409 الصافات ، الآية ٤٧
410 البقرة ، الآية ٢
411 البرهان ، ص٣٩٨ ،ج٢

تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [412] ، أي نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك، وقوله ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[413]، أي كنتم تخصونه بالعبادة "[414]

- العدول بالاعتراض

يعد الاعتراض في الدرس الأسلوبي الحديث من ظواهر العدول، إذ يمثل تخلل الاعتراض بين مكونات التركيب تأخيرا لبعض مكوناته عن مكانها داخل التركيب، والعدول بالتأخير عن طريق الاعتراض مرتبط بالدلالة ارتباطا وثيقا، وهو ما نجده عند الزركشي خلال تناوله للاعتراض في النص القرآني فيكشف عن تصوره له بإيراده أثناء الكلام المتصل دلاليا وتركيبيا ليضفي دلالة بعينها في النص غالبا ما تكون دلالة التوكيد " الاعتراض وهو أن يؤتى في أثناء كلام أو كلامين متصلين معنى بشيء يتم الغرض الأصلي بدونه ولا يفوت بفواته فيكون فاصلا بين الكلام والكلامين لنكتة .....

وعند النحاة جملة صغرى تتخلل جملة كبرى على جهة التأكيد "[415]

فالاعتراض عند الزركشي لا يأتي اعتباطيا، بل موجه للدلالة في النص القرآني، وهو ما عبر عنه الزركشي بـ " لنكتة " من ناحية، والربط بينه وبين دلالة التوكيد من ناحية أخرى

ومن الناحية التطبيقية يربط الزركشي بين العدول بالاعتراض وبين بعض الدلالات – بجانب الدلالة على التوكيد -، ومنها الدلالة على التقرير " منها: تقرير الكلام كقولك: فلان أحسن بفلان – ونعم ما فعل ورأى من الرأي كذا- وكان صوابا

ومنه قوله تعالى ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[416]، " لقد علمتم" اعتراض والمراد تقرير إثبات البراءة من تهمة السرقة "[417]

412 الفاتحة ، الآية ٥
413 النحل ، الآية ١١٤
414 البرهان ، ص٢٣٢ ، ج٣
415 البرهان ، ص٥٦ ، ج٣
416 يوسف ، الآية ٧٣
417 البرهان ، ص٥٧ ، ج٣

ومن ذلك الدلالة على التنزيه والتعظيم " ومنها قصد التنزيه كقوله تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾[418]، فاعتراض " سبحانه" لغرض التنزيه والتعظيم، وفيه الشناعة على من جعل البنات لله "[419]

ويدل الاعتراض على التبرك بذكر المشيئة " ومنها قصد التبرك كقوله تعالى ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[420] ، "[421]

ويشير الزركشي إلى دلالة العدول بالاعتراض على التأكيد والتعظيم موردا التراكيب التي اعترضت، ومن تلك التراكيب القسم والتركيب الوصفي " ومنها قصد التأكيد كقوله تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[422]، فيها اعتراضان؛ فإنه اعتراض بقوله "وإنه لقسم" بين القسم وجوابه، واعترض بقوله " لو تعلمون" بين الصفة والموصوف والمراد تعظيم شأن ما أقسم به من مواقع النجوم وتأكيد إجلاله في النفوس، ولا سيما بقوله " لو تعلمون " ، "[423]

ويشير إلى دلالة الاعتراض على التخصيص والبيان موردا تراكيب ممتدة من الاعتراض الواقع بين آيتين " ومنها كون الثاني بيانا للأول كقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[424]، فإنه اعتراض وقع بين قوله ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾[425]، وبين قوله ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾[426] ، وهما متصلان معنى[427] ؛ لأن الثاني بيان للأول، كأنه: فأتوهن من حيث يحصل منه الحرث، وفيه اعتراض بأكثر من جملة " [428]

418 النحل ، الآية ٥٧
419 البرهان ، ص٥٧ ، ج٣
420 الفتح ، الآية ٢٧
421 البرهان ، ص٥٧ ، ج٣
422 الواقعة ، الآيتان ٧٥-٧٦
423 البرهان ، ص٥٨ ،ج٣
424 البقرة ، الآية ٢٢٢
425 البقرة ، الآية ٢٢٢
426 البقرة ، الآية ٢٢٣
427 الآيتان (و يسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض و لا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهّرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين و يحب المتطهرين * نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم و قدموا لأنفسكم و اتقوا الله و اعلموا أنكم ملاقوه و بشر المؤمنين)
428 البرهان ، ص ٥٨ ، ج٣

وتظهر دلالة الاعتراض الممتد على التخصيص من تخصيص الأم بزيادة التوصية عن الأب" ومنها تخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد على أمر علق بهما كقوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [٤٢٩] ، فاعترض بقوله " حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين" بين" وصينا " وبين الموصى به، وفائدة ذلك إذكار الولد بما كابدته أمه من المشقة في حمله وفصاله، فذكر الحمل والفصال يفيد زيادة التوصية بالأم لتحملها من المشاق والمتاعب في حمل الولد ما لا يتكلفه الوالد "[٤٣٠]

429 لقمان ، الآية ١٤
430 البرهان ، ص٥٨ .، ج٣

المستوى الدلالي

ترجع أهمية هذا المستوى إلى أهميته في الدرس الأسلوبي، إذ تمثل الدلالة همزة الوصل بين المبدع والمتلقي عن طريق ترجمة الإشارات اللغوية الماثلة في النص إلى دلالات يستقبلها المتلقي ويكون على الاتصال المطلوب مع مبدع النص، وهذا لا يعني أن تلك الإشارات اللغوية المترجمة إلى دلالات تصل إلى عقل المتلقي بنفس الدرجة من الوضوح، بل " من طبيعة الأمور أن يتجه النقاد إلى أهمية بروز الدلالة في شكل يسهل إدراكه دون جهد كبير، وليس معنى هذا أن تأتي المعاني مسطحة قريبة المضمون، وإنما يكون الأمر بين الوضوح والغموض الفني الذي يتيح لعملية التلقي وما يكتنفها من انتظار وترقب أن تلعب دورها في المجال اللغوي "[٤٣١]

وتتمحور الدلالة داخل مستويين: أولهما المستوى الكلي للدلالة، وثانيهما المستوى الجزئي لها، إذ تندرج تحت المستوى الكلي للدلالة دلالات جزئية لا تنفصل عنها داخل النص " أو بمعنى آخر العناصر الفرعية التي تنضوي داخل الإطار الموسع للدلالة الكلية "[٤٣٢]

وتتميز الدلالة بما يشبه الدوائر الهندسية داخل النص، إذ تغدو الدلالات الفرعية أو الجزئية دلالات كلية لدلالات أخرى جزئية لها بمعنى أن " طبيعة الدلالة تمد بعض جزئياتها إلى عناصر أخرى أضيق اتساعا "[٤٣٣] ، وعلى هذا النحو فإن الدلالة تعد وحدة متماسكة يتميز بها النص

وقد اهتم علماء اللغة بالربط بين مكونات اللغة بجميع وحداتها وبين الدلالة، وإذا كانت مكونات اللغة من حروف وكلمات وجمل وعبارات تمثل وحدات لغوية فإن كل وحدة من تلك الوحدات الدلالية لها دلالة تميزها عن غيرها، أو بمعنى آخر تعتبر الوحدة الدلالة شاملة جميع مكونات اللغة من حروف وكلمات وجمل، وهو ما نجده من تقسيم علماء اللغة للوحدة الدلالية " إلى أربعة أقسام هي:

١- الكلمة المفردة

٢- أكبر من جملة (تركيب)

431 جدلية الإفراد و التركيب ، د. محمد عبد المطلب ، ص٢٣٤
432 جلية الإفراد و التركيب، د . محمد عبد المطلب ، ص٢٥١
433 جدلية الإفراد و التركيب ، د.ز محمد عبد المطلب ، ص ٢٥٨

٣- أصغر من كلمة (مورفيم متصل)

٤- أصغر من مورفيم (صوت مفرد) ، "[٤٣٤]

وإذا كانت الدلالة تنطلق من " دراسة المعنى "[٤٣٥] ، فإن هذا المعنى لا يتحدد بحسب ما تعارف عليه أهل اللغة تجاه إشارته اللغوية فحسب، بل تمثل الصيغة الصرفية والموقع النحوي لتلك الإشارة علاوة على السياق الواردة فيه أدوات تكشف عن هذا المعنى، ولهذا " نحن نقول بتحليل للدلالة بجعلها:

١- دلالة أساسية أو معجمية

٢- دلالة صرفية

٣- دلالة نحوية

٤- دلالة سياقية موقعية

وهذه الدلالات تأتلف في كل متكامل يتأدى إلينا "[٤٣٦]

وبجانب تأثير الدلالة الصرفية والنحوية والسياقية في دلالة الكلمة نجد أن لتداول الكلمة على ألسنة مستخدمي اللغة تأثيرا في دلالتها، ولهذا " قسم العلماء الدلالات اعتمادا على معايير أخرى ترتكز على الإدراك لطبيعة العلاقة بين قطبي الفعل الدلالي، وهو لا يخرج عن ثلاث: اعتبار العرف أو اعتبار الطبيعة أو اعتبار العقل، وعلى ذلك فالدلالة إما عرفية أو طبيعية أو عقلية "[٤٣٧]

ولعل الدلالة العرفية الأكثر حظا في مسيرة التطور الدلالي للكلمة، إذ تعكس تلك الدلالة العرفية قدرة مستخدمي اللغة في تطويع مفرداتها حسب ما يتعارفون عليه، أو حسب اصطلاحهم على دلالة شيء ما

ومن الجدير بالذكر أنه بالرغم من ثراء المعاجم بدلالات ألفاظ اللغة إلا أن تلك الدلالات قد تتجاوز مؤشرات ثباتها خلال الممارسة الفعلية للغة، أو بمعنى آخر إن طريقة استخدام اللفظ تؤثر في ثبات دلالته المعجمية وتتوجه به صوب دلالات أخرى " وإن هذه الطريقة التي تستعمل فيها الكلمة هي التي تصنف دلالة هذه الكلمة

434 علم الدلالة ، د . أحمد مختار عمر ، ص٣٢
435 علم الدلالة .جون لاينز ، ص٩ ، ت. مجيد عبد الحليم الماشطة . جامعة البصرة ، البصرة ١٩٨٠
436 علم الدلالة العربي ، د. فايز الداية ، ص٢٢، دار الفكر العربي ، دمشق ،ط ٢ ، ١٩٩٦
437 علم الدلالة ، د. منقور عبد الجليل ، ص٦٥ ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،٢٠٠١

ضمن الدلالة الرئيسية أو القيم الحافة التي تتحدد معها الصور الأسلوبية؛ لأن السياق يحمل حقائق إضافية تشارك الدلالة المعجمية للكلمة في تحديد الدلالة العامة التي قصدها الباث وهو ما يتجاوز تحديد الدلالة المعجمية المباشرة للكلمة إلى تحـــديد الإطار الذي يكتنف استعمالها "[٤٣٨]

وعلى هذا فإن السياق ليس مؤثرا في الكشف عن الدلالة المعجمية للكلمة باعتبارها وحدة دلالية فحسب، بل إن السياق مؤثر أيضا في الكشف عن دلالات التراكيب باعتبارها وحدات دلالية أكبر، ولا نظن أننا قد تجاوزنا حد الحقيقة إذا قلنا أن " معظم الوحدات الكلامية اللغوية تعتمد في تفسيراتها على السياق الذي تستخدم فيه "[٤٣٩]

ومن القضايا الدلالية الشائكة التي اهتم بها القدماء والمحدثون على السواء قضية التعدد في العلاقة بين الدال والمدلول " والحقيقة أنه لم تغن لغة بمثل ما غنيت به اللغة العربية من تعدد المفردات الدالة على معنى واحد من ناحية، أو تعدد معاني اللفظة الواحدة إلى درجة التضاد بينها في بعض الأحيان من ناحية أخرى "[٤٤٠]

وهذا التعدد في العلاقة بين الدال والمدلول له شقان: الأول تعدد من جهة اللفظ بحيث تشترك بعض الألفاظ في الدلالة ذاتها، وهذا الشق درسه القدماء تحت مسمى الترادف وبالرغم من تباين الآراء في قضية الترادف إلا أن هذا التباين قد تمخض عنه رصد للفروق الدلالية القائمة بين الألفاظ، وعلى هذا فإن كان يبدو في الترادف التطابق التام في الدلالة في بعض الأحيان إلا إنه " سرعان ما تظهر بالتدريج فروق معنوية دقيقة بين الألفاظ المترادفة بحيث كل لفظ منها مناسب وملائم للتعبير عن جانب واحد فقط من الجوانب المختلفة للمدلول الواحد "[٤٤١]

أما الشق الثاني فهو ما يتمثل في التعدد الدلالي للفظ الواحد، بمعنى أن بعض الألفاظ تتميز بعدة دلالات، وقد درسه القدماء تحت مسمى المشترك اللفظي، ويتبدى تأثير التعدد الدلالي للفظ في غموض الدلالة في النص بعض الأحيان، إذ قد يصاب المتلقي بحيرة في ترجيح إحدى الدلالات المتعددة للفظ على أخرى، وبالرغم من هذا فإن " الآثار المترتبة على تعدد المعنى للكلمة الواحدة بالنسبة للثروة اللفظية للغة آثار بعيدة المدى "[٤٤٢]

438 الدرس التطبيقي في النقد العربي ، د.طارق سعد شلبي ، ص٦٩ ، زهرة المدائن ، القاهرة ، ٢٠٠١
439 اللغة و المعنى و السياق ، جون لاينز ، ص١٤ ، ت د .عباس صادق الوهاب ، دار الشئون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٧
440 فصول في فقه اللغة ، د . رمضان عبد التواب ، ص٣٠٩ ، الخانجي ، القاهرة ،ط٦ ، ١٩٩٩
441 دور الكلمة في اللغة ،أولمان ، ت . د. كمال بشر ،ص٩٧ ، الشباب ، القاهرة ، ١٩٦٢
442 دور الكلمة في اللغة ، أولمان ص١١٤

وقد يتحول التعدد الدلالي إلى خاصة أسلوبية تضمن تجاوب المتلقي مع النص وتشعره بلذة الوصول إلى الدلالة من ناحية، أو إلى وسيلة لمستخدم اللغة للوصول إلى مقاصده من ناحية أخرى " وقد أدت كثرة المشترك اللفظي في العربية إلى ذيوع ظاهرة التورية فيها، وهي عبارة عن استخدام الألفاظ المشتركة في معان غير متبادرة منها، وكذلك استخدمه بعض الناس حيلة للخروج من اليمين المكره عليها "[٤٤٣]

وقد شغل السياق حيزا لا بأس به في الدرس الأسلوبي، فبجانب أهميته في الكشف عن دلالات المفردات والتراكيب داخل النص نجد أن للسياق دورا لا يقل في أهميته عن الكشف عن الدلالة، ويتحدد هذا الدور في الربط بين مكونات اللغة ليكشف في النهاية عن دلالاتها "ومن المؤكد أن افتقاد المقام يؤدي إلى ورود مفردات متناثرة لا تمثل مقالا بالمعنى اللغوي، أو بالمعنى البلاغي؛ لأنها لم توضع في سياق يربط بين أجزائها بحيث تؤدي في النهاية معنى معينا، وعلى هذا لو قمنا بتحليل هذه المفردات من حيث مستوى الصوت أو الصرف، أو النحو أو من حيث علاقة اللفظ بمدلوله فلن نصل أبدا إلى دلالة محددة لافتقاد السياق "[٤٤٤]

أهمية الدلالة وتجليات الدرس الدلالي عند الزركشي

تبين لنا فيما مر بنا من مباحث أن الدلالة مرتبطة ارتباطا وثيقا بمستويات الأسلوب عند الزركشي، حتى إن رصده لتلك المستويات في النص القرآني كان هدفه في الكثير من الأحيان الكشف عن الدلالة في هذا النص الكريم، هذا ومن يتأمل البرهان يتيقن من الوهلة الأولى أن الزركشي يعد من الباحثين عن الدلالة في النص القرآني، وتظهر لنا أهمية الدلالة عند الزركشي عند تناول النص القرآني في عدة مظاهر منها – على سبيل المثال- البحث عن أفضلية بعض الآيات أو السور على البعض الآخر من خلال الموازنة النصية بينها، فيورد بعض الأقوال التي تحدد تلك الأفضلية في تأثيرها على المتلقي من ناحية، ودلالاتها الكلية من ناحية أخرى معلقا على الأفضلية من جهة الدلالة، ومن ذلك أفضلية آية الكرسي وآخر الآيات من سورة الحشر وسورة الإخلاص على غيرها لبروز الدلالة على وحدانية الله " وقال قوم بالتفضيل لظواهر الأحاديث ثم اختلفوا فقال بعضهم: التفضيل راجع إلى عظم الأجر ومضاعفة الثواب بحسب انفعالات النفس وخشيتها وتدبرها وتفكرها عند

443 فصول في فقه اللغة ، ص٣٣٥
444 البلاغة و الأسلوبية ، د.محمد عبد المطلب ، ص٣٠٨

ورود أوصاف العلا، وقيل: بل يرجع لذات اللفظ، وأن ما تضمنه قوله تعالى ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[٤٤٥] ، وآية الكرسي وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودا مثلا في ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[٤٤٦]، وما كان مثلها، فالتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها؛ لا من حيث الصفة وهذا هو الحق "[٤٤٧]

ليس هذا فحسب، بل إن الأفضلية من جهة الدلالة على التوحيد تمتد إلى الآيات التي تدل على الوحدانية من حيث عدد المفردات التي دلت على الوحدانية، فيأخذ بقول ابن العربي في تفضيل سورة الإخلاص على آية الكرسي – بالرغم من دلالاتهما على التوحيد – من وجهين " أحدهما أنها سورة وهذه آية، فالسورة أعظم من الآية لأنه وقع التحدي بها، فهي أفضل من الآية التي لم يتحد بها

والثاني أن سورة الإخلاص اقتضت التوحيد في خمسة عشر حرفا، وآية الكرسي اقتضت التوحيد في خمسين حرفا فظهرت القدرة على الإعجاز بوضع معنى معبر عنه مكتوب مدده السبعة الأبحر لا ينفد عدد حروفه خمسون كلمة ثم يعبر عن معنى الخمسين كلمة خمسة عشر كلمة وذلك كله بيان لعظم القدرة والانفراد بالوحدانية "[٤٤٨]

ومن النص السابق يظهر لنا أن الزركشي يهتم بالوصول للدلالة وهذا الاهتمام يتجلى في قلة المفردات التي تكشف في مجملها عن دلالة التوحيد من ناحية، واعتبار السورة وحدة دلالية كاملة في مقابل الآية من ناحية أخرى

ويعد تناول الزركشي لثنائية التفسير والتأويل من تجليات الدرس الدلالي في كتابه البرهان، إذ يتبدى لنا من خلال ذلك التناول اهتمامه بالدلالة وكيفية الكشف عنها في النص القرآني هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تظهر خصوصية النص القرآني من خلال وضع مراحل للكشف عن الدلالة في بعض المواضع منه.

بداية نورد تصور الزركشي لثنائية التفسير والتأويل من خلال تعريفه لهما لغة واصطلاحا باعتباره منطلقا للربط بين الدلالة المعجمية للفظين والدلالة الاصطلاحية لهما، إذ تنبع الدلالة الاصطلاحية لكلمة التفسير من دلالاتها المعجمية

445 البقرة ، الآية١٦٣
446 المسد ، الآية ١
447 البرهان ، ص٤٧٧ ، ج١
448 البرهان ، ص٤٨١ ، ج١

على الإظهار والكشف " وأما التفسير في اللغة، فهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف، وأصله في اللغة من التفسرة وهي القليل من الماء الذي ينظر فيه الأطباء، فكما أن الطبيب بالنظر فيه يكشف عن علة المريض، فكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصصها ومعناها، والسبب الذي أنزلت فيه "[٤٤٩]

فدلالة كلمة التفسير المعجمية على الإظهار والكشف تصبغ الدلالة الاصطلاحية لها بالكشف عن دلالات الآية وما ارتبط بها من الظروف والملابسات المحيطة بها مما يساعد في الكشف عن دلالتها

وهو ما يتضح أكثر من الدلالة الاصطلاحية للتفسير على كشف المغلق من دلالة اللفظ " فالتفسير كشف المغلق من المراد باللفظ، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به "[٤٥٠]

وترتبط الدلالة المعجمية للتأويل بالدلالة الاصطلاحية، إذ تدل كلمة التأويل على المآل أو العاقبة التي تصبغ الدلالة الاصطلاحية للكلمة بصرف الآية إلى ما تحتمله من دلالات " وأصله من المآل وهو العاقبة، وقد أولته فآل، أي صرفته فانصرف، فكأن التأويل صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني "[٤٥١]

ومن تناول الزركشي للتفسير والتأويل بالتعريف المعجمي والاصطلاحي يمكننا أن نلمح تصوره للتفسير بالارتباط بدلالة محددة، وارتباط التأويل بالاحتمال أو التعدد الدلالي للآية، وهو ما يتضح من ارتباط التفسير بدلالات الألفاظ في الآية والكشف عنها، وارتباط التأويل بما عبر عنه الزركشي بالمعاني بالاستدلال بمقولة الراغب " قال الراغب: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ، وأكثر استعمال التأويل في المعاني كتأويل الرؤيا، وأكثره يستعمل في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل في غيرها، والتفسير أكثر ما يستعمل في معاني مفردات الألفاظ "[٤٥٢]

وتمثل الزركشي بقول الراغب في عموم التفسير وخصوص التأويل ربما يكون راجعا إلى أحد سببين أو كليهما، الأول ارتباط التفسير بالكتب الإلهية وغيرها، وارتباط التأويل بالكتب الإلهية وحدها، والثاني الحاجة إلى التأويل في بعض المواضع دون مجمل النص القرآني

449 البرهان ، ص١٤٣ ،ج٢
450 البرهان ، ص١٤٣ ، ج٢
451 البرهان ، ص١٤٤ ،ج٢
452 البرهان ، ص١٤٥ ، ج٢

ويتضح ارتباط التفسير بالدلالة المحددة، وارتباط التأويل بالتعدد الدلالي أو ما تحتمله الآية من دلالات من تمثل الزركشي بقول القشيري " ويعتبر في التفسير الاتباع والسماع، وإنما الاستنباط فيما يتعلق بالتأويل، وما لا يحتمل إلا معنى واحدا حمل عليه، وما احتمل معنيين أو أكثر "[٤٥٣]

وهو ما أعقبه الزركشي بأمثلة من النص القرآني توضح التعدد الدلالي للآية بما يندرج تحت التأويل " وذلك مثل قوله تعالى ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[٤٥٤] ، قيل: هو الرجل يحمل في الحرب على مائة رجل، وقيل: هو الذي يقنط من رحمة الله، وقيل: الذي يمسك عن النفقة، وقيل: الذي ينفق الخبيث من ماله، وقيل: الذي يتصدق بماله كله ثم يتكفف الناس، ولكل منه مخرج ومعنى"[٤٥٥]

هذا ويعتمد الزركشي في مفهومي التفسير والتأويل على مقولة النقل والاستنباط، فالتفسير مرتبط بالنقل عن الرسول – عليه الصلاة والسلام- والصحابة والتابعين من ناحية، والنقل من اللغة وأدواتها بما تعرفه العرب من ناحية أخرى" واعلم أن القرآن قسمان: أحدهما ورد تفسيره بالنقل عمن يعتبر تفسيره، وقسم لم يرد، والأول: ثلاثة أنواع إما أن يرد التفسير عن النبي-عليه الصلاة والسلام- أو عن الصحابة أو عن رءوس التابعين .....

والثاني: ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين، وهو قليل وطريق التوصل إلي فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق"[٤٥٦]

أما مفهوم التأويل المرتبط بالاستنباط فشرطه عند الزركشي اعتماد الدليل على الدلالة المستنبطة، ويخص ذلك الاستنباط باجتهاد العلماء " ما يرجع إلى اجتهاد العلماء: وهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل، وهو صرف اللفظ إلى ما يئول إليه، فالمفسر ناقل، والمؤول مستنبط، وذلك استنباط الأحكام وبيان المجمل وتخصيص العموم

وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه وعلى العلماء اعتماد الشواهد والدلائل، وليس لهم أن يعتمدوا مجرد رأيهم فيه "[٤٥٧]

453 البرهان ، ص١٤٦ ،ج٢
454 البقرة ، الآية ١٩٥
455 البرهان ، ص١٤٦ ،ج٢
456 البرهان ، ص١٧٠ ،ج٢
457 البرهان ، ص١٦٣ وج٢

وهذا الشرط من اعتماد الدليل في رصد الدلالات المتعددة للآية بما يندرج تحت التأويل له أدوات تستقى من العلوم المختلفة أولها علم العربية " حمل اللفظ المحتمل على أحد معنييه لاحتياج ذلك إلى معرفة أنواع من العلوم: علم العربية واللغة والتبحر فيهما، ومن علم الأصول ما يدرك به حدود الأشياء، وصيغ الأمر والنهي، والخبر، والمجمل والمبين، والعموم والخصوص، والظاهر والمضمر، والمحكم والمتشابه، والمؤول، والحقيقة والمجاز، والصريح والكناية، والمطلق والمقيد، ومن علوم الفروع ما يدرك به استنباطا "[٤٥٨]

ويرتبط الكشف عن دلالات النص القرآني من خلال التفسير والتأويل بظاهر النص وباطنه، إذ يعد الكشف عن تلك الدلالات محددا بمرحلتين متتاليتين تفضي المرحلة الأولى منهما إلى الثانية دون إسقاط المرحلة الأولى، بمعنى أن طريقة الكشف عن الدلالة في النص القرآني تبدأ بالتفسير – أي ظاهر النص- وتنتهي بالتأويل- أي باطن النص- " فهذه الأمور تدل على أن في فهم القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس ينتهي الإدراك فيه بالنقل، والسماع لابد منه في ظاهر التفسير ليتقي مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط، والغرائب التي لا تفهم إلا باستماع فنون كثيرة، ولابد من الإشارة إلى جمل منها ليستدل على أمثالها ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولا، ولا مطمع في الوصول إلى باطن النص قبل إحكام الظاهر "[٤٥٩]

وعلى هذا الترتيب يشير الزركشي إلى متعة التلقي بعد الكشف عن الدلالة في النص القرآني سواء من ظاهر النص أو باطنه " ويستدل المريد بتلك المعاني التي ذكرناها من فهم باطن علم القرآن وظاهره؛ على أن فهم كلام الله تعالى لا غاية له، كما لا نهاية للمتكلم به، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه للبشر، ومن لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر لم يدرك من لذة القرآن شيئا "[٤٦٠]

458 البرهان و ص١٦٥ ، ج٢
459 البرهان ، ص١٥١ ، ج٢
460 البرهان ، ص١٥١ ، ج٢

العلاقات الدلالية

- التناسب

يعد التناسب من العلاقات الدلالية التي رصدناها عند الزركشي، تلك الظاهرة التي أرجع إليها العديد من الظواهر اللغوية الأخرى في النص القرآني، ففكرة التناسب تتلخص في وجود نظام ما في النص يحكم مكوناته وذلك النظام يمثل أداة من أدوات الربط بين تلك المكونات من ناحية، ومؤثرا في الكشف عن العلاقات الدلالية القائمة بين تلك المكونات من ناحية أخرى " المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها – والله أعلم- إلى معنى ما رابط بينهما: عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، العلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه، أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضه آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء "[٤٦١]

ويبدو لنا من النص السابق أمران، الأول وجود علاقات دلالية ومنطقية تحقق التناسب داخل النص، والأمر الثاني هو تأثير التناسب في تقوية الروابط القائمة بين مكونات النص، ومن هذين الأمرين نستطيع أن نكشف عن نظرة الزركشي لمكونات النص من حيث الارتباط بالدلالة من ناحية، والعلاقات والروابط الدلالية القائمة بين مكونات تراكيب النص من ناحية أخرى

هذا ويلوح لنا في تناول الزركشي للتناسب بعض من العلاقات المكانية داخل تراكيب النص، فمن تقسيم الزركشي للتناسب نجد أن تلك العلاقات قد شملت أجزاء التراكيب مما يضفي عليها تماسكا يميز النص القرآني بفضل التناسب الدلالي

وتنحصر المناسبة عند الزركشي في التمكين والتوشيح والإيغال والتصدير، وتلك الأقسام تتحدد في شقين: الأول الرابط الدلالي بمعنى عودة تلك الأنواع إلى التناسب الدلالي، والثاني الرابط الشكلي من حيث موقع الألفاظ في التراكيب من الأول أو الوسط أو النهاية "اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلابد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولا، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض .....

461 البرهان ، ص٧٤ ،ج١

وهي منحصرة في أربعة أشياء: التمكين والتوشيح والإيغال والتصدير، والفرق بينها أنه إن كان تقدم لفظها بعينه في أول الآية سمي تصديرا، وإن كان في أثناء الصدر سمي توشيحا، وإن أفادت معنى زائدا بعد تمام معنى الكلام سمي إيغالا، وربما اختلط التوشيح بالتصدير لكون كل منهما صدره يدل على عجزه، والفرق بينهما أن دلالة التصدير لفظية، ودلالة التوشيح معنوية "[٤٦٢]

ونقترب أكثر من ظاهرة التناسب من تناول الزركشي لها بصورة تطبيقية في النص القرآني، فالتمكين هو مناسبة بين أول الآية وآخرها مناسبة معنوية على حد تعبير الزركشي في قوله " تعالى ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[٤٦٣] ، فإنه لما تقدم ذكر العبادة والتصرف في الأموال كان ذلك تمهيدا تاما لذكر الحلم والرشد لأن الحلم الذي يصح به التكليف، والرشد حسن التصرف في الأموال فكان آخر الآية مناسبا لأولها مناسبة معنوية ويسميه بعضهم ملاءمة "[٤٦٤]

ومن هذا النص نجد كيف ربط الزركشي بين نهاية الآية ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[٤٦٥] ، وبين أولها ﴿ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ﴾[٤٦٦] ، وكان هذا الربط عن طريق الدلالة مما أضفى على التراكيب في الآية تناسبا تميز به النص القرآني

ومن اللافت للنظر أن الزركشي من الناحية التطبيقية قد ربط بين مكونات التراكيب في الآية بطريقة كمية، بمعنى أن " الحليم" ناسبت " ما يعبد آباؤنا "، و" الرشيد" ناسبت "نفعل في أموالنا ما نشاء"، مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أهمية التناسب الدلالي في ربط مكونات التراكيب أو تقوية الروابط بينها سواء أكان هذا الربط شكليا أو دلاليا أو كميا، وهو ما نجده في العديد من الآيات التي تناولها الزركشي بهذه الكيفية ونذكر منها – على سبيل المثال لا الحصر- " قوله تعالى ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[٤٦٧] ، فإنه سبحانه لما قدم

462 البرهان ، ص١١٦ ، ج١
463 هود ، الآية ٨٧
464 البرهان ، ص١١٨ ، ج١
465 هود ، الآية ٨٧
466 هود ، الآية ٨٧
467 الأنعام ، الآية ١٠٣

نفي إدراك الأبصار له عطف على ذلك قوله ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ﴾ ، خطابا للسامع بما يفهم؛ إذ العادة أن كل لطيف لا تدركه الأبصار، ألا ترى أن حاسة البصر إنما تدرك اللون من كل متلون والكون من كل متكون، فإدراكها إنما هو للمركبات دون المفردات ولذلك لما قال ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ عطف عليه قوله ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ مخصصا لذاته سبحانه بصفة الكمال؛ لأن ليس كل من أدرك شيئا كان خبيرا بذلك الشيء؛ لأن المدرك للشيء قد يدركه ليخبره، ولما كان الأمر كذلك أخبر سبحانه وتعالى أنه يدرك كل شيء مع الخبرة به، وإنما خص الأبصار بإدراكه ليزيد في الكلام ضربا من المحاسن يسمى التعطف ولو كان الكلام: لا تبصره الأبصار وهو يبصر الأبصار لم تكن لفظتا " اللطيف" و"الخبير" مناسبتين لما قبلهما "[٤٦٨]

ومن النص السابق يتضح لنا كيف ناسب الزركشي دلاليا بين " اللطيف" و" الخبير"، وبين " لا تدركه الأبصار"، و" هو يدرك الأبصار" على الترتيب مما يوضح تلك الطريقة الكمية للمناسبة

ومن اللافت للنظر أن الزركشي قد أفرد للنوع الأول " التمكين" كمّا لا بأس به من الشواهد القرآنية التي تناولها بالتحليل - قد قاربت الأربعين شاهدا-، في حين أنه أجمل الأنواع المتبقية – قاربت العشرين شاهدا مجتمعة- بسرد الشواهد القرآنية دون الحاجة إلى التحليل إلا في النذر اليسير مقارنة بالنوع الأول، وربما يكون هذا نابعا من اهتمام الزركشي بالربط بين الظاهرة تركيبيا ودلاليا، فتلك الأنواع تظهر بالنظر في الآية من تكرار المادة اللغوية أول التركيب وآخره مع اختلاف موقع اللفظ من حيث البدء بها أو وقوعها ضمن البداية وهكذا، مثل " تفتروا" و" افترى" شاهد على النوع الثاني التصدير في قوله " تعالى ﴿ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾[٤٦٩] ، "[٤٧٠]

و" خلقا" ، " الخالقين" شاهد على النوع الثالث " التوشيح" في قوله " تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[٤٧١] ، "[٤٧٢]

468 البرهان ، ص ١١٨ ،ج١
469 طه ، الآية ٦١
470 البرهان ، ص١٣٠ ، ج١
471 المؤمنون ، الآية ١٤
472 البرهان ، ص١٣١ ، ج١

و" حكم" و" حكما" في قوله " تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[473] ، "[474]

- الطباق

يعد الطباق من العلاقات الدلالية القائمة بين المفردات في النص وقد قسمه الزركشي إلى قسمين: لفظي ومعنوي، ثم استدرك تقسيمه بنوع ثالث تحت مسمى الطباق الخفي، ثم طبق تلك الأنواع على الآيات في النص القرآني " الطباق: وهو أن يجمع بين متضادين مع مراعاة التقابل كالبياض والسواد، والليل والنهار، وهو قسمان لفظي ومعنوي كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾[475] ، طابق بين الضحك والبكاء، والقليل والكثير .....

ومن الطباق المعنوي قوله تعالى ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾[476] ، معناه: ربنا يعلم إنا لصادقون .....

ومنه نوع يسمى الطباق الخفي كقوله تعالى ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾[477] ، لأن الغرق من صفات الماء فكأنه جمع بين الماء في النار والنار "[478]

بالتأمل في النص السابق نجد أن الزركشي قد تناول الطباق باعتباره أسلوبا بليغا من أساليب القرآن الكريم، وقد رصد علاقة الطباق بين المفردات، وهو ما جعلنا نربط بين تناوله للطباق وبين العلاقات الدلالية القائمة بين المفردات داخل النص القرآني

ومن الطباق المعنوي نلمح فطنة الزركشي في التماس العلاقة الدلالية بين " تكذبون"، و" مرسلون" من حيث إن المفهوم من سياق الرد على من زعم أن الرسل

473 المائدة ، الآية ٥٠
474 البرهان ، ص ١٣٢ ، ج١
475 التوبة ، الآية ٨٢
476 يس ، الآيتان ١٥-١٦
477 نوح ، الآية ٢٥
478 البرهان ، ص ٤٤٦ ،ج٣

يكذبون وليسوا مرسلين، هو التأكيد على أنهم مرسلون إليهم من الله لدعوتهم بمعنى " صادقون"، وعلى هذا فإن التماس الزركشي للطباق ربما نبع من "لستم مرسلين" و" مرسلون" بمعنى " كاذبون" و" صادقون"، وهو ما جعلنا نلمّح إلى الطريقة المرحلية في التماس الطباق الدلالي بين مفردات النص القرآني من حيث رصد الزركشي لدلالة " مرسلون" على " صادقون" أولا ثم الربط بينها وبين " تكذبون" لالتماس العلاقة الدلالية من الطباق.

وهو ما يظهر أيضا من دلالة الغرق على وجود الماء في البنية التحتية في النص ليلتمس بهذا الوجود العلاقة الدلالية من الطباق بين الماء والنار، وذلك في النوع الثالث الذي أسماه الزركشي الطباق الخفي

وتتضح تلك الطريقة المرحلية عند الزركشي أيضا من التماس دلالة النار على اللون الأحمر ليطابق بينه وبين اللون الأخضر في " قوله تعالى ﴿ مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾[479] ، فكأنه جمع بين الأخضر والأحمر وهذا أيضا فيه تدبيج بديعي "[480]

ومن ذلك التماس دلالة " ظل" على النهار أولا، ثم التماس دلالة النهار على اللون الأبيض؛ ليطابق بين اللون الأبيض والأسود في " قوله تعالى في النحل والزخرف: ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾[481] ، لأن " ظل" لا تستعمل إلا نهارا، فإذا لمح مع ذكر السواد كأنه طباق يذكر البياض مع السواد "[482]

ومن ذلك الطباق بين الليل والنهار من جهة، والطباق بين السكون والحركة من جهة أخرى في آية واحدة، والجدير بالذكر أن الزركشي قد التمس الطباق بين السكون والحركة بالرغم من عدم وجود الحركة في ظاهر النص من الطباق بين الليل والنهار، فيعبر عن ذلك بلفظ العدول عن ذكر الحركة إلى ذكر " ابتغاء الفضل" ليحدد بذلك العدول نوعا من الحركة هي الخاصة بالمنفعة وذلك في " قوله ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[483] ، فذكر الليل والنهار وهما ضدان، ثم قابلهما بضدين، وهما الحركة والسكون على الترتيب، ثم عبر عن الحركة بلفظ " الإرداف" فاستلزم الكلام ضربا من المحاسن

479 يس ، الآية ٨٠
480 البرهان ، ص٤٤٧ ، ج٣
481 النحل ، الآية ٥٨ ، الزخرف ، الآية ١٧
482 البرهان ، ص٤٤٨ ، ج٣
483 القصص ، الآية ٧٣

زائدا على المبالغة، وعدل عن لفظ الحركة إلى لفظ " ابتغاء الفضل" لكون الحركة تكون للمصلحة دون المفسدة وهي تسير إلى الإعانة بالقوة وحسن الاختيار الدال على رجاحة العقل وسلامة الحس، وإضافة الظرف إلى تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه؛ ليهتدي المتحرك إلى بلوغ المأرب "[٤٨٤]

وهذا الشكل في التماس العلاقات الدلالية بين الليل والنهار والسكون والحركة يصبغ النص القرآني بالتماسك الدلالي من حيث امتداد العلاقة الدلالية أو تعددها بين المفردات داخله .

- المقابلة

تعد المقابلة مظهرا من مظاهر العلاقات الدلالية القائمة بين المفردات في النص القرآني، فيورد الزركشي تعريف المقابلة راصدا الفرق بينها وبين الطباق من حيث شمول المقابلة لعلاقات دلالية أكثر من الطباق، إذ يحدد الطباق بعلاقة التضاد بين المفردات، والمقابلة بالتضاد وغيره " وهي ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها، وهي من باب " المفاعلة" كالمقابلة والمضاربة، وهي قريبة من الطباق، والفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن الطباق لا يكون إلا بين الضدين غالبا، والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالبا

والثاني: لا يكون الطباق إلا بالأضداد، والمقابلة بالأضداد وغيرها، ولهذا جعل ابن الأثير الطباق أحد أنواع المقابلة "[٤٨٥]

وهذا الشمول قد حدده الزركشي في ثلاث علاقات دلالية قائمة بين مكونات النص هي التناظر والتناقض والتخالف " وهي ثلاثة: نظيري ونقيضي وخلافي، والخلافي أتمها في التشكيك وألزمها في التأويل، والنقيضي ثانيها، والنظيري ثالثها "[٤٨٦]

أما العلاقة الأولى التناظر فتتحدد باندراج المتقابلات تحت دلالة واحدة، ومثل الزركشي لتلك العلاقة بـ" السنة" و" النوم" من حيث اندراج كل منهما تحت دلالة " الرقاد" الجامعة بينهما من ناحية، والمقابلة لليقظة من ناحية أخرى " مثال

484 البرهان ، ص٤٤٧ ،ج٣
485 البرهان ، ص٤٤٩ ، ج٣
486 البرهان ، ص٤٤٩ ، ج٣

النظيرين، مقابلة السنة والنوم في قوله تعالى﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[٤٨٧] ، لأنهما جميعا من باب الرقاد المقابل باليقظة "[٤٨٨]

ويربط بين علاقة التناظر والتناقض نظريا من حيث تقابل المتقابلين المتناظرين لنقيض مجموع دلالتهما، بمعنى تقابل السنة والنوم من حيث التناظر، ومقابلتهما لليقظة من حيث دلالتهما معا على الرقاد وذلك من حيث التناقض بين اليقظة والرقاد " وقوله ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[٤٨٩] ، وهذه هي مقابلة النقيضين أيضا، ثم السنة والنوم بانفرادهما متقابلان في باب النظيرين، ومجموعهما يقابلان النقيض الذي هو اليقظة "[٤٩٠]

ويربط بين التناظر والتناقض والتخالف في " قوله تعالى ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾[٤٩١] ، فقابل الشر بالرشد وهما خلافيان وضد الرشد الغي، وضد الشر الخير، والخير الذي يخرجه لفظ الشر ضمنا نظير الرشد قطعا، والغي الذي يخرجه لفظ الرشد ضمنا نظير الشر قطعا، حصل من هذا الشكل أربعة ألفاظ: نطقان وضمنان "[٤٩٢]

ومن اللافت للنظر أن الزركشي قد ربط في علاقة المقابلة بالتخالف بين اللفظ المذكور ومقابله غير المذكور- من حيث التناظر أو التناقض- في النص باعتباره نوعا من الاستدعاء للمقابل ليؤول به علاقة التخالف بين اللفظين " الشر" و" الرشد"، فقد رصد العلاقة التناقضية بين الرشد والغي، وبين الشر والخير، ثم رصد العلاقة التناظرية بين الخير والرشد، وبين الشر والغي؛ ليخرج بهذا الرصد إلى الكشف عن علاقة التخالف بين الشر والرشد، ورصد تلك السلسلة من العلاقات الدلالية القائمة بين المفردات المذكورة والمستدعاة من خارج النص يعبر عن التماسك الدلالي في النص القرآني بكثرة الروابط الدلالية داخله من ناحية، ويكشف عن مدى اهتمام الزركشي بالدلالة في النص القرآني من ناحية أخرى

هذا وقد رصد الزركشي المقابلة في النص القرآني بطريقة كمية مما يزيد – في نظرنا – من عدد علاقات الارتباط الدلالية القائمة داخل النص، فيورد المقابلة

487 البقرة ، الآية ٢٥٥
488 البرهان ، ص٤٥٠ ، ج٣
489 الكهف ، الآية ١٨
490 البرهان ، ص٤٥٠ ، ج٣
491 الجن ، الآية ١٠
492 البرهان ، ص٤٥٠ ، ج٣

بين لفظين في آية واحدة، وبين أربعة ألفاظ في آية واحدة، حتى يصل إلى مقابلة ستة ألفاظ لستة ألفاظ في آيتين " ومن مقابلة ست بست قوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾[493] ، ثم قال تعالى ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾[494] ، قابل بين الجنات والأنهار والخلد والأزواج والتطهير والرضوان بإزاء النساء في الدنيا وختم الحرث وهما طرفان متشابهان وفيهما الشهوة والمعاش الدنياوي، وأخّر ذكر الأزواج كما يجب في الترتيب الأخروي وختم بالرضوان "[495]

ومن اللافت للنظر مدى الامتداد التركيبي في الآيتين وفطنة الزركشي للمقابلة بين مكونات التراكيب فيهما، ومن الواضح أن تلك المقابلة نبعت من العدد في الآيتين مما جعله يربط بين النساء والجنات، والبنين والأنهار، والمال بأنواعه والخلود في الجنة، والأزواج والخيل، والطهر والأنعام، والحرث والرضوان، والمتأمل في تلك المتقابلات يكشف عن الجامع الدلالي بينهما من حيث الانتفاع بها في الدنيا كالمال كما يظن الإنسان، أو الانتفاع الحقيقي بها في الآخرة كالتنعم والخلود فيه عكس الزوال والانقطاع وعدم الدوام بالتنعم في الدنيا بالمال والنساء وغيرهما.

ويبدو أن الزركشي في هذا الرصد الهندسي للعلاقات الدلالية في النص القرآني متأثر بالشيخ القلعي الذي نقل مقولته في تلك الأشكال الهندسية لعلاقة المقابلة في النص القرآني "وذكر الشيخ أبو الفضل يوسف بن محمد القلعي: أن القرآن كله وارد عليها بظهور نكته الحكمية العلمية، من الكائنات والزمانيات والوسائط الروحانيات والأوائل الإلهيات حيث اتحدت من حيث تعددت واتصلت من حيث انفصلت، وأنها قد ترد على شكل المربع تارة، وشكل المسدس أخرى، وعلى شكل المثلث إلى غير ذلك من التشكيلات العجيبة والترتيبات البديعة "[496]

493 آل عمران ، الآية ١٤
494 آل عمران ، الآية ١٥
495 البرهان ، ص٤٥٥ ،ج٣
496 البرهان ، ص٤٥٠ ، ج٣

أدوات استخراج الدلالة

لاهتمام الزركشي بالدلالة نجد أنه يتحرى الفهم الصحيح لدلالات النص القرآني وهذا ما حدا بالزركشي إلى البحث عن الدلالة في النص القرآني من ناحية، وتحديد أدوات ذلك البحث من ناحية أخرى، وفي كل فإن الداعي في بعض الأحيان هو غموض الدلالة، بمعنى أن غموض الدلالة في بعض الآيات جعل الزركشي يبحث عنها ليكشف هذا الغموض وخلال هذا الكشف قد استعان ببعض الأدوات اللغوية وغير اللغوية التي تعين المفسر على الكشف عن الدلالة في النص القرآني، فمن خلال تناوله " الأمور التي تعين على المعنى عند الإشكال "[497]، نجد أنه قد حدد عدة أمور منها ما يندرج تحت الأدوات اللغوية ومنها ما لا يندرج .

أول تلك الأدوات اللغوية ملاحظة العلاقات الدلالية في النص كعلاقة الضد " مما يعين على المعنى عند الإشكال أمور: أحدها رد الكلمة إلى ضدها كقوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾[498] ، أي "ولا كفورا "، والطريقة أن يرد النهي إلى الأمر فنقول معنى " أطع هذا وهذا"، " أطع أحدهما"، وعلى هذا معناه في النهي ولا تطع واحدا منهما "[499]

أما الأداة الثانية فتتمثل بالأخذ بمجمل الدلالة في النص القرآني وترتبط بالسياق، بمعنى الجمع بين الآية المراد الكشف عن دلالتها، وبين آية أخرى حددت فيها الدلالة، والجامع الدلالي بين الآيتين هو السياق الدلالي الواحد " الثاني: ردها إلى نظيرها كما في قوله تعالى ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ ﴾[500] ، فهذا عام وقوله ﴿ فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾[501] ، قول حد أحد طرفيه وأرخي الطرف الآخر إلى غير ما نهاية؛ لأن أول ما فوق الثنتين الثلاث وآخره لا نهاية له، وقوله ﴿ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً ﴾[502] ، محددة الطرفين، فالثنتان خارجتان من هذا الفصل، وأمسك الله عن ذكر الثنتين وذكر الواحدة والثلاث وما فوقها .

497 البرهان ، ص١٩٤ ،ج٢
498 الإنسان ، الآية ٢٤
499 البرهان ، ص١٩٤ ،ج٢
500 النساء ، الآية ١١
501 النساء ، الآية١١
502 النساء ، الآية ١١

وأما قوله في الأخـــــوات ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾[503] ، الآية، فذكر الواحدة والاثنتين، وأمسك عن ذكر الثلاث وما فوقهن فضمن كل واحد من الفصلين ما كف عن ذكره في الآخر؛ فوجب حمل كل واحد منهما فيما أمسك عنه فيه على ما ذكره في غيره "[504]

فالسياق الجامع بين الآيتين السابقتين هو كيفية توريث الإناث، ولما غمضت كيفية التوريث حسب العدد " الاثنتين" في الآية الأولى أحال الزركشي الكشف عن الدلالة في توريث " الاثنتين" إلى الآية الأخرى في السورة ذاتها في سياق توريث الإناث

أما الأداة الثالثة فتتمثل في اكتمال التركيب بمعنى البحث عن علاقة الاتصال بين مفردات التركيب، أو بين التراكيب بعضها البعض لتكتمل الدلالة الكلية للآية " الثالث: ما يتصل بها من خبر أو شرط أو إيضاح في معنى آخر كقوله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾[505] ، يحتمل أن يكون معناها: من كان يريد أن يعز أو تكون العزة له؛ لكن قوله تعالى ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ، يحتمل أن يكون معناها: من كان يريد أن يعلم لمن العزة فإنها لله "[506]

من الآية السابقة نجد كيف ربط الزركشي بين دلالة الآية وبين اكتمال التركيب الشرطي، فالاعتماد على الركن الأول من الشرط لا يكشف عن الدلالة الكلية للآية، ولكن الجمع بين الشرط والجزاء يمثل أداة من أدوات الكشف عن تلك الدلالة

أما الأداة الرابعة فهي من الأدوات المهمة عند الزركشي وهي دلالة السياق التي تؤثر في الكشف عن الدلالة الحقيقية للآية، وعلق على هذه الأداة بأنها من أهم القرائن الدالة على مراد المتكلم متناولا إحدى الآيات التي تفهم دلالتها على نحو مقابل لدلالة السياق الواردة فيه، والسياق له الدلالة الأخيرة، وتنسحب دلالة الآية المقابلة لدلالته " الرابع: دلالة السياق: فإنها ترشد إلى تبيين المجمل والقطع بعدم احتمال المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظراته

503 النساء ، الآية ١٧٦
504 البرهان ، ص١٩٤ ، ج٢
505 فاطر ، الآية ١٠
506 البرهان ، ص١٩٥ ، ج٢

وانظر إلى قوله تعالى ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[507] ، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير "[508]

المتأمل في الآية السابقة يجد أن دلالتها الظاهرة أن الشخص يكرم وينعم في الجنة إذا فصلت عن السياق الواردة فيه، ولكن السياق هنا هو التعذيب والمهانة في النار، ولهذا فإن الدلالة قد أخذت من دلالة السياق، وهي دلالة التحقير والذل، وليس التكريم والتنعم

وترتبط الأداة الخامسة بما يشبه التطور الدلالي للمفردات في مفهوم علم اللغة الحديث، فهي عند الزركشي تتمثل في ملاحظة معاني الكلمة وأصلها التي نقلت عنه، وفرعها الذي نقلت إليه حسب الاستعمال اللغوي لها " الخامس: ملاحظة النقل عن المعنى الأصلي: وذلك أنه قد يستعار الشيء لمشابهة، ثم يستعار من المشابه لمشابه المشابه، ويتباعد عن المسمى الحقيقي بدرجات فيذهب عن الذهن الجهة المسوغة لنقله من الأول إلى الآخر، وطريق معرفة ذلك بالتدريج كقوله تعالى ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[509] ، وذلك أن الأصل " دون" للمكان الذي هو أنزل من مكان غيره، ومنه الشيء الدون للحقير، ثم استعير للتفاوت في الأحوال والرتب، فقيل زيد دون عمرو في العلم والشرف، ثم اتسع فيه فاستعير في كل ما يتجاوز حدا إلى حد وتخطى حكما إلى حكم آخر كما في الآية المذكورة، والتقدير: لا تتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين "[510]

هذا وقد فطن الزركشي إلى أداة أخرى لها تأثير واضح في الكشف عن الدلالة في النص القرآني، وقد استقى تلك الأداة من خارج النص، ونقصد بذلك الظروف والملابسات المحيطة بالنص القرآني، وتتجلى في الاعتماد على أسباب النزول باعتبارها أداة للكشف عن دلالات النص القرآني " السادس: معرفة النزول: وهو من أعظم المعين على فهم المعنى وسبق منه أول الكتاب جملة، وكانت الصحابة والسلف يعتمدونه، وكان عروة بن الزبير قد فهم من قوله تعالى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾[511] ، أن السعي ليس بركن، فردت عليه عائشة ذلك وقالت: لو كان كما قلت لقال: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، وثبت أنه إنما أتى بهذه

507 الدخان ، الآية ٤٩
508 البرهان ، ص ١٩٥ ، ج٢
509 آل عمران ، الآية ٢٨
510 البرهان ، ١٩٥ ، ج٢
511 البقرة ، الآية ١٥٨

الصيغة لأنه كان وقع فزع في قلوب طائفة من الناس كانوا يطوفون قبل ذلك بين الصفا والمروة للأصنام، فلما جاء الإسلام كرهوا الفعل الذي كانوا يشركون به، فرفع الله ذلك الجناح من قلوبهم وأمرهم بالطواف، رواه البخاري في صحيحه، وثبت أنها نزلت ردا على من كان يمتنع من السعي "[٥١٢]

وقد تناول الزركشي دلالة الكلمة في النص القرآني بأكثر من وسيلة، فللكلمة دلالات عدة لا تتحدد بالمعجم وحده، بل تتحدد بالصيغة الصرفية والموقع النحوي، وموقعها في السياق كما مر بنا، أو بمعنى آخر لدلالة الكلمة – بجانب المعجم- أدوات أخرى تكشف عن تلك الدلالة، منها هيئتها الصرفية والنحوية وموقعها في السياق.

وتظهر الدلالة الصرفية والموقع النحوي وأهميتهما باعتبارهما من الأدوات التي تكشف عن دلالة الكلمة في النص القرآني من توجيه الزركشي للمفسر في رصد الدلالة الصرفية والنحوية للكلمة في النص القرآني " وعلى الناظر في كتاب الله الكاشف عن أسراره النظر في هيئة الكلمة وصيغتها ومحلها ككونها مبتدأ أو خبر أو فاعلة أو مفعولة أو في مبادئ الكلام أو في جواب إلى غير ذلك من تعريف أو تنكير أو جمع قلة أو كثرة إلـــــى غير ذلك "[٥١٣]

ويأخذ بقول ابن فارس في أهمية التصريف في توضيح دلالة الكلمة " قال ابن فارس من فاته علمه فاته المعظم؛ لأنا نقول "وجد" كلمة مبهمة فإذا صرفناها اتضحت، فقلنا في المال "وجدا" وفي الضالة "وجدانا"، وفي الغضب "موجدة"، وفي الحزن "وجدا"، قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[٥١٤] ، وقال تعالى ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[٥١٥] ، فانظر كيف تحول المعنى بالتصريف من الجـــــور إلى العدل "[٥١٦]

ويورد التغيير في دلالة كلمة " تقاة" طبقا لتغير الموقع النحوي لها في " قوله تعالى ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾[٥١٧] ، في نصبها ثلاثة أوجه مبنية على تفسيرها، فإن كانت بمعنى الاتقاء فهي مصدر كقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

512 البرهان ، ص١٩٦ ، ج٢
513 البرهان ، ص٣٤٠ ، ج١
514 الجن ، الآية ١٥
515 الحجرات ، الآية ٩
516 البرهان ، ص٣٣٥ ، ج١
517 آل عمران ، الآية ٢٨

نَبَاتًا ﴾[٥١٨] ، وإن كانت بمعنى المفعول أي أمرا يجب اتقاؤه فهي نصب على المفعول به، وإن كانت جمعا كرام ورماة فهي نصب على الحال "[٥١٩]

أقسام الدلالة

- الدلالة الكلية والدلالة الجزئية

رصد الزركشي في كتابه البرهان الدلالة في النص القرآني بطرق متنوعة، ومن الجدير بالذكر أن الزركشي قد رصد جميع الدلالات في النص القرآني على هيئة الدلالات الكلية العامة التي تتفرع منها دلالات صغرى، وتلك الدلالات الصغرى تتفرع عنها دلالات أصغر منها بما يشبه الدوائر الهندسية التي تحوي دوائر أصغر منها.

وقد حدد الزركشي الدلالات الكلية للنص القرآني في ست دلالات هي الخبر والاستخبار والشرط والقسم والأمر والنفي متفقا في ذلك التقسيم، أو مختلفا مع أقوال السابقين عليه " النوع الخامس والأربعون في أقسام معنى الكلام: زعم قوم أن معاني القرآن لا تنحصر، ولم يتعرضوا لحصرها، وحكاية ابن عبد السيد عن أكثر البصريين في زمانه، وقيل قسمان: خبر وغير خبر، وقيل عشرة: نداء ومسألة وأمر وتشفع وتعجب وقسم وشرط ووضع وشك واستفهام، وقيل: تسعة وأسقطوا الاستفهام لدخوله في المسألة، وقيل: ثمانية وأسقطوا التشفع لدخوله في المسألة، وقيل: سبعة وأسقطوا الشك لأنه في قسم الخبر، وكان أبو الحسن الأخفش يرى أنها ستة أيضا وهي عنده: الخبر والاستخبار والأمر والنهي والنداء والتمني "[٥٢٠]

وقد تأثر الزركشي في رصد الدلالات الكلية في النص القرآني بمن سبقه من العلماء، وهو ما يتضح من سرده لعدد الدلالات الكلية للنص القرآني عند غيره، ومن الواضح من هذا النص أن الزركشي قد اتفق على حصر الدلالات الكلية للنص القرآني في مقابل من أنكر حصرها، ولكنه اختلف في عد تلك الدلالات الكلية مع العلماء، ومن الواضح في تحديد الزركشي لعدد تلك الدلالات بست دلالات كلية تأثره بالأخفش في حصرها في ست دلالات أيضا، وكانت نقطة التقاطع بينهما في تحديد الدلالات الكلية في الخبر والاستخبار والأمر في النص القرآني، وافترق الزركشي عنه في إضافة الشرط والقسم والنفي بدائل عن النهي والنداء والتمني عند

518 نوح ، الآية ١٧
519 البرهان ، ص٣٤١ ، ج١
520 البرهان ، ص٣٠٦ ، ج٢

الأخفش، ولعل السبب في ذلك أن الزركشي قد عد الدعاء والنهي والتمني من الدلالات الصغرى للخبر

وفيما يلي نرصد تلك الدلالات الكلية عند الزركشي وما اندرج تحتها من دلالات صغرى

يرصد الزركشي دلالة الخبر في النص القرآني موردا تحتها إحدى عشرة دلالة صغرى هي التعجب والأمر والنهي والوعد والوعيد والإنكار والدعاء والجزاء والتمني والترجي والنداء، ثم تندرج تحت بعض تلك الدلالات دلالات أخرى أصغر منها، فتندرج تحت دلالة التعظيم دلالة التعجب، وتندرج تحت النداء خمس دلالات هي الإغراء والتحذير والاختصاص والتنبيه والدعاء " الأول الخبر: والقصد به إفادة المخاطب، وقد يشرب مع ذلك معاني أخر: منها التعجب ..... معنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين .....

ومنها الأمر كقوله تعالى ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾[521] .....

ومنها النهي كقوله تعالى ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[522]

ومنها الوعد كقوله ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾[523]

ومنها الوعيد كقوله تعالى ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[524]

ومنها الإنكار والتبكيت نحو ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[525]

ومنها الدعاء كقوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[526] ، أي أعنا على عبادتك.....

ومنها التمني وكلمته الموضوعة له " ليت" وقد تستعمل ثلاثة أحرف.....

---

521 البقرة ، الآية ٢٢٨
522 الواقعة ، الآية ٧٩
523 فصلت ، الآية ٥٣
524 الشعراء ، الآية ٢٢٧
525 الدخان ، الآية ٤٩
526 الفاتحة ، الآية ٥

ومنها الترجي، والفرق بينه وبين التمني أن الترجي لا يكون إلا في الممكنات، والتمني يدخل في المستحيلات

ومنها النداء، وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بحرف مخصوص .....، وقد يستعمل النداء في غير معناه مجازا في مواضع، الأول الإغراء والتحذير، وقد اجتمعا في قوله تعالى ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾[527] ، والإغراء أمر معناه الترغيب والتحريض، ولهذا خصوا به المخاطب

الثاني: الاختصاص وهو كالنداء إلا أنه لا حرف فيه

الثالث: التنبيه نحو ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾[528] ، لأن حرف النداء يختص بالأسماء.....

ومنها الدعاء نحو ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾[529] ، "[530]

هذا ويتضح تأثر الزركشي بابن فارس وكتابه الصاحبي في فقه اللغة الذي أورد ثلاث دلالات كلية للنص القرآني هي الخبر والاستخبار والأمر[531] ، ومن اللافت للنظر أن الدلالات الصغرى التي تندرج عند الزركشي تحت الخبر قد تقاطعت مع ما تناوله ابن فارس[532] في التعجب والأمر والنهي والدعاء والوعد والوعيد والإنكار والتبكيت والتمني والتعظيم والشرط والجزاء، وافترق الزركشي في دلالة الخبر على النفي والترجي والنداء، وربما يكون هذا راجعا إلي إفراده النفي باعتباره دلالة كلية، أما النداء فلم يتناوله ابن فارس، وأدرج الزركشي تحته خمس دلالات صغرى كما مر بنا

---

527 الشمس ، الآية ١٣
528 مريم ، الآية ٢٣
529 المسد ، الآية ١
530 البرهان ، ص٣٠٥-٣١٥ ، ج٢
531 انظر باب معاني الكلام عند ابن فارس في كتابه الصاحبي في فقه اللغة ، ص٤٤ و ما بعدها ، النسخة الالكترونية لموقع الوراق على الشبكة الدولية
532 نص ما قاله ابن فارس "و المعاني التي يحتملها لفظ الخبر كثيرة : فمنها التعجب نحو ما أحسن زيدا ، و التمني نحو وددتك عندنا ، و الإنكار : و ما له علي حق ، و النفي : لا بأس عليك ، و الأمر نحو قوله جل ثناؤه (و المطلقات يتربصن) ، النهي نحو قوله : (لا يمسه إلا المطهرون) ، و التعظيم نحو : سبحان الله ، و الدعاء نحو" عفا الله عنه ، و الوعد نحو قوله جل و عز (سنريهم آياتنا في الأفاق) ، و الوعيد نحو قوله (و سيعلم الذين ظلموا) ، و الإنكار و التبكيت نحو قوله جل ثناؤه (ذق إنك أنت العزيز الكريم) ، و ربما كان اللفظ خبرا و المعنى شرط و جزاء نحو قوله (إنا كاشفو العذاب قليلا أنكم عائدون) ، فظاهره خبر و المعنى : إنا إن نكشف عنكم العذاب تعودوا ....."الصاحبي في فقه اللغة ص٤٤

ومن الملاحظ أن تلك الدلالات الصغرى التي خرجت عن دلالة الخبر في النص القرآني قد فهمت عند الزركشي من دلالة السياق، فعلى سبيل المثال نجد أن دلالة الأمر فهمت من السياق على حد تعبير الزركشي " ومنها الأمر كقوله تعالى ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾[٥٣٣] ، ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ ﴾[٥٣٤] ، فإن السياق يدل على أن الله أمر بذلك "[٥٣٥]

ويحسب للزركشي أنه ربط بين دلالة الخبر الكلية على الأمر وبين السياق، وهو ما لم نجده عند ابن فارس[٥٣٦] ، إذ أورد دلالة الأمر ذاكرا الآية ذاتها دون التطرق إلى الربط بين تلك الدلالة وبين السياق

وبالرغم من تقسيم السيوطي في كتابه الإتقان للدلالات الكلية إلى خبر وإنشاء، إلا أن السيوطي قد تأثر بالزركشي في إدراج الدلالات الصغرى للخبر، خاصة الدلالة على الأمر والنهي والدعاء موردا الآيات ذاتها التي أوردها الزركشي[٥٣٧]

وقد رصد الزركشي تحت الدلالة الكلية الثانية – الاستفهام أو الاستخبار- في النص القرآني اثنتين من الدلالات الصغرى هما الخبر والإنشاء، ورصد تحت الخبر اثنتين من الدلالات الأصغر هما الإنكار والتقرير، وخرج من الإنكار دلالتان أصغر هما الإبطال والحقيقة، وخرج عن التقرير اثنتا عشرة دلالة أصغر هي الإثبات والافتخار والتوبيخ والعتاب والتبكيت والتسوية والتعظيم والتهويل والتسهيل والتخفيف والتفجع والتكثير والاسترشاد " الثاني: الاستخبار، وهو طلب خبر ما ليس عندك وهو بمعنى الاستفهام أي طلب الفهم .....ولكون الاستفهام طلب ما في الخارج أو تحصيله في الذهن لزم ألا يكون حقيقة إلا إذا صدر من شاك مصدق بإمكان الإعلام، فإن غير الشاك إذا استفهم يلزم تحصيل الحاصل، وإذا لم يصدق بإمكان الإعلام انتفت فائدة الاستفهام .....

وهو قسمان: بمعنى الخبر وبمعنى الإنشاء

533 البقرة ، الآية ٢٢٨
534 البقرة ، الآية ٢٣٣
535 البرهان ، ص٣١٠ ، ج٢
536 انظر الهامش رقم ١٠٢
537 نص ما قاله السيوطي " القصد بالخبر إفادة المخاطب ، و قد يرد بمعنى الأمر نحو (و الوالدات يرضعن) ، (و المطلقات يتربصن) ، و بمعنى النهي نحو (لا يمسه إلا المطهرون)، و بمعنى الدعاء نحو(إياك نستعين)، أي أعنا على ، و منه (تبت يدا أبي لهب) فإنه دعاء عليه " الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، النوع السابع و الخمسون : في الخبر و الإنشاء ، النسخة الالكترونية من موقع أم الكتاب للأبحاث و الدراسات الالكترونية على الشبكة الدولية

الأول: بمعنى الخبر وهو ضربان: نفي وإثبات، فالوارد للنفي يسمى استفهام الإنكار، والوارد للإثبات يسمى استفهام تقرير، لأنه يطلب بالأول إنكار المخاطب وبالثاني لإقراره به .....

والحاصل أن الإنكار قسمان: إبطالي وحقيقي، فالإبطالي أن يكون ما بعده غير واقع ومدعيه كاذب كما ذكرنا، والحقيقي يكون ما بعده غير واقع وأن فاعله ملوم نحو ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾[٥٣٨]

وأما الثاني: وهو استفهام التقرير، والتقرير حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده.....واعلم أن هذا النوع يأتي على وجوه :

الأول: مجرد الإثبات

الثاني: الإثبات مع الافتخار كقوله تعالى عن فرعون ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾[٥٣٩]

الثالث: الإثبات مع التوبيخ كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً ﴾[٥٤٠]، أي هي واسعة فهلا هاجرتم فيها !

الرابع: مع العتاب كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[٥٤١] .....

الخامس: التبكيت كقوله تعالى ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ ﴾[٥٤٢]، وهو تبكيت للنصارى فيما ادعوه.....

538 الصافات ، الآية ٩٥
539 الزخرف ، الآية ٥١
540 النساء ، الآية ٩٧
541 الحديد ، الآية ١٦
542 المائدة ، الآية ١١٦

السادس: التسوية، وهي الداخلة على جملة يصح حلول المصدر محلها كقوله تعالى ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ ﴾[٥٤٣]، أي سواء عليهم الإنذار وعدمه مجردة للتسوية مضمحلا عنها معنى الاستفهام .....

السابع: التعظيم كقوله تعالى ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾[٥٤٤]

الثامن: التهويل نحو ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾[٥٤٥]

التاسع: التسهيل والتخفيف كقوله تعالى ﴿ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ ﴾[٥٤٦]

العاشر: التفجع نحو﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ﴾[٥٤٧]

الحادي عشر: التكثير نحو ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا ﴾[٥٤٨]

الثاني عشر: الاسترشاد نحو ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ﴾[٥٤٩]، والظاهر أنهم استفهموا مسترشدين، وإنما فرق بين العبارتين أدبا....."[٥٥٠]

وقد تأثر الزركشي في الدلالات الصغرى للتقرير بابن فارس، إذ نجد أن الزركشي قد تناول معظم تلك الدلالات، علاوة على التطبيق على بعض الآيات التي تناولها ابن فارس، ومن الجدير بالذكر أن ابن فارس لم يقسم دلالة الاستخبار الكلية كما قسمها الزركشي إلى الخبر والإنشاء، ثم دلالة الخبر على التقرير، ثم دلالات

543 يس ، الآية ١٠
544 البقرة ، الآية ٢٥٥
545 الحاقة ، الأيتان ١-٢
546 النساء ، الآية ٣٩
547 الكهف ، الآية ٤٩
548 الأعراف ، الآية ٤
549 البقرة ، الآية ٣٠
550 البرهان ،ص٣١٥ ، ج٢

التقرير، بل نجد أن ابن فارس قد أورد الدلالة الكلية الاستخبار[٥٥١]، وتندرج تحتها تلك الدلالات التي ذكرها الزركشي تحت دلالة التقرير.

أما القسم الثاني للدلالة الكلية الاستخبار فهو الإنشاء، وخرج عن دلالة الإنشاء ثماني عشرة دلالة هي الأمر والنهي والتحذير والتذكير والتنبيه والترغيب والتمني والدعاء والعرض والتحضيض والاستبطاء والإياس والإيناس والتهكم والاستهزاء والتحقير والتعجب والاستبعاد والتوبيخ " القسم الثاني: الاستفهام المراد به الإنشاء وهو على ضروب:

الأول: مجرد الطلب، وهو الأمر كقوله تعالى ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٥٥٢]، أي اذكروا.....

الثاني: النهي كقوله تعالى ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾[٥٥٣] ، أي لا يغرك.....

الثالث: التحذير كقوله ﴿ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[٥٥٤]، أي قدرنا عليهم فنقدر عليكم.....

الرابع: التذكير كقوله تعالى﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾[٥٥٥].....

الخامس: التنبيه.....

السادس: الترغيب كقوله تعالى ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا ﴾[٥٥٦].....

السابع: التمني كقوله ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ ﴾[٥٥٧].....

551 نص ما قاله ابن فارس "و يكون استخبارا في اللفظ و المعنى تعجب نحو(ما أصحاب الميمنة)، و قد يسمى هذا تفخيما و منه قوله (و ماذا يستعجل منه المجرمون) تفخيم للعذاب الذي يستعجلونه ، و يكون استخبارا و المعنى توبيخ نحو(أذهبتم طيباتكم).....، و يكون اللفظ استخبارا و المعنى تفجع نحو (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة)، و يكون استخبارا و المعنى تبكيت نحو (أأنت قلت للناس)تبكيت للنصارى فيما ادعوه، و يكون استخبارا و المعنى تقرير نحو قوله عز و جل ثناؤه(ألست بربكم)، و يكون استخبارا و المعنى تسوية نحو (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) ، و يكون استخبارا و المعنى استرشاد نحو(أتجعل فيها من يفسد فيها)، و يكون استخبارا و المعنى إنكار نحو (أتقولون على الله ما لا تعلمون).....الصاحبي في فقه اللغة ص٤٥
552 يونس ، الآية ٣
553 الانفطار ، الآية ٦
554 المرسلات ، الآية ١٦
555 يوسف ، الآية ٨٩
556 الحديد و الآية ١١
557 الأعراف ، الآية ٥٣

الثامن: الدعاء وهو كالنهي إلا إنه من الأدنى إلى الأعلى كقوله تعالى ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا ﴾[558] .....

التاسع والعاشر: العرض والتحضيض، والفرق بينهما الأول طلب برفق والثاني بشق .....

الحادي عشر:الاستبطاء كقوله ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[559] .....

الثاني عشر:الإياس ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾[560]

الثالث عشر:الإيناس نحو ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[561] .....

الرابع عشر:التهكم والاستهزاء ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾[562] .....

الخامس عشر: التحقير كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾[563] .....

السادس عشر: التعجب نحو ﴿ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾[564]

السابع عشر: الاستبعاد كقوله ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾[565]، أي يستبعد ذلك منهم بعد أن جاءهم الرسول ثم تولوا

558 الأعراف ، الآية ١٥٥
559 يس ، الآية ٤٨
560 التكوير ، الآية ٢٦
561 طه ، الآية ١٧
562 هود ، الآية ٨٧
563 الفرقان ، الآية ٤١
564 النمل ، الآية ٢٠
565 الدخان ، الآية ١٣

الثامن عشر: التوبيخ كقوله تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾[566]، "[567]

وقد تأثر السيوطي بالزركشي في الدلالات الصغرى للإنشاء، فأورد دلالات التوبيخ والتقرير والتعجب والعتاب والتذكير والافتخار والتهويل والتسهيل والتهديد والتكثير والتسوية والأمر والتنبيه والترغيب والنهي والدعاء والاسترشاد والتمني والاستبطاء والعرض والتحضيض والتعظيم والتحقير والاستبعاد والإيناس والاستهزاء والإخبار، ومن اللافت للنظر أن السيوطي قد جمع بين دلالات الإنشاء من ناحية، وبين دلالات التقرير التي خرجت عن الخبر الخارج عن الاستخبار عند الزركشي من ناحية أخرى، وربما يكون هذا الفرق بين تناول الزركشي للتقرير تحت الخبر النابع من الاستخبار ناتج عن تقسيمه للدلالة الكلية للاستخبار إلى دلالتي الخبر والإنشاء بمعنى الطلب، وهو ما يتضح من الشواهد التي تناولها الزركشي تحت دلالة التقرير، ومن تعريفه للتقرير بأنه " حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده "[568]، والأمر الذي استقر عند المستخبر منه ليس طلبا مباشرا مرادا منه، وإنما المراد التجاوب مع المستخبر بتقرير ما يقول بطريقة غير مباشرة

ويعد الشرط الدلالة الكلية الثالثة التي تناولها الزركشي راصدا دلالة الأدوات على الشرط أولا ثم يعتبر أن "إن" هي أقوى الأدوات دلالة على الشرط ويرصد لها الدلالات الصغرى من التوضيح والتوبيخ والتجهيل والتهييج والتغليب " الثالث الشرط ..... وأقواها دلالة على الشرط دلالة "إن" لبساطتها ولهذا كانت أم الباب وما سواها فمركب من معنى "إن" وزيادة معه، فمن معناه كل في حكم إن، وما معناه كل شيء إن، وأينما وحيثما يدلان على المكان وعلى إن، وإذ ما ومن يدلان على الشرط والزمان "[569]

ومن النص السابق نلمح تصور الزركشي للتدرج الدلالي بين أدوات الشرط، إذ تدل "إن" على الشرط ويبقى معناها موجودا مع بقية أدوات الشرط الأخرى التي تزيد فيها مع كل أداة دلالة أخرى على دلالة الشرط

وقد رصد الزركشي الدلالات الصغرى للشرط ممثلا في دلالات إن " وقد تستعمل "إن" في مقام الجزم لأسباب منها: أن تأتي على طريقة وضع الشرط

566 آل عمران ، الآية ٨٣
567 البرهان ، ص٣٢٦ ، ج٢
568 البرهان ، ص٣٢٠ ، ج٢
569 البرهان ، ص٣٤٦ ، ج٢

المتصل الذي يوضع شرطه تقديرا لتبيين مشروطه تحقيقا كقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[570] .....

ومنها أن تأتي على طريق تبيين الحال على وجه يأنس به المخاطب وإظهار للتناصف في الكلام كقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ ﴾[571]

ومنها تصوير أن المقام لا يصلح إلا بمجرد فرض الشرط كفرض الشيء المستحيل كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ ﴾[572]

ومنها قصد التوبيخ والتجهيل في ارتكاب مدلول الشرط وأنه واجب الانتفاء حقيق ألا يكون كقوله تعالى ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾[573] .....

ومنها تنبيه المخاطب وتهييجه كقوله تعالى ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[574] .....

ومنها التغليب كقوله تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[575] ، "[576]

أما الدلالات الكلية من القسم والأمر والنفي فقد تناولها الزركشي بشيء من الاختصار مقارنة بالدلالات الكلية السابقة عليها، فقد أورد تحت القسم دلالتي التحقيق والتوكيد، واكتفى بالدلالة الكلية للأمر دون إدراج دلالات صغرى لها "

570 الزخرف ، الآية ٨١
571 سبأ ، الآية ٥٠
572 فاطر ، الآية ١٤
573 الزخرف ، الآية ٥
574 البقرة ، الآية ١٧٢
575 الحج ، الآية ٥
576 البرهان ، ص٣٤٦ ، ج٢

القسم وجوابه ..... والقسم لفظه لفظ الخبر ومعناه الإنشاء، والالتزام بفعل المحلوف عليه أو تركه وليس بإخبار عن شيء وقع أو لا يقع، وإن كان لفظه المضي أو الاستقبال، وفائدته تحقق الجواب عند السامع وتأكده ليزول عنه التردد فيه.

الأمر حيث وقع في القرآن كان بغير الحرف كقوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[577] .....

وجاء بالحرف في مواضع يسيرة .....منها قوله تعالى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ ﴾[578] ، "[579]

أما النفي فقد تناول الزركشي تحته بعض الدلالات الصغرى ومنها دلالة الجحد، فيتمثل بقول ابن الشجري في عموم النفي وخصوص الجحد ويربط بين الدلالة الكلية للنفي وبين صدق النافي، ويربط بين دلالة الجحد وكذب النافي، بمعنى ارتباط النفي والجحد بحال المتكلم " النفي: هو شطر الكلام كله؛ لأن الكلام إما إثبات أو نفي ..... قال ابن الشجري: إن كان النافي صادقا فيما قاله سمي كلامه نفيا، وإن كان يعلم كذب ما نفاه كان جحدا، فالنفي أعم؛ لأن كل جحد نفي من غير عكس، فيجوز أن يسمى الجحد نفيا لأن النفي أعم ولا يجوز أن يسمى النفي جحدا "[580]

ويرصد تحت دلالة النفي دلالتي نفي الفعلية والفاعلية، بحسب ما تبع النفي " المنفي ما ولي النفي، فإذا قلت: " ما ضربت زيدا " كنت نافيا للفعل الذي هو ضربك إياه، وإذا قلت: "ما أنا ضربته" كنت نافيا لفاعليتك للضرب"[581]

ويرصد دلالة النفي على العموم والخصوص " إذا كان الكلام عاما ونفيته، فإن تقدم حرف النفي أداة العموم كان نفيا للعموم، وهو لا ينافي الإثبات الخاص، فإذا " لم أفعل كل ذا ، بل بعضه" استقام، وإن تقدم صيغة العموم على النفي فقلت: "كل ذا لم أفعله" كان النفي عاما، ويناقضه الإثبات الخاص" [582]

577 البقرة ، الآية ٤٣
578 الحشر ، الآية ١٨
579 البرهان ، ص ٣٦٠ ، ج٢
580 البرهان ، ص٣٦٢ ، ج٢
581 البرهان ، ص٣٦٣ ، ج٢
582 البرهان ، ص٣٦٤ ، ج٢

ومن الجدير بالذكر أن الزركشي في تناوله للدلالات الكلية في النص القرآني لم يدرج الدلالات الصغرى لتلك الدلالات فحسب، بل نجد أنه قد أوضح أسباب الربط بين تلك الدلالة الكلية والدلالات الصغرى، بمعنى أن الدلالات الصغرى التي تندرج تحت دلالة كلية ما لها أسباب جعلت الزركشي يربط بينها

ومن تلك الأسباب مما كشفنا ملامحه عند الزركشي، ما تناوله العلماء السابقون عليه من ربط بين تلك الدلالات الصغرى والدلالات الكلية، وفي هذا الملمح تكون مقولة العلماء ممن سبق الزركشي هي الداعي إلى الربط بين الدلالات الكلية والصغرى، ومن ذلك الربط بين دلالة النداء على التنبيه بالأخذ بمقولة النحاس في تناوله لإحدى الآيات، مستشفا من مقولته " هذا وقت حضور الويل" الدلالة على التنبيه " الثالث التنبيه .....وقال النحاس في قوله تعالى ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ﴾[٥٨٣]، نداء مضاف، والفائدة فيه أن معناه: هذا وقت حضور الويل "[٥٨٤]

ويربط بين التعجب ودلالة التعظيم بمقولة بعض المحققين على حد تعبيره " وقال بعض المحققين: التعجب إنما يقال لتعظيم الأمر المتعجب منه ولا يخطر بالبال أن شيئا صيره كذلك وخفي علينا فلا يمتنع حينئذ من فعل الله "[٥٨٥]

هذا ومن تلك الملامح عند الزركشي الاعتماد على ما فهمه من أسباب النزول ليربط بين تلك الدلالات، ومن ذلك الربط بين دلالة التقرير وما يندرج تحتها من دلالة العتاب عن طريق قول لابن مسعود ورد في أسباب نزول الآية " الرابع: العتاب كقوله تعالى ﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[٥٨٦]، قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين "[٥٨٧]

ـ أنواع دلالات اللفظ

رصد الزركشي في كتابه البرهان عدة أنواع لدلالة اللفظ، فبجانب الدلالة اللغوية للفظ نجد دلالات أخرى تتمثل في الدلالة الشرعية والدلالة العرفية والدلالة الاصطلاحية، فيشير الزركشي إلى دوران اللفظ بين دلالتين يجب البحث في النص

583 الفرقان ، الآية ٢٨
584 البرهان ، ص٣١٤ ،ج٢
585 البرهان ، ص٣٠٨ ، ج٢
586 الحديد ، الآية ١٦
587 البرهان ، ص٣٢٣ ، ج٢

لترجيح أحدهما حتى تتضح دلالة اللفظ، وهاتان الدلالتان إما الدلالة اللغوية والدلالة الشرعية، أو الدلالة الشرعية والدلالة العرفية " أن تختلف أصل الحقيقة فيهما فيدور اللفظ بين معنيين، هو في أحدهما حقيقة لغوية، وفي الآخر حقيقة شرعية، فالشرعية أولى إلا أن تدل قرينته على إرادة اللغوية نحو قوله تعالى ﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ ﴾[٥٨٨]، وكذلك إذا دار بين اللغوية والعرفية، فالعرفية أولى لجريانها على اللغة، ولو دار بين الشرعية والعرفية، فالشرعية أولى لأن الشرع ألزم "[٥٨٩]

ومن اللافت للنظر أن الزركشي قد رتب تلك الدلالات للفظ في أولوية الأخذ به في النص القرآني من أولوية الأخذ بالدلالة الشرعية ثم الدلالة العرفية ثم الدلالة اللغوية

ومن الجدير بالذكر أن تلك الدلالات قد تجتمع مع بعضها البعض، فيكون للفظ دلالة لغوية وشرعية وعرفية، وفي هذه الحال تحدد الدلالة حسب الأمارات الدالة عليها على حد تعبير الزركشي " لا تختلف أصل الحقيقة بل كلا المعنيين استعمل فيهما في اللغة أو في الشرع أو في العرف على حد سواء .....كالقرء حقيقة في الحيض والطهر، فعلى المجتهد أن يجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه، فإذا وصل إليه كان هو مراد الله في حقه، وإن اجتهد مجتهد آخر فأدى اجتهاده إلى المعنى الآخر كان ذلك مراد الله تعالى في حقه "[٥٩٠]

ويتضح من خلال تناول الزركشي للألفاظ إيراد دلالتين للفظ، الدلالة الأولى هي الدلالة المعجمية للفظ، والدلالة الثانية هي الدلالة الاصطلاحية له، وما من شك أن هذه الدلالة الاصطلاحية من الدلالات التي وضعها أهل علم من العلوم للتعريف بذلك اللفظ

ويظهر ذلك من تعريف الزركشي للمحكم " فأما المحكم فأصله لغة المنع، تقول "أحكمت" بمعنى "رددت ومنعت"، و"الحاكم" لمنعه الظالم من الظلم " وحكمة اللجام" هي التي تمنع الفرس من الاضطراب، وأما في الاصطلاح فهو ما أحكمته بالأمر والنهي وبيان الحلال والحرام "[٥٩١]

588 التوبة ، الآية ١٠٣
589 البرهان ، ص١٦٤ ، ج٢
590 البرهان ، ص١٦٤ ، ج٢
591 البرهان ، ص٦٤ ، ج٢

ومن تعريف " التذييل: مصدر "ذيل" للمبالغة وهي لغة جعل الشيء ذيلا للأخر واصطلاحا أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقا لدلالة منطوق الأول أو مفهومه "[592]

ومن تعريف " الحذف: وهو لغة الإسقاط ومنه حذفت الشعر إذا أخذت منه، واصطلاحا: إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل "[593]

ومن النصوص السابقة نجد أن الدلالة الاصطلاحية عند الزركشي لا تبتعد كثيرا عن الدلالة المعجمية للفظ فرأينا – على سبيل المثال- أن الحذف هو لغة " الإسقاط"، وفي الاصطلاح " إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل "، و" التذييل" مصدر " ذيل" للمبالغة وهي لغة " جعل الشيء ذيلا للآخر"، وفي الاصطلاح " أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول " .

التعدد الدلالي

- الوجوه الدلالية للآية

اتضح لنا فيما مر بنا أن الزركشي يعتبر من الباحثين عن الدلالة في النص القرآني، ولهذا البحث عند الزركشي ملمح يلفت نظر كل من يتصفح البرهان ألا وهو رصد التعدد الدلالي بعدة صور منها التعدد الدلالي لبعض الآيات أو تراكيبها، وذلك التعدد له شقان، الأول منهما رصد الوجوه الدلالية المختلفة من أقوال العلماء والمفسرين في واحدة من الآيات، والثاني ما تناوله الزركشي بوجوه دلالية متعددة تحتملها الآية أو تراكيبها

أما الشق الأول فنجده فيه أن الزركشي يورد قولا لابن فارس ثم يذكر أربعة وجوه أخرى للراغب والرازي والزمخشري مثنيا على ما قاله ابن فارس ومعلقا على قول الرازي في تضعيف قول الراغب ثم يورد الزركشي حجته على التعليق على قول الرازي بالاستشهاد بالشعر " ذكره ابن فارس وخرج عليه قوله تعالى

592 البرهان ،ص ٦٨ ، ج٣
593 البرهان ، ص١٠٠ ، ج٣

﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[594]، قال: فهذا خاص به يريد الأمر المحدد بلغة ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ﴾[595]، ولم تبلغ هذا ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[596]، يريد جميع ما أرسلت به .

قلت: وهو وجه حسن، وفي الآية وجوه أخر: أحدها: أن المعنى أنك إن تركت منها شيئا كنت كمن لا يبلغ شيئا منها فيكون ترك البعض محبطا للباقي، قال الراغب: وكذلك أن حكم الأنبياء عليهم السلام في تكليفاتهم أشد وليس حكمهم كحكم سائر الناس الذين يتجاوز عنهم إذا خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، وروى هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: قال الإمام فخر الدين الرازي إنه من باب قوله

أنا أبو النجم و شعري شعري

معناه أن شعري قد بلغ في المتانة والفصاحة إلى حد شيء قيل في نظم أنه شعري فقد انتهى مدحه إلى الغاية فيفيد تكرير المبالغة التامة في المدح من هذا الوجه، وكذا جواب الشرط ها هنا، يعني به أنه لا يمكن أن يوصف ترك بعض المبلغ تهديدا أعظم من أنه ترك التبليغ فكان ذلك تنبيها على غاية التهديد والوعيد، وضعف الوجه الذي قبله بأن من أتى بالبعض وترك البعض لو قيل إنه ترك الكل كان كذبا، ولو قيل: أن الخلل في ترك البعض كالخلل في ترك الكل فإنه أيضا محال .

وفي هذا التضعيف الذي ذكره الإمام نظر، لأنه إذا كان متى أتى به غير معتد به فوجوده كالعدم كقول الشاعر:

سئلت فلم تمنع ولم تعط نائلا * فسيان لا ذم عليك ولا حمد

أي ولم تعط ما يعد نائلا وإلا يتكاذب البيت

الثالث: أنه لتعظيم حرمة كتمان البعض جعله كـــكتمان الكل كما في قوله تعالى ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[597]

594 المائدة ، الآية ٦٧
595 المائدة آ الآية ٦٧
596 المائدة ، الآية ٦٧
597 المائدة ، الآية ٣٢

الرابع: أنه وضع السبب موضع المسبب ومعناه إن لم تفعل ذلك فلك ما يوجبه كتمان الوحي كله من العذاب، ذكر هذا والذي قبله صاحب الكشاف "[598]

ومن الجدير بالذكر أن الزركشي لا يذكر الوجوه الدلالية المختلفة للآية عن أقوال العلماء والمفسرين فحسب، بل وينبه في بعض الأحيان على فساد بعض الدلالات ويذكر الدليل على ذلك، ومن ذلك منع دلالة وردت عن أبي بكر الرازي في الآية السابقة " قال: الأمام أبو بكر الرازي: وفي هذه الآية دلالة على أن كل ما كان من الأحكام للناس إليه حاجة عامة أن النبي – صلى الله عليه وسلم- قد بلغه الكافة، وإنما وروده ينبغي أن يكون من طريق التواتر نحو الوضوء من مس الفرج ومن مس المرأة ومما مست النار ونحوها لعموم البلوى بها، فإذا لم نجد ما كان فيها بهذه المنزلة واردا من طريق التواتر علمنا أن الخبر غير ثابت في الأصل. انتهى.

وهذه الدلالة ممنوعة لأن التبليغ مطلق غير مقيد بصورة التواتر فيما تعم به البلوى، فلا نثبت زيادة ذلك إلا بدليل، ومن المعلوم أن الله سبحانه لم يكلف رسوله- صلى الله عليه وسلم- إشاعة شيء إلى جمع يتحصل بهم القطع غير القرآن، لأنه المعجز الأكبر وطريق معرفته القطع، فأما باقي الأحكام فقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم- يرسل بها إلى الآحاد والقبائل وهي مشتملة على ما تعم به البلوى قطعا "[599]

أما الشق الثاني فيتناول فيه الزركشي الآية بعدة دلالات تحتملها الآية دون ذكر أقوال العلماء أو المفسرين، وإنما تلك الأقوال له

فمن خلال تناول الزركشي للآيتين ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾[600] ، من حيث إن السؤال عن الفاعل وجاء الجواب عن الفعل نجد أنه يورد الوجوه الدلالية المتعددة للآيتين " فإن قلت: ولابد من ذكر ما يكون مخلصا عن الخلف على كل حال، فالجواب من وجوه:

أحدها: أن في التعريض مخلصا عن الكذب ولم يكن قصده عليه السلام أن ينسب الفعل الصادر منه إلى الصنم حقيقة، بل قصده إثبات الفعل لنفسه على طريق

598 البرهان ، ص ٢١٧ ،ج٢
599 البرهان ، ص٢١٩ ، ج٢
600 الأنبياء ، الآيتان ٦١-٦٢

التعريض ليحصل غرضه من التبكيت، وهو في ذلك مثبت معترف لنفسه بالفعل وليس هذا من الكذب في شيء

والثاني: إنه غضب من تلك الأصنام غيرة لله تعالى، ولما كانوا لأكبرها أشد تعظيما كان منه أشد غضبا، فحمله ذلك على تكسيرها، وذلك كله حامل للقوم على الأنفة أن يعبدوه فضلا عن أن يخصوه بزيادة التعظيم، ومنبه لهم على أن المتكسرة متمكن فيها الضعف والعجز .....

الثالث: أنه لما رأى عليه السلام منهم بادرة تعظيم الأكبر لكونه أكمل من باقي الأصنام، وعلم أن ما هذا شأنه يصان أن يشترك معه من دونه في التبجيل والتكبير حمله على تكسيرها منبها لهم على أن الله أغير، وعلى تمحيق الأكبر أقدر، وحري أن يخص بالعبادة، فلما كان الكبير هو الحامل على تكسير الصغير صحت النسبة إليه على ما سلف، ولما تبين لهم الحق رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون إذ وضعتم العبادة بغير موضعها "[601]

- التعدد الدلالي للفظ

تناول الزركشي في النوع الرابع " في جمع الوجوه والنظائر" من كتابه البرهان الوجوه الدلالية المتعددة للفظ " فالوجوه اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان "[602]

ويرصد في تلك الوجوه الدلالية – باعتبارها كاشفا عن التعدد الدلالي المعجمي للفظ في النص القرآني- الألفاظ التي ذكرت في القرآن الكريم ولها عدة دلالات راصدا تلك الدلالات، نورد منها " الهدى سبعة عشر حرفا، بمعنى البيان كقوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[603] ، وبمعنى الدين ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾[604] ، وبمعنى الإيمان ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾[605] ، وبمعنى الداعي ﴿

601 البرهان ، ص٤٩ ، ج٤
602 البرهان ، ص١٣٨ ، ج١
603 البقرة ، الآية ٥
604 آل عمران ، الآية ٧٣
605 مريم ، الآية ٧٦

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[606]، وبمعنى الرسل والكتاب ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾[607]، وبمعنى الرشاد ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[608]، ....."[609]

هذا ويرصد في بقية أجزاء البرهان عموما التعدد الدلالي لبعض الألفاظ من الناحية المعجمية، فالآية لها ثلاث دلالات في اللغة " أما الآية فلها في اللغة ثلاثة معان: أحدها جماعة الحروف، قال أبو عمرو الشيباني: تقول العرب: خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم .

ثانيها: الآية العجب، تقول العرب: فلان آية في العلم وفي الجمال .....

ثالثها: العلامة، تقول العرب: خربت دار فلان وما بقي فيها آية، أي علامة "[610]

وللفظ "النسخ" أربع دلالات في النص القرآني " والنسخ يأتي بمعنى الإزالة ومنه قوله تعالى ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[611]

ويأتي بمعنى التبديل كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾[612]، وبمعنى التحويل كتناسخ المواريث، يعني تحويل الميراث من واحد إلى واحد، ويأتي بمعنى النقل من موضع إلى موضع ومنه " نسخت الكتاب" إذا نقلت ما فيه حاكيا للفظه وخطه "[613]

وللفظ "الأمة" أربع دلالات في النص القرآني " كالأمة في قوله تعالى ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً ﴾[614]، بمعنى الجماعة، وفي قوله ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾[615]، بمعنى الرجل الجامع للخير المقتدى به، وبمعنى الدين في قوله تعالى ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ

606 الرعد ، الآية ٧
607 البقرة ، الآية ٣٨
608 الفاتحة ، الآية ٦
609 البرهان ، ص١٣٩ ، ج١
610 البرهان ، ص٣٠٢ ، ج١
611 الحج ، الآية ٥٢
612 النحل ، الآية ١٠١
613 البرهان ، ص٢٨ ، ج٢
614 القصص ، الآية ٢٣
615 النحل ، الآية ١٢٠

﴿ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾[616]، وبمعنى الزمان في قوله تعالى ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾[617] ،....."[618]

وتعد بنية التورية من البنى التي رصد فيها الزركشي التعدد الدلالي للفظ من ناحية، وتأثير هذا التعدد في المتلقي، علاوة على الارتباط بمقاصد المتكلم من ناحية أخرى، وهو ما يتضح من تعريف الزركشي للتورية وارتباطها بإيهام المتلقي " التورية: وتسمى الإيهام والتخييل والمغالطة والتوجيه، وهي أن يتكلم المتكلم بلفظ مشترك بين معنيين: قريب وبعيد، ويريد البعيد، يوهم السامع أنه أراد القريب مثاله قوله تعالى ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[619] ،أراد بالنجم النبات الذي لا ساق له، والسامع يتوهم أنه الكوكب، لا سيما مع تأكيد الإيهام بذكر الشمس والقمر "[620]

ويربط بين التعدد الدلالي النابع عن التورية ومقاصد المتكلم " وكان الأنصار يقولون ﴿ رَٰعِنَا ﴾[621]، أي أرعنا سمعنا وانظر إلينا، والكفار يقولونها " فاعل" من الرعونة "[622]

- التعدد الدلالي للأدوات

أما الأدوات فيفرد لها الزركشي مساحة لا بأس بها في كتابه البرهان عموما وفي النوع السابع والأربعين خصوصا الذي جاء تحت عنوان " النوع السابع والأربعون: في الكلام على المفردات من الأدوات والبحث عن معاني الحروف مما يحتاج إليه المفسر لاختلاف مدلولها "[623]، وقد رصد فيه الدلالات المختلفة لتلك الأدوات من ناحية، والتعدد الدلالي لبعضها من ناحية أخرى، وفيما يلي نذكر بعضا من تلك الدلالات

616 الزخرف ، الآية ٢٢
617 يوسف، الآية ٤٥
618 البرهان ، ص٢٠٤ ، ج٢
619 الرحمن ، الآية ٦
620 البرهان ، ص٤٣٦ ، ج٣
621 البقرة ، الآية ١٠٤
622 البرهان ، ص٤٣٦ ، ج٣
623 البرهان ، ص١٧٢ ، ج٤

من تلك الأدوات " إذ" ودلالتها على المضي والتعليل وبمعنى حين " إذ: ظرف لماضي الزمان يضاف للجملتين كقوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ ﴾[624]، وتقول: أيدك الله إذا فعلت ؟.....، وتكون بمعنى "حين" كقوله ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾[625]، أي حين تفيضون فيه، وحرف تعليل نحو ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾[626]، ....."[627].

ويرصد لـ"أو" ثماني دلالات تتوزع بين الخبر والطلب، هي دلالات الشك والإبهام والتنويع والتفصيل والإضراب والجمع والإباحة والتخيير " أو: تقع في الخبر والطلب، فأما في الخبر فلها فيه معان: الأول: الشك، نحو قام زيد أو عمرو

والثاني: الإبهام، وهو إخفاء الأمر على السامع مع العلم به كقوله تعالى ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى ﴾[628]

الثالث: التنويع كقوله تعالى ﴿ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[629]، أي أن قلوبهم تارة تزداد قسوة، وتارة ترد إلى قسوتها الأولى فجيء بـ"أو" لاختلاف أحوال قلوبهم

الرابع: التفصيل كقوله ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾[630]، أي قالت اليهود: لا يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا الذين هم نصارى

الخامس: للإضراب كـ"بل" كقوله تعالى ﴿ كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾[631]

624 الأنفال ، الآية ٢٦
625 يونس ، الآية ٦١
626 الزخرف ، الآية ٣٩
627 البرهان ، ص٢٠٥ ، ج٤
628 سبأ ، الآية ٢٤
629 البقرة ، الآية ٧٤
630 البقرة ، الآية ١١١
631 النحل ، الآية ٧٧

السادس: بمعنى الواو كقوله ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾[632]

وأما في الطلب فلها معان، الأول: الإباحة، نحو تعلم فقها أو نحوا كقوله تعالى ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ ﴾[633]

الثاني: التخيير، نحو خذ هذا الثوب أو ذاك "[634]

الفروق الدلالية

تناول الزركشي في كتابه البرهان بعضا من الفروق الدلالية بين الألفاظ خاصة ما تسمى بالمترادفات تحت عنوان " في ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه"[635] ، وقد نبع تصور الزركشي للفروق الدلالية بين الألفاظ من رفضه الترادف في اللغة، ويشير في ذلك إلى أهمية السياق الذي تستخدم فيه الألفاظ ليكشف عن الفروق الدلالية بين تلك الألفاظ " ولهذا وزعت بحسب المقامات فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام الآخر، فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات والقطع بعدم الترادف ما أمكن، فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد "[636]

ومن ذلك الفروق الدلالية بين " الخشية" و" الخوف" مستندا على استعمال كل منهما في مقام يغاير الأخر مستشهدا بقول العرب " فمن ذلك " الخوف" و" الخشية"، لا يكاد اللغوي يفرق بينهما، ولا شك أن " الخشية" أعلى من " الخوف"، وهي أشد الخوف فإنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية إذا كانت يابسة، وذلك فوات بالكلية، والخوف من قولهم: ناقة خوفاء إذا كان بها داء، ذلك نقص وليس بفوات، ومن ثمة خصت الخشية بالله تعالى "[637]

ويلتمس الفروق الدلالية بين " جاء" و" أتى" عن طريق الاستشهاد بالاستعمال اللغوي لهما " أما في الماضي ففيه لطيفة، وهو أن "جاء" يقال في

632 المرسلات ، الآيتان ٥-٦
633 النور ، الآية ٦١
634 البرهان ، ص٢٠٨ ، ج٤
635 البرهان ، ص٧٦ ، ج٤
636 البرهان ، ص٦٧ ، ج٤
637 البرهان ، ص٧٧ ، ج٤

الجواهر والأعيان، و"أتى" في المعاني والأزمان، ولهذا يقال: حكم فلان ماض، ولا يقال ذاهب، لأن الحكم ليس من الأعيان "[٦٣٨]

وبجانب الاستعمال اللغوي للفظ يستند الزركشي على هيئة الأصوات في اللفظ والحركات ليكشف عن الفروق الدلالية بين الألفاظ، ومن ذلك الفرق الدلالي بين "قعد" و"جلس" من زاوية مدة المكوث "من ذلك "القعود" و"الجلوس"، إن القعود لا يكون معه لبثة، والجلوس لا يعتبر فيه ذلك، ولهذا تقول: قواعد البيت، ولا تقول: جوالسه، لأن مقصودك ما فيه ثبات، والقاف والعين والدال كيف تقلبت دلت على اللبث، والقعدة بقاء على حالة، والدقعاء للتراب الكثير الذي يبقى في مسيل الماء وله لبث طويل، وأما الجيم واللام والسين فهي للحركة، منه السجل للكتاب يطوى له ولا يثبت عنده، ولهذا قالوا في "قعد" يقعد بضم الوسط، وقالوا "جلس" يجلس بكسره فاختاروا الثقيل لما هو أثبت " [٦٣٩]

العدول الدلالي

تناول الزركشي العدول الدلالي في كتابه البرهان تحت مسمى التضمين، وقسم ذلك العدول إلى العدول بين الأسماء، والعدول بين الأفعال، والعدول بين الحروف، مشيرا في تعريفه للتضمين إلى فائدة العدول في الكشف عن دلالتين في ظاهر النص هما الدلالة المعدول عنها، والدلالة المعدول إليها، فكأن العدول الدلالي مرتبط في تعريف الزركشي للتضمين بالتعدد الدلالي للفظ في النص " وهو إعطاء الشيء معنى الشيء، وتارة يكون في الأسماء، وفي الأفعال، وفي الحروف، فأما في الأسماء فهو أن تضمن اسما معنى اسم لإفادة معنى الاسمين جميعا كقوله تعالى ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [٦٤٠] ، ضمن "حقيق" معنى"حريص"، ليفيد أنه محقوق بقول الحق وحريص عليه "[٦٤١]

ويتضح من النص السابق أن العدول الدلالي من "حقيق" إلى "حريص" أفاد بقاء الدلالتين معا في النص بضم الحرص مع وجوب قول الحق وهو ما يظهر من خلال تناول الزركشي الفرق بين بنية المجاز، وبين التضمين فنجد أن الزركشي يشير إلى أن الفرق يكون من خلال كلية العدول في المجاز، أو جزئيته في التضمين

638 البرهان ، ص٧٩ ، ج٤
639 البرهان ، ص٨٢ ، ج٤
640 الأعراف ، الآية ١٠٥
641 البرهان ، ص٣٣٢ ، ج٣

من حيث بقاء الدلالتين معا الحقيقية والمجازية، ومن خلال هذا التناول يصرح بلفظ العدول " وهذا بخلاف المجاز، فإن فيه العدول عن مسماه بالكلية، ويراد به غيره كقوله ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [٦٤٢] ، فإنه استعمل " أراد" في معنى مقاربة السقوط، لأنه من لوازم الإرادة، وإن من أراد شيئا فقد قارب فعله، ولم يرد باللفظ هذا المعنى الحقيقي الذي هو الإرادة ألبتة، والتضمين أيضا مجاز، لأن اللفظ لم يوضع للحقيقة والمجاز معا، والجمع بينهما مجاز خاص يسمونه التضمين تفرقة بينه وبين المجاز المطلق "[٦٤٣]

ومن الجدير بالذكر أن العدول الدلالي مرتبط عند الزركشي بدليل العدول في النص، بمعنى كيفية كشف الزركشي عن العدول الدلالي، وهذه الكيفية تتضح من ورود حرف جر متعلق بأحد الأفعال مع فعل آخر، ومن ذلك العدول عن "يشرب" الذي يتعدى بنفسه إلى "يروى" الذي يتعدى بالباء، فلما ورد الفعل "يشرب" متعديا بالباء فهم منه العدول الدلالي إلى " يروى" مع بقاء دلالة الشرب في النص " وذهب المحققون إلى أن التوسع في الفعل وتعديته بما لا يتعدى لتضمنه معنى ما يتعدى بذلك الحرف أولى، لأن التوسع في الأفعال أكثر، مثاله قوله تعالى ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ [٦٤٤] ، فضمن "يشرب" معنى"يروى"، لأنه يتعدى بالباء، فلذلك دخلت الباء، وإلا فـ"يشرب" يتعدى بنفسه، فأريد باللفظ الشرب والري معا، فجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد "[٦٤٥]

ولأهمية وجود الدليل على العدول الدلالي بين الأفعال نجد أن الزركشي يشترط مراعاة الدلالة المعدول إليها من حيث وجود حرف الجر الدال على الفعل المحذوف الذي نبعت عنه الدلالة المعدول إليها " الأكثر أن يراعى في التعدية ما ضمن منه، وهو المحذوف لا المذكور كقوله تعالى ﴿ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [٦٤٦] ، أي الإفضاء "[٦٤٧]

ويشير الزركشي إلى فائدة العدول الدلالي من إظهار دلالة محددة تفهم من الدلالة المعدول إليها، ومن ذلك العدول الدلالي عن الإبداء إلى الإخبار لاحتمال

642 الكهف ، الآية ٧٧
643 البرهان ، ص٣٣٣ ، ج٣
644 الإنسان ، الآية ٦
645 البرهان ، ص٣٣٢ ، ج٣
646 البقرة ، الآية ١٨٧
647 البرهان ، ص٣٣٦ ، ج٣

دلالة الإخبار على السرية دون الإبداء " وقوله ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾[٦٤٨] ، ضمن "التبدي به" معنى "تخبر به" أو " لتعلم" ليفيد الإظهار معنى الإخبار، لأن الخبر قد يقع سرا غير ظاهر "[٦٤٩]

هذا وقد تناول الزركشي العدول الدلالي بين الحروف في النص القرآني، فيرصد – على سبيل المثال - في بعض الآيات العدول عن حرف الجر "اللام" إلى حرف الجر " في" ليكشف عن دلالة الاستحقاق كما " في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٦٥٠] ، فعدل عن "اللام" إلى "في" في الأربعة الأخيرة إيذانا بأنهم أكثر استحقاقا للتصدق عليهم ممن سبق ذكرهم باللام، لأن "في" للوعاء فنبه استعمالها على أنهم أحقاء بأن يجعلوا مظنة لوضع الصدقات فيهم كما يوضع الشيء في وعائه مستقرا فيه، وفي تكرير حرف الظرف داخلا على "سبيل الله" دليل على ترجيحه على الرقاب والغارمين "[٦٥١]

ومن اللافت للنظر أن الزركشي لم يتناول العدول بين حرفي الجر ودلالته فحسب، بل تجاوز ذلك إلى الربط بين إيراده لدلالة الاستحقاق وبين حرف الجر "في" الذي عدل إليه ليلفتنا إلى أن تلك الدلالة نابعة من دلالة "في" على الوعاء

السياق

ـ أنماط السياقات

رصدنا في البرهان خلال تناول الزركشي التطبيقي للنص القرآني بعض أنماط السياقات، وتظهر تلك الأنماط من خلال إحالة الزركشي للآيات أو التراكيب فيها إلى آيات أخرى أو تراكيب أخرى في النص القرآني، بمعنى أن الزركشي

648 القصص ، الآية ١٠
649 البرهان ، ٣٣٥ ، ج٣
650 التوبة ، الآية ٦٠
651 البرهان ، ص١٧٣ ، ج٤

يستدل على المعنى أو الظاهرة الموجودة في آية بآية أخرى تشترك معها في سياق واحد

وعلى هذا المنوال نحدد أربعة أنماط للسياقات تبدأ بسياق الآية، وتنتهي بالسياق الكلي للنص القرآني مرورا بسياق مجموعة من الآيات المرتبة داخل السورة، وسياق السورة[٦٥٢] ، وفيما يلي نعرض تلك السياقات عند الزركشي بما يدلل على تلك الأنماط

تظهر ملامح سياق الآية عند الزركشي من اعتبار الآية وحدة دلالية تدل مكوناتها على بعضها البعض، فعند التناول التطبيقي للآية يحيل أولها إلى آخرها، أو العكس ليستدل على مقولاته، فعلى سبيل المثال يتناول الحذف في أول الآية ويقوم بتقدير المحذوف منها بالاستدلال من آخر الآية " في قوله ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[٦٥٣] ، أي: أهذا خير أمن جعل صدره ضيقا حرجا وقسا قلبه، فحذف بدليل قوله ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[٦٥٤] ، "[٦٥٥]

وفي قوله تعالى " ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾[٦٥٦] ، أي أفلستم ظالمين؟ بدليل قوله عقبه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٦٥٧] ، "[٦٥٨]

ويستدل على دلالة التخصيص من آخر الآية؛ لأن أولها جاء للعموم، ومن ذلك تخصيص "النساء" بـ "العاقلة البالغة" التي تؤتى صداقها في " قوله تعالى ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[٦٥٩] ، فهذا عام في البالغة والصغيرة عاقلة أو مجنونة، ثم

652 انظر الدراسة التطبيقية التي أعدها د. طارق سعد شلبي في كتابه " محمد و الفتح قراءة في جماليات البيان القرآني " ، دار الفردوس ، القاهرة ، ٢٠٠١، من حيث الكشف عن أنماط السياقات في النص القرآني
653 الزمر ، الآية ٢٢
654 الزمر ، الآية ٢٢
655 البرهان ، ص١٣٨ ، ج٣
656 الأحقاف ، الآية ١٠
657 الأحقاف ، الآية ١٠
658 البرهان ، ص١٧٩ ، ج٣
659 النساء ، الآية ٤

خص في آخرها بقوله ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا ﴾[660] الآية، فخصها بالعاقلة البالغة؛ لأن من عداها عبارتها ملغاة في العفو "[661]

وعلى العكس من ذلك يستدل على دلالة التخصيص من أول الآية لأن آخرها جاء للعموم في " قوله تعالى ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾[662]، فإن هذا خاص في الذي أعطاها الزوج، ثم قال بعد ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾[663]، فهذا عام فيما أعطاها الزوج أو غيره إذا كان ملكا لها"[664]

ويستدل على وقوع الماضي موقع المستقبل في أسلوب الشرط من ورود الخطاب بالمستقبل آخر الآية في " قوله تعالى ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾[665]، فعلى وقوع الماضي موقع المستقبل فيهما، دليله قوله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾[666] ، أي: إن كنت قلته تكن قد علمته، وهو عدول بالجواب إلى ما هو أبدع "[667]

أما النمط الثاني من أنماط السياقات فيظهر باعتبار الزركشي لمجموعة آيات متتالية وحدة دلالية مؤثرة في تلك الآيات، ويتجلى هذا النمط من إحالة الزركشي للدلالة أو ظواهر التركيب في آية إلى آية أخرى تسبقها أو تليها في النص القرآني

ومن ذلك ما يتضح من الكشف عن دلالة الآية بما يليها من آيات وذلك من خلال تناول الزركشي لظاهرة الإجمال الدلالي في النص القرآني بمعنى خفاء الدلالة أحيانا ولو على المستوى الظاهر في النص القرآني " وقد يكون بيانه واضحا وهو أقسام، أحدها: أن يكون عقبه كقوله تعالى ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾[668]، قال محمد بن

660 النساء ، الآية ٤
661 البرهان ، ص٢١٤ ، ج٢
662 البقرة ، الآية ٢٢٩
663 البقرة ، الآية ٢٢٩
664 البرهان ، ص٢١٤ ، ج٢
665 المائدة ، الآية ١١٦
666 المائدة ، الآية ١١٦
667 البرهان ، ص٣٤٥ ، ج٢
668 الإخلاص ، الآية ٢

كعب القرظي: تفسيره ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[669] ، "[670]

هذا ويفترض الزركشي أن كلمة "سنت" بالتاء المفتوحة تكون بمعنى الإهلاك والانتقام في النص القرآني، ثم يورد الآيات ويستند فيها على هذه الدلالة على أول الآية، والآية التي بعدها معبرا عن ذلك بـ" وسياق ما بعدها"، " في فاطر ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[671] ، ويدلك على أنها بمعنى الانتقام قوله تعالى قبلها ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ ﴾[672]، وسياق[673] ما بعدها "[674]

ويعلق الزركشي خلال استدلاله بآية على الآية السابقة عليها بـ "سياق الآية" وذلك "كقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ ﴾[675] ، الخطاب له والمراد المؤمنون لأنه- صلى الله عليه وسلم – كان تقيا وحاشاه من طاعة الكافرين والمنافقين، والدليل على ذلك قوله في سياق الآية ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[676] ، "[677]

وخلال رصده لدلالات التنكير في النص القرآني يصرح بأن هذه الدلالات تعلم من القرائن والسياق على حد تعبيره، وخلال التناول التطبيقي يستدل على دلالة النكرة من الآيات بعدها باعتبارها سياقا دلاليا واحدا "هذه الأمور إنما تعلم من القرائن والسياق، كما فهم التعظيم في قوله تعالى ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾[678] ، من قوله

669 الإخلاص ، الآيتان ٣- ٤
670 البرهان ، ص١٨٢ ، ج٢
671 فاطر ، الآية ٤٣
672 فاطر ، الآية ٤٣
673 الآية بعدها (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و كانوا أشد منهم قوة و ما كان الله ليعجزه من شيء في السموات و لا في الأرض إنه كان عليما قديرا) ، فاطر ، الآية ٤٤
674 البرهان ، ص٤٥٣ ، ج١
675 الأحزاب ، الآية ١
676 الأحزاب ، الآية ٢
677 البرهان ، ص٢٣٣ ، ج٢
678 المرسلات ، الآية ١٢

بعده ﴿ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾[679] وكما فهم التحقير من قوله ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[680]، من قوله بعده ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ ﴾[681] ، "[682]

ويستدل على حذف الجواب من التركيب الشرطي في آية على الآية التي تليها "ومن حذف الجواب قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[683]، أي أعرضوا؟ بدليل قوله بعده ﴿ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[684] ، "[685]

أما النمط الثالث من أنماط السياقات التي رصدناها خلال تناول الزركشي للنص القرآني فيختلف عن النمط الثاني في أن الآيات التي ربط الزركشي بينها ليست متتالية، بل في هذا النمط من أنماط السياق يربط بين آيات متباعدة في سورة واحدة مما يعد سياق دلالي واحد على مستوى السورة

ويظهر هذا النمط من خلال تناول الزركشي لدلالتي العموم والخصوص في النص القرآني، فيستدل على التخصيص من آية على عموم آية أخرى في السورة ذاتها " وقد يؤخذ التخصيص من آية أخرى كقوله تعالى ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ ﴾[686] الآية، فهذا عام في المقاتل كثيرا أو قليلا، ثم قال ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ ﴾[687] الآية ، "[688]

ومن الملاحظ أن بين الآيتين من سورة الأنفال ما يقرب من تسع وثلاثين آية مما جعلنا نصنف هذا النمط من أنماط السياقات على مستوى السورة

679 المرسلات ، الآيتان ١٣-١٤
680 عبس ، الآية ١٨
681 عبس ، الآية ١٩
682 البرهان ، ص٩١ ، ج٤
683 يس ، الآية ٤٥
684 يس ، الآية ٤٦
685 البرهان ، ص١٨٥ ، ج٣
686 الأنفال ، الآية ١٦
687 الأنفال ، الآية ٦٥
688 البرهان ، ص٢١٥ ، ج٢

ويستدل على الخصوص بآيتين إحداهما تالية للآية الدالة على العموم والأخرى تأتي بعدها بما يقرب من ثلاث وتسعين آية " ونظيره قوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾[689]، وهذا عام في جميع الميتات ثم خصه بقوله ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾[690]، فأباح الصيد الذي يموت في فم الجارح المعلم، وخصص أيضا عمومه في آية أخرى قال ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ ﴾[691]، تقديره: وإن كانت ميتة، فخص بهذه الآية عموم تلك "[692]

وخلال تناول الزركشي لظاهرة الحذف في الجملة الاسمية نجد أنه يستدل على حذف الخبر في آية تالية من آية سبقتها بعدة آيات " حذف الخبر: قوله في سورة "ص" بعد ذكر من اقتص ذكره من الأنبياء، فقال ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ ﴾[693] ، ثم لما ذكر مصيرهم إلى الجنة وما أعد لهم فيها من النعيم قال ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا ﴾[694]، قد أشارت الآية إلى مآل الطاغين ومنه يفهم الخبر "[695]

أما النمط الرابع والأخير من أنماط السياقات عند الزركشي فهو الأكبر اتساعا بحيث يشمل النص القرآني كله، بمعنى أن الزركشي يوسع من دائرة الاستدلال على آية في سورة بآية في سورة أخرى مما يجعل للنص القرآني سياقا كليا تندرج تحته السياقات السابقة، وهو ما سنتناوله في موضعه بالتفصيل إن شاء الله

ومن ذلك إشارة الزركشي في الكشف عن دلالة آية من آية أخرى في سياق السورة من النمط السابق، وفي السياق العام للنص القرآني "الثاني: أن يكون منفصلا عنه في السورة معه، أو في غيره كقوله تعالى ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[696]،

689 المائدة ، الآية ٣
690 المائدة ، الآية ٤
691 المائدة ، الآية ٩٦
692 البرهان ، ص٢١٥ ، ج٢
693 ص ، الآية ٤٩
694 ص ، الآيات ٥٥- ٥٦ - ٥٧
695 البرهان ، ص١٣٨ ، ج٣
696 الفاتحة ، الآية ٤

وبيانه في سورة الانفطار بقوله ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾[697] ، "[698]

ويستدل الزركشي على الخطاب بالمفرد والمراد به الجمع في آيتين بآية ثالثة ذكر فيها المفرد ثم الجمع، وتلك الآيات الثلاثة تقع في ثلاث سور مختلفة " كقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾[699] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾[700]، والمراد الجميع بدليل قوله ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[701] ، "[702]

ويستدل على ذكر اللفظ عن طريق ذكر لوازمه في آية بآية أخرى ومن ذلك الاستدلال على "عمى" التي ذكر أحد لوازمها "في الظلمات" من "قوله ﴿ صُمُّۢ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴾[703]، فإن الأصل "عمي" لقوله في موضع آخر ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ ﴾[704]، لكن أتى بالظلمات لأنها من لوازم العمى "[705]

ويمتد الاستدلال عند الزركشي في هذا النمط من أنماط السياقات إلى دلالات الحروف، ومن ذلك استدلاله على دلالة "إن" على النفي من دلالة "ما" عليه في آية أخرى "بمنزلة "لا" وتدخل على الجملة الاسمية كقوله تعالى في الأنعام ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا ﴾[706] ، بدليل "ما" في الجاثية ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا ﴾[707] ، "[708]

ومن اللافت للنظر أن انطلاق الزركشي للاستدلال باعتبار النص القرآني سياقا كليا هنا نابع من التشابه بين التراكيب أو تكرارها في الآيات التي ارتبطت مع

697 الانفطار ، الآيات ١٧ – ١٨ - ١٩
698 البرهان ، ص١٨٤ ، ج٢
699 الانشقاق ، الآية ٦
700 الانفطار ، الآية ٦
701 العصر ، الآيتان ٢- ٣
702 البرهان ، ص٢٥٥ ، ج٢
703 الأنعام ، الآية ٣٩
704 البقرة ، الآية ١٨
705 البرهان ، ص٢٦٠ ، ج٢
706 الأنعام ، الآية ٢٩
707 الجاثية ، الآية ٢٤
708 البرهان ، ص٢١٥ ، ج٤

بعضها عن طريق استدلال الزركشي بواحدة على أخرى، ففي النص السابق نجد أن مفردات التركيب قد تكررت في الآيتين باستثناء "إن" و"ما"، وفي النص السابق عليه نجده كذلك باستثناء "عمي" و"في الظلمات"، وهذا التناول للآيات يعضد فطنة الزركشي لهذا النمط من أنماط السياقات

هذا ويربط الزركشي بين الآيات على مستوى النص القرآني عن طريق الدلالة، بمعنى أنه يتناول إحدى الآيات موردا دلالة معينة ثم يحيل التناول إلى آيات أخرى تشترك مع بعضها في الدلالة وتخالف الأولى في الدلالة كما في قوله " ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ ﴾[709]، أي هذا الحق من ربكم وليس هذا كما يظنه بعض الجهال: أي قل القول الحق فإنه لو أريد هذا لنصب "الحق"، والمراد إثبات أن القرآن حق ولهذا قال"من ربكم"، وليس المراد هنا قول حق مطلق، بل هذا المعنى مذكور في قوله ﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ ﴾[710] ، وقوله ﴿ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾[711] ، "[712]

- دلالة السياق وأهميته

للسياق عند الزركشي أهمية كبيرة، وترجع تلك الأهمية إلى تأثير السياق على الدلالة في النص القرآني من ناحية، وتأثيره على الظواهر والقوالب التركيبية في النص القرآني من ناحية أخرى

أما ارتباط السياق بالدلالة في النص القرآني فيظهر من وجهين:

الأول: الكشف عن الدلالة المعجمية للألفاظ، أو على الأقل التوجيه إلى دلالاتها

الثاني: الكشف عن دلالة التراكيب أو التوجيه إليها

تظهر علاقة السياق بالمعجم من خلال تناول الزركشي للغريب من الألفاظ في النص القرآني، فنجد أنه يوجه المفسر إلى الكشف عن الدلالة المعجمية له من

709 الكهف ، الآية ٢٩
710 الأنعام ، الآية ١٥٢
711 الأعراف ، الآية ١٦٩
712 البرهان ، ص١٣٥ ، ج٣

خلال السياق الواقع فيه، وعبر عن هذا الكشف بتصيد المعاني " النوع الثامن عشر: معرفة غريبه، وهو يتصيد المعاني من السياق؛ لأن مدلولات الألفاظ خاصة "[713]

وتظهر علاقة السياق بالدلالة المعجمية للألفاظ بصورة أوضح من الآيات التي يرد تفسيرها عن السلف فتعلم دلالات ألفاظها من السياق أيضا " الثاني: ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين، وهو قليل وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيرا في كتاب اللفظ لأنه اقتنصه من السياق "[714]

ومن اللافت للنظر أن تعبير الزركشي عن الكشف عن مدلول اللفظ من السياق أو استخراجه منه بـ "اقتنصه" في هذا النص، و بـ "يتصيد" في النص السابق عليه يدل على مدى الاتساع في عملية البحث عن الدلالة المعجمية للفظ، والجهد المبذول فيها، وأيضا الدقة النابعة من خفاء المتصيد، وهو ما يؤكد أهمية السياق والنظر فيه عند الزركشي للوصول للدلالة المعجمية للألفاظ

ويتضح كشف السياق عن الدلالة الكلية للتركيب في النص القرآني من تناول الزركشي لـ "الأحكام المستنبطة من تنبيه الخطاب" ويبتغي في هذا المبحث الوصول إلى الأحكام الشرعية عن طريق الدلالة المستخرجة من السياق، فعلى سبيل المثال يصل إلى تحريم شتم الوالدين أو ضربهما من دلالة السياق على احترام الوالدين وتوقيرهما، وهذه الدلالة جاءت من النهي عن فعل القليل من الأذى لهما لينبه به على عدم فعل الكثير من الأذى لهما، ودلالة النهي هذه استخرجت من دلالة السياق أيضا " ومما تستثمر منه الأحكام تنبيه الخطاب، وهو إما في الطلب كقوله تعالى ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾[715] ، فنهيه عن القليل منبه على الكثير .....

واعلم أن هذا النوع البديع ينظر إليه من ستر رقيق، وطريق تحصيله فهم المعنى وتقييده من سياق الكلام كما في آية التأفيف، فإنا نعلم أن الآية إنما سيقت لاحترام الوالدين وتوقيرهما، ففهمنا منه تحريم الشتم والضرب "[716]

ومن الناحية التطبيقية نجد أن الزركشي يشير إلى تأثير السياق في الكشف عن الدلالة الكلية للتركيب، فعلى سبيل المثال يشير إلى دلالة الأسلوب الخبري على الأمر، ويرجع ذلك إلى السياق ودلالته: ومنها الأمر كقوله تعالى

713 البرهان ، ص٣٢٨ ،ج١
714 البرهان ، ص١٧٠ ، ج١
715 الإسراء ، الآية ٢٣
716 البرهان ، ص١٨ ، ج٢

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾[717] ، ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ ﴾[718] ، فإن السياق يدل على أن الله تعالى أمر بذلك؛ لأنه خبر وإلا لزم الخلف في الخبر "[719]

ويشير إلى دلالة السياق على اجتماع أخوة يوسف – عليه السلام- في طلبه منهم الإتيان إليه في قوله " ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[720]، فلم يرد بهذا أن يجتمعوا عنده، وإن جاءوا واحدا بعد واحد، وإنما أراد اجتماعهم في المعنى إليه، وألا يتخلف منهم أحد، وهذا يعلم من السياق "[721]

ويتضح لنا من تناول الزركشي لبعض ظواهر التركيب تأثير السياق على هذه الظواهر ومن ذلك التقديم والتأخير، فعلى سبيل المثال يفترض الزركشي أن "السموات" مقدمة على "الأرض" في عموم النص القرآني " ومنه تقديم السموات على الأرض كقوله ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾[722]، وهو كثير "[723]

أما تقديم "الأرض" وتأخير " السموات" فيأتي من تأثير السياق، ومن ذلك ورودهما في سياق الوعد والوعيد الذي يقتضي تقديم "الأرض"؛ لأن سياق الوعد والوعيد لأهل الأرض " وأما تأخيرها عنها في قوله ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[724] ، فلأن الآية في سياق الوعد والوعيد، وإنما هو لأهل الأرض "[725]

هذا وقد رصد الزركشي التناسب بين السياق والتراكيب الواردة فيه، فعلى سبيل المثال يعلل وصف المنعم في آية، ووصف المنعم عليه في آية أخرى في سياقها؛ بمناسبة كل وصف للسياق الوارد فيه " لكن بقي سؤال آخر وهو ما الحكمة في تخصيص آية النحل[726] بوصف المنعم، وآية إبراهيم[727] بوصف المنعم عليه؟

717 البقرة ، الآية٢٢٨
718 البقرة ، الآية ٢٣٣
719 البرهان ، ص٣٠٩ ، ج٢
720 يوسف ، الآية ٩٣
721 البرهان ، ص٣٧٣ ، ج٢
722 العنكبوت ، الآية ٤٤
723 البرهان ، ص٢٥٢ ، ج٣
724 الزمر ، الآية ٦٧
725 البرهان ، ص٢٥٣ ، ج٣
726 (و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله غفور رحيم) ، النحل ، الآية ١٨
727 (و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) إبراهيم ، الآية ٣٤

والجواب أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جبل عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه، وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته؛ فناسب ذكر وصفه سبحانه، فتأمل هذه التراكيب ما أرقاها في درجة البلاغة "[٧٢٨]

ويرصد في الخطاب بالرسول والنبي مناسبة كل منهما للمحل الوارد فيه الخطاب بهما، فالخطاب بلفظ الرسول يأتي في سياق التشريع العام، والخطاب بالنبي يأتي في سياق الأمور الخاصة به ولا يليق بالنبي في سياق الأمور العامة" ومن هذا النوع الخطاب بـ "يا أيها النبي"، "يا أيها الرسول"، ولهذا تجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول، وكذا عكسه كقوله في مقام الأمر بالتشريع العام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[٧٢٩] ، وفي مقام الخاص ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾[٧٣٠] ، ومثله ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٧٣١] ، "[٧٣٢]

وتمتد المناسبة إلى إفراد الكلمة أو جمعها بحسب السياق الواردة فيه، فيناسب بين ذكر "الرياح" مجموعة وبين سياق الرحمة، وبين ذكر "الريح" مفردة وبين سياق العذاب "ومنها ذكر الرياح في القرآن جمعا ومفردة، فحيث ذكرت في سياق الرحمة جاءت مجموعة كقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾[٧٣٣] ، ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[٧٣٤] ، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾[٧٣٥] .

وحيث ذكرت في سياق العذاب أتت مفردة كقوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾[٧٣٦] ، "[٧٣٧]

728 البرهان ، ص١٢٤ ، ج١
729 المائدة ، الآية ٦٧
730 التحريم ، الآية ١
731 الأحزاب ، الآية ٥٠
732 البرهان ، ص٢٢٢ ، ج٢
733 الروم ، الآية ٤٨
734 الحجر ، الآية ٢٢
735 الروم ، الآية ٤٦
736 فصلت ، الآية ١٦
737 البرهان ، ص٩ ، ج٤

ويلمح الزركشي في مقدمة البرهان إلى التناسب بين السياق والموقف الذي سيق له للتأثير على المتلقي، ويرصد هذا التناسب لتحقيق خصوصية تميز النص القرآني عن غيره "إن كان سياق الكلام ترجية بسط، وإن كان تخويفا قبض، وإن كان وعدا أبهج، وإن كان وعيدا أزعج، وإن كان دعوة حدب، وإن كان زجرة أرعب، وإن كان موعظة أقلق، وإن كان ترغيبا شوق "[٧٣٨]

ويصرح بالتناسب بين السياق وما ورد فيه من ألفاظ من ناحية، وبين السياق والغرض منه من ناحية أخرى، ومن الجدير بالذكر أن ذلك التناسب مؤثر في الكشف عن إعجاز القرآن الكريم عند الزركشي " في اختلاف المقامات ووضع كل شيء في موضع يلائمه: مما يبعث على معرفة الإعجاز اختلافات المقامات وذكره في كل موضع ما يلائمه ووضع الألفاظ في كل موضع ما يليق به، وإن كانت مترادفة حتى لو أبدل واحد منها بالآخر ذهبت تلك الطلاوة وفاتت تلك الحلاوة "[٧٣٩]

ثم يتناول التناسب بين مقام الترغيب وبين تحقيق الغرض منه في التأثير على المتلقي، والتناسب بين مقام الترهيب وبين تحقيق الغرض منه في التأثير على الملقي أيضا باعتبارهما من السياقات المتقابلة في النص القرآني " وأما بالنسبة إلى المقامات، فانظر إلى مقام الترغيب وإلي مقام الترهيب، فمقام الترغيب كقوله تعالى ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾[٧٤٠] ، تجده تأليفا لقلوب العباد وترغيبا لهم في الإسلام، قيل: وكان سبب نزولها أنه أسلم عياش ابن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد ونفر معهما، ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا، قال: وكنا نقول: قوم لا يقبل الله منهم صرفا ولا عدلا أبدا فنزلت فكتب بها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إليهم حين فهم قصد الترغيب فآمنوا وأسلموا وهاجروا .....

وأما مقام الترهيب فهو مضاد له، كقوله تعالى ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا ﴾[٧٤١] ، ويدل على قصد الترهيب بطلان النصوصية من ظاهرها على عدم المغفرة لأهل المعاصي "[٧٤٢]

738 البرهان ، ص٤٢ ، ج١
739 البرهان ، ص ١١٣ ، ج٢
740 الزمر ، الآية ٥٣
741 النساء ، الآية ١٤
742 البرهان ، ص١١٤ ، ج٢

قد أوردنا مقولة الزركشي عن أسباب نزول الآية الأولى عن إسلام المفتونين وهجرتهم من مكة إلى المدينة عندما أرسل إليهم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بالآية عندما فهم منها الترغيب؛ لنرصد ربط الزركشي بين تناسب سياق الترغيب مع الغرض منه وبين تأثيره على المتلقين للآية بالاستجابة للترغيب في الإسلام، والرد العملي بالهجرة، ونحسب أن ذكر الزركشي لأسباب النزول في هذه الآية لرصد تأثير التناسب بين السياق وما سيق له على المتلقي

المستوى التصويري

تتسم الصورة بأهمية بالغة في الدرس الأسلوبي، إذ تمثل وسيلة من الوسائل التي يسهل من خلالها التأثير على المتلقي من ناحية، وأداة من الأدوات المعينة على إدراك الدلالة في النص من ناحية أخرى

ولهذه الطبيعة التأثيرية للصورة بشقيها الجزئي والممتد نجد أن المهتمين بالدرس الأسلوبي يتناولونها " بإحدى طريقتين في مجمل الأمر: إحداهما تعتمد على البدء بالصورة والبحث عن تأثيرها، والأخرى تتمثل في محاولة الانطلاق من هذا التأثير نفسه وتحديد الوسائل التي تفضي إليه "[٧٤٣]

وبالبحث عن تأثير الصورة على المتلقي والوسائل المفضية إلى هذا التأثير يظهر لنا أن تأرجح مكونات الصورة من ناحية الإدراك بين الحسي والمجرد له أثر كبير في تحديد تلك الوسائل، إذ يمثل الجانب الحسي لتلك المكونات جوهر التأثير على المتلقي لما له من قدرة على تحويل طريقة إدراك المتلقي للمعاني إلى طريقة أخرى أشبه بشاشة العرض المرئي في ذهن المتلقي " ذلك أن طبيعة الإدراك العقلي متأخر عن الدرك الحسي في الزمان، ولذا كان من المألوف في دلالة التشبيه نقلها من مستوى المعقول إلى المحسوس، فذكر المعنى العقلي ثم تعقيبه بالتمثيل الحسي يؤدي بالضرورة إلى نقل النفس من المعنى الغريب إلى القريب، وحتى عندما يكون المعنى معلوما يقينا فإن التمثيل بالمحسوس يفيده زيادة قوة "[٧٤٤]

ولأهمية الحس في تكوين الصورة نجد أن المهتمين بالدرس الأسلوبي لا يستبعدون من الناحية العملية إمكانية استبعاد الأدوات الأسلوبية – المفترض أنها ذات طبيعة تصويرية – إذا كانت لمكونتها طبيعة مجردة ولا تدرك بإحدى الوسائل الحسية " وقد لا يكتفي الباحث في طبيعة الصورة الأدبية بتحليل عناصرها المكونة، بل يعمد إلى دراسة العلاقة بين الطرفين المجرد والمحسوس، مما ينجم عنه أربعة أشكال مختلفة من الوجهة النظرية، وإن كان من الممكن استبعاد أحدهم عمليا، وهو الذي يتكون من طرفين مجردين، إذ لا ينتج – كما قلنا – صورة حقيقية لافتقاده للعنصر المحدد الذي يتصل بالحس وهو جوهري في الصورة "[٧٤٥]

---

[743] علم الأسلوب ، د. صلاح فضل ، ص٣٢٧ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٨

[744] بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، د. محمد عبد المطلب . ص٢٩ ، دار المعارف ، ط٢ ، ١٩٩٥

[745] علم الأسلوب ، د. صلاح فضل ، ص٣٢٦

وتعد الصورة من إحدى وسائل الاتصال المهمة بين المبدع من ناحية، والمتلقي من ناحية أخرى عن طريق ذلك التأثير على المتلقي الذي يخضع لمقاصد المبدع، ليس هذا فحسب، بل يتحول المتلقي للصورة في بعض الأحيان إلى مشارك للمبدع في إنتاج الصورة "فالصورة الشعرية قد تنطوي على دعوة خفية لطيفة كي يسهم المتلقي في عملية الإبداع، وهو ما يشعره أنه شريك الشاعر في إبداعه، فهو لا يكتفي بإدراك الدلالة المباشرة الصريحة، أو حتى بالتنقيب بحثا عن مراميها الرامزة العميقة، بل إن ثمة إبداعا موازيا يجد المتلقي نفسه وقد طولب به، وهو ما يقيم علاقة حميمة بين النص بما فيه من رموز والمتلقي بما له من قدرة على الإبداع "[٧٤٦]

إن تحول المتلقي إلى مشارك في عملية إبداع النص ليس وليد الصدفة، بل هو نتاج ما تحدثه الصورة من تأثير عليه؛ لأنها " تشير إلى طريقة في الكلام أكثر حيوية من الكلام العادي، ومقدرة إما إلى جعل الفكرة أكثر حساسية بوساطة صورة من الصور أو مقارنة من المقارنات، وإما لإثارة الانتباه أكثر بما لها من استقامة أو فرادة "[٧٤٧]

ولا تؤثر الصورة في المتلقي فحسب، بل تعد الصورة وسيلة من الوسائل المؤثرة أيضا في وضوح الدلالة ليسهل على المتلقي إدراكها واقتناعه بها، فـ" الصورة أكبر عون على كشف المعاني العميقة، وإنها تستخدم للإقناع والتأثير "[٧٤٨]

وتنبع تلك القدرة على توضيح الدلالة من " دقة التصوير وروعته في إثارة الحواس المختلفة والعواطف المتباينة مما يثبت الصورة في الإدراك والوجدان "[٧٤٩]

ومما لا يجعل مجالا للشك أن ثبات إدراك المتلقي للصورة ليس موضحا للدلالة فحسب، بل محققا سهولة في إدراكها

وقد اهتم دارسو الأسلوب برصد البنى التصويرية من استعارة وكناية وتشبيه، وقد اختلفت طرق رصدهم لتلك البنى داخل النص، ومن تلك الطرق الفصل المنظم بين تلك البنى "لكن الفصل المنظم بينها – وهو ما يصر عليه كثير من الباحثين – يخل بهذا المنظور ويحول بين الناقد وبين رؤية الهيكل العام للصور وتحديد الاتجاهات الأساسية الكامنة تحتها " [٧٥٠]

746 الوحدة في شعر ابن قيس الرقيات . د. طارق سعد شلبي ، ص١٤٠ ، زهرة المدائن ، القاهرة ، ٢٠٠٣
747 الأسلوبية ، بيير جيراو ، ص٢٥ ، ترجمة منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ط٢ ، ١٩٩٤
748 فن الشعر ، د. إحسان عباس ، ص٢٣٠ ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٧٩
749 الصورة الأدبية في القرآن الكريم ،د. صلاح الدين عبد التواب ، ص٤٣ ، لونجمان ، القاهرة ، ١٩٩٥
750 علم الأسلوب ، د.صلاح فضل ، ص٣٢١

وهذا ما يجعلنا نتطرق إلى الصورة بشقيها الجزئي والكلي، حيث إن الصور الجزئية لا تنفصل في النص عن الصور الكلية فيه " إذ تغدو الصور الجزئية على اختلاف أنواعها بمثابة اللبنات التي تتكون منها الصورة الكلية الممتدة "[٧٥١]

تمثل الصورة عند الزركشي أهمية نابعة من قدرتها على تصوير المعاني المعقولة في قالب المحسوسات بغرض سهولة إدراك المتلقي للدلالة في النص القرآني

فمن خلال بحث الزركشي في الأمثال في النص القرآني يرصد قدرة تلك الأمثال على تصوير المعاني المعقولة للبيان الذي يتعلق بسهولة إدراك المتلقي للدلالة " فإن قلت: لماذا كان المثل عونا على البيان وحاصله قياس معنى بشيء، من عرف ذلك المقيس فحقه الاستغناء عن شبيهه، ومن لم يعرفه لم يحدث التشبيه عنده معرفة !

والجواب أن الحكم والأمثال تصور المعاني تصور الأشخاص، فإن الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس بخلاف المعاني المعقولة فإنها مجردة عن الحس ولذلك دقت، ولا ينتظم مقصود التشبيه والتمثيل إلا بأن يكون المثل المضروب مجربا مسلما عند السامع "[٧٥٢]

ومن مقولة الزركشي السابقة نستطيع أن نضع تصورا للصورة عنده، فيبدو لنا في تلك المقولة أمران: الأول: اعتماد الصورة على المحسوسات للقيام بدورها في تصوير المجردات في ذهن المتلقي لإدراك الدلالة

الثاني: اقتناع المتلقي بالصورة من حيث الخبرة بها ليتقبلها ويدرك دلالتها

وقد رصد الزركشي في كتابه البرهان الصورة بشقيها الجزئي والممتد متناولا قدرة بنى التشبيه والاستعارة والكناية على التصوير، وراصدا أطراف الصورة، والعلاقات القائمة بين أطرافها، مع رصد دلالة الصورة وتأثيرها على المتلقي، وإرهاصات امتداد الصورة

751 الوحدة في شعر ابن قيس الرقيات ، د.طارق سعد شلبي ، ص١٤٠
752 البرهان ، ص٥٣٢ ، ج١

التشبيه

أما على مستوى التصوير الجزئي فنجد أن الزركشي في تعريفه لبنية التشبيه يشير إلى الإلحاق أو النقل بين طرفي التشبيه " وهو إلحاق شيء بذي وصف في وصفه، وقيل: أن تثبت للمشبه حكما من أحكام المشبه به"[٧٥٣]

وهذا النقل بين طرفي التشبيه ليس نقلا كاملا من المشبه به إلى المشبه، بل تتسم عملية النقل بالتخالف والتشابه معا، إذ يبدو التخالف بينهما في الصورة الحقيقية لكل منهما، ويبدو التشابه في صفة تنقل من المشبه به إلى المشبه وهذا النقل مرتبط بالدلالة، إذ الغرض من التشبيه خلع دلالة معينة على المشبه، وهو ما يتضح من مقولة الزركشي في تشبيه الإنسان بالأسد أو بالمطر لنقل دلالة الجرأة، أو الكرم " فالإنسان مخالف للأسد في صورته مشبه له في جراءته وحدته، فيقال للشجاع أسد، أي يشبه الأسد في الجرأة، ولذلك يخالف الإنسان الغيث في صورته، والكريم من الإنسان يشابهه في عموم منفعته "[٧٥٤]

ولم يخرج الزركشي في تصوره لعلاقة التشابه والتخالف القائمة بين طرفي التشبيه عن البلاغيين، إذ إن" طبيعة التحرك البلاغي في مباحث البيان تؤكد ازدواجية إدراك مفهوم الصورة التشبيهية، حيث تقوم على التعدد، بمعنى وجود طرفين يعقد بينهما مشابهة على نحو ما، وإيغالا في هذه الثنائية يرى البلاغيون قيام علاقة جدلية بين هذين الطرفين تعتمد على ازدواجية تصورية هي المفارقة والموافقة "[٧٥٥]

هذا ونلمح عند الزركشي مراتب لبنية التشبيه من حيث الدلالة على درجة القوة في الشبه بين طرفي التشبيه، بمعنى قوة النقل بينهما، فمن خلال تناوله لأدوات التشبيه نجد تلك الأدوات تنقسم إلى بسيطة ومركبة، وترتبط الأدوات البسيطة بإيراد التشبيه دون التأكيد عليه، وترتبط الأدوات المركبة بالتأكيد على قوة نقل الشبه بين طرفي التشبيه " وتشبيه الحرف ضربان: أحدهما يدخل عليه حرف التشبيه فقط كقوله تعالى ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾[٧٥٦] .....

753 البرهان ، ص٤٠٧ ، ج٣
754 البرهان ، ص٥٣٤ ، ج١
755 بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، د. محمد عبد المطلب ، ص٢٨
756 النور ، الآية ٣٥

وثانيهما: أن يضاف إلى حرف التشبيه حرف مؤكد ليكون ذلك علما على قوة التشبيه وتأكيده كقوله تعالى ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[٧٥٧] ، "[٧٥٨]

أما سقوط أداة التشبيه فيقوي نقل الشبه بين طرفي التشبيه من حيث تنزيل المشبه به منزلة المشبه " وأما التشبيه بغير الحرف فيقصد به المبالغة تنزيلا للثاني منزلة الأول تجوزا كقوله ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾[٧٥٩] ، "[٧٦٠]

وقد تناول الزركشي البنية التصويرية للتشبيه من زاويتين، الأولى تتمثل في دلالات تلك البنية، والثانية تتمثل في الغرض من تلك البنية، وهذا الغرض يتعلق بالمتلقي من حيث تأثير بنية التشبيه عليه، أو تقريبها للمعنى من ذهنه

ويظهر هذا الارتباط من خلال تناول الزركشي لأغراض التشبيه، فيورد منها " وهو تأنيس النفس بإخراجها من خفي إلى جلي، وإدنائه البعيد من القريب ليفيد بيانا "[٧٦١]

يظهر للمتأمل في مقولة الزركشي السابقة في الغرض من التشبيه أنه مرتبط بالمتلقي من حيث ورود التشبيه لتأنيسه وتقريب الدلالة المرادة من ذهنه ليتحقق له التواصل مع النص من ناحية، وارتباطه بالدلالة في النص من حيث إدناء البعيد من القريب والكشف عن الخفي وتوضيح الدلالة من ناحية أخرى

هذا وقد عبر الزركشي عن هذا الارتباط في أكثر من موضع فنجد قوله عن فائدة التشبيه أيضا " إنما هي تقريب الشبه في فهم السامع وإيضاحه له "[٧٦٢]

هذا ونقترب أكثر من تصور الزركشي للصورة الجزئية من خلال اهتمامه برصد العلاقة بين الصورة الجزئية من ناحية، والدلالة والمتلقي من ناحية أخرى، وذلك من خلال تناول الزركشي لتقسيمات للتشبيه دون تقسيمات أخرى اهتم بها البلاغيون، فقد تناول بنية التشبيه بخمسة أقسام عبر عنها بإخراج ما لا يدرك بسهولة إلى ما يدرك بسهولة في ذهن المتلقي، ويرصد من الناحية التطبيقية تأثير الصورة على المتلقي

757 الرحمن ، الآية ٥٨
758 البرهان ، ص٤١٠ ، ج٣
759 الأحزاب ، الآية ٦
760 البرهان ، ص٤١٠ ، ج٣
761 البرهان ، ص٤٠٨ ، ج٣
762 البرهان ، ص٤١٧ ، ج٣

فلنتأمل تقسيمه للتشبيه " وينقسم باعتبار آخر إلى خمسة أقسام: الأول قد يشبه ما تقع عليه الحاسة بما لا تقع اعتمادا على معرفة النقيض والضد فإن إدراكهما أبلغ من إدراك الحاسة كقوله تعالى ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[٧٦٣] ، فشبه بما لا نشك أنه منكر قبيح لما حصل في نفوس الناس من بشاعة صور الشياطين، وإن لم ترها عيانا

الثاني: عكسه كقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ ﴾[٧٦٤] ، أخرج ما لا يحس – وهو الإيمان – إلى ما يحس – وهو السراب -، والمعنى الجامع بطلان التوهم بين شدة الحاجة وعظم الفاقة

الثالث: إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به نحو ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾[٧٦٥] ، والجامع بينهما الانتفاع بالصورة .....

الرابع: إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها كقوله ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[٧٦٦] ، الجامع العظم، وفائدته التشويق إلى الجنة بحسن الصفة

الخامس: إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها كقوله ﴿ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾[٧٦٧] ، والجامع فيهما العظم، والفائدة البيان عن القدرة على تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون من الماء، وعلى هذه الأوجه تجري تشبيهات القرآن "[٧٦٨]

بالتأمل في تلك الأقسام يبدو لنا ربط الزركشي بين بنية التشبيه وبين سهولة إدراك الدلالة من تلك الأقسام التي تجتمع كلها تحت تقريب الدلالة من حيث التعبير عن الأبعد عن الذهن إلى الأقرب إلى الذهن، وذلك عن طريق تأثير الصورة في

763 الصافات ، الآية ٦٥
764 النور ، الآية ٣٩
765 الأعراف ، الآية ١٧١
766 آل عمران ، الآية ١٣٢
767 الرحمن ، الآية ٢٤
768 البرهان ، ص٤١٣ ، ج٣

المتلقي، وهذا التقريب للدلالة هو ما أجمله الزركشي في الغرض من التشبيه كما تقدم

هذا ومن تناول الزركشي لتلك الأقسام من الناحية التطبيقية نستطيع أن نلمح تصوره لطاقة التشبيه التصويرية من حيث التأثير في المتلقي، ومن ذلك إدراك بشاعة طلع شجر الجحيم في صورة رءوس الشياطين وبشاعتها في ذهن المتلقي، وإن لم يكن لدى المتلقي صورة حسية سابقة لهذه الرءوس، وذلك اعتمادا على ما استقر في ذهنه من بشاعة الشياطين دون رؤيتها حسيا، بمعنى أن هذا القسم من التشبيه يعتمد على الحالة الإدراكية للمتلقي بحسب ما استقر في ذهنه تجاه ما يحيط به من أشياء

ومن الجدير بالذكر أن تقسيم الزركشي للتشبيه بهذه الطريقة مأخوذ عن البكر آباذي – وقد تأثر الرماني أيضا بتقسيم البكر آباذي - الذي صرح به الزركشي عند تناوله للتمثيل[٧٦٩] ، وذكر تقسيمه له إلى أربعة أقسام زاد عليها الزركشي القسم الأول وهو " يشبه ما تقع عليه الحاسة بما لا تقع اعتمادا على معرفة النقيض والضد "، وهو ما يندرج حسب الصورة التي تناولها الزركشي "كأنه رءوس الشياطين" تحت تشبيه المحسوس بالمعقول وهو ما رفضه الزركشي تبعا لرفض فخر الدين الرازي له " لأن العقل مستفاد من الحس ولذلك قيل: من فقد حسا فقد علما، وإذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به يستلزم جعل الأصل فرعا، والفرع أصلا وهو غير جائز "[٧٧٠]

وعلى هذا نجد أن الزركشي في هذا القسم الذي أضافه – وهو ما لم يتطرق إليه الرماني[٧٧١] في رسالته " النكت في إعجاز القرآن" في تقسيم التشبيه حسب وسيلة الإدراك - لم يخرج على الغرض من التشبيه في تقريب الدلالة لذهن المتلقي، لأن تصوير المحسوس في ثوب المعقول اعتمد على ما ترسخ في ذهن المتلقي من بشاعة تصور "رءوس الشياطين"، وإن لم يدركها بالحس، وهو ما عبر عنه الزركشي ورصدناه تحت القسم الأول من أقسام التشبيه السالفة الذكر

وقد اهتم الزركشي بوسيلة إدراك المتلقي للصورة الجزئية وأطرافها من حيث توفر سهولة الإدراك لتلك الصورة، وفي هذا الصدد نجد أن الزركشي يهتم

769 انظر البرهان ، ص٥٣٠ ، ج١
770 البرهان ، ص٤١٣ ، ج٣
771 نص مقولة الرماني " و الأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه به على وجوه : منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، و منها إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة ، و منها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، و منها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة"ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني و الخطابي و عبد القاهر الجرجاني ،ص ٨١ ، ت د. محمد خلف الله أحمد ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، ط٣ ، ١٩٧٦

باكتمال أركان البنية التصويرية من حيث الشكل، واكتمال الإطار الدلالي لتلك البنية من حيث رصد العلاقة الدلالية بين مكوناتها

ويظهر الاكتمال الشكلي من أخذ الزركشي بمقولة حازم القرطاجني في وجوب تقدير حرف التشبيه في بنية التشبيه البليغ، أو بغير الحرف حسب تعبير الزركشي " هذا القسم يشبه الاستعارة في بعض المواضع، والفرق بينهما – كما قاله حازم وغيره- أن الاستعارة وإن كان فيها معنى التشبيه، فتقدير حرف التشبيه لا يجوز فيها، والتشبيه بغير الحرف على خلاف ذلك، لأن تقدير حرف التشبيه واجب فيه "[٧٧٢]

والدافع عنده اكتمال أركان الاستعارة لإمكان حملها على الحقيقة، أما التشبيه البليغ فلا يمكن حمله على الحقيقة، ولهذا بحث الزركشي عن تقدير أداة التشبيه ليكتمل من الناحية الشكلية، وهو ما عبر عنه بالتمثل برأي السكاكي " لأن من شرط الاستعارة إمكان حمل الكلام على الحقيقة في الظاهر وتناسي التشبيه، وزيد أسد لا يمكن كونه حقيقة "[٧٧٣]

أما اكتمال الإطار الدلالي من حيث رصد العلاقة الدلالية الجامعة بين مكونات البنية التصويرية فيظهر لنا من ذكر الزركشي لوجه الشبه بين طرفي التشبيه، ومن ذلك ذكر الشبه بين عيسى وآدم – عليهما السلام – في " قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾[٧٧٤] ، فهو من تشبيه الغريب بالأغرب لأن خلق آدم من خلق عيسى ليكون أقطع للخصم، وأوقع في النفس، وفيه دلالة على جواز القياس، وهو رد الفرع إلى أصل لشبه ما، لأن عيسى رد إلى آدم لشبه بينهما، والمعنى أن آدم خلق من تراب ولم يكن له أب ولا أم، فكذلك خلق عيسى من غير أب "[٧٧٥]

إن رصد الزركشي للأدوات اللغوية المشكلة للصورة الجزئية في النص القرآني لا ينفصل عن رصد بقية الأدوات اللغوية المشكلة للظواهر اللغوية أو المؤثرة في الدلالة في النص القرآني

فمن خلال تناول الزركشي للبنى التصويرية نجد أنه تناول ما تداخل مع تلك البنى من أدوات تؤثر في دلالة البنية التصويرية، أو بمعنى آخر تنضاف دلالة تلك

772 البرهان ، ص٤١١ ، ج٣
773 البرهان ، ص٤١٢ ، ج٣
774 آل عمران ، الآية ٥٩
775 البرهان ، ص٤١٨ ، ج٣

الأدوات إلى دلالة البنية التصويرية، ومن ذلك ما لاحظناه من تداخل كل من ظاهرة العدول - بمعنى الخروج عن الأصل - والسياق مع البنية التصويرية وتأثيرهما في تلك البنية

فقد ربط الزركشي خلال تناوله للبنى التصويرية بين تلك البنى وبين ظاهرة العدول بمعنى الخروج على القاعدة أو مخالفتها، فيفترض على سبيل المثال أصلا لدخول الأداة على المشبه به دون المشبه ومخالفة ذلك الأصل، يعلق عليه بالعدول ويذكر أسبابه من الناحية التطبيقية " الأصل دخول أداة التشبيه على المشبه به وهو الكامل، كقولك: ليس الفضة كالذهب، وليس العبد كالحر، وقد تدخل على المشبه لأسباب:

منها وضوح الحال كقوله تعالى ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[٧٧٦]، فإن الأصل وليس الأنثى كالذكر، وإنما عدل عن الأصل لأن معنى: "وليس الذكر" الذي طلبت "كالأنثى" التي وهبت لها، لأن الأنثى أفضل منه.....

ومنها قصد المبالغة فيقلب التشبيه ويجعل المشبه هو الأصل ويسمى تشبيه العكس لاشتماله على جعل المشبه مشبها به والمشبه به مشبها كقوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[٧٧٧]، كان الأصل أن يقولوا: إنما الربا مثل البيع لأن الكلام في الربا لا في البيع، لكن عدلوا عن ذلك وتجرءوا، إذ جعلوا الربا أصلا ملحقا به البيع في الجواز وأنه الخليق بالحل "[٧٧٨]

أما السياق فله تأثير في العلاقة بين طرفي الصورة، بمعنى أن بعض السياقات تفرض تدرجا مفترضا في العلاقة بين طرفي الصورة ومن ذلك سياق المدح الذي يفرض التدرج بين طرفي التشبيه من الأدنى إلى الأعلى، وعكسه سياق الذم الذي يفرض التدرج بينهما من الأعلى إلى الأدنى " أن التشبيه في الذم يشبه الأعلى بالأدنى،لأن الذم مقام الأدنى، والأعلى ظاهر عليه فيشبه به في السلب، ومنه قوله تعالى ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[٧٧٩] ، أي في النزول لا في العلو، ومنه ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[٧٨٠] ، أي في سوء الحال، وإذا كان في

776 آل عمران ، الآية ٣٦
777 البقرة ، الآية ٢٧٥
778 البرهان ، ص٤١٨ ، ج٣
779 الأحزاب ، الآية ٣٢
780 ص ، الآية ٢٨

المدح يشبه الأدنى بالأعلى فيقال: تراب كالمسك، وحصي كالياقوت، وفي الذم: مسك كالتراب، ويـــــــاقوت كالزجاج "[٧٨١]

الاستعارة

تناول الزركشي البنية التصويرية للاستعارة من حيث قدرة الاستعارة على إنتاج الصورة في النص القرآني، وهذا الإنتاج يظهر من القدرة على التخييل في تعريف الزركشي للاستعارة " وهي استفعال من العارية، ثم نقلت إلى نوع من التخييل لقصد المبالغة في التخييل والتشبيه مع الإيجاز نحو: لقيت أسدا وتعني به الشجاع "[٧٨٢]

ويبدو من تعريف الزركشي السابق للاستعارة ارتباطها بالتشبيه مع الإيجاز فـ"الاستعارة فرع التشبيه "[٧٨٣] ، ويبدو أن الزركشي في هذا الربط بين بنية الاستعارة من ناحية وبين التشبيه والإيجاز من ناحية أخرى متأثر بالبلاغيين خاصة الرازي في كتابه نهاية الإيجاز، إذ ربط الرازي بين الاستعارة وبين التشبيه والإيجاز خلال تناوله للفرق بين الاستعارة والتشبيه[٧٨٤]

وقد صرح الزركشي بهذا الربط من خلال مقولته أن الاستعارة تشبيه محذوف الأداة والغرض منها زيادة المبالغة على التشبيه " وفي الحقيقة هي تشبيه محذوف الأداة لفظا وتقديرا، ولهذا حدها بعضهم بادعاء معنى الحقيقة في الشيء مـــــبالغة في التشبيه "[٧٨٥]

وهو ما يحيلنا إلى طبيعة إنتاج الصورة الجزئية للاستعارة من خلال الاعتماد على التشبيه أولا ثم الإيجاز في بنية التشبيه بكيفية محددة تظهر من تناول الزركشي لحقيقة الاستعارة التي تعزز فكرة النقل بين طرفي الاستعارة كما هو الحال في النقل بين طرفي التشبيه " وحقيقتها أن تستعار الكلمة من شيء معروف

781 البرهان ، ص٤٢١ ، ج٣
782 البرهان ، ص٤٢٤ ، ج٣
783 البرهان ، ص٤٣٢ ، ج٣
784 حيث قال الرازي "ظن بعضهم أنه لا فرق بينهما ، و هو باطل ، لأن التشبيه حكم إضافي لا يوجد إلا بين الشيئين ، و إذا قلت " رأيت أسدا" لم تذكر شيئا آخر حتى تشبهه بالأسد ، فظهر أن هذا ليس من التشبيه في شيء ، بل الغرض المطلوب منه المبالغة في التشبيه ، و لكن غرض الشيء ليس هو عين الشيء ، و أيضا فكما أن التشبيه مطلوب من الاستعارة فكذلك الإيجاز مطلوب منها ، ألا ترى أنك إذا قلت "رأيت أسدا" فقد أفدت أنك رأيت رجلا شبيها بالأسد في شجاعته ، فإن ذلك الشبه على أتم ما يكون فقد نابت تلك اللفظة مناب هذا الكلام الطويل ، فالتشبيه إذا أحد غرض الاستعارة ، فكما لا يجوز أن يقال "الاستعارة من باب الإيجاز" فكذلك لا يجوز أن يقال :إنها من باب التشبيه" نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدين الرازي ، ص١٤٣ ، ت.د نصر الله حاجي مفتي أوغلي ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤
785 البرهان ، ص٤٢٦ ، ج٣

بها إلى شيء لم يعرف بها، وحكمة ذلك إظهار الخفي، وإيضاح الظاهر الذي ليس بجلي، أو بحصول المـــــبالغة "[٧٨٦]

أما الإيجاز فيتضح أكثر من تناول الزركشي للفرق بين الاستعارة والتشبيه وهذا الفرق يتمثل في وجود أداة التشبيه في التشبيه المذكور الأداة، أو وجود المشبه في التشبيه البليغ، بينما الاستعارة قائمة على الحذف من بنية التشبيه " ويفترقان في أن التشبيه إذا ذكرت معه الأداة فلا خفاء أنه تشبيه، وإن حذفت فهذا يلتبس بالاستعارة، فإذا ذكرت المشبه كقولك: زيد أسد، فهذا تشبيه بليغ كقوله تعالى ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾[٧٨٧] ، وإن لم يذكر المشبه به فهو استعارة "[٧٨٨]

ويتضح تصور الزركشي لطبيعة إنتاج الاستعارة الصورة الجزئية في النص - بجانب ما مر بنا- من طريقة النقل بين طرفي الاستعارة فينوه أن المنقول من المستعار منه هو المعنى أولا ثم ينقل اللفظ عن طريق المعنى، وهذا النقل مرتبط بوضوح دلالة المشابهة بين طرفي الاستعارة " والحق أن المعنى يعار أولا ثم بواسطته يعار اللفظ، ولا تحسن الاستعارة إلا حيث كان الشبه مقررا بينهما ظاهرا، وإلا فلابد من التصريح بالشبه، فلو قلت: رأيت نخلة أو خامة وأنت تريد مؤمنا إشارة إلى قوله: مثل المؤمن كمثل النخلة أو الخامة، لكنت كالملغز "[٧٨٩]

ومن هذه المقولة يظهر لنا ارتباط الصورة عند الزركشي بوضوح الدلالة في النص من حيث وضوح علاقة المشابهة الدلالية بين طرفي الصورة، وهو ما صرح به الزركشي في تعريف الاستعارة والغرض منها كما مر بنا، والزركشي في التماسه لهذا الوضوح قد تأثر بالسكاكي عندما وصى بوضوح علاقة المشابهة بين المستعار له والمستعار منه[٧٩٠] في كتابه مفتاح العلوم، وبفخر الدين الرازي خاصة في مقولة نقلها عن سيبويه[٧٩١]

786 البرهان ، ص٤٢٥ ، ج٣
787 البقرة ، الآية ١٨
788 البرهان ، ص٤٢٦ ، ج٣
789 البرهان ، ٤٢٧ ، ج٣
790 نص مقولة السكاكي "و لذلك نوصي في الاستعارة بالتصريح أن يكون الشبه بين المستعار له و المستعار منه جليا في نفسه أو معروفا سائرا بين الأقوام و إلا خرجت الاستعارة عن كونها استعارة و دخلت في باب التعمية و الألغاز ، كما إذا قلت : رأيت عودا مسقيا أوان الغرس و أردت إنسانا مؤدبا في صباه " مفتاح العلوم ، السكاكي ، ص١٧٠ ، النسخة الاليكترونية لموقع الوراق على الشبكة الدولية
791 نص مقولة الرازي "و يخرج منه أن الاستعارة لا تحسن إلا حيث كان التشبيه متقررا بين الناس ظاهرا ، فأما ما يكون خفيا يستخرجه الشاعر أو غيره بذهنه فلابد فيه من التصريح بالتشبيه ، و إلا كان تكليفا بعلم الغيب .....و كذا في قوله –صلى الله عليه و سلم- "مثل المؤمن كالنحلة" أو " الخامة" فقلت:رأيت نخلة أو خامة كنت كما قال سيبويه : ملغزا تاركا لكلام الناس "نهاية الإيجاز ، ص١٤٣

هذا وقد رصد الزركشي البنية التصويرية للاستعارة من حيث الكشف عن دلالات تلك البنية من ناحية، وبيان الغرض منها من ناحية أخرى، وهذا الغرض يتعلق بالمتلقي من حيث تأثير بنية الاستعارة عليه، أو تقريبها للمعنى من ذهنه

فالغرض من الاستعارة مرتبط بالدلالة من حيث إظهار الخفي، وإيضاح الظاهر وذلك عن طريق قدرة الاستعارة على التصوير

ويربط بين هذين الغرضين وبين المتلقي من حيث تصوير المعنى ليحيل المتلقي من السماع إلى التخيل، ويكون هذا التخيل وسيلة إدراك المتلقي للدلالة في النص القرآني " فمثال إظهار الخفي قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[٧٩٢] ، فإن حقيقته أنه في أصل الكتاب فاستعير لفظ "الأم" للأصل؛ لأن الأولاد تنشأ من الأم كما تنشأ الفروع من الأصول، وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمرئي حتى يصير مرئيا، فينتقل السامع من حد السماع إلى حد العيان، وذلك أبلغ في البيان .

ومثال الإيضاح ما ليس بجلي ليصير جليا قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[٧٩٣] ، لأن المراد أمر الولد بالذل لوالديه رحمة، فاستعير للولد أولا جانب ثم للجانب جناح وتقدير الاستعارة القريبة "واخفض لهما جانب الذل"، أي اخفض جانبك ذلا، وحكمة الاستعارة في هذا جعل ما ليس بمرئي مرئيا لأجل حسن البيان "[٧٩٤]

من النص السابق نجد أن الزركشي خلال استدلاله على فوائد الاستعارة من الإظهار والإيضاح – وهما مرتبطان بالدلالة ووضوحها – بالشواهد القرآنية يوضح كيفية تأثير بنية الاستعارة على المتلقي بنقله من حد السماع إلى حد العيان عن طريق تخيل المتلقي للمعنى أمام عينيه وكأنه يراه، وهذا التخيل يؤدي إلى إدراك الدلالة بوضوح، أو بمعنى آخر إن للبنى التصويرية عند الزركشي تأثيرا بصريا على المتلقي يهدف إلى وصول الدلالة إليه بوضوح يضمن تجاوبه مع النص، وهذا يحيلنا إلى أن الأدوات اللغوية في النص القرآني عموما موظفة للدلالة ووضوحها في ذهن المتلقي، من حيث رسم الأدوات اللغوية للصورة في النص القرآني

كما ذكرنا من تناول الزركشي لأغراض البنى التصويرية حسب الدلالة من ناحية، والتأثير على المتلقي من ناحية أخرى، وأن الصورة الجزئية عنده ترتبط

792 الزخرف ، الآية ٤
793 الإسراء ، الآية ٢٤
794 البرهان ، ص٤٢٥ ، ج٣

بتقريب الدلالة من ذهن المتلقي، فإن تناول الزركشي للعلاقة بين أجزاء الصورة يعبر عن تصوره للصورة الجزئية في النص القرآني من حيث ارتباطها بالدلالة

فكما تبنى الزركشي تقسيم التشبيه حسب المشبه والمشبه به ووجه الشبه باعتباره جامعا بينهما، فقد قسم الاستعارة حسب المستعار له والمستعار منه والوجه الجامع بينهما، فلنتأمل تقسيم الاستعارة الذي تبناه الزركشي دون غيره من تقسيمات البلاغيين "الاستعارة فرع التشبيه فأنواعها كأنواعه خمسة:

الأول: استعارة حسي لحسي بوجه حسي كقوله تعالى ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[٧٩٥] ، فإن المستعار منه هو النار، والمستعار له هو الشيب، والوجه هو الانبساط، فالطرفان حسيان والوجه أيضا حسي .....

الثاني: حسي لحسي بوجه عقلي كقوله تعالى ﴿ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾[٧٩٦] ، فالمستعار له الريح والمستعار منه المرأة وهما حسيان، والوجه المنع من ظهور النتيجة والأثر وهو عقلي .....

الثالث: معقول لمعقول كقوله تعالى ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾[٧٩٧] ، فالرقاد مستعار للموت وهما أمران معقولان والوجه عدم ظهور الأفعال وهو عقلي .....

الرابع: محسوس لمعقول كقوله تعالى ﴿ مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾[٧٩٨] ، أصل التماس في الأجسام، فاستعير لمقاساة الشدة، وكون المستعار منه حسيا والمستعار له عقليا، وكونها تصريحية ظاهر والوجه اللحوق وهو عقلي .....

الخامس: استعارة معقول لمحسوس ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾[٧٩٩] ، المستعار منه التكبر والمستعار له الماء والجامع الاستعلاء المفرط "[٨٠٠]

795 مريم ، الآية ٤
796 الذاريات ، الآية ٤١
797 يس ، الآية ٥٢
798 البقرة ، الآية ٢١٤
799 الحاقة ، الآية ١١
800 البرهان ، ص٤٣٢ – ٤٣٤ ، ج٣

هذا ومن الجدير بالذكر أن الزركشي قد تأثر في ذلك التقسيم للاستعارة بمن سبقه من البلاغيين خاصة السكاكي [801] ، معتمدا على أغلب الشواهد القرآنية التي تناولها السكاكي في تناوله لتقسيم الاستعارة من حيث وسيلة إدراك طرفيها، ووسيلة إدراك المتلقي الجامع الدلالي بين طرفي الصورة الجزئية الناتجة عن الاستعارة

ومن هذا التقسيم يبدو لنا أمران: الأول وسيلة إدراك مكونات الصورة أو أطرافها من حيث الإدراك بالحس أو بالعقل

الثاني: الرابط أو الجامع الدلالي بين مكونات الصورة من ناحية، ووسيلة إدراك هذا الرابط من حيث الحس أو العقل، وكانت الغلبة لإدراك هذا الجامع الدلالي بين أطراف الصورة عن طريق العقل من ناحية أخرى

ومن هذين الأمرين نجد أن تصور الزركشي للبنى التصويرية لا يخرج عن اهتمامه بدلالة تلك البنى من ناحية، ووسيلة إدراك المتلقي لتلك الدلالة من ناحية أخرى.

801 نص ما قاله السكاكي "ولما أن الاستعارة مبناها على التشبيه تتنوع على خمسة أنواع تنوع التشبيه إليها. استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي أو بوجه عقلي واستعارة معقول لمعقول واستعارة محسوس لمعقول واستعارة معقول لمحسوس، فمن النوع الأول قوله عز اسمه " واشتعل الرأس شيبا " فالمستعار منه هو النار والمستعار له هو الشيب والجامع بينهما هو الانبساط ولكنه في النار أقوى فالطرفان حسيان ووجه الشبه حسي، ومن الثاني قوله عز اسمه " إذا أرسلنا عليهم الريح العقيم " فالمستعار له الريح والمستعار منه المرء والجامع المنع من ظهور النتيجة والأثر فالطرفان حسيان ووجه الشبه عقلي وكذلك قوله تعالى " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار " فالمستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلدته فالطرفان حسيان والجامع هو ما يعقل من ترتب أحدهما على الآخر وكذلك قوله " فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس " فالمستعار له الأرض المزخرفة المتزينة والمستعار منه النبات وهما حسيان والجامع الهلاك وهو أمر معقول وكذلك قوله حصيدا خامدين فاصل الخمود للنار، ومن الثالث قوله عز اسمه " من بعثنا من مرقدنا " فالرقاد مستعار للموت وهما أمران معقولان والجامع عدم ظهور الأفعال، وقوله وقدمنا على ما عملوا " فالقدوم وهو مجيء المسافر بعد مدة مستعار للأخذ في الجزاء بعد الإمهال وهما أمران معقولان والجامع قوله وقوع المدة في البين وقوله " سنفرغ لكم أيها الثقلان " فالفراغ وهو الخلاص عن المهام والله عز سلطانه لا يشغله شأن عن شأن وقع مستعارا للأخذ في الجزاء وحده وذلك أمر عقلي والطرفان عقليان، وقوله " تكاد تميز من الغيظ " وكذا، سمعوا لها تغيظا وزفيرا فالغيظ والتغيظ مستعاران من الحالة الوجدانية التي تدعو على الانتقام للحالة المتوهمة من نار الله أعاذنا الله منها برحمته وفضله وقوله " ولما سكت عن موسى الغضب " فالمستعار منه هو إمساك اللسان عن الكلام وأنه أمر معقول والمستعار له تفاوت الغضب عن اشتداده على السكون، وأنه أيضا أمر وجداني عقلي، والجامع هو أن الإنسان مع الغضب إذا اشتد وجد حالة للغضب كأنها تغريه وإذا سكن وجده كأنه قد أمسك عن الإغراء، ومن الرابع قوله عز اسمه " بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه " فأصل استعمال القذف والدمغ في الأجسام، ثم استعير القذف لإيراد الحق على الباطل، والدمغ لإذهاب الباطل فالمستعار منه حسي والمستعار له عقلي، وقوله مستهم البأساء والضراء فأصل المساس في الأجسام ثم وقع مستعارا لمقاساة الشدة، وقوله " وضربت عليهم الذلة " فالمستعار منه ضرب الخيمة أو ما شاكلها، وأنه أمر حسي، والمستعار له التثبيت وأنه أمر عقلي، وكذا قوله " وزلزلوا " حتى يقول الرسول " فأصل الزلزال التحريك العنيف، ثم وقع مستعار لشدة ما نالهم، وقوله " فاصدع بما تؤمر" فالصدع وهو كسر الزجاجة ببذل الإمكان وأنه أمر حسي مستعار لتبليغ الرسالة ببذل الإمكان وأنه أمر عقلي، وقوله " وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا " فأصل الخوض في الماء ثم وقع مستعارا لذكر الآيات، وكل خوض ذمه الله في القرآن فهو من هذا القبيل، وقوله " ألم تر أنهم في كل واد يهيمون " فالوادي مستعار للأمر والهيمان الاشتغال به على سبيل التحير، فالمستعار منه في هذه الأمثلة حسي والمستعار له عقلي، ومن الخامس قوله عز اسمه " إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية " فالمستعار منه التكبر وهو عقلي والمستعار له كثرة الماء وهو حسي، والجامع الاستعلاء المفرط، وقوله " بريح صرصر عاتية " فالعتو ههنا مستعار استعارة الطغيان في المثال الأول وقوله " فنبذوه وراء ظهورهم " فالنبذ وراء الظهر وهو أن تلقي الشيء خلفك أمر حسي، ثم وقع مستعارا للتعرض للغفلة وأنه أمر عقلي والجامع الزوال عن المشاهدة وقوله " فأحيينا به بلدة ميتا " فالإحياء أمر عقلي، ثم وقع مستعاراً لإظهار النبات والأشجار والثمار وأنه أمر حسي، وكذلك قوله " فأنشرنا به بلدة ميتا" أي أحيينا. واعلم أن الكلام في جميع ما ذكر من الأمثلة في الأنواع الخمسة قول الأصحاب ولعل لي في البعض نظرا."مفتاح العلوم ، السكاكي ،ص١٧١ ،النسخة الاليكترونية لموقع الوراق على الشبكة الدولية

وهو ما نلمسه من اهتمام الزركشي باكتمال الإطار الدلالي للبنية التصويرية للاستعارة من حيث رصد العلاقات الدلالية بين أركانها، ومن ذلك الرصد التطبيقي للجامع الدلالي بين المستعار له والمستعار منه كما في:

" قوله تعالى ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ [802] ، المستعار له الاشتعال والمستعار منه النار والمستعار له الشيب، والجامع بين المستعار منه والمستعار له مشابهة ضوء النهار لبياض الشيب "[803]

وقوله " تعالى ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [804] ، وحقيقته "بدأ انتشاره"، و"تنفس" أبلغ، فإن ظهور الأنوار في المشرق من أشعة الشمس قليلا قليلا بينه وبين إخراج النفس مشاركة شديدة "[805]

وخلال تناول الزركشي للاستعارة المكنية نجد أنه يرصد العلاقة بين اللفظ المستعار وبين المستعار منه من حيث دلالة ذلك اللفظ المستعار علي المستعار منه، لإقرار وجه الشبه بين المستعار له والمستعار منه " ومن أقسامها – وهو دقيق – أن يسكت عن ذكر المستعار ثم يومئ إليه بذكر شيء من توابعه وروادفه تنبيها عليه فيقول: شجاع يفترس أقرانه، فنبهت بالافتراس على أنك قد استعرت له الأسد "[806]

ويظهر من تناول الزركشي للاستعارة من حيث التجريد والترشيح العلاقة الدلالية القائمة بين أطراف الصورة والقالب التركيبي لها، بمعنى ذكر ما يلائم أحد أطراف الصورة والمرتبط بهذا الطرف دلاليا في القالب التركيبي للاستعارة، فالترشيح يكون بذكر ما يلائم المستعار منه بما يهب الصورة امتدادا زمنيا وتكثيفا لعناصر المستعار منه في النص وفي ذهن المتلقي، وهذا التكثيف هو الداعي لأن يكون الترشيح أفضل الاستعارات عند الزركشي كما هو الحال عند البلاغيين " تنقسم إلى مرشحة – وهي أحسنها – وهي أن تنظر إلى جانب المستعار وتراعيه كقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ [807] ، فإن المستعار منه الذي هو الشراء هو المراعى هنا وهو الذي رشح لفظتي الربح والتجارة للاستعارة لما بينهما من الملاءمة "[808]

802 مريم ، الآية ٤
803 البرهان ، ص ٤٢٧ ، ج٣
804 التكوير ، الآية ١٨
805 البرهان ، ص٤٢٨ ، ج٣
806 البرهان ، ص٤٣٠ ، ج٣
807 البقرة ، الآية ١٦
808 البرهان ، ص٤٢٩ ، ج٣

هذا ومن الجدير بالذكر أن الزركشي قد تأثر في ذلك التقسيم للاستعارة بمن سبقه من البلاغيين خاصة السكاكي [801] ، معتمدا على أغلب الشواهد القرآنية التي تناولها السكاكي في تناوله لتقسيم الاستعارة من حيث وسيلة إدراك طرفيها، ووسيلة إدراك المتلقي الجامع الدلالي بين طرفي الصورة الجزئية الناتجة عن الاستعارة

ومن هذا التقسيم يبدو لنا أمران: الأول وسيلة إدراك مكونات الصورة أو أطرافها من حيث الإدراك بالحس أو بالعقل

الثاني: الرابط أو الجامع الدلالي بين مكونات الصورة من ناحية، ووسيلة إدراك هذا الرابط من حيث الحس أو العقل، وكانت الغلبة لإدراك هذا الجامع الدلالي بين أطراف الصورة عن طريق العقل من ناحية أخرى

ومن هذين الأمرين نجد أن تصور الزركشي للبنى التصويرية لا يخرج عن اهتمامه بدلالة تلك البنى من ناحية، ووسيلة إدراك المتلقي لتلك الدلالة من ناحية أخرى.

801 نص ما قاله السكاكي "ولما أن الاستعارة مبناها على التشبيه تتنوع على خمسة أنواع تنوع التشبيه إليها. استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي أو بوجه عقلي واستعارة معقول لمعقول واستعارة محسوس لمعقول واستعارة معقول لمحسوس، فمن النوع الأول قوله عز اسمه " واشتعل الرأس شيبا " فالمستعار منه هو النار والمستعار له هو الشيب والجامع بينهما هو الانبساط ولكنه في النار أقوى فالطرفان حسيان ووجه الشبه حسي، ومن الثاني قوله عز اسمه " إذا أرسلنا عليهم الريح العقيم " فالمستعار له الريح والمستعار منه المرء والجامع المنع من ظهور النتيجة والأثر فالطرفان حسيان ووجه الشبه عقلي وكذلك قوله تعالى " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار " فالمستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلدته فالطرفان حسيان والجامع هو ما يعقل من ترتب أحدهما على الآخر وكذلك قوله " فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس " فالمستعار له الأرض المزخرفة المتزينة والمستعار منه النبات وهما حسيان والجامع الهلاك وهو أمر معقول وكذلك قوله حصيدا خامدين فاصل الخمود للنار، ومن الثالث قوله عز اسمه " من بعثنا من مرقدنا " فالرقاد مستعار للموت وهما أمران معقولان والجامع عدم ظهور الأفعال، وقوله وقدمنا على ما عملوا " فالقدوم وهو مجيء المسافر بعد مدة مستعار للأخذ في الجزاء بعد الإمهال وهما أمران معقولان والجامع قوله وقوع المدة في البين وقوله " سنفرغ لكم أيها الثقلان " فالفراغ وهو الخلاص عن المهام والله عز سلطانه لا يشغله شأن عن شأن وقع مستعارا للأخذ في الجزاء وحده وذلك أمر عقلي والطرفان عقليان، وقوله " تكاد تميز من الغيظ " وكذا، سمعوا لها تغيظا وزفيرا فالغيظ والتغيظ مستعاران من الحالة الوجدانية التي تدعو على الانتقام للحالة المتوهمة من نار الله أعاذنا الله منها برحمته وفضله وقوله " ولما سكت عن موسى الغضب " فالمستعار منه هو إمساك اللسان عن الكلام وأنه أمر معقول والمستعار له تفاوت الغضب عن اشتداده على السكون، وأنه أيضا أمر وجداني عقلي، والجامع هو أن الإنسان مع الغضب إذا اشتد وجد حالة للغضب كأنها تغريه وإذا سكن وجده كأنه قد أمسك عن الإغراء، ومن الرابع قوله عز اسمه " بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه " فأصل استعمال القذف والدمغ في الأجسام، ثم استعير القذف لإيراد الحق على الباطل، والدمغ لإذهاب الباطل فالمستعار منه حسي والمستعار له عقلي، وقوله مستهم البأساء والضراء فأصل المساس في الأجسام ثم وقع مستعارا لمقاساة الشدة، وقوله " وضربت عليهم الذلة " فالمستعار منه ضرب الخيمة أو ما شاكلها، وأنه أمر حسي، والمستعار له التثبيت وأنه أمر عقلي، وكذا قوله " وزلزلوا " حتى يقول الرسول " فأصل الزلزال التحريك العنيف، ثم وقع مستعار لشدة ما نالهم، وقوله " فاصدع بما تؤمر" فالصدع وهو كسر الزجاجة ببذل الإمكان وأنه أمر حسي مستعار لتبليغ الرسالة ببذل الإمكان وأنه أمر عقلي، وقوله " وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا " فأصل الخوض في الماء ثم وقع مستعارا لذكر الآيات، وكل خوض ذمه الله في القرآن فهو من هذا القبيل، وقوله " ألم تر أنهم في كل واد يهيمون " فالوادي مستعار للأمر والهيمان الاشتغال به على سبيل التحير، فالمستعار منه في هذه الأمثلة حسي والمستعار له عقلي، ومن الخامس قوله عز اسمه " إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية " فالمستعار منه التكبر وهو عقلي والمستعار له كثرة الماء وهو حسي، والجامع الاستعلاء المفرط وقوله " بريح صرصر عاتية " فالعتو ههنا مستعار استعارة الطغيان في المثال الأول وقوله " فنبذوه وراء ظهورهم " فالنبذ وراء الظهر وهو أن تلقي الشيء خلفك أمر حسي، ثم وقع مستعارا للتعرض للغفلة وأنه أمر عقلي والجامع الزوال عن المشاهدة وقوله " فأحيينا به بلدة ميتا " فالإحياء أمر عقلي، ثم وقع مستعاراً لإظهار النبات والأشجار والثمار وأنه أمر حسي، وكذلك قوله " فأنشرنا به بلدة ميتا" أي أحيينا. واعلم أن الكلام في جميع ما ذكر من الأمثلة في الأنواع الخمسة قول الأصحاب ولعل لي في البعض نظرا."مفتاح العلوم ، السكاكي ،ص١٧١ ،النسخة الاليكترونية لموقع الوراق على الشبكة الدولية

وهو ما نلمسه من اهتمام الزركشي باكتمال الإطار الدلالي للبنية التصويرية للاستعارة من حيث رصد العلاقات الدلالية بين أركانها، ومن ذلك الرصد التطبيقي للجامع الدلالي بين المستعار له والمستعار منه كما في:

" قوله تعالى ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[802] ، المستعار له الاشتعال والمستعار منه النار والمستعار له الشيب، والجامع بين المستعار منه والمستعار له مشابهة ضوء النهار لبياض الشيب "[803]

وقوله " تعالى ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[804] ، وحقيقته "بدأ انتشاره"، و"تنفس" أبلغ، فإن ظهور الأنوار في المشرق من أشعة الشمس قليلا قليلا بينه وبين إخراج النفس مشاركة شديدة "[805]

وخلال تناول الزركشي للاستعارة المكنية نجد أنه يرصد العلاقة بين اللفظ المستعار وبين المستعار منه من حيث دلالة ذلك اللفظ المستعار علي المستعار منه، لإقرار وجه الشبه بين المستعار له والمستعار منه " ومن أقسامها – وهو دقيق – أن يسكت عن ذكر المستعار ثم يومئ إليه بذكر شيء من توابعه وروادفه تنبيها عليه فيقول: شجاع يفترس أقرانه، فنبهت بالافتراس على أنك قد استعرت له الأسد "[806]

ويظهر من تناول الزركشي للاستعارة من حيث التجريد والترشيح العلاقة الدلالية القائمة بين أطراف الصورة والقالب التركيبي لها، بمعنى ذكر ما يلائم أحد أطراف الصورة والمرتبط بهذا الطرف دلاليا في القالب التركيبي للاستعارة، فالترشيح يكون بذكر ما يلائم المستعار منه بما يهب الصورة امتدادا زمنيا وتكثيفا لعناصر المستعار منه في النص وفي ذهن المتلقي، وهذا التكثيف هو الداعي لأن يكون الترشيح أفضل الاستعارات عند الزركشي كما هو الحال عند البلاغيين " تنقسم إلى مرشحة – وهي أحسنها – وهي أن تنظر إلى جانب المستعار وتراعيه كقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾[807] ، فإن المستعار منه الذي هو الشراء هو المراعى هنا وهو الذي رشح لفظتي الربح والتجارة للاستعارة لما بينهما من الملاءمة "[808]

802 مريم ، الآية ٤
803 البرهان ، ص ٤٢٧ ، ج٣
804 التكوير ، الآية ١٨
805 البرهان ، ص٤٢٨ ، ج٣
806 البرهان ، ص٤٣٠ ، ج٣
807 البقرة ، الآية ١٦
808 البرهان ، ص٤٢٩ ، ج٣

ومن الممكن أن تكون أفضلية الترشيح في الاستعارة عند البلاغيين وتبعهم الزركشي نابعة من تكثيف عناصر المستعار منه بما يستدعي قوة نقل المستعار له إلى عالم المستعار منه، وفي الصورة التي تناولها الزركشي رشح المستعار منه بلفظتي الربح والتجارة اللتين تقعان في دائرة دلالة الشراء، مما كثف من وجود الألفاظ الدالة على استعارة دلالة الشراء لنبذ الهدى، وهذا التكثيف مؤثر في تمكن الصورة في ذهن المتلقي من حيث بقائها مدة أطول من تلك التي لم ترشح وهو ما يضمن تجاوب المتلقي مع الصورة .

أما التجريد فيتمثل في تكثيف العناصر الملائمة لدلالة المستعار له، وذلك التجريد موظف للدلالة في النص القرآني، بمعنى أن تكثيف تلك العناصر للمستعار له يكشف عن دلالة ما، وهو ما يوضح توظيف العناصر اللغوية في خدمة الدلالة في النص القـــرآني " وإلى تجريدية، وهي أن تنظر إلى جانب المستعار له، ثم تـأتي بما يناسبه ويلائمه كقولـه تعالى ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾[809]، فالمستعار اللباس والمستعار له الجوع، فمجرد الاستعارة بذكر لفظ الأداة المناسبة للمستعار له وهو الجوع لا المستعار وهو اللباس، ولو أراد ترشيحها لقال: وكساها لباس الجوع، وفي هذه الآية مراعاة المستعار له الذي هو المعنى وهو الجوع والخوف لأن ألمهما يذاق ولا يلبس "[810]

ومن الصورة التي تناولها الزركشي للاستدلال على التجريد نجد أن تكثيف العناصر المناسبة دلاليا لدلالة الجوع، وهي الإذاقة، وظفت لدلالة الألم من حيث دلالة الإذاقة عليه دون الكساء، وبالمقارنة بين مقولة الرازي[811]، ومقولة الزركشي نجد أن الزركشي قد عمد إلى ذكر الاستعارة المرشحة "وكساها لباس الجوع" كما ذكرها الرازي، ولكن الزركشي أورد توظيف التجريد لخدمة الدلالة في النص القرآني من حيث إرادة الدلالة على الألم وهو مفهوم من الإذاقة دون الكساء، وهو ما يحيلنا إلى إيراد ما يخدم الدلالة في النص القرآني بصرف النظر عما تصوره البلاغيون من أفضلية الترشيح على التجريد وهو ما فطن إليه الزركشي

809 النحل ، الآية ١١٢
810 البرهان ، ص٤٢٩ ، ج٣
811 نص ما قاله الرازي "و أما الثاني فهو التجريد كقوله تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف)، و كقول زهير
لدى أسد شاكي السلاح مقذف * له لبد أظفاره لم تقلم ،لو نظر إلى المستعار هنا لقيل " فكساها لباس الجوع و الخوف"نهاية الإيجاز ص١٤٦

الكناية

تناول الزركشي الكناية من عدة جوانب، منها الإثبات لدلالة محددة في النص من ناحية، والتلازم بين تلك الدلالة المثبتة والدلالة الظاهرة للألفاظ في النص من ناحية أخرى، بمعنى أن الكناية تمثل دلالة غير مصرح بها عن طريق دلالة مصرح بها في النص، والغرض من ذلك إثبات الدلالة غير المصرح بها، وبقائها في النص لارتباطها بعلاقة تلازمية مع الدلالة المصرح بها، فتنتقل الدلالة عن طريق ذلك الارتباط التلازمي من المصرح إلى الكناية، وهو ما يظهر من تعريف الزركشي للكناية " والكناية عن الشيء الدلالة عليه من غير تصريح باسمه، وهي عند أهل البيان أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورديفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه، فيدل على المراد من طريق أولى، مثاله قولهم: طويل النجاد، وكثير الرماد، يعنون طويل القامة وكثير الضيافة فلم يذكروا المراد بلفظه الخاص به، ولكن توصلوا إليه بذكر معنى آخر هو رديفه في الوجود؛ لأن القامة إذا طالت طال النجاد؛ وإذا كثر القرى كثر الرماد "[812]

وفي هذا التناول نجد أن تصور الزركشي للكناية لا يخرج عن تصور البلاغيين لها، من حيث العلاقة التلازمية القائمة بين المصرح به والمكنى عنه من ناحية، وإثبات الدلالة المكنى عنها من ناحية أخرى [813]

ويبدو أن الكناية ترتبط عند الزركشي بالتكثيف الدلالي في النص القرآني من حيث إن بعض الكنايات يكون الغرض منها الاختصار في التراكيب، ويقدر الزركشي التراكيب المحذوفة التي غالبا ما كني عنها بلفظ "فعل" فيذكر من أسباب الكناية " تاسعها: قصد الاختصار، ومنه الكناية عن أفعال متعددة بـــــــــلفظ "فعل" كقولـه تعالى ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[814] ،﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾[815] ،﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾[816] ، أي فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا "[817]

812 البرهان ، ص٢٩٠ ، ج٢
813 و هو ما يظهر من تعريف السكاكي للكناية "الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء على ما ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور على المتروك كما نقول فلان طويل النجاد لينتقل منه على ما هو ملزوم وهو طول القامة" مفتاح العلوم ، ص١٧٦
814 المائدة ، الآية ٧٩
815 النساء ، الآية ٦٦
816 البقرة ، الآية ٢٤
817 البرهان ، ص٢٩٨ ، ج٢

ويرتبط تناول الزركشي للكناية عموما ارتباطا وثيقا بالدلالة من ناحية، والمتلقي من ناحية أخرى، ويظهر هذا الارتباط من خلال ما ذكره من أسباب الكناية في النص القرآني "ولها أسباب: أحدها التنبيه على عظم القدرة .....

ثانيها: فطنة المخاطب.....

ثالثها: ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه.....

رابعها: أن يفحش ذكره في السمع.....

خامسها: تحسين اللفظ.....

سادسها: قصد البلاغة.....

سابعها: قصد المبالغة في التشنيع .....

ثامنها: التنبيه على مصيره "[818]

وبالتأمل في أسباب الكناية نجد أن هناك أسبابا تندرج تحت الدلالة مثل دلالة الكناية على التعظيم، والمبالغة في التشنيع، والتنبيه على المصير

ومنها ما يخص المتلقي مثل فطنة المخاطب، أو ما جاءت الكناية من أجل استحسان عملية التلقي من تحسين اللفظ، وترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه، وترك ما يفحش ذكره في السمع، علاوة على ارتباط دلالات الكناية من التنبيه والمبالغة بالمتلقي أيضا

ومن اللافت للنظر فطنة الزركشي – في ذكر الأسباب دون الكثير منها مما ذكره البلاغيون- إلى تأثير الكناية على المتلقي من ناحية، وما جاء لاستمالة المتلقي به لضمان تجاوبه مع النص من ناحية أخرى، وهو ما يظهر من تناول الزركشي لقوله تعالى "في جواب قوم هود ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾[819] ، ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[820] ، فكنى عن تكذيبهم بأحسن "[821]، ومما لا شك فيه أن الكناية عن التكذيب الغرض منها استمالة المكذبين

818 البرهان ، ص٢٩١ ، ج٢
819 الأعراف ، الآية ٦٦
820 الأعراف ، الآية ٦٧
821 البرهان ، ص٢٩٢ ، ج٢

ومن اللافت للنظر أن الكناية عند الزركشي لا ترتبط باللفظ الدال عليها ارتباطا مطلقا، بمعنى أن الكناية تستخرج من قول معين في موضع، ولا تستخرج من ذات القول في موضع آخر، بل المراد يكون الحقيقة وليس الكناية، وربما يكون هذا من دلالة السياق على الكناية والارتباط بينهما عند الزركشي، ومن ذلك دلالة "أكل الطعام" على الغائط في سياق الحديث عن حال مريم وعيسى – عليهما السلام – من البشرية وذلك في " قوله تعالى في مريم وابنها ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾[822] ، فكنى بأكل الطعام عن البول والغائط؛ لأنهما منه مسببان، إذ لابد للآكل منهما، لكن استقبح في المخاطب ذكر الغائط فكنى به عنه "[823] ، في حين أن دلالة "أكل الطعام" تكون على الحقيقة وليس الكناية وذلك في سياق الحديث عن حال الأنبياء من ممارستهم أعمال البشر" فأما قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[824] ، فهو على حقيقته "[825]

ويشير الزركشي إلى عدم ثبات الكناية عن الشيء بلفظ أو تركيب محدد، فربما تنتقل الكناية من لفظ إلى آخر لأن الأول ابتذل في الاستعمال، ومثل ذلك بـ "الغائط" التي كان يفهم منها الكناية عن "النجو" عند العرب، ولما ابتذل وأصبح كالتصريح كني عن الغائط بـ "أكل الطعام" كما مر بنا " فإن قيل: فقد صرح به في قوله تعالى ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾[826] ، قلنا: لأنه جاء على خطاب العرب وما يألفون، والمراد تعريفهم الأحكام فكان لابد من التصريح به، على أن الغائط أيضا كناية عن "النجو"، وإنما هو في الأصل اسم للمكان المنخفض من الأرض، وكانوا إذا أرادوا قضاء حاجتهم أبعدوا عن العيون إلى منخفض من الأرض، فسمي به لذلك، ولكنه كثر استعماله في كلامهم، فصار بمنزلة التصريح "[827]

هذا ويشير الزركشي إلى الكناية عن الشيء في سياق ما، وعند التصريح بلفظ الكناية في سياق آخر يكون لغرض الكشف عن كناية أخرى، ومن ذلك الكناية عن الفرج بالجلود في سياق الحساب يوم القيامة، وعندما ذكر الفرج في سياق تشريف السيدة مريم كان كناية عن فرج القميص بمعنى طهر الثوب " وقوله تعالى

822 المائدة ، الآية ٧٥
823 البرهان ، ص٢٩٣ ، ج٢
824 الفرقان ، الآية ٢٠
825 البرهان ، ص٢٩٤ ، ج٢
826 المائدة ، الآية ٦
827 البرهان ، ص٢٩٣ ، ج٢

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾[828] ، أي لفروجهم، فكنى عنها بالجلود على ما ذكره المفسرون

فإن قيل: فقد قال الله تعالى ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾[829] ، فصرح بالفرج؟ قلنا: أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقي، وإنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها، وهي كناية عن فرج القميص، أي لم يعلق ثوبها ريبة، فهي طاهرة الأثواب، وفروج القميص أربعة: الكمان والأعلى والأسفل، وليس المراد غير هذا؛ فإن القرآن أنزه معنى وألطف إشارة وأملح عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل "[830]

ويشير الزركشي إلى التعدد الدلالي للكناية، فربما يُفهم منها دلالتان، وذلك عند تناوله لـ " قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾[831] ، فإنه كناية عن الزنا، وقيل: أراد طرح الولد على زوجها من غيره، لأن بطنها بين يديها ورجليها وقت الحمل "[832]

فالبهتان هنا كناية عن الزنا، وقد يكون كناية عن طرح الولد على الزوج من غيره على حد تعبير الزركشي، وهذه الكناية الأخيرة تشتمل على الكناية الأولى

هذا ويتمثل منهج الزركشي في الكشف عن الكناية – بجانب الارتباط بالسياق - في النص القرآني في الاستدلال على الربط بين اللفظ المكنى به والكناية عن طريق لغة العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، ومن ذلك الاستدلال بالشعر " خامسها: تحسين اللفظ، كقوله تعالى ﴿ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[833] ، فإن العرب كانت من عادتهم الكناية عن حرائر النساء بالبيض، قال امرؤ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها * تمتعت من لهو بها غير معجل

وقوله تعالى ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[834] ، ومثله قول عنترة:

828 فصلت ، الآية ٢١
829 الأنبياء ، الآية ٩١
830 البرهان ، ص٢٩٥ ، ج٢
831 الممتحنة ، الآية ١٢
832 البرهان ، ص٢٩٥ ، ج٢
833 الصافات ، الآية ٤٩
834 المدثر ، الآية ٤

فشككت بالرمح الطويل ثيابه * ليس الكريم على القنا بمحرم "[835]

فقد استدل الزركشي في كناية "البيض" على النساء في النص القرآني بقول امرئ القيس، وكذلك الاستدلال على كناية "الثياب" على القلب من قول عنترة

هذا وقد يستدل على الكناية من خارج النص القرآني كأسباب النزول، ومن ذلك الاستدلال على كناية "مغلولة" على البخل عن طريق ما ورد في أسباب نزولها " فإن الغل كناية عن البخل كقوله تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾[836] ، لأن جماعة كانوا متمولين فكذبوا النبي – صلى الله عليه وسلم – فكف الله عنهم ما أعطاهم، وهو سبب نزولها "[837]

وقد اهتم الزركشي بوسيلة إدراك المتلقي للصورة الجزئية وأطرافها من حيث توفر سهولة الإدراك لتلك الصورة، وفي هذا الصدد نجد أن الزركشي يهتم باكتمال أركان البنية الدلالية للكناية، فيرصد الجامع الدلالي بين طرفيها باعتباره مظهرا من مظاهر هذا الاكتمال كما في " قوله تعالى ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾[838]، فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين "[839]

وفي " قوله تعالى في مريم وابنها ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[840]، فكنى بأكل الطعام عن البول والغائط لأنهما منه مسببان؛ إذ لابد للآكل منهما "[841]

ويعد التعريض أو التلويح من دلالات الكناية، إذ ترد الكناية في النص القرآني لتكشف عن تلك الدلالة، وهي مرتبطة بالمتلقي كما ارتبطت الكناية به عند الزركشي، وهو ما تناوله الزركشي من ارتباط التعريض بما يفهمه المتلقي من عرض اللفظ، أو ارتباط التلويح بما يريد المتكلم التلويح والإشارة به للمخاطب، بما يشير إلى أن التلويح حلقة الوصل بينهما " وأما التعريض، فقيل: إنه الدلالة على المعنى من طريق المفهوم، وسمي تعريضا لأن المعنى باعتباره يفهم من عرض اللفظ، أي جانبه، ويسمى التلويح لأن المتكلم يلوح منه للسامع ما يريده كقوله تعالى

835 البرهان ، ص٢٩٧ ، ج٢
836 الإسراء ، الآية ٢٩
837 البرهان ، ص٢٩٨ ، ج٢
838 البقرة ، الآية ١٨٧
839 البرهان ، ص٢٩٣ ، ج٢
840 المائدة ، الآية ٧٥
841 البرهان ، ص٢٩٣ ، ج٢

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾[842] ، لأن غرضه بقوله ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ ﴾ على سبيل الاستهزاء وإقامة الحجة عليه بما عرض لهم به من عجز كبير الأصنام عن الفعل مستدلا على ذلك بعدم إجابتهم إذا سئلوا، ولم يرد بقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، فدلالة هذا الكلام عجز كبير الأصنام عن الفعل بطريق الحقيقة "[843]

ومن الشاهد الذي دلل به الزركشي على التعريض في النص القرآني يبدو لنا، إثبات عجز الصنم عن طريق التعريض الموظف في النص لإقامة الحجة على المخاطبين في ضلالهم، وهذا الإثبات بالتعريض يقع بين المتكلم والمخاطب، إذ يخضع لقصد المتكلم في توجيه المخاطب إلى ما غفل عنه بعبادة الصنم العاجز من دون الله

ويرصد الزركشي تأثير التعريض على المتلقي من حيث ضمان تجاوبه مع المتكلم عن طريق إعلام المتكلم المتلقي دون مواجهته " ووجه حسنه ظاهر، لأنه يتضمن إعلام السامع على صورة لا تقتضي مواجهته بالخطاب المنكر، كأنك لم تعنه، وهو أعلى في محاسن الأخلاق وأقرب للقبول وأدعى إلى التواضع، والكلام ممن هو رب العالمين نزله بلغتهم، وتعليما للذين يعقلون "[844]

ويرتبط التعريض عند الزركشي بالعدول المتمثل في توجيه الخطاب في ظاهر النص إلى مخاطب بعينه، في حين يعدل بالتعريض إلى مخاطب آخر يفهم من باطن النص " ومن أقسامه أن يخاطب الشخص والمراد غيره، سواء كان الخطاب مع نفسه أو مع غيره ..... قوله ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾[845] ، فإن الخطاب للمؤمنين والتعريض لأهل الكتاب؛ لأن الزلل لهم لا للمؤمنين "[846]

ومن ذلك أيضا ارتباط التعريض بالعدول بالالتفات " ومنه قوله ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾[847] ، المراد: ما لكم لا تعبدون بدليل قوله ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[848] ، ولولا التعريض لكان المناسب: وإليه أرجع "[849]

842 الأنبياء ، الآية ٦٣
843 البرهان ، ص٣٠١ ، ج٢
844 البرهان ، ص٣٠٢ ، ج٢
845 البقرة ، الآية ٢٠٩
846 البرهان ، ص٣٠١ ، ج٢
847 يس ، الآية ٢٢

الصورة الممتدة

يعتبر رصد الصورة الممتدة عند الزركشي هدفا في حد ذاته بصرف النظر عن البنية التصويرية التي أنتجت هذا الامتداد في الصورة، بمعنى أن الزركشي يرصد الصورة الممتدة للتشبيه، والصورة الممتدة للاستعارة دون التطرق لبنية التشبيه أو الاستعارة إلا من خلال تمثيلهما للصورة الممتدة باعتبارهما مكونات أو أدوات لها تضامت لتنتج الصورة الممتدة في النص القرآني، ولهذا نجد أنه يحدد تصوره للصورة الممتدة عموما بأخذ العرب لأشياء فرادى لتشبيهها بأشياء فرادى لإنتاج الصورة الممتدة " فإن قلت: في بعض هذه الأمثلة تشبيه أشياء بأشياء لم يذكر فيها المشبهات وهلا صرح بها كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[850]

قلت: كما جاء ذلك تصريحا فقد جاء مطويا ذكره على طريق الاستعارة كقوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾[851] ، وكقوله ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾[852] ، والصحيح الذي عليه علماء البيان أن التمثيلين من جملة التمثيلات المركبة المقربة لا يتكلف لكل واحد شيء بقدر شبهه به؛ بناء على أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض تشبهها بنظائرها كما جاء في بعض الآيات من القرآن، وقد تشبه أشياء قد تضامت وتلاحقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى مثلها "[853]

ومن مقولة الزركشي السابقة نستطيع أن نلمح تصوره للصورة الممتدة وأدوات ذلك الامتداد سواء الصورة المكونة من التشبيهات المتتابعة أو الاستعارات المتتابعة، إذ تعد الصور الجزئية المركبة أو المتضامة على حد تعبير الزركشي منتجة لصورة ممتدة تتميز بالوحدة والتماسك من حيث دلالتها وتأثيرها على المتلقي، وهو ما يتضح من رصد الزركشي للجامع الدلالي بين حال اليهود وحال الحمار من حيث حمل كل منهما ما هو جاهل به والتعب من غير فائدة " وذلك في

848 يس ، الآية ٢٢
849 البرهان ، ص٣٠٢ ، ج٢
850 غافر ، الآية ٥٨
851 فاطر ، الآية ١٢
852 الزمر ، الآية ٢٩
853 البرهان ، ص٥٣٦ ، ج١

قولـه تعـالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾[854] ، فإن الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار الذي يحمل أسفار الحكمة، وليس له من حملها إلا الثقل والتعب من غير فائدة "[855]

ويـربط الزركـشي الـصورة الممتـدة بالدلالـة فـي الـنص القرآنـي مـن حيث الكشف عن الدلالة الكلية للصورة الممتدة، ومن ذلك الدلالـة على التفاوت أو المدح أو الـذم أو غيرهمـا مـن الـدلالات " وتـأتي أمثـال القـرآن مـشتملة علـى بيـان تفـاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر "[856]

ومـن ذلـك ربـط الزركـشي بـين الـصورة الممتدة للأمثـال وبـين دلالاتهـا علـى الحث والزجر والتذكير والتقرير وغيرها من الدلالات التي ترتبط بالتأثير على المتلقي، وخلال ذلك الربط يشير إلى قدرة الصورة الممتدة على تصوير المعقولات في ثوب المحسوسات " وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس "[857]

ويعد اعتماد الزركشي في مفهوم الصورة الممتدة على تمثيل المعقول أو الأبعد في الإدراك في ثوب المحسوس أو الأقرب في الإدراك مرتبطا بوضوح الدلالة في النص القرآني، وهو ما يتضح من تصوره للتمثيل: " وحقيقته إخراج الأغمض إلى الأظهر "[858] ، "إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب "[859]

ويظهر ذلك التصور أكثر من خلال اعتماد الزركشي لتقسيم للتمثيل مأخوذ عن البكر آباذي يعتمد فيه عموما على إخراج ما لا يدرك بسهولة إلى ما يدرك بسهولة وذلك عن طريق الإدراك بالحس " وقسمه أبو عبد الله البكر آباذي إلى أربعة أوجه: أحدها إخراج ما لا يقع عليه الحس إلى ما يقع عليه، وثانيها: إخراج ما

854 الجمعة ، الآية ٥
855 البرهان ، ص٥٣٦ ، ج١
856 البرهان ، ص٥٣١ ، ج١
857 البرهان ، ص٥٣١ ، ج١
858 البرهان ، ص٥٣٠ ، ج١
859 البرهان ، ص٥٣٢ ، ج١

لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، وثالثها: إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، ورابعها: إخراج ما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة "[860]

هذا ومن الملاحظ أن الزركشي قد ربط بين الصورة الممتدة من ناحية، وبين المبدع والمتلقي من ناحية أخرى، فنجد أنه يشير إلى المبدع من خلال اختيار الأدوات اللغوية التي تخضع لإرادته ووضعها في قالب التمثيل، وذلك من خلال الصانع الذي يقدّر صناعته على حد تعبير الزركشي " والمتمثل كالصانع الذي يقدر صناعته، كالخياط يقدر الثوب على قامة المخيط ثم يفريه، ثم يقطع، وكل شيء له قالب ومقدار، وقالب الكلام ومقداره الأمثال "[861]

ويشير إلى المتلقي وتأثره بالتناسب بين التمثيل والغرض الذي سيق له " وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى؛ إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والشاهد بالغائب، فالمرغب في الإيمان مثلا إذا مثل له بالنور تأكد في قلبه المقصود، والمزهد في الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد قبحه في نفسه "[862]

ومن النصين السابقين نقترب من تصور الزركشي للتمثيل باعتباره رسالة تقع بين المبدع والمتلقي يراعى فيها المبدع توفر العناصر المؤثرة في المتلقي من ناحية، ووضوح الدلالة في ذهن المتلقي للوقوف على مقاصد المبدع من ناحية أخرى، أو بمعنى آخر تمثل الصورة الممتدة حلقة من حلقات الاتصال بين المبدع والمتلقي يحمل فيها المبدع ما يضمن به تجاوب المتلقي معه، وهذا على مستوى تلك المقولات النظرية دون تطبيق الزركشي ذلك على النص القرآني من حيث إنه لم يشر إلا إلى ما يخص المتلقي من الناحية التطبيقية لخصوصية النص القرآني ومصدره الكريم

ومن الناحية التطبيقية يقوم الزركشي بتحليل الصور الممتدة في النص القرآني برصد مكوناتها، وأدوات امتدادها، ودلالاتها، وتأثيرها على المتلقي، وفيما يلي نسرد بعض من تلك التحليلات

رصد الزركشي الصورة الممتدة للإيمان والقرآن لما أنزله الله – جل جلاله – من السماء، وقد مثلت تلك المنزلات بالماء لما فيه من الحياة، أو بالنار لما فيها من النور، وقد ربط بينها وبين دلالاتها من العلم وفوائده للإنسان، وانتفاع الإنسان بما أنزله اللـه "وقد ضرب الله تعالى لما أنزله من الإيمان والقرآن مثلين، مثله بالماء ومثله بالنار، فمثله بالماء لما فيه من الحياة، وبالنار لما فيه من النور والبيان،

860 البرهان ، ص٥٣٠ ، ج١
861 البرهان ، ص٥٣١ ، ج١
862 البرهان ، ص٥٣٢ ، ج١

ولهذا سماه الله روحا لما فيه من الحياة، وسماه نورا لما فيه من الإنارة، ففي سورة الرعد قد مثله بالماء فقال ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾[٨٦٣] ، الآية فضرب الله الماء الذي نزل من السماء فتسيل الأودية بقدرها، كذلك ما ينزله من العلم والإيمان فتأخذه القلوب كل قلب بقدره، والسيل يحتمل زبدا رابيا كذلك ما في القلوب يحتمل شبهات وشهوات، ثم قال ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾[٨٦٤]، وهذا المثل بالنار التي توقد على الذهب والفضة والرصاص والنحاس، فيختلط بذلك زبدا أيضا كالزبد الذي يعلو السيل قال تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[٨٦٥]، كذلك العلم النافع يمكث في القلوب بالتوحيد وعبادة الله وحده"[٨٦٦]

ويرصد صورة النور الذي يلقى في قلب المؤمن من ناحية، وصورة عمل الكافر الذي لا فائدة منه من ناحية أخرى في " قوله ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾[٨٦٧]، فإنه سبحانه أراد تشبيه نوره الذي يلقيه في قلب المؤمن ثم مثله بمصباح، ثم لم يقنع بكل مصباح، بل بمصباح اجتمعت فيه أسباب الإضاءة بوضعه في مشكاة وهي الطاقة غير النافذة وكونها لا تنفذ لتكون أجمع للتبصير، وقد جعل فيها مصباح في داخل زجاجة فيه الكوكب الدري في صفائها، ودهن المصباح من أصفى الأدهان وأقواها وقودا؛ لأنه من زيت شجر في أوسط الزجاج لا شرقية ولا غربية، فلا تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار، بل تصيبها أعدل إصابة، وهذا مثل ضربه الله للمؤمن

ثم ضرب للكافر مثلين أحدهما ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾[٨٦٨] ، والثاني ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾[٨٦٩] ، شبه في الأول ما يعلمه من لا يقدر الإيمان المعتبر بالأعمال التي يحسبها بقيعة ثم يخيب أمله بسراب يراه الكافر بالساهرة، وقد غلبه عطش يوم القيامة، فيجيئه فلا يجده ماء، ويجد زبانية الله عنده فيأخذونه فيلقونه في جهنم "[٨٧٠]

---

863 الرعد ، الآية ١٧
864 الرعد ، الآية ١٧
865 الرعد ، الآية ١٧
866 البرهان ، ص٥٣٧ ، ج١
867 النور ، الآية ٣٥
868 النور ، الآية ٣٩
869 النور ، الآية ٤٠
870 البرهان ، ص٤١٥ ، ج٣

الفصل الثاني

وحدة النص

للنص القرآني – باعتباره أرقى النصوص على الإطلاق – خصوصية تميزه عن غيره من النصوص، وتلك الخصوصية في بعض مظاهرها نابعة من وحدته ووحدة مصدره، ولهذا فإننا " إذا أردنا أن ندرس "النص الكريم" مقدمين لبعض ظواهره تحليلا، فلا شك أن اعتبار النص كله وحدة واحدة هو أحد المعايير بين نجاح الدرس أو فشله "[1]، وهذا الاعتبار هو ما رصدناه عند الزركشي في تناوله للنص القرآني

وقد خصصنا هذا الفصل لرصد تصور الزركشي لوحدة النص القرآني، لما لهذا التصور من أهمية في رصد مدى اقتراب تصور الزركشي لوحدة النص من التصور الحديث له، علاوة على الكشف عن بعض الأدوات التي تفضي إلى وحدة النص عند الزركشي .

وقد صرح الزركشي بهذه الوحدة في غير موضع من كتابه البرهان "فإن القرآن كله كالسورة الواحدة: فيجوز أن يكون الادعاء في سورة والرد عليهم في أخرى"[2]

ويأخذ بقول أبي يوسف القاضي "وهو كالقطعة الواحدة فكله قرآن وبعضه قرآن"[3]

وما يهمنا في هذا الفصل هو رصد الإجراءات العملية التي اتخذها الزركشي ليتضح لنا تصوره عن وحدة النص القرآني

موهم الاختلاف

أول ما نرصده هو ما قدمه الزركشي لإثبات أن القرآن كلٌّ متجانس، وذلك عن طريق نفي الاختلاف بين آياته، بأنه من الوهم تحت النوع الخامس والثلاثين "معرفة موهم الاختلاف: وهو ما يوهم التعارض بين آياته، وكلام الله جل جلاله منزه عن الاختلاف كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا

[1] محمد و الفتح ، د. طارق سعد شلبي ، ص٢٩ ، دار الفردوس ، القاهرة ، ٢٠٠١
[2] البرهان ، ص٨٠ ، ج٣
[3] البرهان ، ص٣٩٨ ، ج١

﴾[4] ، ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافا وليس به، فاحتيج لإزالته كما صنف في مختلف الحديث وبيان الجمع بينهما"[5]

ويرصد أقوال العلماء في موهم الاختلاف فيتمثل بقول الغزالي "وكلام الله تعالى منزه عن هذه الاختلافات، فإنه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره، وعلى مرتبة واحدة في غاية الفصاحة "[6]

ويقدم الأسباب الموهمة بالاختلاف لينفي هذا الاختلاف عنه بغرض إثبات تجانس النص القرآني، ويكشف عن تصوره لوحدة النص

أول تلك الأسباب: الإخبار عن الشيء الواحد بألفاظ متعددة، فيرجعها إلى أصل واحد جامع بينهما "وللاختلاف أسباب: الأول وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتى، كقوله تعالى في خلق آدم إنه ﴿ مِن تُرَابٍ ﴾[7] ، ومرة ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[8] ، ومرة ﴿ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾[9] ، ومرة ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾[10] ، وهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها في أحوال مختلفة؛ لأن الصلصال غير الحمأ، والحمأ غير التراب، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر وهو التراب، ومن التراب تدرجت هذه الأحوال"[11]

ويذكر في السبب الثاني اختلاف السياق أو المكان المفترض للقول "السبب الثاني: اختلاف الموضوع كقوله تعالى ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[12] ، وقوله ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[13] ، مع قوله ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[14] ، قال الحليمي: فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، والثانية على ما يستلزم الإقرار بالنبوات مع شرائع الدين

[4] النساء ، الآية ٨٢
[5] البرهان ، ص٤٣ ، ج٢
[6] البرهان ، ص٤٥ ، ج٢
[7] آل عمران ، الآية ٥٩
[8] الحجر ، الآيات ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣
[9] الصافات ، الآية ١١
[10] الرحمن ، الآية ١٤
[11] البرهان ، ص٥١ ، ج٢
[12] الصافات ، الآية ٢٤
[13] الأعراف ، الآية ٦
[14] الرحمن ، الآية ٣٩

وفروعه، حمله غيره على اختلاف الأماكن؛ لأن في القيامة مواقف كثيرة، فموضع يسأل ويناقش، وموضع آخر يرحم ويلطف به، وموضع آخر يعنف ويوبخ – وهم الكفار – وموضع آخر لا يعنف – وهم المؤمنون "[15]

ويذكر في السبب الثالث أن موهم الاختلاف ربما يرجع على الاختلاف في نسبة الفعل إلى الفاعل عن طريق الحقيقة أو المجاز "الثالث لاختلافهما في جهتي الفعل كقوله تعالى ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾[16]، أضيف القتل إليهم على جهة الكسب والمباشرة ونفاه عنهم باعتبار التأثير، ولهذا قال الجمهور: إن الأفعال مخلوقة لله تعالى مكتسبة للآدميين، فنفى الفعل بإحدى الجهتين لا يعارضه إثباته بالجهة الأخرى "[17]

ويذكر في السبب الرابع أن الاختلاف قد يرجع إلى إثبات الحقيقة ونفي المجاز أو العكس "الرابع: لاختلافهما في الحقيقة والمجاز كقوله ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾[18]، ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾[19]، وهو يرجع لقول المناطقة: الاختلاف بالإضافة، أي وترى الناس سكارى بالإضافة إلى أهوال القيامة مجازا، وما هم بسكارى إلى الخمر حقيقة "[20]

ومن الجدير بالذكر أن الزركشي قد جمع بين آيات القرآن التي توهم تعارضها، وهذا الجمع في حد ذاته معبر عن تصوره لوحدة النص القرآني وتجانس آياته، وقد امتد هذا التجانس إلى الآية الواحدة من جهة نفي الشيء وإثباته في وقت واحد دون فهم الدلالة واندراجها تحت الحقيقة أو المجاز كما في السببين الثالث والرابع

15 البرهان ، ص٥٢ ، ج٢
16 الأنفال ، الآية ١٧
17 البرهان ، ص٥٦ ، ج٢
18 الحج ، الآية ٢
19 إبراهيم ، الآية ١٧
20 البرهان ، ص٥٧ ، ج٢

سمات النص

من الإجراءات العملية التي تظهر عند الزركشي في تناول النص القرآني، وتوضح تصوره لوحدة النص ذلك الإجراء الذي يرصد فيه سمات النص القرآني ورصد خصوصياته التي تميزه عن أي نص آخر

ويتمثل هذا الرصد في مظهرين: الأول: الإشارات التي تناثرت في كتاب البرهان وترتبط بسمات النص القرآني

والثاني: تصور الزركشي للتناسب بين آيات النص القرآني وسوره مما يعد سمة مهمة من سماته، وتصب في وحدة النص القرآني

ومن المسلم به أن الوصول إلى رصد هذه السمات العامة للنص القرآني لا يتأتى إلا عبر نظر كلي له باعتباره وحدة واحدة

أما عن تلك الإشارات التي رصد فيها الزركشي سمات النص القرآني فنورد منها البعض مما يوضح تصور الزركشي لوحدة النص

يشير الزركشي إلى أن القرآن تتتابع فيه سياقات بعينها مرتبطة ببعضها البعض، ومن ذلك تتابع ذكر الأحكام والوعد والوعيد والتوحيد والتنزيه ذاكرا أن ذلك من عادة القرآن "وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون باعثا على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ليعلم عظم الآمر والناهي، وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك "[21]

ومن اللافت للنظر أن الزركشي قد ذكر أسباب تتابع تلك السياقات، فسياق الوعد والوعيد ليكون سببا في تنفيذ أحكام الشرع، وسياق التوحيد والتنزيه لإظهار صفات الخالق سبحانه من العظم لتنفذ أوامره ونواهيه الواردة في أحكام الشرع

ويشير إلى أن النص القرآني ينفرد بأسلوب بديع في الخطاب من دلالة الاستفهام على التقرير والتذكير "فإن الرب تعالى لا يستفهم خلقه عن شيء، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء، فهذا أسلوب بديع انفرد به خطاب القرآن، وهو في كلام البشر مختلف "[22]

21 البرهان ، ص٧٩ ، ج١
22 البرهان ، ص٣١٦ ، ج٢

ويشير إلى كثرة ورود أصوات المد ثم النون في فواصل الآيات ويذكر سبب ذلك من التأثير على المتلقي "قد كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك "[23]

ويشير إلى أن عادة النص القرآني ذكر ما يخص القرآن بعد الحروف المقطعة أول كل سورة "اعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾[24]، وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم فيسأل عن حكمة ذلك "[25]

هذا ويرصد الزركشي في النوع السابع من كتابه البرهان "في أسرار الفواتح والسور" سمات النص القرآني المتمثلة في افتتاح سوره بعشرة أنواع لا يخرج عنها "وقد افتتح سبحانه وتعالى كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها "[26]

ويرصد تلك الأنواع ذاكرا الآيات وعدد السور، فالنوع الأول الاستفتاح بالثناء في أربع عشرة سورة "الأول: استفتاحه بالثناء عليه عز وجل، والثناء قسمان: إثبات لصفات المدح، ونفي وتنزيه من صفات النقص

والإثبات نحو ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾[27] ، في خمس سور، و﴿ تَبَارَكَ ﴾[28]، في سورتين، الفرقان ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾[29]، والملك ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾[30]

والتنزيه نحو ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ ﴾[31]، ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾[32]، ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[33]، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾[34]، كلاهما في سبع سور، فهذه

23 البرهان ، ص١٠٧ ، ج١
24 البقرة ، الآيتان ١ ، ٢
25 البرهان ، ص١٩٩ ، ج١
26 البرهان ، ص١٩٣ ، ج١
27 الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر ، الآية ١
28 الفرقان ، الملك ،الآية ١
29 الفرقان ، الآية ١
30 الملك ، الآية ١
31 الإسراء ، الآية ١

أربع عشرة سورة استفتحت بالثناء عليه: نصفها لثبوت صفات الكمال، ونصفها لسلب النقائص "[35]

ويرصد في النوع الثاني استفتاح النص القرآني للسور بحروف التهجي، وذلك في تسع وعشرين آية "الثاني: استفتاح السور بحروف التهجي نحو﴿ الٓمٓ ﴾[36]، ﴿ الٓمٓصٓ ﴾[37]، ﴿ الٓرٓ ﴾[38]، ﴿الٓمٓرٓ ﴾[39]، ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾[40]، ﴿طه ﴾[41]، ﴿طسٓ ﴾[42]، ﴿طسٓمٓ ﴾[43]، ﴿ حمٓ ﴾[44]، ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾[45]، ﴿ يسٓ ﴾[46] ﴿صٓ ﴾[47]، ﴿ قٓ ﴾[48]، ﴿ نٓ ﴾[49]، وذلك في تسع وعشرين سورة "[50]

ويرصد في بقية الأنواع الاستفتاح بالنداء، والجملة الخبرية، والقسم، والشرط، والأمر، والاستفهام، والدعاء، والتعليل ذاكرا عدد السور المفتتح بها تلك الأنواع[51]

32 الأعلى ، الآية ١
33 الحديد ، الحشر ، الصف ، الآية ١
34 الجمعة ، التغابن ، الآية ١
35 البرهان ، ص١٩٣ ، ج١
36 البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، الآية ١
37 الأعراف ، الآية ١
38 يونس ، هود ، يوسف ، الحجر ، إبراهيم ، الآية ١
39 الرعد ، الآية ١
40 مريم ، الآية ١
41 طه ، الآية ١
42 النمل ، الآية ١
43 الشعراء ، القصص ، الآية ١
44 غافر ، فصلت ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ،الأحقاف ، الآية ١
45 الشورى ، الآيتان ١-٢
46 يس ، الآية ١
47 ص ، الآية ١
48 ق ، الآية ١
49 القلم ، الآية ١
50 البرهان ، ص١٩٤ ، ج١
51 و من ذلك الاستفتاح بالنداء" النوع الثالث من أنواع استفتاح السور النداء نحو (يا أيها الذين آمنوا) ،" انظر البرهان ، ص٢٠٧ ، ج١
و رصد في النوع الرابع الاستفتاح بالجملة الخبرية " الرابع : الجمل الخبرية نحو (يسألونك عن الأنفال) ،" انظر البرهان ، ص٢٠٧ ، ج١
و رصد في النوع الخامس الاستفتاح بالقسم " الخامس : القسم نحو (و الصافات) ، "انظر البرهان ، ص٢٠٧ ، ج١
و رصد في النوع السادس الاستفتاح بالشرط " السادس : الشرط نحو (إذا وقعت الواقعة) ، "انظر البرهان ، ص٢٠٨، ج١
و رصد في النوع السابع الاستفتاح بالأمر " السابع : الاستفتاح بالأمر في ست سور (قل أوحي) ، "انظر البرهان ص٢٠٨ ، ج١.
و رصد في النوع الثامن الاستفتاح بالاستفهام " الثامن : لفظ الاستفهام في (هل أتى) ، "انظر البرهان ، ص٢٠٨ ، ج١

وقد رصدنا تلك الأنواع المفتتح بها سور النص القرآني للتدليل على أن الزركشي رصد من خلالها سمات النص القرآني مما يدل على تصوره لوحدة النص من ناحية، ونظر الزركشي في عموم النص القرآني للكشف عن سماته باعتباره كاشفا عن وحدة النص القرآني أيضا من ناحية أخرى

التناسب

أما رصد الزركشي للتناسب في النص القرآني باعتباره سمة من سماته التي توضح وحدته عن طريق تلاؤم سوره وآياته وتناسبها مما يوضح تجانسها – فله مظاهر تتمثل في:

١- تناسب الآيات داخل السورة الواحدة
٢- تناسب فاتحة السورة مع خاتمتها
٣- تناسب فاتحة السورة مع خاتمة السورة قبلها
٤- تناسب فاتحة السورة مع فاتحة السورة بعدها
٥- التناسب بين السور المتتالية
٦- تناسب ترتيب السور في المصحف العثماني
٧- التناسب بين السورة واسمها

رصد الزركشي المظهر الأول من مظاهر التناسب بين الآيات تحت النوع الثاني "معرفة المناسبات بين الآيات" في كتابه البرهان "واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلانا أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما وهو القرابة " [52]

ومن هذا النص يبدو لنا ارتباط معنى التناسب عند الزركشي بالمقاربة والارتباط، وهو ما يبدو أيضا من فائدة التناسب في قوله "وفائدته: جعل أجزاء

و رصد في النوع التاسع الاستفتاح بالدعاء " التاسع : الدعاء في ثلاث سور (ويل للمطففين) ، (ويل لكل همزة لمزة) ، (تبت يدا أبي لهب و تب) ، " انظر البرهان ، ص٢٠٨ ، ج١
و رصد في النوع العاشر الاستفتاح بالتعليل " العاشر : التعليل في موضع واحد نحو (لإيلاف قريش) ، " انظر البرهان ، ص٢٠٩ ، ج١
[52] البرهان ، ص٧٤ ، ج١

الكلام بعضه آخذ بأعناق بعض؛ فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء "[53]

ولارتباط التناسب عنده بالترابط بين الآيات فقد أفرد الزركشي في المناسبة بين الآيات مبحثا لأنواع الارتباط بين الآيات فيورد ما ظهر فيه الارتباط بين الآيات دون التطرق له، ثم يورد ما لا يظهر فيه الارتباط ويقوم بالبحث عن تلك الروابط بين الآيات "عدنا إلى ذكر ارتباط الآي بعضها ببعض، فنقول: ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير أو الاعتراض الشديد، وهذا القسم لا كلام فيه

وإما ألا يظهر الارتباط، بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به، فإما أن تكون معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف المشترك في الحكم أو لا "[54]

وقسم الارتباط إلى قسمين أحدهما عن طريق العطف فأورد فيه الآيات التي ارتبطت بالعطف، ولكن التناسب لا يظهر بينها فيفسره الزركشي، ومن ذلك تناوله لأوائل آيات سورة الإسراء والربط بينها من الناحية الدلالية ليوضح التناسب بينها في السورة "ومنها قوله سبحانه وتعالى ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾[55] ، إلى أن قال ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾[56] ، فإنه قد يقال: أي رابط بين الإسراء و﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؟، ووجه اتصالها بما قبلها أن التقدير: أطلعناه على الغيب عيانا، وأخبرناه بوقائع من سلف بيانا لتقوم أخباره على معجزته برهانا، أي سبحان الذي أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكرا، وأخبرك بما جرى لموسى وقومه في الكرتين لتكون قصتهما آية أخرى، أو أنه أسرى بمحمد إلى ربه كما أسرى بموسى من مصر حين خرج منها خائفا يترقب، ثم ذكر بعده ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[57] ، ليتذكر بنو إسرائيل نعمة الله عليهم قديما حيث نجاهم من الغرق، إذ لو لم ينج أباهم

[53] البرهان ، ص٧٥ ، ج١
[54] البرهان ، ص٧٩ ، ج١
[55] الإسراء ، الآية ١
[56] الإسراء ، الآية ٢
[57] الإسراء ، الآية ٣

من أبناء نوح لما وجدوا، وأخبرهم أن نوحا كان عبدا شكورا، وهم ذريته والولد سر أبيه، فيجب أن يكونوا شاكرين كأبيهم؛ لأنه يجب أن يسيروا سيرته فيشكروا

وتأمل كيف أثنى عليه، وكيف تليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها مع خروجهما مخرج المرور من الكلام الأول على ذكره ومدحه بشكره وأن يعتقدوا تعظيم تخليصه إياهم من الطوفان بما حملهم عليه ونجاهم منه حين أهلك من عداهم وقد عرفهم أنه إنما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيما سلط عليهم من قتلهم ثم عاد عليهم بالإحسان والإفضال كي يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذي ولدهم وهم ذريته فلما صاروا إلى جهالتهم وتمردوا عاد عليهم التعذيب

ثم ذكر تعالى في ثلاث آيات بعد ذلك معنى هذه القصة بكلمات قليلة العدد كثيرة الفوائد لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير والكلام الطويل مع ما اشتمل عليه من التدريج العجيب والموعظة العظيمة بقوله ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[58]، ولم ينقطع بذلك الكلام إلى أن خرج إلى قوله ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾[59]، يعني: إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى العفو، ثم خرج خروجا آخر إلى حكمة القرآن؛ لأنه الآية الكبرى، وعلى هذا فقس الانتقال من مقام إلى مقام حتى ينقطع الكلام "[60]

بالنظر إلى إشارة الزركشي نهاية النص السابق على قياس ما فعله في الربط بين أوائل سورة الإسراء على بقية السورة الذي عبر عنه بـ "حتى ينقطع الكلام" يظهر لنا تصوره عن التناسب بين آيات السورة كلها ليعبر عن وحدتها مما يدخل في تصور الزركشي لوحدة النص

أما القسم الثاني لارتباط الآيات ليظهر التناسب بينها لأنها غير مرتبطة بالعطف؛ فيورد فيه الزركشي بعض القرائن المعنوية التي تقوم بالربط بين الآيات، وتلك القرائن تدخل تحت التنظير والمضادة والاستطراد نورد منها ما ندلل به على الكل "القسم الثاني: ألا تكون معطوفة فلابد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية مؤذنة بالربط، والأول مزج لفظي، وهذا مزج معنوي تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني وله أسباب:

58 الإسراء ، الآية ٧
59 الإسراء ، الآية ٨
60 البرهان ، ص٨١ – ٨٢ ، ج١

أحدها: التنظير: فإن إلحاق النظير بالنظير من دأب العقلاء، ومن أمثلته قوله تعالى ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾[61]، عقب قوله ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[62]، فإن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون، وذلك أنهم اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال، وحاجوا النبي – صلى الله عليه وسلم – وجادلوه؛ فكره كثير منهم ما كان من فعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في النفل؛ فأنزل الله هذه الآية وأنفذ أمره بها وأمرهم أن يتقوا الله ويطيعوه ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شيء ما بعد أن كانوا مؤمنين ثم قال: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾، يريد أن كراهتهم لما فعلته من الغنائم ككراهتهم للخروج معك "[63]

ومن تحليل الزركشي السابق نجد أنه ربط بين الآيتين عن طريق كراهة القيام بالفعلين في الآيتين ليربط بين الآيتين محققا التناسب بينهما، أو بمعنى أدق كاشفا عن التناسب بينهما مما لا يظهر إلا بدقة النظر

ويتضح المظهر الثاني من مظاهر التناسب في النص القرآني فيما رصده الزركشي تحت التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها تحت النوع الثامن من كتابه بعنوان "في خواتم السور"، ومثل لذلك بالتناسب بين أوائل الآيات في سورة القصص وبين خاتمتها "في مناسبة فواتح السور وخواتمها: ومن أسراره مناسبة فواتح السور وخواتمها، وتأمل سورة القصص وبداءتها بقصة مبدأ أمر موسى ونصرته، وقوله ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[64]، وخروجه من وطنه ونصرته وإسعافه بالمكالمة، وختمها بأمر النبي– صلى الله عليه وسلم– بألا يكون ظهيرا للكافرين، وتسليته بخروجه من مكة والوعد بعوده إليها بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[65] ، "[66]

61 الأنفال ، الآية ٥
62 الأنفال ، الآية ٤
63 البرهان ، ص٨٥ – ٨٦ ، ج١
64 القصص ، الآية ١٧
65 القصص ، الآية ٨٥
66 البرهان ، ص٢١٣ ، ج١

وهذا المظهر والمظهر السابق عليه يكشفان أن وحدة النص عند الزركشي تنطبق على السورة باعتبارها وحدة نصية، وبالجمع بين ما يليهما من تناسب بين السور بعضها البعض نستطيع أن نقول أن تلك الوحدات النصية تجتمع وتكون وحدة النص القرآني

ويتضح المظهر الثالث للتناسب في النص القرآني فيما رصده الزركشي تحت التناسب بين خاتمة السورة وفاتحة ما قبلها "في مناسبة فاتحة السورة بخاتمة التي قبلها حتى إن منها ما يظهر تعلقها به لفظا كما قيل في ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[67]، ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾[68]

وفي الكواشي، لما ختم سورة النساء آمرا بالتوحيد والعدل بين العباد أكد ذلك بقوله في أول سورة المائدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾[69] ، "[70]

ويطبق الزركشي تصوره للتناسب بين خواتم السور وفواتح ما بعدها على بعض سور القرآن الكريم نورد منها "وإذا اعتبرت افتتاح كل سوره وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفي تارة ويظهر أخرى كافتتاح سورة الأنعام بالحمد فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء كما قال سبحانه ﴿ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[71]

وكافتتاح سورة فاطر بـ "الحمد" أيضا فإنه مناسب لختام ما قبله من قوله ﴿ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ ﴾[72]، وكما قال تعالى ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[73]

وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به[74]

---

67 الفيل ، الآية ٥
68 قريش ، الآية ١
69 المائدة ، الآية ١
70 البرهان ، ص٢١٣ ، ج١
71 الزمر ، الآية ٧٥
72 سبأ ، الآية ٥٤
73 الأنعام ، الآية ٤٥
74 (فسبح باسم ربك العظيم) الواقعة ، الآية ٩٦ ، (سبح لله ما في السموات و الأرض و هو العزيز الحكيم) الحديد ، الآية ١

وكافتتاح سورة البقرة بقوله ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾[75]، إشارة إلى ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ ، في قوله ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[76] ، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب "[77]

ومن اللافت للنظر أن الزركشي لم يبحث عن التناسب بين خاتمة السورة وفاتحة ما بعدها فحسب، بل أورد آية كاملة من آيات النص القرآني تجمع بين آية الخاتمة وآية الفاتحة سواء من الناحية التركيبية أو الناحية الدلالية، فأول الآية الجامعة بين الآيتين مناسب من الناحية الدلالية لآية الخاتمة، وآخر الآية مناسب لآية الفاتحة من الناحية التركيبية، كما في آية الزمر الجامعة بين خاتمة المائدة وفاتحة الأنعام، فهي متناسبة دلاليا مع الأولى من الدلالة على فصل القضاء، ومتناسبة تركيبيا مع الثانية من تكرار الجملة الاسمية "الحمد لله"، ومثلها آية الأنعام الجامعة بين خاتمة سبأ وفاتحة فاطر

وهذا يكشف عن تصور الزركشي للتناسب العام بين فاتحة كل سورة وخاتمة السورة قبلها من ناحية، وعن التناسب العام لآيات النص القرآني وسوره من ناحية أخرى

ويتضح المظهر الرابع للتناسب في النص القرآني من تصور الزركشي للتناسب بين فاتحة السورة وفاتحة السورة التي بعدها، ومثل ذلك بالتناسب بين فاتحة سورة الإسراء وبين فاتحة سورة الكهف، ثم يورد قولا للزملكاني عن هذا التناسب موردا في نهاية نقله عن الزملكاني عن طريق التلخيص أن القرآن كله كالكلمة الواحدة مما يعضد فكرة تصور الزركشي عن وحدة النص "وكذلك مناسبة فاتحة سورة الإسراء بالتسبيح، وسورة الكهف بالتحميد؛ لأن التسبيح حيث جاء مقدم على التحميد، يقال: سبحان الله والحمد لله

وذكر الشيخ كمال الدين الزملكاني في بعض دروسه مناسبة استفتاحها بذلك ما ملخصه: إن سورة بني إسرائيل افتتحت بحديث الإسراء وهو من الخوارق الدالة على صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وأنه رسول من عند الله، والمشركون كذبوا ذلك وقالوا: كيف يسير في ليلة من مكة إلى بيت المقدس ؟ وعادوا وتعنتوا وقالوا: صف لنا بيت المقدس، فرفع له حتى وصفه لهم، والسبب في الإسراء أولا لبيت المقدس؛ ليكون ذلك دليلا على صحة قوله بصعود السموات،

---

75 البقرة ، الآيتان ١ - ٢
76 الفاتحة ، الآية ٦
77 البرهان ، ص٧٧ ، ج١

فافتتحت بالتسبيح تصديقا لنبيه فيما ادعاه؛ لأن تكذيبهم له تكذيب عناد فنزه نفسه قبل الإخبار بهذا الذي كذبوه

وأما الكهف فإنه لما احتبس الوحي وأرجف الكفار بسبب ذلك أنزلها الله ردا عليهم، وأنه لم يقطع نعمه عن نبيه- صلى الله عليه وسلم- بل أتم عليه بإنزال الكتاب فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة، وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور فما ظنك بالآيات وتعلق بعضها ببعض! بل عند المتأمل يظهر أن القرآن كالكلمة الواحدة "[٧٨]

ومن اللافت للنظر أن إيراد الزركشي لقول الزملكاني تضمن المناسبة بين افتتاح السورة وبين ما ورد فيها من آيات ودلالات، وبالإضافة إلى ما ذكره من تناسب الافتتاح في السورتين مع بعضهما؛ يقوي لدينا فكرة التناسب عموما في النص القرآني بين جميع سوره، وإن لم يتناول الزركشي جميع الآيات والسور بالتطبيق

ويتضح المظهر الخامس من مظاهر التناسب في النص القرآني ما ذكره الزركشي عن التناسب بين سورتين متتاليتين عن طريق مقابلة الدلالات فيهما، وهو ما رصدناه عند تناول الزركشي للتناسب بين سورتي الكوثر والماعون عن طريق تقابل الدلالات بينهما "ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها؛ لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر هنا في مقابلة البخل ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾[٧٩]، أي الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة ﴿ فَصَلِّ ﴾[٨٠]، أي دم عليها، وفي مقابلة الرياء ﴿ لِرَبِّكَ ﴾[٨١]، أي لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون ﴿ وَٱنۡحَرۡ ﴾[٨٢]، وأراد به التصدق بلحم الأضاحي، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة "[٨٣]

ويتضح المظهر السادس من مظاهر التناسب في النص القرآني من تناول الزركشي لترتيب السور في المصحف العثماني فيورد أن لهذا الترتيب أسبابا، وتندرج تلك الأسباب تحت التناسب الصوتي والدلالي والتركيبي بين آخر السورة وبين فاتحة ما بعدها من ناحية، والتناسب بين الدلالات الكلية للسور من ناحية

78 البرهان ، ص٧٨ ، ج١
79 الكوثر ، الآية ١
80 الكوثر ، الآية ٢
81 الكوثر ، الآية ٢
82 الكوثر ، الآية ٢
83 البرهان ، ص٧٨ ، ج١

أخرى "الترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم: أحدها بحسب الحروف كما في الحواميم، وثانيها: لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها، كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة، وثالثها: للوزن في اللفظ كآخر "تبت" وأول الإخلاص، ورابعها: لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى مثل "الضحى" و"ألم نشرح" ، "[٨٤]

وهذا النص على إجماله يتطلب التحليل؛ فالزركشي لم يورد تطبيقا مفصلا لتلك الأسباب، وإنما جاء تطبيقه على التناسب بين السور ودلالاتها الكلية

وبالتأمل في تلك الأسباب يظهر لنا أن التناسب – في السبب الأول – بين السور المرتبة في المصحف العثماني كان عن طريق تكرار حروف التهجي "حم"

والسبب الثاني قد تناوله الزركشي في موضع آخر بالتفصيل وقد رصدناه في الصفحات التي مرت بنا وهو التناسب بين أول السورة وآخر السورة قبلها

والسبب الثالث يظهر لنا بالتأمل في الفاصلة الأخيرة لسورة المسد ﴿ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾[٨٥]، وفواصل سورة الإخلاص ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[٨٦]، بالجناس بين "مسد" و"أحد"، ولهذا اعتبرناه تناسبا صوتيا بين السورتين، وعبر عنه الزركشي بـ "اللوزن في اللفظ"

والسبب الرابع يظهر بالتأمل في الدلالة الكلية لسورتي الضحى والشرح من توجيه الخطاب من الله – سبحانه وتعالى – للرسول – صلى الله عليه وسلم -، وتعديد أفضال الله على الرسول في السورتين

ويظهر لنا في السورتين التناسب التركيبي بالتأمل في أول سورة الشرح ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾[٨٧]، وبين آية سورة الضحى ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴾[٨٨]

أما الجانب التطبيقي الذي ساقه الزركشي فجاء رابطا بين الدلالات الكلية لسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة معبرا عن التناسب بين تلك السور من

84 البرهان ، ص٢٩٦ ، ج١
85 المسد ، الآية ٥
86 الإخلاص ، الآية ١
87 الشرح ، الآية ١
88 الضحى ، الآية ٦

هذا المنظور ليكشف عن التناسب بين سور النص القرآني حسب ترتيبها في المصحف العثماني عموما، وعن تكامل تلك السور خصوصا "وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملة لمقصودها؛ فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم؛ ولهذا قرن فيها ذكر المتشابه منه بظهور الحجة والبيان، فإنه نزل أولها في آخر الأمر لما قدم وفد نجران النصارى، وآخرها يتعلق بيوم أحد، والنصارى تمسكوا بالمتشابه فأجيبوا عن شبههم بالبيان، ويوم أحد تمسك الكفار بالقتال فقوبلوا بالبيان، وبه يعلم الجواب لمن تتبع المتشابه من القول والفعل، وأوجب الحج في آل عمران

وأما البقرة فذكر أنه مشروع وأمر بتمامه بعد الشروع فيه، ولهذا ذكر البيت والصفا والمروة، وكان خطاب النصارى في آل عمران أكثر كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر؛ لأن التوراة أصل والإنجيل فرع لها، والنبي – صلى الله عليه وسلم – لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم، وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر، كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب؛ ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء، فخوطب بها جميع الناس، والسور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين؛ فخوطبوا يا أهل الكتاب، يا بني إسرائيل

وأما سورة النساء فتتضمن جميع أحكام الأسباب التي بين الناس، وهو نوعان: مخلوقة لله تعالى، ومقدورة لهم كالنسب والصهر، ولهذا افتتحها الله بقوله ﴿ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[89] ، ثم قال ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾[90]، وبين الذين يتعاهدون ويتقاعدون فيما بينهم وما تعلق بذلك من أحكام الأموال والفروج والمواريث، ومنها العهود التي حصلت بالرسالة والتي أخذها الله على الرسل

وأما المائدة فسورة العقود، وبهن تمام الشرائع، وقالوا: وبها تم الدين، فهي سورة التكميل بها ذكر الوسائل كما في الأنعام والأعراف ذكر المقاصد كالتحليل والتحريم، كتحريم الدماء والأموال وعقوبة المعتدين، وتحريم الخمر من تمام حفظ العقل والدين، وتحريم الميتة والدم والمنخنقة، وتحريم الصيد على المحرم من تمام الإحرام وإحلال الطيبات من تمام عبادة الله، ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد – صلى الله عليه وسلم– كالوضوء والحكم بالقرآن فقال تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا

[89] النساء ، الآية ١
[90] النساء ، الآية ١

مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[91]، وذكر أنه من ارتد عوض الله بخير منه ولا يزال هذا الدين كاملا؛ ولهذا قيل إنها آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها

وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة من أحسن الترتيب؛ وهو ترتيب المصحف العثماني "[92]

وقد آثرنا إيراد هذا النص كاملا للوقوف على كيفية التماس الزركشي للتناسب بين السور الأربع من ناحية الدلالات الكلية والجزئية لتلك السور من ناحية، وتعاضد تلك السور فيما بينها بحيث تكمل كل سورة بقية السور من ناحية أخرى

هذا ومن الملاحظ أن الزركشي وفق التماس التناسب بين تلك السور إنما يكشف لنا عن اعتباره مجموع تلك السور وحدة نصية داخل النص القرآني من حيث اكتمال الدين بها، وتلك الوحدة النصية تتفاعل مع بقية سور النص القرآني وتتكامل معها، وهذا ما فهمناه من إشارة الزركشي إلى اختصاصها بخطاب اليهود والنصارى، واختصاص السور المكية بخطاب الكافرين، وإن صح فهمنا لهذا النص السابق علاوة على ما سبق من التناسب بين الآيات في السورة الواحدة – باعتبارها وحدة نصية – وما تلاه من تناسب بين السور عموما يجعلنا نكشف عن مدى الاقتراب بين تصور الزركشي لوحدة النص والتصور الحديث له، ونحسب أن هذا الاقتراب يحسب لخصوصية النص القرآني، تلك الخصوصية التي يحسب لها الفضل في استقاء الزركشي للإجراءات العملية التي تكشف عن تصوره لوحدة النص ومن بينها التناسب العام بين آيات النص القرآني وسوره باعتباره سمة من سمات النص القرآني

أما النوع السابع من أنواع التناسب فيظهر من خلال ما أورده الزركشي رابطا بين السورة وبين اسمها بما يحقق التناسب بينهما، وأرجع ذلك على أنه من عادة العرب، وما يهمنا هنا هو أن التناسب يشمل جميع مكونات النص القرآني في تصور الزركشي "ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز، كتسمية سورة البقرة بهذا

[91] المائدة ، الآية ٤٨
[92] البرهان ، ص٢٩٦ – ٢٩٨ ، ج١

الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء "[٩٣]

هذا ويورد الزركشي التناسب بين الحروف المقطعة وبين السور الواردة فيها باعتبار هذه الحروف أعلام وأسماء لهذه السور "واعلم أن تسمية سائر سور القرآن يجري فيها من رعي التسمية ما ذكرنا، وانظر سورة "ق" لما تكرر فيها من ذكر الكلمات بلفظ القاف، ومن ذلك السور المفتتحة بالحروف المقطعة، ووجه اختصاص كل واحدة بما وليته حتى لم تكن لترد ﴿ الٓمٓ ﴾ في موضع ﴿ الٓرٰ ﴾، ولا ﴿ حٰمٓ ﴾ في موضع ﴿ طسٓ ﴾ ؛ لا سيما إذا قلنا: إنها أعلام لها وأسماء عليها "[٩٤]

ومن النص السابق يتضح لنا أن التناسب بين السورة واسمها لا يختص بما هو مشهور أو نادر أو مستغرب فيها فحسب، بل بالتناسب العام بين الأصوات والحروف عبر السورة واسمها ككل على نحو ما ساقه الزركشي، وهو ما يتضح من التناسب بين تكرار الحروف المقطعة التي اعتبرها أسماء للسور، وبين تكرارها في السور بشكل عام "وكذا وقع في كل سورة منها ما كثر ترداده فيما يتركب من كلمها، ويوضحه أنك إذا ناظرت سورة منها بما يماثلها في عدد كلماتها وحروفها وجدت الحروف المفتتح بها تلك السورة إفرادا وتركيبا أكثر عددا في كلماتها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلمها وحروفها.....

وقد اطرد هذا في أكثرها فحق لكل سورة ألا يناسبها غير الوارد فيها؛ فلو وضع موضع ﴿ قٓ ﴾ من سورة ﴿ نٓ ﴾ لم يكن لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله تعالى، وقد تكرر في سورة يونس من الكلم الواقع فيها ﴿ الٓرٰ ﴾ مائتا كلمة وعشرون أو نحوها فلهذا افتتحت بـ ﴿ الٓرٰ ﴾....."[٩٥]

93 البرهان ، ص٣٠٧ ، ج١
94 البرهان ، ص٣٠٨ ،ج١
95 البرهان ، ص ٣٠٨ ، ج١

تفسير النص بالنص

اتبع الزركشي في كتابه البرهان إجراء عمليا خلال تناوله للنص القرآني بالتفسير، وهذا الإجراء هو المعين الأول للزركشي في عملية تفسير النص؛ إذ يلجأ إليه عند غموض الدلالة أو الاستشكال فيها، بمعنى أن اعتبار الزركشي أن النص وحدة واحدة جعله يستدل ببعضه على البعض الآخر فإذا غمضت الدلالة في آية بحث عنها في آية أخرى ليستدل بها عليها، فالقرآن الكريم كل متكامل تدل آياته على بعضها، وهذا ما صرح به في أفضل وسيلة لتفسير النص القرآني "أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فقد فصل في موضع آخر، وما اختصر في مكان فإنه قد بسط في آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له "[٩٦]

فطرق التفسيرعند الزركشي أربع أولها وأولاها تفسير القرآن بالقرآن[٩٧] وهو التطبيق العملي الذي اتخذه في كتابه البرهان في الحالتين المذكورتين في النص السابق، وهما الإجمال أو غموض الدلالة، والاختصار أو الحذف في مكان والاستدلال عليه من مكان آخر

أما الشق الأول الخاص ببيان الدلالة وتوضيحها فيعتمد فيه الزركشي على الاستدلال من النص بإحدى طريقتين، إما البحث عن الدلالة في محيط الآية أو خارج محيطها مما يقع في النص القرآني في السورة أو في سورة أخرى "وقد يكون بيانه واضحا وهو أقسام:

أحدها: أن يكون عقبه كقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[٩٨]، قال محمد بن كعب القرظي: تفسيره ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[٩٩]، وكقوله تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾[١٠٠]، قال أبو العالية تفسيره ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[١٠١]، قال ثعلب: سألني محمد بن طاهر ما

96 البرهان ، ص١٧٢ ، ج٢
97 ثم السنة ثم أقوال الصحابة ثم الاستنباط
98 الإخلاص ، الآية ٢
99 الإخلاص ، الآيتان ٣ ـ ٤
100 المعارج ، الآية ١٩
101 المعارج ، الآيتان ٢٠ ـ ٢١

الهلع ؟ فقلت: قد فسره الله تعالى، وكقوله ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾[102]، فسره بقوله ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾[103] ، "[104]

ويعتمد في الوصول إلى الدلالة في آية على آية أخرى خارج محيطها في السورة ذاتها أو في سورة أخرى "الثاني: أن يكون بيانه منفصلا عنه في السورة معه أو في غيره كقوله تعالى﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[105]، وبيانه في سورة الانفطار بقوله ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾[106] ، وقوله في سورتي النمل والقصص ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ ﴾[107]، ولم يبين في ليل ولا نهار، وبينه في سورة الدخان بقوله﴿ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[108]، ثم بينها في ليلة القدر بقوله﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[109]، فالمباركة في الزمان هي ليلة القدر في هذه السورة؛ لأن الإنزال واحد"[110]

ومن اللافت للنظر أن الاستدلال بالنص على النص قد امتد لأكثر من آية في أكثر من سورة ليقوي لدينا تصور الزركشي لوحدة النص من خلال الاستدلال على آياته بآياته

هذا وقد طبق الزركشي منهجه في تفسير النص بالنص في العديد من المواضع في كتابه البرهان، منها على سبيل المثال الكشف عن العموم في آية من التفصيل في آية أخرى "وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾[111]، الآية، القصد منها مدح قوم صانوا فروجهم عما لا يحل، ولم يواقعوا بها إلا من كان بملك النكاح أو اليمين، وليس في الآية بيان ما يحل منها وما لا يحل، ثم إذا احتيج إلى

102 آل عمران ، الآية ٩٧
103 آل عمران ، الآية ٩٧
104 البرهان ، ص١٨٢ ، ج٢
105 الفاتحة ، الآية ٤
106 الانفطار ، الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩
107 النمل ، الآية ٨٩ ، القصص ، الآية ٨٤
108 الدخان ، الآية ٣
109 القدر ، الآية ١
110 البرهان ، ص١٨٤ ، ج٢
111 المؤمنون ، الآية ٥

تفصيل ما يحل بالنكاح وملك اليمين صير إلى ما قصد، وتفصيله بقوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ .... ﴾[112]، الآية "[113]

ومن ذلك الاستدلال على العموم في آية بالتخصيص في آية أخرى "وقد يأخذ التخصيص من آية أخرى كقوله تعالى ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ ﴾[114] الآية، فهذا عام في المقاتل كثيرا أو قليلا، ثم قال ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ ﴾[115] الآية .....

ونظيره قوله ﴿ وَٱلدَّمَ ﴾[116]، وقال في آية أخرى ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾[117]، يعني إلا الكبد والطحال فهو حلال "[118]

أما الشق الثاني فهو يتمثل في الاستدلال على الحذف بالاعتماد على وحدة النص بالبحث عن ذكره في موضع آخر داخل النص القرآني، فيورد الزركشي من شروط الحذف "أن تكون في المذكور دلالة على المحذوف، إما من لفظه أو من سياقه "[119]

ويقوم بتقدير المحذوف حسب ذكره في آيات أخرى "وقد يدل على المحذوف ذكره في مواضع أخر: منها – وهو أقواها – كقوله ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾[120] ، أي أمره بدليل قوله ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾[121]، وقوله في آل عمران ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾[122]، أي كعرض بدليل التصريح به في آية الحديد[123]، "[124]

112 النساء ، الآية ٢٣
113 البرهان ، ص١٧ ، ج٢
114 الأنفال ، الآية ١٦
115 الأنفال ، الآية ٦٥
116 البقرة ، الآية ١٧٣
117 الأنعام ، الآية ١٤٥
118 البرهان ، ص٢١٥ ، ج٢
119 البرهان ، ص١١١ ، ج٣
120 الأنعام ، الآية ١٥٨
121 النحل ، الآية ٣٣
122 آل عمران ، الآية ١٣٣
123 (سابقوا إلى مغفرة من ربكم و جنة عرضها كعرض السموات و الأرض) الحديد ، الآية ٢١

ويورد في أسباب حذف الفعل أن يذكر في موضع آخر في السياق العام للنص القرآني فيستدل بقول الواحدي على حذف الفعل "اذكر" من عدة آيات في سور مختلفة لوجوده في آيات أخرى في السياق العام للنص القرآني "السادس: أن يدل عليه ذكره في موضع آخر كقوله ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾[125]، قال الواحدي: هو بإضمار "اذكر"، ولهذا لم يأت لإذ بجواب، ومثله قوله تعالى ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾[126]، وليس شيء قبله تراه ناصبا لـ "صالحا" بل علم بذكر النبي والمرسل إليه أن فيه إضمار "أرسلنا"، وقوله ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ ﴾[127] ، أي وسخرنا، ومثله ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾[128] ، ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾[129] ، وكذا ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾[130]، أي واذكر، قال: ويدل على "اذكر" في هذه الآيات قوله تعالى﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[131] ،﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ ﴾[132]، وما قاله ظاهر"[133]

التكرار

إن بنية التكرار في بعض مظاهرها دالة على وحدة النص فتكرار تراكيب بعينها أو موضوعات بعينها في عموم النص داعية إلى وحدة النص من ناحية، ووحدة مصدره من ناحية أخرى

إن رصد الزركشي للتكرار في النص القرآني يعد من الإجراءات العملية التي تصب في النهاية في وحدة النص القرآني إذ يلزم في الإجراء العملي لرصد التكرار النظر الكلي في عموم النص القرآني

124 البرهان ، ص١١٣ ، ج٣
125 البقرة ، الآية ٧٢
126 هود ، الآية ٦١
127 الأنبياء ، الآية ٨١
128 الأنبياء ، الآية ٧٦
129 الأنبياء ، الآية ٨٧
130 الأنبياء ، الآية ٧٨
131 الأنفال ، الآية ٢٦
132 الأعراف ، الآية ٨٦
133 البرهان ، ص٢٠٣ ، ج٣

وقد تناول الزركشي في علم المتشابه ما تكرر من الآيات أو تراكيبها في عموم النص القرآني؛ فيرصد فيه التشابه بين الآيات بمظهرين: الأول مع الاختلاف بالتقديم والتأخير أو الحذف أو الزيادة أو غيرها، والثاني: تكرار الآيات في عموم النص القرآني بطريقة كمية يبدأ فيها الزركشي برصد ما تكرر مرتين حتى يصل إلى ما تكرر ثلاثا وعشرين مرة، موردا السور التي تكررت فيها الآية أو جزء منها، وهو ما سنرصده عند الزركشي بنماذج مختصرة تدلل على ما سبق "ما جاء على حرفين:﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[134]، في القرآن اثنان في البقرة،﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[135]، اثنان في يونس والنمل ....."[136]

"ما جاء على ثلاثة أحرف:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[137]، ثلاثة في القرآن في الروم وفاطر والمؤمن، ﴿ فَنَجَّيْنَهُ ﴾[138]، بالفاء في يونس والأنبياء والشعراء...."[139]

"ما جاء على أربعة حروف:﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾[140]، بتكرير "من" في يونس والحج والنمل والزمر﴿ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ ﴾[141]، في المائدة اثنان، في "ص"، وآخر الزخرف ....."[142]

"ما جاء على أحد عشر حرفا:﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾[143]، في التوبة والرعد والنحل والكهف ومريم وطه والملائكة وص والمؤمن والصف ولم

134 البقرة ، الآيتان ٢١٩ ، ٢٦٦
135 يونس ، الآية ٦٠ ، النمل ، الآية ٧٣
136 البرهان ، ص١٦٥ ، ج١
137 الروم ، الآية ٩ ، فاطر ، الآية ٤٤ ، غافر ، الآية ٢١
138 يونس ، الآية ٧٣ ، الأنبياء ، الآية ٧٦ ، الشعراء ، الآية ١٧٠
139 البرهان ، ص١٦٨ ، ج١
140 يونس ، الآية ٦٦ ، الحج ، الآية١٨ ، النمل ، الآية ٨٧ ، الزمر ، ٦٨
141 المائدة ، الآيتان ١٧ ، ١٨ ، ص ، الآية ١٠ ، الزخرف ، الآية ٧٥
142 البرهان ، ص١٧١ ، ج١
143 التوبة ، الآية ٧٢ ، الرعد ، الآية ٢٣ ، النحل ، الآية ٣١ ، الكهف ، الآية ٣١ ، مريم ، الآية ٦١، طه ، الآية ٧٦ ، فاطر ، الآية ٣٣ ، ص ، الآية ٥٠ ، غافر ، الآية ٨ ، الصف ، الآية ١٢ ، البينة ، الآية ٨

يكـــن﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾[144]، في البقرة والنساء والأنعام ويونس والنحل والنور والعنكبوت ولقمان والحديد والحشر والتغابن ....."[145]

"فما جاء على عشرين وجها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ ﴾[146]، على التوحيد في البقرة وآل عمران وهود والحجر، وفي النحل خمسة أحرف بالتوحيد، وفي الشعراء ثمانية، وفي النمل والعنكبوت وسبأ....."[147]

هذا وقد رصد الزركشي في كتابه البرهان القصص المتكرر في النص القرآني بهدف ذكر فوائد تكراره، وما يهمنا هنا هو رصد التكرار في حد ذاته ليكون ملمحا من الملامح التي تكشف عن تصور الزركشي لوحدة النص "ومنه تكرار القصص في القرآن كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء، قال بعضهم: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعا من كتابه؛ قال ابن العربي في "القواصم" ذكر الله قصة نوح في خمس وعشرين آية، وقصة موسى في سبعين آية "[148]

إن رصد الزركشي للآيات المتكررة أو أجزاء منها، وللقصص المتكرر في النص القرآني يتطلب منه النظر إلى النص القرآني نظرة كلية ليرصد ذلك التكرار، وهذه النظرة الكلية في حد ذاتها تعد من الملامح التي تكشف عن تصور الزركشي لوحدة النص القرآني، علاوة على ما في التكرار من كشف عن وحدة مصدر النص القرآني

المقارنة

من الإجراءات العملية التي اتخذها الزركشي خلال تناوله للنص القرآني، ذلك الإجراء الذي يعتمد على المقارنة بين الآيات، ومما لا شك فيه أن المقارنة بين الآيات أو تراكيبها في عموم النص القرآني ورصد العلاقات القائمة بين آياته على

144 البقرة ، الآية ١١٦ ، النساء ، الآية ١٧٠ ، الأنعام ، الآية ١٢ ، يونس ، الآية ٥٥ ، النحل ، الآية ٥٢ ، النور ، الآية ٦٤ ، العنكبوت ، الآية ٥٢ ، لقمان ، الآية ٢٦ ، الحديد ، الآية ١ ، الحشر ، الآية ٢٤ ، التغابن ، الآية ٤
145 البرهان ، ص١٧٩ ، ج١
146 البقرة ، الآية ٢٤٨ ، آل عمران ، الآية ٤٩ ، هود ، الآية ١٠٣ ، الحجر ، الآية ٧٧ ، النحل ، الآيات ١١ ، ١٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ،الشعراء ، الآيات ٨ ، ٦٧ ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٥٨ ، ١٧٤ ، ١٩٠ ، النمل ، الآية ٥٢ ، العنكبوت ، الآية ٤٤ ، سبأ ، الآية ٩
147 البرهان ، ص١٨٢ ، ج١
148 البرهان ، ص٢٥ ، ج٣

اختلاف سورها، تستدعي النظر العام للنص القرآني ككل، وهذا النظر العام بهذه الكيفية ما هو إلا ترجمة لتصور الزركشي لوحدة النص

إن نظرة الزركشي للنص القرآني باعتباره كلا متكاملا قادته إلى رصد الآيات التي تشابهت في عموم النص القرآني، ولكن هذا التشابه لا يصل إلى حد التطابق لوجود الفروق في التراكيب، وكان من أسباب تلك الفروق التقديم والتأخير بمعنى أن الزركشي رصد ما قدم في آية وأخر في آية أخرى، رابطا ذلك التقديم والتأخير بسياق كل آية، أو بالدلالة، أو بقصد الصياغة تنويع أساليبها "ما قدم في آية وأخر في أخرى: فمن ذلك قوله في فاتحة الكتاب﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾[149]، وفي خاتمة الجاثية ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ ﴾[150]، فتقديم الحمد في الأول جاء على الأصل، والثاني على تقدير الجواب، فكأنه قيل: عند وقوع الأمر: لمن الحمد ؟ ومن أهله ؟ فجاء الجواب على ذلك، نظيره﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾[151]، ثم قال ﴿ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾[152]، ....."[153]

ويرصد الزركشي التقديم والتأخير في آية مقارنا بينها وبين آية أخرى، ويربط ذلك بالسياق في الآيتين "ومنها قوله في سورة النمل ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ ﴾[154]، وفي سورة المؤمنين﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ ﴾[155]، فإن ما قبل الأولى ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ ﴾[156]، وما قبل الثانية ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَٰبٗا وَعِظَٰمًا ﴾[157]، فالجهة المنظور فيها هناك كون أنفسهم وآبائهم ترابا، والجهة المنظور فيها هنا كونهم ترابا وعظاما، ولا شبهة أن الأولى أدخل عندهم في تبعيد البعث "[158]

149 الفاتحة ، الآية ٢
150 الجاثية ، الآية ٣٦
151 غافر ، الآية ١٦
152 غافر ، الآية ١٦
153 البرهان ، ص٢٧٩ ، ج٣
154 النمل ، الآية ٦٨
155 المؤمنون ، الآية ٨٣
156 النمل ، الآية ٦٧
157 المؤمنون ، الآية ٨٢
158 البرهان ، ص٢٧٩ ، ج٣

ويرجع ذلك إلى تنويع الأسلوب "ومنها أن يقع التقديم في موضع والتأخير في أخر واللفظ واحد والقصة واحدة للتفنن في الفصاحة، وإخراج الكلام على عدة أساليب كما في قوله تعالى﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾[159]، وقوله ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾[160]، "[161]

ومن الناحية التطبيقية نجد أن الزركشي يعتمد على المقارنة بين الآيات في سور شتى وردت فيها تراكيب متشابهة، ومن تلك المقارنات ما رصده من فروق بين آية في سورة البقرة وأخرى في سورة إبراهيم وردت إحداهما بالعطف بالواو، والأخرى بدونه، وأرجع ذلك إلى السياق "في البقرة ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ ﴾[162]، وفي سورة إبراهيم﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾[163]، بالواو، ووجهه أنه في سورة إبراهيم تقدم ﴿ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ ﴾[164]، وهي أوقات عقوبات إلى أن قال ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾[165]، واللائق أن يعدد امتحانهم تعديدا يؤذن بصدق الجمع عليه لتكثر المنة، ولذلك أتى بالعاطف ليؤذن بأن إسامتهم العذاب مغاير لتذبيح الأبناء وسبي النساء وهو ما كانوا عليه من التسخير بخلاف المذكور في البقرة، فإن ما بعد "يسومونكم" تفسير له؛ فلم يعطف عليه، ولأجل مطابقة السابق جاء في الأعراف﴿ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ ﴾[166]، ليطابق﴿ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ ﴾[167]، ..... "[168]

ويرصد الفرق بين آيتين من وجهة الاختلاف في توجيه الخطاب للجمع أو توجيهه للمفرد "ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ ﴾[169]، فأثبت

159 البقرة ، الآية ٥٨
160 الأعراف ، الآية ١٦١
161 البرهان ، ص٢٨١ ، ج٣
162 البقرة ، الآية ٤٩
163 إبراهيم ، الآية ٦
164 إبراهيم ، الآية ٥
165 إبراهيم ، الآية ٥
166 الأعراف ، الآية ١٤١
167 الأعراف ، الآية ١٢٧
168 البرهان ، ص١٥٣ ، ج١
169 الأعراف ، الآية ١٩٣

الواو في الأعراف، وحذفها في الكهف فقال ﴿ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾[170]، والفرق بينهما أن الذي في الأعراف خطاب لجمع وأصله "تدعونهم" حذفت للجزم، والتي في الكهف خطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم – وهو واحد وعلامة الجزم فيه سقوط الواو "[171]

ويرصد الفرق بين التعريف والتنكير في تركيب متشابه ويرجع ذلك الفرق إلى التناسب بين النكرة وسياقها، وبين المعرفة وسياقها الواردة فيه "ومنه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾[172]، وفي سورة آل عمران ﴿ بِغَيۡرِ حَقّٖ ﴾[173]، والحكمة فيه أن الجملة في آل عمران خرجت مخرج الشرط وهو عام فناسب أن يكون النفي بصيغة التنكير حتى يكون عاما، وفي سورة البقرة جاء عن أناس معهودين، وهو قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ﴾[174]، فناسب أن يؤتى بالتعريف؛ لأن الحق الذي كان يستباح به قتل الأنفس عندهم كان معروفا كقوله تعالى ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ ﴾[175]، فالحق هنا كالذي تقتل به الأنفس ومعهود معروف بخلاف ما في سورة آل عمران "[176]

170 الكهف ، الآية ٥٧
171 البرهان ، ص٢١٣ ، ج٣
172 البقرة ، الآية ٦١
173 آل عمران ، الآية ٢١
174 البقرة ، الآية ٦١
175 المائدة ، الآية ٤٥
176 البرهان ، ص٢١٥ ، ج٣

الفصل الثالث

التلقي

لا تنحصر العلاقة بين النص والمتلقي في تأثير النص على المتلقي من ناحية، وتجاوب المتلقي مع النص من ناحية أخرى فحسب، وإنما يشمل الأمر الوقوف على دلالات العناصر اللغوية من النص إلى المتلقي "فلا يمكن تصور عناصر لغوية تحدث تأثيرا على القارئ دون أداء دور في تكوين دلالة النص، وكذا لا وجود فعلي لهذه الدلالة دون استحضار المتلقي الذي يتواصل مع النص ويرصد معانيه وأفكاره "[١]

والعلاقة بين النص والمتلقي ليست علاقة أحادية تمضي عبر مسار واحد، بل هي علاقة مزدوجة "أو بمعنى آخر علاقة جدلية تتحرك من النص إلى المتلقي كما تتحرك من المتلقي إلى النص، ومن ثم أخذت العلاقة أحقيتها في كونها أساسا من أسس الدرس الأسلوبي"[٢]

وللنص على المتلقي قوة ضاغطة يتغيا من خلالها ضمان تجاوب المتلقي مع المؤثرات اللغوية الكامنة في النص، وتلك "القوة الضاغطة تتمثل في عملية الإقناع بوسائلها العقلية والتي من خلالها يسلم المتلقي قياده للفكرة الموجهة إليه، كما تتمثل فيها عملية الإمتاع التي تلون الكلام بكثير من المواصفات العاطفية الوجدانية بحيث تكون هناك مزاوجة بين الجانب الإقناعي والجانب الإمتاعي "[٣]

ولتعدد المؤثرات اللغوية التي يستقبلها المتلقي وتنوعها خلال عملية تلقي النص، نجد أن وسائل إدراك المتلقي لهذه المؤثرات تتعدد تبعا لتعدد تلك المؤثرات وكيفيتها، فالبنى الصوتية تضغط على حاسة إدراك المتلقي السمعية ليتنبه إلى خطوط الدلالة في النص من ناحية، أو ليتفاعل مع النص متمتعا بلذة تلقي تلك البنى من ناحية أخرى

وبالرغم من أهمية الإدراك السمعي للنص وظواهره إلا أن حصر وسائل الإدراك في التلقي السمعي وحده لا يستقيم من الناحية العملية، إذ لبعض النصوص خصوصية تتطلب من المتلقي أكثر من وسيلة لإدراك خطوطه الدلالية، واستقبال جميع مؤثراته

فللنص بجانب المؤثرات السمعية مؤثرات أخرى قد لا تدرك إلا بوسيلة الإدراك البصرية، ومن تلك المؤثرات بنية النص الخطية وما ينطوي تحتها من ظواهر قد لا تدرك إلا بالتلقي البصري

---

[1] الدرس التطبيقي في النقد العربي ، د. طارق سعد شلبي ، ص١٢٧

[2] الدرس التطبيقي ، د. طارق سعد شلبي ، ص١٣٥

[3] العلامة و العلامية ، د. محمد عبد المطلب ، ص١٢٠ ، الوطن العربي ، بيروت ، ١٩٨٨

وما نذهب إليه أن تفاعل المتلقي مع النص يتطلب إدراك البنى اللغوية ومؤثراتها بأكثر من وسيلة إدراكية ليصل إلى إيجابية التلقي من ناحية، ويستكشف دلالات تلك البنى ومؤثراتها من ناحية أخرى

للمتلقي عند الزركشي حضور قوي في تناول النص القرآني، وذلك الحضور يتجلى في عدة مظاهر منها رصد صور التلقي من خلال البنى اللغوية في النص، ورصد المؤثرات التي تضمن تجاوب المتلقي مع النص، ورصد أحوال التلقي ودرجاته علاوة على مراعاة الصياغة لأحوال المتلقي

صور التلقي

رصدنا عند الزركشي صورتين من صور التلقي، تتمثل الصورة الأولى في رصد البنى اللغوية ذات التأثير السمعي، وتتمثل الثانية في رصد المؤثرات البصرية على المتلقي

- التلقي السمعي

أما التلقي السمعي فله أهمية بالغة إذا ما تصورنا أن النص القرآني له خصوصية تميزه عن غيره من النصوص وهي التلاوة التي تواترت عن السلف من ناحية، وخصوصية الفواصل القرآنية وانطوائها على المؤثرات الصوتية التي تؤثر على المتلقي عند التلاوة أو الاستماع إليها من ناحية أخرى

ومن اللافت للنظر أن الفواصل عند الزركشي لها مظهران، الأول: من حيث التأثير السمعي على المتلقي لاستحسان تلاوة النص القرآني والوصول إلى لذة تلقيه، والآخر: من حيث الارتباط بالدلالة في النص القرآني

فالغاية منها ليس تحسين النص فحسب، بل هي موظفة للدلالة أيضا، وهو ما يظهر من تمثل الزركشي بتعريف الباقلاني للفواصل "الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني"[4]، والغرض منها تحسين الكلام "وتقع الفاصلة

[4] البرهان ، ص٩٢ ، ج١

عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام "[5]

ويتأكد هذا التصور عند الزركشي من رصد الفرق بين بنية السجع والفاصلة، وهذا الفرق يتجلى في تبعية الفاصلة للدلالة، وتبعية الدلالة للسجع "السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحيل المعنى عليه، والفواصل التي تتبع المعاني، ولا تكون مقصودة في نفسها "[6]

ويرصد الزركشي ما يشبه خطوات التأثير الصوتي للسجع على المتلقي؛ فيبدأ بالألفة التي تصل به إلى التوقع ثم متعة الظفر بما توقعه المتلقي، وذلك من خلال التعريف بأحسن أنواع السجع على حد تعبير الزركشي "وأحسن السجع ما تساوت قرائنه ليكون شبيها بالشعر، فإن أبياته متساوية كقوله تعالى ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾[7]، وعلته أن السمع ألف الانتهاء إلى غاية في الخفة بالأولى، فإذا زيد عليها ثقل عنه الزائد لأنه يكون عند وصولها إلى مقدار الأول كمن توقع الظفر بمقصوده "[8]

ولعل ما حدا بالزركشي إلى تصنيف هذا النوع من السجع المتوازي باعتباره أحسن أنواعه لما ينطوي عليه من التجانس في الصيغة الصرفية والأصوات معا بين المسجوعات في الفواصل، إذ ينضاف الاتحاد في الصيغة الصرفية إلى الاتحاد في الصوت المفرد الذي يقوم عليه السجع ليزاوج التأثير السمعي على المتلقي عند تلقيه لفواصل النص القرآني، وهذا ما نجده أيضا في اعتبار السجع المتوازي أشرف أنواع السجع لأنه ينطوي على التزاوج في التأثير من الصيغة الصرفية والأصوات معا "وأشرفها المتوازي، وهو أن تتفق الكلمتان في الوزن كقوله تعالى ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾[9]، "[10]

هذا ويفطن إلى توقع المتلقي للفاصلة من ألفته للنص القرآني سواء بحفظه أو بالتيقظ للفواصل "وقوله﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾[11]، فإنه

[5] البرهان ، ص٩٣ ، ج١
[6] البرهان ، ص٩٣ ، ج١
[7] الواقعة ، الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠
[8] البرهان ، ص١١٥ ، ج١
[9] الغاشية ، الآيتان ١٣ ، ١٤
[10] البرهان ، ص١١٣ ، ج١
[11] يس ، الآية ٣٧

من كان حافظا لهذه السورة، متيقظا إلى أن مقاطع فواصلها النون المردفة، وسمع صدر هذه الآية﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾[12]، علم أن الفاصلة ﴿ مُّظۡلِمُونَ ﴾، فإن من انسلخ النهار عن ليله أظلم ما دامت تلك حاله "[13]

ومن اللافت للنظر أن توقع المتلقي لكلمة الفاصلة له مظهران مكتملان: الأول: التيقظ للصوت الذي تنطوي عليه الفاصلة بالنظر إلى بقية الفواصل في السورة وهو صوت النون، والثاني: فهم دلالة صدر الآية من الدخول في الظلام، والمحصلة للتوقع الصوتي والدلالي هو كلمة "مظلمون"

ويفطن إلى تأثير أصوات المد قبل صوت النون في فواصل النص القرآني من تمكين التطريب بها، ثم يورد نصا لسيبويه يوضح قصد الترنم بتلك الفاصلة لانطوائها على أصوات المد "قد كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك، قال سيبويه رحمه الله: أما ما ينون وما لا ينون؛ لأنهم أرادوا مد الصوت "[14]

ويتضح تأثير الفواصل على المتلقي عند الزركشي من التناسب الصوتي بين تلك الفواصل في النص القرآني، فالتناسب بجانب تأثيره في نسق الكلام يؤثر في المتلقي "واعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جدا ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيرا عظيما "[15]

فالتناسب الصوتي بين الفواصل هو مفتاح تأثيرها السمعي على المتلقي، وقد رصد الزركشي في هذا التناسب مظهرين، أولهما: بناء الفواصل على الوقف ليتم التناسب الصوتي مع اختلاف الحركات الإعرابية للتوسع في هذا التناسب، ويعبر فيه عن التأثير على المتلقي بتعطيل عمل السجع وتفويت غرضه إذا لم يتم التناسب ببناء الفواصل على الوقف دون الحركات الإعرابية "أن مبنى الفواصل على الوقف ولهذا شاع مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس، وكذا المفتوح والمنصوب غير المنون، ومنه قوله تعالى﴿ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبِۭ ﴾[16]، مع تقدم قوله﴿ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾[17]، و﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[18]، ولا شك أن كلمة الأسجاع موضوعة على أن

[12] يس، الآية ٣٧
[13] البرهان، ص١٣٢، ج١
[14] البرهان، ص١٠٧، ج١
[15] البرهان، ص١٠٠، ج١
[16] الصافات، الآية ١١
[17] الصافات، الآية ٩

تكون ساكنة الأعجاز، موقوفا عليها؛ لأن الغرض المجانسة بين القرائن والمزاوجة، ولا يتم ذلك إلا بالوقف، ولو وصلت لم يكن بد من إجراء كل القرائن على ما يقتضيه حكم الإعراب فعطلت عمل الساجع وفوت غرضهم "[19]

والمظهر الثاني للتناسب بين الفواصل: هو بناء الفواصل على الصيغة الصرفية وحدها ويندرج تحت المتوازن، وهو ما يعبر عن فطنة الزركشي للتأثير الصوتي لتكرار الصيغ الصرفية في فواصل النص القرآني "والمتوازن أن يراعى في مقاطع الكلام الوزن فقط كقوله تعالى﴿ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴾[20]، .....

وقد تكرر في سورة "حم عسق" في قوله تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ ..... ﴾[21]، إلى آخر الآيات السبع، فجمع في فواصلها بين "شديد" و"قريب"، و"بعيد" و"عزيز"، و"نصيب" و"أليم" و"كبير" على هذا الترتيب، وهو في القرآن كثير، وفي المفصل خاصة في قصاره "[22]

- التلقي البصري

أما الصورة الأخرى من صور التلقي تلك التي تختص بالتلقي البصري، ولهذا النوع من التلقي أهمية عند الزركشي تتمثل في أهمية قراءة النص القرآني، وهو ما جعله يفضل القراءة من المصحف "أنها من المصحف أفضل، لأن النظر فيه عبادة، فتجتمع القراءة والنظر "[23]

وقد أفرد الزركشي لرسم المصحف العثماني الدرس رابطا بين خط المصحف والتلقي البصري من خلال أن الخط أو الكتابة هي الصورة الأخيرة لإدراك اللفظ أو المعنى "واعلم أن للشيء في الوجود أربع مراتب: الأولى حقيقته في نفسه، والثانية مثاله في الذهن، وهذان لا يختلفان باختلاف الأمم، والثالثة اللفظ الدال على المثال الذهني والخارجي، والرابعة الكتابة الدالة على اللفظ "[24]

[18] الصافات، الآية ١٠
[19] البرهان، ص١٠٩، ج١
[20] الغاشية، الآيتان ١٥، ١٦
[21] الشورى، الآيات من ١٦ إلى ٢٢
[22] البرهان، ص١١٤، ج١
[23] البرهان، ص٥٠٢، ج١
[24] البرهان، ص٤١٩، ج١

ويرصد الزركشي تأثير الخط على المتلقي من حيث الاختلاف بين خط المصحف وبين الخط المعتاد المطابق للصورة النطقية والسمعية، وهذا الاختلاف بين خط المصحف وبقية الخطوط أو عدم مطابقته للصورة النطقية والسمعية، هو الذي يظهر تصور الزركشي للتلقي البصري لخط المصحف من ناحية، وإدراك المتلقي للدلالة عن طريق البصر من ناحية أخرى

فالاختلاف قد يكون بالزيادة أو بالنقصان في رسم الحروف، وهذا الاختلاف لحكمة ما عند الزركشي "واعلم أن الخط جرى على وجوه فمنها ما زيد عليه في اللفظ، ومنها ما نقص، ومنها ما كتب على لفظه وذلك لحكم خفية وأسرار بهية "[25]

ويورد قول المراكشي في الربط بين الاختلاف في الخط بين المصحف وبقية الخطوط تبعا للدلالة "وبين أن هذه الأحرف إنما اختلف حالها في الخط بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها "[26]

يمثل القسم الأول وهو الاختلاف في خط المصحف من حيث زيادة حرف عن النطق بمعنى أن ذلك الزائد ليس له صورة سمعية من حيث النطق، ولكن إدراكه يكون من خلال الصورة البصرية له من خلال الخط فقط، وهذا الإدراك البصري يرتبط بدلالة هذا الزائد

والزائد عند الزركشي ثلاثة: الألف والواو والياء، أما الألف فتزاد في الرسم لتدل على معنى زائد يضاف إلى الدلالة في النص القرآني، فيربط بين زيادتها وعدم زيادتها في الآية الواحدة ليكشف عن دلالة التمكن في الوجود "الأول: الألف، وهي إما أن تزاد من أول الكلمة أو من آخرها، أو من وسطها، فالأول: تكون بمعنى زائد بالنسبة إلى ما قبله في الوجود مثل ﴿لَأَاذْبَحَنَّهُۥٓ﴾[27]، و﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾[28]، زيدت الألف تنبيها على أن المؤخر أشد في الوجود من المقدم عليه لفظا؛ فالذبح أشد من العذاب[29]، والإيضاع أشد إفسادا من زيادة الخبال"[30]

مما لا شك فيه أن عملية التلقي للآيتين السابقتين تتسم بالاعتماد على نظر المتلقي، ليكشف أن الألف زيدت في رسم الخط فقط دون النطق، وهذه الصورة من

25 البرهان ، ص٤٢٣ ، ج١
26 البرهان ، ص٤٢٣ ، ج١
27 النمل ، الآية ٢١
28 التوبة ، الآية ٤٧ ، ما كتبه الزركشي كما في البرهان (لا أوضعوا خلالكم)
29 يقصد قوله تعالى (لأعذبنه عذابا شديدا) النمل ، الآية ٢١
30 البرهان ، ص٤٢٤ ، ج١

صور التلقي نبهت المتلقي- على حد تعبير الزركشي – على أن الذبح والإيضاع أشد في الوجود من العذاب والخبال[31]

أما الواو فتزاد في رسم المصحف لتكشف للمتلقي عند إدراكها بصريا عن دلالة التعظيم[32]، وقد ربط بين التعظيم وزيادة الواو في الرسم وبين السياق ومن ذلك الدلالة على عظم رتبة المرئي الذي زيدت فيه الواو في الرسم وكان السياق للتهديد والوعيد "الزائد الثاني الواو، زيدت للدلالة على ظهور معنى الكلمة في الوجود في أعظم رتبة في العيان مثل ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[33]، ﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾[34]، ويدل على ذلك أن الآيتين جاءتا للتهديد والوعيد "[35]

أما الياء فتزاد في رسم المصحف ليدرك من خلالها بصريا الاختصاص بدلالة باطنة[36] "الزائد الثالث الياء زيدت لاختصاص ملكوتي باطن، وذلك في تسعة مواضع"[37]

31 و تزاد الألف لتنبه المتلقي على وجود دلالة خارجة عن دلالة اللفظ كالتنبيه على ثقل الجملة " و الثاني يكون باعتبار معنى خارج عن الكلمة يحصل في الوجود لزيادتها بعد الواو في الأفعال نحو " يرجوا " ، و " يدعوا " ، و ذلك لأن الفعل أثقل من الاسم ؛ لأنه يستلزم فاعلا فهو جملة ، و الاسم مفرد لا يستلزم غيره ، فالفعل أزيد من الاسم في الوجود ، و الواو أثقل حروف المد و اللين ، و الضمة أثقل الحركات و المتحرك أثقل من الساكن ؛ فزيدت الألف تنبيها على ثقل الجملة " انظر البرهان ، ص٤٢٤ ، ج١
هذا و تزاد بعد الهمزة لتكشف للمتلقي عندما يدرك هذا الزائد ببصره عن تفصيل الدلالة في النص القرآني " و كذلك زيدت الألف بعد الهمزة في **حرفين**- يقصد موضعين - (إني أريد أن تبوأ) المائدة ٢٩، و (ما إن مفاتحه لتنوأ)القصص ٧٦ ، تنبيها على تفصيل المعنى ؛ فإنه يبوء بإثمين من فعل واحد و تنوء المفاتح بالعصبة ، فهو نوءان للمفاتح لأنها بثقلها أثقلتهم فمالت و أمالتهم ، و فيه تذكير بالمناسبة يتوجه به من مفاتح كنوز مال الدنيا المحسوس إلى مفاتح كنوز العلم الذي ينوء بالعصبة أولي القوة في يقينهم إلى ما عند الله في الدار الآخرة " انظر البرهان ، ص٤٢٦ ، ج١
و في النصين السابقين نجد أن الزركشي قد ربط بين الإدراك البصري لزيادة الألف في رسم المصحف بعد الواو و الهمزة ، و بين الدلالة في النص القرآني ، و تلك الدلالة تظهر بتنبيه المتلقي لها بصريا سواء دلالة ثقل الجملة أو التفصيل
و تزاد الألف في رسم المصحف لتكشف عن هيئة حدوث الفعل إذ تفرق بين هيئة الحدوث في الحقيقة بما يعهده المتلقي أو ما لا يعهده كالمجيء بجهنم ، و المجيء بالنبيين و الشهداء حيث تكشف للمتلقي عن أن المجيء بجهنم ليس معهودا عندهم و هنا زيدت الألف ، و أن المجيء بالنبيين و الشهداء معهود عندهم و هنا لم تزد الألف في الرسم " الثالث : تكون لمعنى في نفس الكلمة ظاهر ، مثل (و جائ يومئذ بجهنم)الفجر ٢٣ ، زيدت الألف دليلا على أن هذا المجيء هو بصفة من الظهور ينفصل بها عن معهود المجيء ، و قد عبر عنه بالماضي ، ولا يتصور إلا بعلامة من غيره ليس مثله و فيستوي في علمنا ملكها و ملكوتها في ذلك المجيء ، و يدل عليه قوله تعالى في موضع آخر (و برزت الجحيم)الشعراء ٩١ ، و قوله (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا و زفيرا)الفرقان ١٢ ، هذا بخلاف حال (و جيء بالنبيين و الشهداء)الزمر ٦٩ ، حيث لم تكتب الألف لأنه على المعروف في الدنيا ، و في تأوله بمعنى البروز في المحشر لتعظيم جناب الحق أثبتت الألف فيه أيضا " انظر البرهان ، ص٤٢٧ ، ج١
32 و يربط بين زيادة الواو في رسم بعض الكلمات ، و بين زيادة الدلالة ، فيفترض أن زيادة الواو في " أولي ، أولوا ، أولات " لتدل على دلالة زائدة على دلالة " أصحاب " من الدلالة على الصحبة و التمليك و الولاية على الصاحب بزيادة التمليك و الولاية على دلالة " أصحاب " على الصحبة " و كذلك " أولي " ، و " أولوا " ، و " أولات " زيدت الواو بعد الهمزة حيث وقعت لقوة المعنى على " أصحاب " ، فإن في " أولي " معنى الصحبة و زيادة التمليك و الولاية عليه " انظر البرهان ، ص٤٢٩ ، ج١
33 الأعراف ، الآية ١٤٥
34 الأنبياء ، الآية ٣٧
35 البرهان ، ص٤٢٨ ، ج١
36 و تزاد الياء في الرسم لتدرك بصريا ، و تبرز دلالة الاختصاص ، و من ذلك تخصيص أهل الكفر بالافتتان دون الرسول – صلى الله عليه و سلم – و هذا التخصيص ظهر من إدراك الياء الزائدة في رسم الآية " و كذلك (بأييكم المفتون) القلم ٦، كتبت بياءين تخصيصا لهم بالصفة لحصول ذلك و تحققه في الوجود فإنهم هم المفتونون دونه فانفصل حرف " أي " بياءين لصحة هذا الفرق بينه و بينهم قطعا ، لكنه باطن فهو ملكوتي ، و إنما جاء اللفظ بالإيهام على أسلوب المجاملة في الكلام و الإمهال لهم ليقع التدبر و التذكار

وبعد سرد الآيات يحلل هذه الدلالة الباطنة فيورد في إحدى الآيات الدلالة على القطع بالموت في أسلوب الشرط الذي يدل على الشك، بمعنى أن زيادة الياء جاء تعديلا لدلالة الشرط لتخرج الدلالة من الشك إلى الإنكار والنفي، ويكون الشرط للاستفهام والربط حسب ما فهمنا من تناول الزركشي للآيات "وكذلك زيدت بعد الهمزة في حرفين﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ ﴾[38] ، ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ ﴾[39]، وذلك لأن موته مقطوع به، والشرط لا يكون مقطوعا به ولا ما رتب على الشرط هو جواب له؛ لأن موته لا يلزم منه خلود غيره ولا رجوعه عن الحق، فتقديره "أهم الخالدون إن مت ؟!" فاللفظ للاستفهام والربط، والمعنى للإنكار والنفي فزيدت الياء لخصوص هذا المعنى الظاهر للفهم الباطن في اللفظ "[40]

أما القسم الثاني الذي يكشف عن تصور الزركشي للتلقي البصري من خلال الفرق بين خط المصحف والصورة النطقية والسمعية المفترض أن يرسم على أساسها فيتمثل في الحذف؛ إذ يمثل الحذف في رسم المصحف العثماني للنص القرآني تلقيا بصريا إذ تنسحب الصورة السمعية المفترض أن يطابقها خط المصحف وتدرك المحذوفات من خلال البصر، وهذا الإدراك البصري ينبه المتلقي إلى الدلالة في النص القرآني

والمحذوفات عند الزركشي مثل الزوائد هي الألف والواو والياء، وزاد عليها النون

أما حذف الألف من خط المصحف بما لا يطابق الصورة السمعية فإنه يأتي لتنبيه المتلقي على الفرق الدلالي بين الأمور العلوية التي لا تدرك بالحس، وهو ما يدل على عظمتها، وبين الأمور السفلية المدركة بالحس، وهي أقل مرتبة من الأمور العلوية

كما جاء (و إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) سبأ ٢٤ ، و معلوم أنّا على هدى و هم على ضلال " انظر البرهان ، ص٤٣٠ ، ج١

و الظاهر من تحليل الزركشي للآية – خاصة الاستدلال بالآية في آخر النص – أن أسلوب الآية التي زيدت فيها الياء جاء على الإبهام بمعنى عدم ظهور المختص بالافتتان من الطرفين فلا يوجد في التركيب ما يدل على ذلك ، فالتركيب يدل على المساواة بين الطرفين ، أما اختصاص الكفار بالافتتان دون الرسول الكريم فمفهوم من السياق ، و هو ما لم يعول عليه الزركشي ، لكن تعويل الزركشي على زيادة الياء التي تدرك بصريا للدلالة على اختصاص أحد الطرفين بالافتتان يكشف عن أهمية التلقي البصري للنص القرآني من ناحية ، و تصور الزركشي للمؤثرات البصرية على المتلقي و توجيه تلك المؤثرات البصرية له لإدراك الدلالة من ناحية أخرى

37 البرهان ، ص٤٢٩ ، ج١
38 آل عمران ، الآية ١٤٤
39 الأنبياء ، الآية ٣٤
40 البرهان ، ص٤٣٠ ، ج١

ومن ذلك حذف الألف من "الكتاب" وإثباتها في "القرآن"، "الأول: الألف، كل ألف تكون في كلمة لمعنى له تفصيل في الوجود له اعتباران: اعتبار من جهة ملكوتية أو صفات حالية أو أمور علوية مما لا يدركه الحس، فإن الألف تحذف في الخط علامة لذلك، واعتبار من جهة ملكية حقيقية في العلم أو أمور سفلية فإن الألف تثبت

واعتبر ذلك في لفظتي "القرآن"، و"الكتاب"، فإن القرآن هو تفصيل الآيات التي أحكمت في الكتاب، فالقرآن أدنى إلينا في الفهم من الكتاب وأظهر في التنزيل؛ قال الله تعالى في هود ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[41]، وقال في فصلت﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[42]، وقال ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴾[43]، ولذلك ثبت في الخط ألف "القرآن" وحذفت ألف "الكتاب"، "[44]

ولا يكشف حذف الألف من كلمة "الكتاب" على علوه في الإدراك مقارنة بكلمة "القرآن" فحسب، بل ويكشف عن دلالة كلمة "القرآن" على "الكتاب" إذا حذفت منها الألف، علاوة على الدلالة على العلو في الإدراك "وقد حذفت ألف "القرآن" في حرفين، هو فيهما مرادف الكتاب في الاعتبار قال تعالى في سورة يوسف﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾[45]، وفي الزخرف ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا ﴾[46]، والضمير في الموضعين ضمير الكتاب المذكور قبله[47]، وقال بعد ذلك في كل واحدة منهما﴿ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[48]، فقرينته هي من جهة المعقولية، وقال في الزخرف﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[49]، "[50]

وعلى العكس من هذا فإن إثبات الألف في كلمة "الكتاب" في خط المصحف يخرجه من دلالة العلو والإضافة إلى الله – عز وجل – إلى مرتبة أقل مخصصة

41 هود ، الآية ١
42 فصلت ، الآية ٣
43 القيامة ، الآية ١٧
44 البرهان ، ص٤٣١ ، ج١
45 يوسف ، الآية ٢
46 الزخرف ، الآية ٣
47 المقصود (آيات الكتاب المبين) يوسف ، الآية ١ ، (و الكتاب المبين) الزخرف ، الآية ٢
48 يوسف ، الآية ٢ ، الزخرف ، الآية ٣
49 الزخرف ، الآية ٤
50 البرهان ، ص٤٣١ ، ج١

بالإدراك "وكذلك كل ما في القرآن من "الكتاب"، و"كتاب" فبغير ألف إلا في أربعة مواضع هي مقيدة بأوصاف خصصته من الكتاب الكلي: في الرعد ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[51]، فإن هذا "كتاب" الآجال فهو أخص من الكتاب المطلق أو المضاف إلى الله، وفي الحجر﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴾[52]، فإن هذا "كتاب" إهلاك القرى، وهو أخص من كتاب الآجال"[53]

ومن النصين السابقين نكشف عن ضرورة النظر إلى النص القرآني نظرة كلية لإدراك ما سقط من الخط وما لم يسقط ككلمتي "القرآن" و"الكتاب"، وهذا ما فعله الزركشي، ونكشف عن صورة مهمة من صور التلقي عند الزركشي ألا وهي التلقي البصري الذي ينشط بفضل المؤثرات البصرية التي تميز بها خط المصحف، وهذا النشاط البصري يوجه المتلقي لإدراك الدلالة في مواضع من النص القرآني قد لا تدرك فيها الدلالة إلا بهذه الصورة من صور التلقي[54]

أما حذف الواو من رسم المصحف فله ملمح يختلف عن حذف الألف من حيث كيفية إدراك الحذف، فحذف الألف يدرك بالبصر كليا، أما حذف الواو فيدرك بالبصر والسماع معا بمعنى بقاء الضمة بديلا عن الواو في الرسم والنطق، ومن الأمثلة التي ضربها الزركشي لحذف الواو من خط المصحف، مثال لسقوط الواو من أربعة أفعال ليلفت هذا السقوط المتلقي على سرعة وقوع تلك الأفعال، وسهولة قيام الفاعل بها وشدة تأثير الواقع عليه تلك الأفعال بوقوعها عليه "وقد سقطت من أربعة أفعال تنبيها على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود: أولها﴿ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾[55]، فيه سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش، وهو وعيد عظيم ذكر مبدؤه وحذف آخره، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾[56]

51 الرعد ، الآية ٣٨
52 الحجر ، الآية ٤
53 البرهان ، ص٤٣٢ ، ج١
54 و تتضح الدلالة من خلال الإدراك البصري لحذف الألف خاصة من تكرار الكلمة في الآية ، فترد مرة بالألف و أخرى بغيرها بما لا يطابق الصورة النطقية و السمعية لها ، و في هذه الحال يستدل الزركشي على الفروق الدلالية بينهما من حيث الدرجة في العلو و من ذلك علو ملة المسلمين على غيرهم لعلو طعام المسلمين على طعام غيرهم ، و ذلك لسقوط ألف " طعام " من الرسم عند الإضافة للمسلمين ، و بقائها في الرسم عند الإضافة لغيرهم ، و ذلك في آية واحدة " و كذلك (و طعام الذين أوتوا الكتب حل لكم و طعامكم حل لهم)المائدة ٥، ثبتت الألف في الأول ؛ لأنه سفلي بالنسبة إلى طعامنا لمكان التشديد عليهم فيه ، و حذفت من الثاني لأنه علوي بالنسبة إلى طعامهم ؛ لعلو ملتنا على ملتهم "انظر البرهان ، ص٤٣٥ ، ج١
55 العلق ، الآية ١٨
56 القمر ، الآية ٥٠

وثانيها: ﴿ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ ﴾[57]، حذفت منه "الواو" علامة على سرعة الحق وقبول الباطل له بسرعة بدليل قوله ﴿ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾[58]

وثالثها: ﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ ﴾[59]، حذف الواو يدل على أنه سهل عليه ويسارع فيه كما يعمل في الخير وإتيان الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير

ورابعها: ﴿ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ ﴾[60]، حذف الواو لسرعة الدعاء وسرعة الإجابة"[61]

ومن اللافت للنظر أن الزركشي قد ربط بين الإدراك البصري لحذف الواو من تلك الأفعال وبين نظرته في عموم النص القرآني؛ ليكشف عن دلالة حذف الواو من رسم المصحف على سرعة الحدوث، تلك السرعة التي فهمها من الآية التي استدل بها على الفعل الأول﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾[62]، فحدوث الفعل في مدة وجيزة جدا قدرت بلمح البصر لا شك أنه يدل على حدوث الفعل بسرعة، وإن صح فهمنا لتحليل الزركشي على هذا النحو يمكننا أن نستشف أمانة الزركشي في استخراج الدلالة من حيث الاستدلال عليها من ناحية، وقدرة النص القرآني على تقديم الأدوات التي تساعد متناوله على الكشف عن دلالاته من ناحية أخرى

أما حذف الياء من خط المصحف فله مظهران: الأول حذفها وبقاء الكسرة بديلا عنها بما تدرك بصريا من خلال الخط، وسمعيا من خلال نطق الكسرة

والثاني: حذفها من الخط والتلاوة بما يجعل حذفها لا يدرك إلا من خلال التلقي البصري للنص القرآني

"الثالث: حذف الياء اكتفاء بالكسرة نحو "فارهبون" و"فاعبدون"، قال أبو العباس: الياء الناقصة في الخط ضربان: ضرب محذوف في الخط ثابت في التلاوة، وضرب محذوف فيهما"[63]

57 الشورى ، الآية ٢٤
58 الإسراء ، الآية ٨١
59 الإسراء ، الآية ١١
60 القمر ، الآية ٦
61 البرهان ، ص٤٣٩ ، ج١
62 القمر ، الآية ٥٠
63 البرهان ، ص٤٤٠ ، ج١

ويرصد في النوع الأول حذف الياء باعتبارها ضميرا للمتكلم، أو باعتبارها "لام" الكلمة فحذف ضمير المتكلم يرتبط بتنبيه المتلقي إلى الاختلاف في جهة الفعل باعتباره ملكوتي أو ملكي على حد تعبير[٦٤] الزركشي بمعنى جهة صدوره " وكذلك﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[٦٥]، ثبتت الياء في "المقام" لاعتبار المعنى من جهة الملك، وحذفت من "الوعيد" لاعتباره ملكوتيا، فخاف المقام من جهة ما ظهر للأبصار، وخاف الوعيد من جهة إيمانه بالأخبار "[٦٦]

أما حذف الياء من لام الكلمة فأيضا للتنبيه على أن مصدر الدلالة ملكوتي "والقسم الثاني من الضرب الأول: إذا كانت الياء لام الكلمة سواء كانت في الاسم أو الفعل نحو﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ ﴾[٦٧]، حذفت تنبيها على المخلص لله الذي قلبه ونهايته في دعائه في الملكوت والآخرة لا في الدنيا "[٦٨]

أما النوع الثاني الذي حدده الزركشي لحذف الياء من خط المصحف والتلاوة معا فيقسمه إلى حذف الياء باعتبارها ضميرا للمتكلم، وحذفها باعتبارها "لام" الكلمة

ويربط بين سقوط الياء[٦٩] باعتبارها ضميرا للمتكلم من خط المصحف لتدرك بصريا، وبين الكشف عن دلالة الكلية أو العموم بسقوطها، أو الجزئية والاختصاص ببقائها، وذلك من خلال نظرة الزركشي الكلية لعموم النص القرآني، فيورد الفرق بين دلالة سقوط الياء المدركة بصريا في "اخشون" على العموم من جهة أن المقصود في المقابل في نفي الخشية ليس أحدا بعينه، وبين دلالة بقائها في

[64] و على هذا الاعتبار فإن الزركشي يورد الفرق في الدلالة من خلال إثبات الياء باعتبارها ضميرا للمتكلم في الفعل أو سقوطها ، فعلى سبيل المثال يورد الفرق بين دلالات الهداية في آيتين ، الأولى في سياق طلب الرسول – صلى الله عليه و سلم – للهداية من الله – عز و جل - ، و يربط بين سقوط الياء باعتبارها ضميرا من فعل الهداية ، و بين الدلالة على الهداية المعقولة أو المجازية ، و الآية الثانية في سياق قول لموسى – عليه السلام – طالبا الهداية من الله – سبحانه – و يربط بين بقاء الياء باعتبارها ضميرا للمتكلم في فعل الهداية في رسم المصحف ، و بين الدلالة على الهداية المحسوسة بمعنى الإرشاد إلى الطريق إلى مدينة مدين " و كذلك (عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا)الكهف ٢٤ ، سياق الكلام في أمور محسوسة ، و الهداية ملكوتية ، و قد هداه الله في قصة الغار و هو في العدد (ثاني اثنين)التوبة ٤٠ ، حتى خرج بدينه عن قومه بأقرب من طريق أهل الكهف حين خرجوا بدينهم عن قومهم و عدوهم على ما قص الله علينا فيه ، و هذه الهداية بخلاف ما قال موسى (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل)القصص ٢٢ ، فإنها هداية السبيل المحسوسة إلى مدين في عالم الملك بدليل قوله (و لما توجه تلقاء مدين)القصص٢٢، " انظر البرهان ، ص٤٤٢ ، ج١

[65] إبراهيم ، الآية ١٤

[66] البرهان ، ص٤٤١ ، ج١

[67] البقرة ، الآية ١٨٦

[68] البرهان ، ص٤٤٣ ، ج١

[69] و يرتبط حذف الياء باعتبارها " لام " الكلمة من خط المصحف أيضا لتدرك بصريا بالكشف عن دلالة الملكوتية من حيث الإدراك بغير المدركات الحسية كالإدراك بالإيمان على حد تعبير الزركشي " و القسم الثاني : إذا كانت الياء لام الكلمة يعتبر من مبدئه الظاهر شيئا بعد شيء إلى ملكوتية الباطن إلى ما لا يدرك منه إلا إيمانا و تسليما ؛ فيكون حذف الياء منبها على ذلك ، و إن لم يكمل اعتباره في الظاهر من ذلك الخطاب بحسب عرض الخطاب مثل (و سوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما)النساء ١٤٦ ، هو (ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين)الزخرف ٧١ ، و قد ابتدأ ذلك لهم في الدنيا متصلا بالآخرة "انظر البرهان ، ص٤٤٧ ، ج١

"اخشوني" على خصوص فئة بعينها من الناس وردت في سياق الآية باعتبارها مقابلا للخشية "وكذلك قوله في العقود ﴿ فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾[٧٠]، الناس كلي لا يدل على ناس بأعيانهم ولا موصوفين بصفة فهم كلي، ولا يعلم الكلي من حيث هو كلي، بل من حيث أثر البعض في الإدراك، ولا يعلم الكلي إلا من حيث هو أثر الجزئي في الإدراك، فالخشية هنا كلية لشيء غير معلوم الحقيقة، فوجب أن يكون الله أحق بذلك فإنه حق، وإن لم نحط به علما، كما أمر الله سبحانه بذلك، ولا يخشى غيره، وهذا الحذف بخلاف ما جاء في البقرة ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي ﴾[٧١]، ضمير الجمع يعود على﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾[٧٢]، من الناس فهم بعض لا كل، ظهروا في الملك بالظلم، فالخشية هنا جزئية؛ فأمر الله سبحانه أن يخشى من جهة ما ظهر، كما يجب ذلك من جهة ما ستر "[٧٣]

أما حذف النون من خط المصحف وإدراك الحذف بصريا لسقوطه من التلاوة فإنه يأتي لتنبيه المتلقي على حقارة الشيء الذي ينشأ عنه ما لا يدركه البشر ومن ذلك نشأة الإنسان من نطفة صغيرة ثم ترقيه[٧٤] في أطوار التكوين، وهذا نتج عن حذف النون من الفعل "تكن"، "ويلحق بهذا القسم حذف النون الذي هو لام فعل، فيحذف تنبيها على صغر مبدأ الشيء وحقارته، وأن منه ينشأ ويزيد إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله مثل﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً ﴾[٧٥]، حذفت النون تنبيها على مهانة مبتدأ الإنسان وصغر قدره بحسب ما يدرك هو من نفسه ثم يترقى في أطوار التكوين ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[٧٦]، فهو حين كان نطفة كان ناقص الكون، كذلك كل مرتبة ينتهي

[70] المائدة ، الآية ٤٤

[71] البقرة ، الآية ١٥٠

[72] البقرة ، الآية ١٥٠

[73] البرهان ، ص٤٤٥ ، ج١

[74] و دلالة حذف النون من الخط على الترقي تظهر من خلال الترقي في دعوة الرسل من الحس إلى العقل إلى الذكر لتخرج البشر بالترقي المقابل من الجهل حتى اليقين ، و تثبت دلالة الترقي مقارنة بالدلالة على الكمال من إثبات النون في موضع آخر من النص القرآني " و كذلك (أو لم تك تأتيكم رسلكم)غافر ٥٠ ، جاءتهم الرسل من أقرب شيء في البيان الذي أقل من مبدأ فيه ، و هو الحس إلى العقل إلى الذكر و رقوهم من أخفض رتبة – و هي الجهل – على أرفع درجة في العلم – و هي اليقين – و هذا بخلاف قوله تعالى (ألم تكن آياتي تتلى عليكم)المؤمنون ١٠٥ ، فإن كون تلاوة الآيات قد أكمل كونه و تم "انظر البرهان ،ص٤٤٩ ، ج١ ، و من اللافت للنظر إشارة الزركشي على دلالة الكمال لتمام التلاوة بمعنى مطابقة الخط للصورة السمعية له ، و من هنا نستشف كيف يستخرج الزركشي الدلالة من النص القرآني

[75] القيامة ، الآية ٣٧

[76] يس ، الآية ٧٧

إليها كونه هي ناقصة الكون بالنسبة لما بعدها، فالوجود الدنيوي كله ناقص الكون عن كون الآخرة كما قال الله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾[77]، "[78]

يظهر تصور الزركشي للتلقي البصري لخط المصحف من الاختلاف بينه وبين الصورة النطقية السمعية له من حيث تبادل رسم الحروف أو العدول عن رسم حرف إلى رسم غيره في النص القرآني، ومما لا شك فيه أن اختلاف صورة الخط عن الصورة النطقية السمعية له يدرك بالبصر وحده، وهذا الإدراك البصري يوجه المتلقي إلى دلالة ما في النص القرآني

من تلك الحروف رسم الألف واوا في ثماني كلمات في عموم النص القرآني ويربط الزركشي بين العدول عن رسم الألف إلى الواو، وبين الدلالة ومن ذلك دلالة التعظيم "فيما كتبت الألف فيه واوا على لفظ التفخيم: وذلك في أربعة أصول مطردة، وأربعة أحرف متفرعة، فالأربعة الأصول هي "الصلوة"، "الزكوة"، و"الحيوة"، و"الربو"

والأربعة الأحرف قوله في الأنعام والكهف ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ ﴾[79]، والنور ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾[80]، وفي المؤمن ﴿ ٱلنَّجَوٰةِ ﴾[81]، وفي النجم ﴿ وَمَنَوٰةَ ﴾[82]،.....

والقصد بذلك تعظيم شأن هذه الأحرف، فإن الصلاة والزكاة عمودا الإسلام، والحياة قاعدة النفس ومفتاح البقاء، وترك الربا قاعدة الأمان ومفتاح التقوى "[83]

ويرصد العدول عن رسم هاء التأنيث المربوطة إلى التاء، ويربط بين هذا الاختلاف في الرسم وبين الدلالة في النص القرآني "في مد التاء وقبضها: وذلك أن هذه الأسماء لما لازمت الفعل صار لها اعتباران: أحدهما من حيث هي أسماء وصفات وهذا تقبض منه التاء، والثاني من حيث أن يكون مقتضاها فعلا وأثرا ظاهرا في الوجود فهذا تمد فيه كما تمد في "قالت" و"حقت" وجهة الفعل والأمر ملكية ظاهرة، وجهة الاسم والصفة ملكوتية باطنة

77 العنكبوت ، الآية ٦٤
78 البرهان ، ص٤٤٨ ، ج١
79 الأنعام ، الآية ٥٢ ، الكهف ، الآية ٢٨
80 النور ، الآية ٣٥
81 غافر ، الآية ٤١
82 النجم ، الآية ٢٠
83 البرهان ، ص٤٥٠ ، ج١

فمن ذلك[84] "الرحمة" مدت في سبعة مواضع للعلة المذكورة بدليل قوله في أحدها ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[85]، فوضعها على التذكير فهو الفعل "[86]

من أوجه الاختلاف بين خط المصحف والخط المعتاد، أن خط المصحف يتميز برسم حروف بعض الكلمات موصولة في مواضع، ومفصولة في مواضع أخرى، وبالنظر في عموم النص القرآني يدرك المتلقي هذا الوصل أو الفصل بصريا ليتنبه إلى دلالة ما "اعلم أن الموصول في الوجود توصل كلماته في الخط كما توصل حروف الكلمة الواحدة، والمفصول معنى في الوجود يفصل في الخط كما تفصل كلمة عن كلمة

فمنه "إنما" بالكسر كله موصول إلا واحدا ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾[87]، لأن حرف "ما" هنا وقع على مفصل، فمنه خير موعود به لأهل الخير، ومنه شر موعود به لأهل الشر؛ فمعنى "ما" مفصول في الوجود والعلم "[88]

ومن الآية التي استدل بها الزركشي نجد أنه ربط بين الفصل بين "إن" و"ما" وبين دلالة التفصيل والانفصال، وهذا الإدراك للفصل في الخط في هذه الآية خاصة بفضل النظرة الكلية في عموم النص القرآني الذي جعل الزركشي يدرك بصريا أوجه الاختلاف في رسم الحروف من جهة الفصل أو الوصل - كما يدرك ذلك المتلقي لعموم النص القرآني فيرصد الاختلاف في رسم تلك الحروف - ليتنبه إلى دلالة مستقاة من هذا الاختلاف وكل ذلك بفضل الإدراك البصري لخط المصحف، أو تأثيره بصريا في المتلقي

وتظهر الدلالة على الاتصال أو الانفصال في الوجود من رسم "كلما" مفصولة أو موصولة، فالفصل يعني التفصيل في الشيء، ووصلها في الخط يعني

84 و من ذلك أيضا يأتي ورود كلمة " السنة " في بعض المواضع من النص القرآني ليلفت المتلقي بصريا من خلال إدراكه لاختلاف رسم حرف التاء إلى دلالة الإهلاك و الانتقام ، و يستدل على هذه الدلالة من السياق " و منها " السنة " مقبوضة إلا في خمسة مواضع حيث تكون بمعنى الإهلاك و الانتقام الذي في الوجود : أحدها في الأنفال (فقد مضت سنت الأولين)الأنفال ٣٨، و يدل عليها أنها في الانتقام قوله قبلها (إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف)الأنفال ٣٨ ، و قوله بعدها (و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة)الأنفال ٣٩، و في فاطر (فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا و لن تجد لسنت الله تحويلا)فاطر ٤٣، و يدلك على أنها بمعنى الانتقام قوله تعالى قبلها (و لا يحيق المكر السيء إلا بأهله)فاطر ٤٣ ، و سياق ما بعدها "انظر البرهان ، ص٤٥٣ ، ج١
85 الأعراف ، الآية ٥٦
86 البرهان ، ص٤٥١ ، ج١
87 الأنعام ، الآية ١٣٤
88 البرهان ، ص٤٥٦ ، ج١

أنها وقعت على شيء كلي ليس مفصلا أو منفصلا، بل متصلا "ومنه "كلما" موصول كله إلا ثلاثة:

في النساء ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ ﴾[89]، فما ردوا إليه ليس شيئا واحدا في الوجود، بل أنواع مختلفة في الوجود، وصفة مردهم ليست واحدة بل متنوعة؛ فانفصل "ما" لأنه لعموم شيء مفصل في الوجود .....

وهذا بخلاف قوله ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمُ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴾[90]، فإن هؤلاء هم بنو إسرائيل أمة واحدة، بدليل قوله:﴿ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾[91]، والمخاطبون على عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يقتلوا الأنبياء، إنما باشره آباؤهم، لكن مذهبهم في ذلك واحد، فحرف "ما" إنما يشمل تفاصيل الزمان، وهو تفصيل لا مفصل له في الوجود إلا بالفرض والتوهم لا بالحس؛ فوصلت "كل" لاتصال الأزمنة في الوجود وتلازم أفرادها المتوهمة "[92]

ومن النص السابق نجد كيف استشف الزركشي مطابقة الاتصال في الخط للاتصال في الوجود كاتصال مذهب اليهود في قتل الأنبياء، ومطابقة الانفصال في الخط للانفصال في الوجود كانفصال "ما" عن "كل" لتدل أنها وقعت على مفصل

ومن اللافت للنظر أن الزركشي قد فطن إلى الإدراك البصري لنوع من أنواع الجناس، وهذا النوع يختص بالجناس الخطي لكلمات النص القرآني دون الجناس الصوتي، وهو ما يظهر من قول الزركشي "وإما في الخط، وهو أن تشتبها في الخط لا اللفظ كقوله تعالى ﴿ وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾[93]، وقوله ﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾[94]، "[95]

"يحسبون"، "يحسنون"، و"يسقين" و"يشفين" حسب فهمنا لتعليق الزركشي فإن التشابه بين كل كلمتين يدرك عن طريق الإدراك البصري لهما دون الإدراك

89 النساء ، الآية ٩١
90 المائدة ، الآية ٧٠
91 البقرة ، الآية ٩١
92 البرهان ، ص٤٥٧ ، ج١
93 الكهف ، الآية ١٠٤
94 الشعراء ، الآيتان ٧٩ ، ٨٠
95 البرهان ، ص٤٤١ ، ج٣

السمعي، وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه من تنوع صور التلقي عند الزركشي، فالمتلقي للنص القرآني يستخدم أكثر من وسيلة إدراك للكشف عن الدلالة، فمنه الإدراك البصري، ومنه الإدراك السمعي، وترجع أهمية الإدراك البصري عند انسحاب الإدراك السمعي حيث تبقي الوسيلة الوحيدة للإدراك في بعض المواضع من النص القرآني كما مر بنا من آيات تناولها الزركشي بالتحليل

أحوال التلقي

نقترب أكثر من تصور الزركشي للتلقي مما تناثر في كتابه البرهان من أقوال نظرية وتحليلات تطبيقية تكشف عن تصور الزركشي لدرجات في التلقي وتصنيف للمتلقين للنص القرآني

- درجات التلقي

يحدد الزركشي تصوره للتلقي من خلال مقولاته عن تفاوت المتلقين للنص القرآني في إدراك دلالاته، فليس المتلقون على درجة واحدة من هذا الإدراك، ففي خلال بحثه عن أهمية التفسير يشير إلى أن تساوي المتلقين في معرفة ظاهر التفسير تنقلهم بعد ذلك إلى التفاوت في إدراك دلالة النص القرآني للتفاوت في الربط بين العلم بقدرة الله وبين الأفعال والأحداث بما أطلق عليه علوم المكاشفات "فحقيقة هذا تستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات، فلابد أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة، ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله تعالى حتى تتكشف وتتضح، فمن هذا الوجه تفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير "[96]

ويشير في تناوله لقضية الإعجاز في سؤال عن تفاوت النص القرآني في الفصاحة أم لا، إلى قول الباقلاني في تفاوت إدراك المتلقين للدلالة في النص القرآني وعبر عن ذلك بالإحساس "وقد اختلف في أنه: هل تتفاوت فيه مراتب الفصاحة ؟

واختار القاضي أبو بكر ابن الطيب في كتاب "الإعجاز" المنع، وأن كل كلمة موصوفة بالذروة العليا، وإن كان بعض الناس أحسن إحساسا له من بعض، وهذا كما أن بعضهم يفطن للوزن بخلاف بعض "[97]

96 البرهان ، ص١٥٢ ، ج٢
97 البرهان ، ص١١٦ ، ج٢

وفي خلال تناوله للمحكم والمتشابه يرجع في أحد الأسباب لوجود المتشابه في النص القرآني إلى التفاضل بين المتلقين حتى لا تتساوى درجاتهم في الثواب من الله "منها: ليحث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائق معانيه، فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب، وحذرا مما قال المشركون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[98]، وليمتحنهم ويثيبهم كما قال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[99] الآية، وقوله ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[100]، فنبههم على أن أعلى المنازل هو الثواب، فلو كان القرآن كله محكما لا يحتاج إلى تأويل لسقطت المحنة وبطل التفاضل واستوت منازل الخلق.....

ومنها: إظهار فضل العالم على الجاهل، ويستدعيه علمه على المزيد في الطلب في تحصيله؛ ليحصل له درجة الفضل والأنفس الشريفة تتشوف لطلب العلم وتحصيله "[101]

وبتلك المقولات التي توضح تصور الزركشي لتفاوت المتلقين للنص القرآني في إدراك الدلالة نستطيع أن نكشف عن تصنيف الزركشي لهؤلاء المتلقين، وهذا التصنيف يرتبط بإدراك الدلالة في النص القرآني، فالتفاوت في الإدراك يتبعه تفاوت بين المدركين للدلالة

ومن ذلك تصنيف المتلقين في درجات حسب إدراكهم للنص القرآني ووسيلته من طبقة العامة وتدرك ظاهر النص من العبارات، وطبقة الخاصة وتدرك الإشارات، وطبقة الأولياء وتدرك اللطائف، والأنبياء وإدراكهم للحقائق، والوسيلة هي السمع أو التلقي المعتاد، ثم العقل، ثم المشاهدة، ثم الاستسلام على الترتيب "كتاب الله بحره عميق، وفهمه دقيق، ولا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم، وعامل الله بتقواه في السر والعلانية، وأجله عند مواقف الشبهات

واللطائف والحقائق لا يفهمها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، فالعبارات للعموم وهي للسمع، والإشارات للخصوص وهي للعقل، واللطائف للأولياء وهي المشاهدة، والحقائق للأنبياء وهي الاستسلام "[102]

[98] الزخرف ، الآية ٢٢
[99] الروم ، الآية ٢٧
[100] سبأ ، الآية ٤
[101] البرهان ، ص٧٠ ، ج٢
[102] البرهان ، ص١٤٩ ، ج٢

هذا ونستطيع أن نقترب أكثر من تصور الزركشي لدرجات المتلقين في النص السابق من خلال ربطه بين تلك الدرجات وبين مصدر التلقي، بمعنى أن اختلاف مصدر التلقي للنص القرآني يستتبعه اختلاف في درجة المتلقي من حيث إدراك الدلالة في النص القرآني، فالمتلقي العام الذي يسمعه فحسب، والمتلقي الخاص الذي سمعه من الرسول الكريم وهكذا، ولكل درجة من درجات التلقي درجة من درجات إدراك الدلالة "ثم فوائده على قدر ما يؤهل له سمعه فمن سمعه من التالي ففائدته فيه علم أحكامه، ومن سمعه كأنما يسمعه من النبي– صلى الله عليه وسلم – يقرؤه على أمته بموعظته وتبيان معجزته وانشراح صدره بلطائف خطابه، ومن سمعه كأنما سمعه من جبريل عليه السلام يقرؤه على النبي– صلى الله عليه وسلم– يشاهد في ذلك مطالعات الغيوب والنطق إلى ما فيه من الوعود، ومن سمع الخطاب فيه من الحق فني عنده وامحت صفاته وصار موصوفا بصفات التحقيق عن مشاهدة علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين "[103]

وللزركشي تصنيف آخر للمتلقين للنص القرآني ويرتبط هذا التصنيف بالتدرج في إدراك الدلالة من ناحية، والتجاوب مع النص القرآني من ناحية أخرى، فيورد ثلاثة أصناف من المتلقين، الأول درجة المؤمن العارف، والثاني درجة المقربين، والثالث درجة أصحاب اليمين، والتدرج هنا يظهر من درجة الاستغراق مع صياغة النص القرآني، فلنتأمل استدلال الزركشي على تلك الدرجات من مقولة أحدهم "و قال بعضهم: الناس في تلاوة القرآن على ثلاثة مقامات:

الأول: من يشهد أوصاف المتكلم في كلامه ومعرفة معاني خطابه فينظر إليه من كلامه وتكلمه بخطابه وتمليه بمناجاته وتعرفه من صفاته، فإن كل كلمة تنبئ عن معنى اسم أو وصف أو حكم أو إرادة أو فعل؛ لأن الكلام ينبئ عن معاني الأوصاف ويدل على الموصوف وهذا مقام العارفين من المؤمنين؛ لأنه لا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا على تعلق الإنعام به من حيث أنه منعم عليه، بل هو مقصور الفهم عن المتكلم موقوف الفكر عليه مستغرق بمشاهدة المتكلم .....

الثاني: من يشهد بقلبه كأنه تعالى يخاطبه ويناجيه بألطافه ويتملقه بإنعامه وإحسانه، فمقام هذا الحياء والتعظيم وحاله الإصغاء والفهم، وهذا لعموم المقربين

الثالث: من يرى أنه يناجي ربه سبحانه، فمقام هذا السؤال والتمكن وحاله الطلب، وهذا المقام لخصوص أصحاب اليمين "[104]

[103] البرهان ، ص١٥٠ ، ج٢
[104] البرهان ، ص٤٩٢ ، ج١

هذا ويستكمل الزركشي درجات أخرى للتلقي يحددها بعشر درجات تظهر من الاستدلال بآية الأحزاب ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[105]، والتنقل بين هذه الدرجات المذكورة في الآية التي أحال عليها الزركشي في تحليله لتلك الدرجات يستتبع تجاوب المتلقي مع صياغة النص القرآني بالإيمان والتسليم والتوبة والصبر والرضا والخوف والرجاء والشكر والمحبة والتوكل "وكل كلمة من الخطاب تتوجه عشر جهات، للعارف من كل جهة مقام ومشاهدات: أولها الإيمان بها والتسليم لها والتوبة إليها والصبر عليها والرضا بها والخوف منها والرجاء إليها والشكر عليها والمحبة لها والتوكل فيها، فهذه المقامات العشر هي مقامات المتقين، وهي منطوية في كل كلمة يشهدها أهل التمكين والمناجاة، ويعرفها أهل العلم والحياة لأن كلام المحبوب حياة القلوب، لا ينذر به إلا حي، ولا يحيا به إلا مستجيب كما قال تعالى ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾[106]، وقال تعالى ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[107]، ولا يشهد هذه العشر مشاهدات إلا من يتنقل في العشر مقامات المذكورة في سورة الأحزاب، أولها مقام المسلمين، وآخرها مقام الذاكرين، وبعد مقام الذكر هذه المشاهدات العشر، فعندما لا تمل المناجاة لوجود المصافاة، وعلم كيف تجلي له تلك الصفات الإلهية في طي هذه الأدوات، ولولا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى، ولا تمكن لفهم عظيم الكلام إلا على حد فهم الخلق، فكل أحد يفهم عنه بفهمه الذي قسم له، حكمة منه "[108]

- مراعاة أحوال المتلقي

تتضح عملية التلقي عند الزركشي من خلال العلاقة بين صياغة النص القرآني، وبين المتلقي، ومن مظاهر تلك العلاقة المفترضة مراعاة الصياغة للمتلقي وأحواله المختلفة، ولا تكشف تلك المراعاة عن العلاقة بين الصياغة والمتلقي

105 الأحزاب ، الآية ٣٥
106 يس ، الآية ٧٠
107 الأنفال ، الآية ٢٤
108 البرهان ، ص٤٩٣ ، ج١

فحسب، بل تكشف عن أهمية المتلقي باعتباره حجر زاوية في عملية تلقي النص في تصور الزركشي

وتتضح مراعاة الصياغة لحال المتلقي من إحالة الزركشي في تحليله للظواهر اللغوية في النص القرآني إلى تلك المراعاة، ومن ذلك ما تناوله تحت عنوان "الخطاب بالشيء عن اعتقاد المخاطب دون ما في نفس الآمر" فأورد فيه العديد من الآيات التي جاءت مراعية لحال المتلقي واعتقاده فخوطب فيها حسب تصوره للأمور، مثل ورود لفظ الشركاء حسب اعتقاد أهل مكة في الشرك بالله عز وجل "الخطاب بالشيء عن اعتقاد المخاطب دون ما في نفس الآمر: كقوله سبحانه وتعالى ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[109]، وقعت إضافة التشريك على الله سبحانه على ما كانوا يقولون؛ لأن القديم سبحانه أثبته "[110]

ومنه ورود ضمير الأصنام للعاقل "من" دون "ما" على حسب معتقد المشركين على حد تعبير الزركشي "وقوله تعالى ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾[111]، والمراد بـ "من لا يخلق" الأصنام، وكان أصله "كما لا يخلق"؛ لأن "ما" لمن لا يعقل بخلاف "من"، لكن خاطبهم على معتقدهم؛ لأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم "[112]

ويربط الزركشي بين الخطاب بـ "يأيها الناس" وحال أهل الكفر، وبين الخطاب بـ "يأيها الذين آمنوا" وحال أهل المدينة من الإيمان، وذلك من خلال الآيات المكية والآيات المدنية "المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة وعليه يحمل قول ابن مسعود الآتي، لأن الغالب على أهل مكة الكفر فخوطبوا بـ "يا أيها الناس"، وإن كان غيرهم داخلا فيهم، وكان الغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا بـ "يا أيها الذين آمنوا"، وإن كان غيرهم داخلا فيهم "[113]

ويشير إلى حكم المسالمة أو المسايفة حسب الحال من القوة أو الضعف، بأن الصياغة تراعي ذلك في أحكامها ومن هذا "قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ

109 الأنعام ، الآية ٢٢
110 البرهان ، ص٥٤ ، ج٤
111 النحل ، الآية ١٧
112 البرهان ، ص٥٥ ، ج٤
113 البرهان ، ص٢١٥ ، ج١

أَنفُسَكُمْ ﴾[114] الآية، كان ذلك في ابتداء الأمر، فلما قوي الحال وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمقاتلة عليه .....

وهو سبحانه وتعالى حكيم أنزل على نبيه- صلى الله عليه وسلم- حين ضعفه ما يليق بتلك الحال رأفة بمن تبعه ورحمة؛ إذ لو وجب لأورث حرجا ومشقة، فلما أعز الله الإسلام وأظهره ونصره عليه من الخطاب ما يكافئ تلك الحالة من مطالبة الكفار بالإسلام أو بأداء الجزية إن كانوا أهل كتاب، أو الإسلام أو القتل إن لم يكونوا أهل كتاب "[115]

ويشير إلى الالتفات من التكلم إلى الخطاب لمراعاة المتكلم لحال المتلقي بإخراج الكلام حسب حالهم على حد تعبير الزركشي كما في قوله " ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[116]، الأصل "وإليه أرجع" فالتفت من التكلم إلى الخطاب وفائدته أنه أخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه، وهو يريد نصح قومه تلطفا وإعلاما أنه يريده لنفسه، ثم التفت إليهم كونه في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله، وأيضا فإن قومه لما أنكروا عليه عبادته لله أخرج الكلام معهم بحسب حالهم "[117]

ويشير الزركشي إلى تعدد التفاسير للآية الواحدة لمراعاة المفسر لحال كل سائل سأل عن شيء من تفسير آيات النص القرآني "يكثر في معنى الآية أقوالهم واختلافهم، ويحكيه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ، ويظن من لا فهم عنده أن في ذلك اختلافا فيحكيه أقوالا وليس كذلك، بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى ظهر من الآية، وإنما اقتصر عليه لأنه أظهر عند ذلك القائل، أو لكونه أليق بحال السائل "[118]

ويدرس الزركشي التوكيد طبقا لحال المتلقي له، فيورد أن التأكيد إنما يكون لصاحب الشك فيأتي التوكيد مناسبا لحاله، أو كان منكرا فيأتي التوكيد أقوى من الأول مراعاة لحاله من الإنكار "قالوا: إنما يؤتى به للحاجة للتحرز عن ذكر ما لا فائدة له، فإن كان المخاطب ساذجا ألقي إليه الكلام خاليا من التأكيد، وإن كان مترددا

114 المائدة ، الآية ١٠٥
115 البرهان ، ص٤١ ، ج٢
116 يس ، الآية ٢٢
117 البرهان ، ص٣١١ ، ج٣
118 البرهان ، ص١٥٦ ، ج٢

فيه حسن تقويته بمؤكد، وإن كان منكرا وجب تأكيده، ويراعى في القوة والضعف بحسب حال المنكر "[119]

ويشير في إحدى الآيات التي كان الخطاب فيها موجه من الله سبحانه إلى موسى وهارون- عليهما السلام- بأن الخطاب قد روعي فيه ما يرجوه الرسولان عند هداية فرعون، أو وجّه بحسب حالهم من الرغبة في هداية فرعون "وقوله ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[120]، وقد علم الله حين أرسلهما ما يفضي إلى حال فرعون، لكن ورد الفظ بصورة ما يختلج في نفس موسى وهارون من الرجاء والطمع، فكأنه قال: انهضا إليه وقولا في نفوسكما لعله يتذكر أو يخشى "[121]

العلاقة بين النص والمتلقي

من الملامح الدالة على قيام العلاقة بين الصياغة والمتلقي ذلك الملمح ذو الطبيعة المزدوجة؛ إذ يتحرك الفعل من الصياغة جهة المتلقي بالتأثير عليه، ويتحرك رد الفعل من المتلقي جهة الصياغة بالتجاوب مع النص

ويظهر التجاوب والتأثير في مواضع عديدة من كتاب البرهان، ومن تلك المواضع إيراد الزركشي لخبر إسلام النجاشي عندما سمع آيات النص القرآني بما يشبه تجاوب النجاشي مع الآيات بالتدريج من التصديق حتى الإسلام "بعث رسول الله-صلى الله عليه وسلم- إلى جعفر بن أبي طالب في خصومة الرهبان والقسيسين﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[122]، فقرأها جعفر بن أبي طالب عليهم عند النجاشي فلما بلغ قوله ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾[123]، قال النجاشي: صدقوا، ما كانت اليهودية والنصرانية إلا من بعده، ثم قرأ جعفر ﴿

119 البرهان ، ص٣٧٥ ، ج٢
120 طه ، الآية ٤٤
121 البرهان ، ص١٥٦ ، ج٤
122 آل عمران ، الآية ٦٤
123 آل عمران ، الآية ٦٧

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾[124] الآية، قال النجاشي: اللهم إني ولي لأولياء إبراهيم، وقال: صدقوا والمسيح ثم أسلم النجاشي وأسلموا "[125]

ويرصد الزركشي في قول أحدهم- عندما سمع قوله تعالى ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾[126]- متأثرا بالوعيد والتهديد في الآية الكريمة "لو سمعت هذه الكلمة من خفير الحارة لم أنم"[127]

وما من شك أن إيراد الزركشي لهذا القول ما لشيء إلا لرصد تأثير الآية الكريمة على من سمعها وتجاوبه مع التهديد والوعيد فيها

ونقترب من تصور الزركشي للتجاوب والتأثير من خلال تناوله للآداب التي تتبع عند تناول القرآن الكريم وتلاوته، ومن تلك الآداب التجاوب مع صياغة النص القرآني، فسياق الرحمة يوجب على المتلقي الإحساس بالرحمة والفرح بها، والتأثر بالبشرى، وسياق العذاب يوجب عليه التأمل والتدبر والاعتراف بالإيمان بالله وحده ومسألته أن يبعده عن العذاب، وفي سياق النداء يرصد تأثر البعض به من المتلقين بالإجابة بقولهم "لبيك ربي وسعديك" على حد تعبير الزركشي، فلنتأمل هذه الآداب كما أوردها الزركشي "وينبغي أن يشتغل قلبه في التفكر في معنى ما يلفظ بلسانه؛ فيعرف من كل آية معناها، ولا يجاوزها إلى غيرها حتى يعرف معناها، فإذا مر به آية رحمة وقف عندها وفرح بما وعده الله تعالى منها واستبشر لذلك وسأل الله برحمته الجنة

وإن قرأ آية عذاب وقف عندها وتأمل معناها، فإن كانت في الكافرين اعترف بالإيمان فقال: آمنا بالله وحده، وعرف موضع التخويف ثم سأل الله تعالى أن يعيذه من النار

وإن هو مر بآية فيها نداء للذين آمنوا فقال "يا أيها الذين آمنوا" وقف عندها- وقد كان بعضهم يقول: لبيك ربي وسعديك- ويتأمل ما بعدها مما أمر به ونهى عنه، فيعتقد قبول ذلك "[128]

124 آل عمران ، الآية ٦٨
125 البرهان ، ص٢٣٢ ، ج١
126 الرحمن ، الآية ٣١
127 البرهان ، ص٤٨٨ ، ج١
128 البرهان ، ص٤٩٠ ، ج١

ويصف كمال الإيمان بتجاوب المتلقي مع الصياغة وتأثره بها خاصة في تلقي الآيات التي سيقت للوعد والوعيد، والأوامر والنواهي فيتلقاها بالإيجاب بالخوف والرجاء معا، والاستجابة لما أمر به ونهى عنه "وإن كان ما يقرؤه من الآي مما أمر الله به أو نهى عنه أضمر قبول الأمر والائتمار، والانتهاء عن المنهي والاجتناب له

فإن كان ما يقرؤه من ذلك وعيدا وعد الله به المؤمنين فلينظر إلى قلبه، فإن جنح إلى الرجاء فزعه الخوف، وإن جنح إلى الخوف فسح له الرجاء حتى يكون خوفه ورجاؤه معتدلين، فإن ذلك كمال الإيمان .....

وإن كان موعظة اتعظ بها، فإنه إذا فعل هذا فقد نال كمال الترتيل "[129]

هذا ويورد الزركشي مقولة للخطابي في تأثر الوليد بن المغيرة بسماع القرآن في القصة المشهورة، ثم يعلق الزركشي على قول الخطابي بتأثر جبير بن مطعم وعمر بن الخطاب-رضي الله عنهما- بآيات القرآن الكريم وتجاوبهما مع صياغة النص القرآني بالإسلام لله "قلت: ولهذا أسلم جبير بن مطعم لما سمع قراءة النبي- صلى الله عليه وسلم- للطور حتى انتهى إلى قوله ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾[130]، قال: خشيت أن يدركني العذاب، وفي لفظ: كاد قلبي يطير فأسلم، وفي أثر آخر أن عمر لما سمع سورة طه أسلم وغير ذلك، وقد صنف بعضهم كتابا فيمن مات بسماع آية من القرآن "[131]

ويشير الزركشي من الناحية التطبيقية إلى تجاوب المتلقي مع آيات النص القرآني، ومن ذلك تلاوة الفاتحة التي تؤثر في المتلقي تدريجيا حتى يصل إلى الغاية من التجاوب مع آياتها "كما في قوله ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[132]، فإن العبد إذا افتتح حمد مولاه بقوله "الحمد لله" الدال على اختصاصه بالحمد وجد من نفسه التحرك للإقبال عليه سبحانه، فإذا انتقل إلى قوله "رب العالمين" الدال على ربوبيته لجميعهم قوي تحركه، فإذا قال ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[133]، الدال على أنه منعم بأنواع

129 البرهان ، ص٤٩١ ، ج١
130 الطور ، الآية ٧
131 البرهان ، ص١٠٢ ، ج٢
132 الفاتحة ، الآية ٢
133 الفاتحة ، الآية ٣

النعم جليلها وحقيرها تزايد التحرك عنده، فإذا وصل لـ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[134]، وهو خاتمة الصفات الدالة على أنه مالك الأمر يوم الجزاء فيتأهب قربه وتيقن الإقبال عليه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات "[135]

ولم يرصد الزركشي تأثر المتلقي بالنص القرآني فحسب، بل أورد تأثر الرسول– صلى الله عليه وسلم– ببيت من الشعر بقوله: لو بلغني شعرها قبل أن أقتله ما قتلته "وحسبك إمام المتقين حين سمع شعر القائلة:

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

قال: لو بلغني شعرها قبل أن أقتله ما قتلته "[136]

وبهذا الرصد يمكننا أن نكشف عن تصور الزركشي للعلاقة بين النص والمتلقي، فالتجاوب والتأثير لا يختص بتلقي النص القرآني وحده، بل بالنصوص عموما

هذا ومن الجدير بالذكر أن الزركشي قد رصد العلاقة بين الصياغة والمتلقي من الفعل ورد الفعل المتمثل في تجاوب المتلقي مع النص، وتأثير النص في المتلقي، وذلك في نصوص مختلفة ومن ذلك النص القرآني، والحديث الشريف، والشعر كما مر بنا في النص السابق بما يؤكد أن تصور الزركشي للعلاقة بين الصياغة والمتلقي لا تنحصر في النص القرآني وحده

فمن خلال بحث الزركشي في إحصاء المعاني التي تكلم فيها البليغ على حد تعبير الزركشي، نجده يرصد تجاوب المتلقي وتأثره بالبنى اللغوية في النص، وتظهر تلك العلاقة من تقسيم الزركشي لما تكلم فيه البليغ، وهي كالتالي:

- تحقيق العقائد الآلهية

- بيان الحق فيما يشكل من الأمور غير العقائد

- تمكين الانفعالات النفسانية من النفوس، ورصد في تلك الانفعالات: الاستعطاف والإعراض والإرضاء والإغضاب والتشجيع والتخويف والمدح والذم

134 الفاتحة ، الآية ٤
135 البرهان ، ص٣٢١ ، ج٣
136 البرهان ، ص٣٥٤ ، ج١

والشكاية والاعتذار والإذن والمنع، وفضيلة القائل، وحمية النازع، وقوة البليغ على إطراء نفسه وتحسين رأيه

- استدعاء المخاطب إلى فضل تأمل وزيادة تفهم

- الضمير أو التمثيل، ورصد تحته إضمار القول المجادل به البيان أحد حرفيه، واستدعاء لمقابل المذكور في ذهن المتلقي

وقد عزز الزركشي تلك المعاني بالشواهد راصدا العلاقة بين الصياغة والمتلقي من التجاوب والتأثير، وفيما يلي عرض لبعض تلك التحليلات "وينبغي الاعتناء بما يمكن إحصاؤه من المعاني التي تكلم فيها البليغ مثبتا ونافيا: فمنها: تحقيق العقائد الإلهية كقوله سبحانه ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[137]، بعد ذكره النطفة ومتعلقها في مراتب الوجود، وكقوله ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[138]، فمن يقرع سمعه هذا الكلام المعجز استشعر من روعة النفس واقشعرار الجلد ما يمكن خشية الله وعظمته من قلبه "[139]

فتحقيق العقائد الإلهية وما يمثله من تجاوب المتلقي مع تلك العقائد كان نابعا من تأثر المتلقي واقشعرار جلده واستشعاره بروعة النفس، فأدى ذلك إلى تمكن خشية الله من قلب المتلقي، وإحساسه بعظمة الله، وبذلك يكون المتلقي قد وصل إلى درجة التجاوب القصوى مع النص القرآني

ويورد حديثا شريفا للرسول– صلى الله عليه وسلم– يرصد فيه التأثير على المنكر لإزالة إنكاره وارتيابه، وذلك من خلال تناوله لتوضيح الحق فيما يشكل من الأمور "ومنها بيان الحق فيما يشكل من الأمور غير العقائد كقوله تعالى ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[140]، وكقوله–صلى الله عليه وسلم– "فمن أين يكون الشبه ؟" فانظر كيف أعطى في هذه الأحرف اليسيرة الحجة على من أنكر احتلام المرأة، فلا أبين من هذا البيان، ولا أشفى للمرتاب من هذا القول!، فإنه يرى

137 القيامة ، الآية ٤٠
138 الزمر ، الآية ٦٧
139 البرهان ، ص٣٥٢ ، ج١
140 الأنفال ، الآية ٦١

إحدى المقدمتين عيانا، وهو شبه الولد بأمه، ويعلم قطعا أنه ليس هناك سبب يحال الشبه عليه غير الذي أنكر "[141]

وتتضح العلاقة بين الصياغة والمتلقي من خلال الضغط على المتلقي للتأمل في النص، وعند التأثر بالبنى اللغوية في النص يظهر تجاوب المتلقي من حرصه على أن يكون عند غاية الصياغة منه "ومن ذلك استدعاء المخاطب إلى فضل تأمل وزيادة تفهم، قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾[142]، وكذلك قوله ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[143]، وسر هذا أن السامع يحرص على أن يكون من هؤلاء المثني عليهم؛ فيسارع إلى التصديق ويلقي في نفسه نور من التوفيق "[144]

ويتضح تأثير الصياغة في المتلقي من خلال الضغط على ذهن المتلقي لاستدعاء الضد أو المقابل للدلالة الظاهرة للتركيب في النص، وهذا الاستدعاء مرتبط بخبرة المتلقي ومعرفته أن دلالة الخطاب الموجه إليه لا ينطبق على حاله، بل المقابل هو الذي ينطبق على حاله "وقد يكون هذا الإضمار في القياس الاستثنائي أيضا كقولك: لو كان فلان عزيزا لمنع بأعنة الخيل جاره، وجوادا لشب لساري الليل ناره، معولا على أنه قد علم أنه ما منع ولا شب؛ فيثبت بذلك مقابله وهو البخل والذلة

ومن هذا قوله تعالى ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[145]، وقد شهد الحس والعيان أنهم ما انفضوا من حوله وهي المضمرة؛ فانتفى عنه صلوات الله عليه أنه فظ غليظ القلب

ومن أحسن ما أبرز فيه هذا المضمر قول الشاعر:

ولو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا "[146]

ويشير في استمالة المتلقي واسترضائه إلى تأثر الأنصار بقول الرسول- صلى الله عليه وسلم-، وإلى التأثير في المتلقين للتجاوب معه من ناحية، وفطنة

[141] البرهان ، ص٣٥٢ ، ج١
[142] سبأ ، الآية ٤٦
[143] العنكبوت ، الآية ٤٣
[144] البرهان ، ص٣٥٣ ، ج١
[145] آل عمران ، الآية ١٥٩
[146] البرهان ، ص٣٥٣ ، ج١

الرسول- صلى الله عليه وسلم- بحال المتلقين مما يستدعي صياغته للحديث الشريف بما يناسب حالهم ويضمن استمالتهم من ناحية أخرى "ومن الاستمالة والاسترضاء ما لا يخرق السمع أنفذ منه إلى القلوب، وأوقع على المطلوب قوله- صلى الله عليه وسلم – للأنصار وقد وجدوا في نفوسهم قسمة الغنائم في غيرهم: يا معشر الأنصار! ألم أجدكم كذا!، ألم أجدكم كذا، ثم قال: أجيبوني، فما زادوا على قوله: الله ورسوله أمنّ، فقال عليه الصلاة والسلام: أما إنكم إن شئتم لقلتم فلصُدِّقتم ولصدقتم: جئنا بحال كذا وكذا

فانظر ما أعجب هذا! استشعر منهم عليه السلام أن إمساكهم عن الجواب أدب معه لا عجز عنه؛ فأعلمهم بأنهم لو قالوا صدقوا، ولم يكن هو بالذي يغضب من سماعه، ثم زادهم تكريما بقوله: أما ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتنصرفوا برسول الله إلى رحالكم، ثم زاد يمينه المباركة البرة على فضل ما ينصرفون به "[147]

ومن النص السابق نقف على مدى تصور الزركشي للعلاقة بين الصياغة والمتلقي، فصياغة الرسول- صلى الله عليه وسلم- للحديث الشريف جاءت عن علم الرسول بحالهم من طلب الغنائم، فناسبت الصياغة هذه الحال وتميزت بالتأثير على المتلقين لاستمالتهم، وجاء تجاوبهم مع صياغة الحديث الشريف بقولهم "الله ورسوله أمنّ"، ثم يشير الزركشي إلى مراعاة صياغة الرسول- صلى الله عليه وسلم- للحديث الشريف عن علم الرسول- صلى الله عليه وسلم- بحالهم للمرة الثانية من السكوت عن الإجابة أدبا مع الرسول- صلى الله عليه وسلم- فجاءت صياغة الرسول- صلى الله عليه وسلم- للقول الأخير مناسبة لهذه الحال، وتميزت بالتأثير على المتلقين لاستمالتهم بصحبة الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة المنورة، وجاء تجاوبهم مع صياغة الحديث الشريف بالشعور بفضل مصاحبة الرسول الكريم دون الغنائم

[147] البرهان ، ص٣٥٤ ، ج١

الفصل الرابع

منهج الزركشي في دراسة قضايا الأسلوب

من المسلم به أن لكل مؤلف نهجا يسير وفقا له في عرض مؤلفه أو قضاياه، وقد تتفق تلك المناهج أو تختلف حسب ميول المؤلف أو نشاطه الفكري، سواء أكان هذا النشاط خالصا له أو متأثرا بغيره من المؤلفين المعاصرين له أو السابقين عليه، وفي بعض الأحيان قد يضطر المؤلف إلى نهج ملامح منهجية حسب ما يتناوله من علوم أو قضايا أو غيرهما

وفيما نحن بصدده نستطيع أن نقول إن الزركشي في عرض كتابه البرهان وتناوله لقضايا الأسلوب وتناوله للنص القرآني كان يسير وفق ملامح منهجية بعينها تميز تناوله موضوعات الكتاب من ناحية، وتطلعنا على طبيعة الاقتراب من قضايا الأسلوب من ناحية أخرى

وحدة الأسلوب

آثرنا أن نختم **مستويات الأسلوب** في الفصل الأول من هذه الدراسة بمبحث نرصد فيه تلاقي هذه المستويات كما تصورها الزركشي على اعتبار أن ذلك التلاقي بين مستويات الأسلوب من أهم الملامح المنهجية التي تميز تناول الزركشي لقضايا الأسلوب

فالأسلوب كلٌ متكامل لا تنفصل مستوياته عن بعضها البعض داخل النص، وخير دليل على ذلك ما رصدناه – فيما مر بنا – من تداخل تلك المستويات مع بعضها البعض في النص؛ ولكن هذا الرصد كان بطريقة جزئية بمعنى تداخل المستوى الصوتي مع المستوى التركيبي، أو المستوى الصرفي مع المستوى الدلالي أو التصويري وهكذا

وجه الاتهام لدارسي الأسلوب بأنهم ينتهكون النصوص الأدبية بتقطيعها إلى أجزاء صغيرة منفصلة عن بعضها البعض، وأكد هذا الاتهام بأن دارسي الأسلوب يقومون برصد مستويات الأسلوب المختلفة دون الاهتمام بالربط بين تلك المستويات داخل النص

فالنص وحدة عضوية تتضمن كثيرا من الظواهر اللغوية التي لا تنفصل عن بعضها، ولهذا كان من اللازم النظر إلى تلك الظواهر نظرة كلية تتلاءم مع وحدة النص "وعلى هذا النحو يتبين لنا أن الدراسة التي تنظر إلى ظواهر اللغة داخل النص بوصفها عناصر منعزلة مستقلة عن إطار تنتمي إليه إنما تفرغ هذه الظواهر

اللغوية من طبيعتها وكنهها الذي ينبغي أن يراعي حال الرصد والدرس والتحليل "[1]

ولهذا فإن المحلل الأسلوبي لتلك الظواهر اللغوية الماثلة في النص يلزمه أن يبحث عن العلاقات التي تربط تلك الظواهر "فإن النص الأدبي يمكن قراءته عبر مجموعة من التحليلات الأسلوبية التي تتركز على تكويناته الصوتية ووحداته الدلالية، أو بقراءة بنيوية أيضا تعنى بإبراز العلاقات الماثلة بين تلك المستويات المختلفة "[2]

إن وحدة النص وتكامليته تفرض على المحلل الأسلوبي الاستعانة بإجراءات متعددة، وطبيعة تلك الإجراءات هي تجزئة النص وظواهره اللغوية لتسهل عملية التحليل على رصد تلك الظواهر، ولتلافي تلك الطبيعة للإجراءات الأسلوبية قد قامت الدراسات الأسلوبية للنصوص "على تصور مستويات لغوية بعينها يمكن أن يؤول النص إليها، وهي: المستوى الصوتي، والمستوى الصرفي، والمستوى التركيبي، والمستوى الدلالي، والمستوى التصويري، ويهمنا التأكيد أن التماس هذا التحديد لا ينطوي على اعتقاد ضمني أن هذه المستويات منفصل بعضها عن بعض، أو على إهمال ما ينهض به تكاملها وتلاقيها وتفاعلها من إثراء الدلالة "[3]

وبهذا الفهم لتكاملية الأدوات الأسلوبية في مواجهة تكاملية النص يكون هذا الاتهام الموجه لدارسي الأسلوب بتقطيع النص الأدبي إلى أجزاء متفرقة غير ذي معنى

يظهر التلاقي بين مستويات الأسلوب عند الزركشي من وجهين: الأول الربط النظري بين تلك المستويات، والثاني: التناول التطبيقي للنص القرآني بالاعتماد على الربط بين تلك المستويات

وإذا كنا قد اعتبرنا أن الزركشي – فيما مر بنا– يعد من الباحثين عن الدلالة في النص القرآني، يبدو لنا أن المستوى الدلالي هو الجامع لبقية مستويات الأسلوب عنده، أو بمعنى آخر يمثل رصد الزركشي للدلالة في النص القرآني رصدا للظواهر الصوتية والصرفية والتركيبية والتصويرية في النص القرآني

[1] شعر الدعوة عند حسان بن ثابت ، د. طارق سعد شلبي ، ص٧١
[2] بلاغة الخطاب و علم النص ، د. صلاح فضل ، ص٢٢١ ، عالم المعرفة ، ١٩٩٢
[3] الوحدة في شعر بن قيس الرقيات ، د. طارق سعد شلبي ، ص٢٩

وهذا ما يتضح لنا أول ما تناوله الزركشي في كتابه بعنوان "في علم التفسير" الذي يعد بالطبع بحثا عن الدلالة وهذا البحث يكون بمعرفة مستويات الأسلوب وما يندرج تحتها من ناحية، ومعرفة الظروف والملابسات المحيطة بالنص كأسباب النزول وغيرها من ناحية أخرى

فلنتأمل تعريفه للتفسير والأدوات التي يعتمد عليها "التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه– صلى الله عليه وسلم– وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ "[4]

ومن اللافت للنظر أن الزركشي عبر عن الأدوات اللغوية بكلمة "استمداد"، وعن الأدوات غير اللغوية بـ "يحتاج"، ليفصل بين مستويات الأسلوب، وما يحتاج إليه من أدوات محيطة بالنص

وبتحليل تلك الأدوات اللغوية يمكن أن نربط بين علم اللغة وبين ما يندرج تحته من دلالات المعجم والتطور الدلالي والتعدد الدلالي والعلاقات الدلالية بين المفردات والظواهر الصوتية من الإعلال والإبدال ومخارج الأصوات وصفاتها وغير ذلك، أما النحو فهو أساس التراكيب والعلاقات التركيبية، والتصريف المرادف للمستوى الصرفي، وعلم البيان الجامع للبنى التصويرية، وعلم القراءات وما ينطوي عليه من ظواهر صوتية، وأصول الفقه الذي يمثل بعدا من أبعاد الدلالة

هذا وقد صاغ الزركشي ما سبق في إيجاد منهج أو قانون عام للتفسير يعتمد عليه مستخرج الدلالة من النص القرآني، وهذا القانون على حد تعبيره يتكون من الإفراد والتركيب والسياق وظاهر النص وباطنه "ولهذا لا يستغنى عن قانون عام يعوّل في تفسيره عليه، ويرجع في تفسيره إليه من معرفة مفردات ألفاظه ومركباتها، وسياقه، وظاهره وباطنه وغير ذلك "[5]

وهذا ما عبر عنه الزركشي في المنهج المتبع للتفاضل بين العبارات، فأورد أن التفاضل يكون بالمعاني الإفرادية، والمعاني الإعرابية، ومواقع التركيب "ويعتبر التفاضل بين العبارتين من وجوه:

أحدها: المعاني الإفرادية، بأن يكون بعضها أقوى دلالة وأفخم مسمى وأسلس لفظا ونحوه

[4] البرهان ، ص٥٢ ، ج١
[5] البرهان ، ص٥٥ ، ج١

الثاني: المعاني الإعرابية، بأن يكون مسماها أبلغ معنى كالتمييز مع البدل في قوله تعالى﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾[6]، مع اشتعل الرأس شيبة، وهذا أبلغ من"اشتعل شيب الرأس"

الثالث: مواقع التركيب، كقوله تعالى ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾[7] ، فإن الأولى جعل "اثنين" مفعول "تتخذوا" و"إلهين" صفة له تقدمت فانتصبت على الحال، والتقدير: اتخذوا إلهين اثنين، لأن "اثنين" أعم من "إلهين"، "[8]

ومن النص السابق يتضح لنا أن المنهج المتبع للتفاضل بين العبارات يتمثل في المستوى الإفرادي والمستوى التركيبي وما يندرج تحتهما من العلاقات الإفرادية والتركيبية

ونقترب أكثر من تصور الزركشي للقانون الذي يعوّل عليه المفسر على حد تعبيره من تحديد الأدوات التي يعتمد عليها المفسر لاستخراج الدلالة من النص القرآني ويقسم تلك الأدوات إلى قسمين الأول المستوى الإفرادي، والثاني المستوى التركيبي، ويدرج تحت المستوى الأول ثلاثة مستويات هي الدلالة المعجمية والصرف والاشتقاق بمعنى أنواع الدلالات للفظ

ويدرج تحت المستوى الثاني أربعة مستويات: الأول باعتبار كيفية التراكيب بحسب الإعراب والعلاقات التركيبية القائمة بين مكونات التركيب

والثاني: باعتبار كيفية التركيب من جهة الدلالة وعلاقته بالسياق

والثالث: طرق تأدية المعنى ويتمثل في وضوح الدلالة والبنى التصويرية

والرابع: باعتبار الفصاحة اللفظية والمعنوية وهو ما يدرج تحت الظواهر الصوتية

"فيما يجب على المفسر البداءة به:

الذي يجب على المفسر البداءة به العلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل

[6] مريم ، الآية ٤
[7] النحل ، الآية ٥١
[8] البرهان و ص١١٥ ، ج٢

المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه، وهو كتحصيل اللبن من أوائل المعادن في بناء ما يريد أن يبنيه

قالوا: وليس ذلك في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع وغيره، وهو كما قالوا: إن المركب لا يعلم إلا بعد العلم بمفرداته، لأن الجزء سابق على الكل في الوجود من الذهني والخارجي، فنقول النظر في التفسير هو بحسب أفراد الألفاظ وتراكيبها

أما بحسب الأفراد فمن وجوه ثلاثة:

من جهة المعاني التي وضعت الألفاظ المفردة بإزائها، وهو يتعلق بعلم اللغة

ومن جهة الهيئات والصيغ الواردة على المفردات الدالة على المعاني المختلفة وهو من علم التصريف

ومن جهة رد الفروع المأخوذة من الأصول إليها، وهو من علم الاشتقاق

وأما بحسب التركيب فمن وجوه أربعة:

الأول: باعتبار كيفية التركيب بحسب الإعراب ومقابله من حيث إنها مؤدية أصل المعنى، وهو ما دل عليه المركب بحسب الوضع وذلك متعلق بعلم النحو

الثاني: باعتبار كيفية التركيب من جهة إفادته معنى المعنى؛ أعني لازم أصل المعنى الذي يختلف باختلاف مقتضى الحال في تراكيب البلغاء، وهو الذي يتكفل بإبراز محاسنه علم المعاني

الثالث: باعتبار طرق تأدية المقصود بحسب وضوح الدلالة وحقائقها ومراتبها، وباعتبار الحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه، وهو ما يتعلق بعلم البيان

والرابع: باعتبار الفصاحة اللفظية والمعنوية والاستحسان ومقابله، وهو يتعلق بعلم البديع "[9]

ومن الجدير بالذكر أن الزركشي استقى قانون التفسير من علوم اللغة العربية من علمي اللغة والبلاغة معا، وهما العلمان اللذان تشكل منهما علم

[9] البرهان ، ص١٧٠ -١٧١ ، ج٢

الأسلوب، ومن اللافت للنظر أن الزركشي عبر عن هذا دون تقسيم قانونه في التفسير على حسب علمي اللغة والبلاغة، ولكن حسب المستوى الإفرادي والمستوى التركيبي ثم أدرج تحت كل مستوى أقسام علمي اللغة والبلاغة اللذين تشكل منهما منهجه في تناول النص القرآني

وقد اقترب الزركشي من التصور النقدي الحديث في دراسته الأسلوب، وذلك بجمعه بين الأدوات اللغوية المتمثلة في مستويات الأسلوب على اختلافها، والأدوات غير اللغوية المتمثلة في الظروف المحيطة بالنص من أسباب نزول وغيرها

وبوضوح هذا التناول الأسلوبي عند الزركشي نجد أنه يتناول القضايا اللغوية المختلفة تحت مظلة مستويات الأسلوب، ومن تلك القضايا قضية الإجمال في النص القرآني، بمعنى غموض الدلالة في تناول بعض الآيات، فيربط بين الدلالة وبين بقية مستويات الأسلوب المختلفة ليعرف أسباب ذلك الغموض من ناحية، ويكشف عن الدلالة من ناحية أخرى

وهذا الغموض الدلالي له تسعة أسباب ترجع لمستويات الأسلوب وظواهره، فلنتأمل رصد الزركشي لهذا الغموض وأسبابه "في الإجمال ظاهرا وأسبابه .

وأما ما فيه من الإجمال في الظاهر فكثير، وله أسباب:

أحدها: أن يعرض من ألفاظ مختلفة مشتركة وقعت في التركيب كقوله تعالى ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾[10]، قيل: معناه كالنهار مبيضة لا شيء فيها، وقيل: كالليل مظلمة لا شيء فيها .....

الثاني: من حذف في الكلام كقوله ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾[11]، قيل معناه ترغبون في نكاحهن لمالهن، وقيل معناه عن نكاحهن لزمانتهن وقلة مالهن، والكلام يحتمل الوجهين.....

10 القلم ، الآية ٢٠
11 النساء ، الآية ١٢٧

الثالث: من تعيين الضمير كقوله تعالى ﴿ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾[12]، فالضمير في "يده" يحتمل عوده على الولي وعلى الزوج، ورجح الثاني لموافقته للقواعد....

الرابع: من مواقع الوقف والابتداء كقوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[13]، فقوله "الراسخون" يحتمل أن يكون معطوفا على اسم الله تعالى، ويحتمل أن يكون ابتداء كلام، وهذا الثاني هو الظاهر.....

الخامس: من جهة غرابة اللفظ كقوله تعالى ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾[14] .

السادس: من جهة عدم كثرة استعماله الآن كقوله تعالى ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[15]، و﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾[16]، بمعنى "يسمعون"، ولا يقول أحد الآن: ألقيت سمعي، وكذا قوله ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾[17]، أي متكبرا، وقوله ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾[18]، أي يسرون ما في ضمائرهم، وكذا ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾[19]، أي نادما.....

السابع: من جهة التقديم والتأخير كقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[20]، وتقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما، ولولا هذا التقدير لكان منصوبا كالإلزام.....

12 البقرة ، الآية ٢٣٧
13 آل عمران ، الآية ٧
14 البقرة ، الآية ٢٣٢
15 ق ، الآية ٣٧
16 الشعراء ، الآية ٢٢٣
17 الحج ، الآية ٩
18 هود ، الآية ٥
19 الكهف ، الآية ٤٢
20 طه ، الآية ١٢٩

الثامن: من جهة المنقول المنقلب كقوله تعالى ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾[21]، أي "طور سينا".....

التاسع: المكرر القاطع لموصل الكلام في الظاهر كقوله تعالى﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾[22]، معنـــــاه: يدعون من دون الله شركاء إلا الظن....."[23]

ويمكن إرجاع تلك الأسباب المؤدية للغموض من خلال التناول التطبيقي لها على الآيات إلى مستويات الأسلوب وظواهره كالتالي:

١ – الأداء الصوتي	- من مواقع الوقف والابتداء
٢ – تغير البنية صرفيا	- المنقول المنقلب
٣ – العلاقات التركيبية	- من تعيين الضمير
	- القاطع لموصل الكلام
٤ – العدول التركيبي	- من حذف في الكلام
	- التقديم والتأخير
٥ – دلالة معجمية	- ألفاظ مختلفة مشتركة
	- غرابة اللفظ
٦ – تصوير	- عدم كثرة استعماله الآن

ويتناول الزركشي قضية التأويل المنقاد ورصد الخلاف بين الأئمة فيه لثلاثة أمور هي دلالة اللفظ، والعلاقات التركيبية، والإيجاز "التأويل ينقسم إلى منقاد ومستكره، فالأول ما لا تعرض فيه بشاعة أو استقباح، وقد يقع فيه الخلاف بين الأئمة:

---

21 التين ، الآية ٢
22 يونس ، الآية ٦٦
23 البرهان ، ص٢٠٤ – ٢٠٨ ، ج٢

إما لاشتراك في اللفظ نحو﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[24]، هل هو من بصر العين أو القلب .

وإما لأمر راجع إلى النظم كقوله تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾[25]، هل هذا الاستثناء مقصور على المعطوف وحده أو عائد إلى الجميع ؟

وإما لغموض المعنى ووجازة النظم كقوله تعالى﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[26]، وإما لغير ذلك "[27]

ويتناول قضية التأويل المستكره فيرجعها إلى أربعة أمور تندرج تحت دلالة التركيب أو مفرداته على العموم، والتلفيق بين آيتين في سياقين مختلفين، وحمل الاستعارة على الحقيقة، والاشتقاق الخاطئ، وهي كما بينها الزركشي "أما المستكره فما يستبشع إذا عرض على الحجة، وذلك على أربعة أوجه:

الأول: أن يكون لفظا عاما فيختص ببعض ما يدخل تحته كقوله ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[28]، فحمله بعضهم على عليّ– رضي الله عنه– فقط .

والثاني: أن يلفق بين اثنين كقول من زعم تكليف الحيوانات في قوله ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[29]، مع قوله تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[30]، إنهم مكلفون كما نحن .

الثالث: ما استعير فيه كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[31]، في حمله على حقيقته.

---

24 الأنعام ، الآية ١٠٣
25 النور ، الآية ٥
26 البقرة ، الآية ٢٢٧
27 البرهان ، ص١٧٥ ، ج٢
28 التحريم ، الآية ٤
29 فاطر ، الآية ٢٤
30 الأنعام ، الآية ٣٨
31 القلم ، الآية ٤٢

الرابع: ما أشعر به باشتقاق بعيد كما قال بعض الباطنية في البقرة إنه إنسان يبقر عن أسرار العلوم .

والأول أكثر ما يروج على المتفقهة الذين لم يتبحروا في معرفة الأصول، والثاني على المتكلم القاصر في معرفة شرائط النظم، والثالث على صاحب الحديث الذي لم يهذب في شرائط قبول الأخبار، والرابع على الأديب الذي لم يتهذب بشرائط الاستعارات والاشتقاقات "[٣٢]

ومن النصين السابقين يمكننا أن نرجع تلك الأمور السبعة إلى مستويات الأسلوب وظواهره كالتالي :

١ – التعدد الدلالي	- اشتراك في اللفظ
غموض الدلالة	- وجازة اللفظ وغموض المعنى
٢ – العلاقات التركيبية	- النظم
دلالة التركيب	- عموم دلالة اللفظ
٣ – التصوير	- ما استعير فيه
٤ – الصرف	- ما أشعر به باشتقاق بعيد
٥ – السياق	- يلفق بين آيتين

الدرس التطبيقي

أما الجانب التطبيقي عند الزركشي الذي تتلاقى فيه مستويات الأسلوب فيظهر لنا من تحليل الزركشي لبعض الآيات حسب منهجه أو قانونه العام في التفسير الذي يتشكل من مستويات الأسلوب كما مر بنا

ومن أطول التحليلات التي تضمنت مفاضلة بين إحدى الآيات من النص القرآني وبين قول مأثور لعلي بن أبي طالب– رضي الله عنه– نجد أن الزركشي قد

[32] البرهان ، ص١٧٦ ، ج٢

جمع أكثر من عشرين فرقا بينهما من الأقوال المختلفة وزاد الزركشي عليها، أما هذه الفروق فقد رصدها حسب مستويات الأسلوب، وفيما يلي نرصد بعضا منها:

"وقد نظر لقول العرب: "القتل أنفى للقتل" وهو بنون ثم فاء، ويروى بتاء ثم قاف، ويروى "أوقى"، والمعنى أنه إذا أقيم وتحقق حكمه خاف من يريد قتل أحد أن يقتص منه، وقد حكاه الحوفي في تفسيره عن علي بن أبي طالب، وقال: قول عليّ في غاية البلاغة، وقد أجمع الناس على بلاغته وفصاحته، وأبلغ منه قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[٣٣]، وقد تكلموا في وجه الأبلغية. انتهى.....

وجملة ما ذكروا في ذلك وجوه:.....

الثالث: أن لفظ "القصاص" فيه حروف متلائمة لما فيه من الخروج من القاف إلى الصاد؛ إذ القاف من حروف الاستعلاء، والصاد من حروف الاستعلاء والإطباق بخلاف الخروج من القاف إلى التاء، التي هي حرف منخفض فهو غير ملائم، وكذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد ما دون طرف اللسان وأقصى الحلق.

الرابع: من النطق بالصاد والحاء والتاء حسن الصوت ولا كذلك تكرير القاف والفاء.

الخامس: تكرير ذلك في كلمتين متماثلتين بعد فصل طويل وهو ثقل في الحروف والكلمات "[٣٤]

"الثامن: الطباع أقبل للفظ "الحياة" من كلمة "القتل" لما فيه من الاختصار وعدم تكرار الكلمة وعدم تنافر الحروف وعدم تكرار الحرفين، وقبول الطبع للفـــظ "الحياة" وصحة الإطلاق "[٣٥]

"السادس عشر: أن اللفظ المنطوق به إذا توالت حركاته تمكن اللسان من النطق وظهرت فصاحته بخلاف إذا تعقب كل حركة سكون، والحركات تنقطع بالسكنات، نظيره إذا تحركت الدابة أدنى حركة فخنست ثم تحركت فخنست لا يتبين انطلاقها، ولا تتمكن من حركتها على ما نختاره وهي كالمقيدة، و قولهم "القتل أنفى للقتل" حركاته متعاقبة بالسكون بخلاف الآية "[٣٦]

[33] البقرة ، الآية ١٧٩
[34] البرهان ، ص٢١٩ ، ج٣
[35] البرهان ، ص٢٢٠ ، ج٣
[36] البرهان ، ص٢٢١ ، ج٣

ومن الفروق السابقة بين الآية والمثل يتضح أنه اعتمد فيها على المستوى الصوتي من حيث صفات الأصوات ومخارجها وتلاؤم تلك الصفات مع بعضها البعض في تركيب الأصوات، والحركات من حيث تتابعها وما تحدثه من أثر صوتي على المتلقي، وتنافر الأصوات وتكرارها وعلاقة ذلك بالثقل.

أما الاعتماد على الصرف في رصد الفروق بين الآية والمثل فيظهر في رصد دلالة أفعل التفضيل على الاشتراك، واشتقاقها من فعل متعد "الرابع عشر: فيه بناء أفعل التفضيل من متعد والآية سالمة منه.

الخامس عشر: أن "أفعل" في الغالب تقتضي الاشتراك فيكون ترك القصاص نافيا القتل، ولكن القصاص أكثر نفيا وليس الأمر كذلك، والآية سالمة من هذا "[37]

أما الاعتماد على التركيب فيظهر في رصد أفضلية الإثبات على النفي "السادس: الإثبات أول والنفي ثان عنه، والإثبات أشرف "[38]

ومن رصد العلاقات المنطقية القائمة بين مفردات التركيب المؤدية إلى الترابط والتماسك داخل التركيب "الثاني عشر: فيه دلالة على ربط المقادير بالأسباب، وإن كانت الأسباب أيضا بالمقادير، وكلام العرب يتضمنه إلا أن فيه زيادة وهي الدلالة على ربط الأجل في الحياة بالسبب لا من مجرد نفي القتل "[39]

ومن رصد دلالة التركيب على التخصيص "وأما زيادة "لكم" ففيها لطيفة، وهي بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص وأنهم المراد حياتهم لا غيرهم، لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم "[40]

أما الاعتماد على الدلالة فيظهر من رصد العلاقات الدلالية القائمة بين المفردات ومن ذلك علاقة الطباق "الثامن عشر: أن في الآية طباقا؛ لأن القصاص مشعر بضد الحياة بخلاف المثل "[41]

ورصد دلالة التنكير على التعظيم، والتعريف على الجنس "الثالث عشر: في تنكير "حياة" نوع تعظيم، يدل على أن في القصاص حياة متطاولة كقوله﴿

37 البرهان ، ص٢٢٠ ، ج٣
38 البرهان ، ص٢١٩ ، ج٣
39 البرهان ، ص٢٢٠ ، ج٣
40 البرهان ، ص٢٢٢ ، ج٣
41 البرهان ، ص٢٢١ ، ج٣

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾[42]، ولا كذلك المثل، فإن اللام فيه للجنس ولهذا فسروا الحياة فيه بالبقاء"[43]

هذا ويرصد الزركشي ما يندرج تحت التصوير باستدعاء لفظ "حياة" للضد وهو الفناء والموت وحضوره في الآية "السابع عشر: الآية اشتملت على فن بديع، وهو جعل أحد الضدين الذي هو الفناء والموت محلا ومكانا لضده الذي هو الحياة، واستقرار الحياة في الموت مبالغة عظيمة "[44]

ويتناول الزركشي العديد من آيات النص القرآني بالتحليل الذي يعتمد فيه على الأدوات الأسلوبية، ومن تلك التحليلات ما أورده في قوله تعالى﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾[45]، من ثمانية وجوه تتوزع على العلاقات التركيبية القائمة بين مكونات التركيب في الآية من حيث الوجوه الإعرابية المختلفة، وظواهر التركيب كالعدول التركيبي المتمثل في التقديم والتأخير ودلالته، والحذف وتأثيره في دلالة الآية.

ومن جهة الصرف نجد العدول الصرفي عن استخدام صيغة المفرد على استخدام صيغة الجمع ودلالة تلك الصيغة.

ومن جهة الدلالة يرصد الدلالة المعجمية لـ "جعلوا" وسبب اختيار الصياغة لها دون غيرها مما يؤدي المعنى ويرصد دلالة التعيين في كلمة "الجن"، والفرق بين تعيينها وبين تنكيرها، والدلالة السياقية لـ "الجعل" في النص القرآني من حيث ارتباطها بالسياقات المخالفة للرحمة والمشيئة والعلم.

وفيما يلي نسرد هذا التحليل للوقوف على مدى اعتماد الزركشي على مستويات الأسلوب في تحليله للآية "قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾[46]، إن جعلنا قوله "لله شركاء" مفعولي "جعلوا"، لأن "لله" في موضع الخبر المنسوخ، و"شركاء" نصب في موضع الخبر، وعلى هذا فيحتمل وجهين:

42 البقرة ، الآية ٩٦
43 البرهان ، ص ٢٢٠ ، ج٣
44 البرهان ، ص٢٢١ ، ج٣
45 الأنعام ، الآية ١٠٠
46 الأنعام ، الآية ١٠٠

أحدهما: أن يكون مفعولا بفعل محذوف دل عليه سؤال مقدر كأنه قيل: أجعلوا لله شركاء؟، قيل: جعلوا الجن فيفيد الكلام إنكار الشريك مطلقا فدخل اعتقاد الشريك من غير الجن في إنكار دخول اتخاذه من الجن.

الثاني: ذكره الزمخشري: أن الجن بدل من "شركاء" فيفيد إنكار الشريك مطلقا كما سبق، وإن جعل "لله" صلة كان "شركاء الجن" مفعولين قدم ثانيهما على أولهما وعلى هذا فلا حذف.

فأما على الوجه الأول فقيل: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾، ولم يقل: "وجعلوا الجن شركاء الله" تعظيما لاسم الله تعالى لأن شأن الله أعظم في النفوس، فإذا قدم "لله" والكلام فيه يستدعي طلب المجعول له ما هو؟، فقيل: شركاء، وقع في غاية التشنيع؛ لأن النفس منتظرة لهذا المهم المعلق نهاية التعظيم، فإذا علم أنه علق به هذا المستبشع في النهاية كان أعظم موقعا من العكس؛ لأنه إذا قيل: وجعلوا شركاء في أموالهم وصدقاتهم أو غير ذلك.

الثالث: أن الجعل غالبا لا يتعلق بالله ويخبر به إلا وهو جعل مستقبح كاذب، إذ لا يستعمل جعل الله رحمة ومشيئة وعلما ونحوه، لا سيما بالاستقراء القرآني كـ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾[47]، ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾[48]، إلى غير ذلك.

الرابع: أن أصل الجعل وإن جاز إسناده إلى الله فيما إذا كان الأمر لائقا، فإن بابه مهول؛ لأن الله تعالى قد علمنا عظيم خطره، وألا نقول فيه إلا بالعلم كقوله ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[49]، ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[50]، إلى غير ذلك، مع ما دل عليه الأدب عقلا، وكان نفس الجعل مستنكرا إن لم يتبع بمجعول لائق، فإذا أتبع بمجعول غير لائق منهم ثم فسر بخاص مستنكر صار قوله ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾[51]، في قوة إنكار ذلك ثلاث مرات: الأول جسارتهم في أصل الجعل، الثاني في كون المجعول شركاء، الثالث في أنهم شركاء جن.

47 النحل ، الآية ٥٧
48 النحل ، الآية ٦٢
49 البقرة ، الآية ١٦٩
50 النجم ، الآية ٢٨
51 الأنعام ، الآية ١٠٠

الخامس: أن في تقديم "لله" إفادة تخصيصهم إياه بالشركة على الوجه الثالث دون جميع ما يعبدون لأنه الإله الحق.

السادس: أنه جيء بكلمة "جعلوا" لا "اعتقدوا" ولا "قالوا" لأنه أدل على إثبات المعتقد؛ لأنه يستعمل في الخلق والإبداع.

السابع: كلمة "شركاء" ولم يقل "شريكا" وفاقا لمزيد من فتحوا من اعتقادهم

الثامن: لم يقل "جنا" وإنما قال "الجن" دلالة على أنهم اتخذوا الجن كلها، وجعلوه من حيث هو صالح لذلك وهو أقبح من التنكير الذي وضعه للمفردات المعدولة "[52]

ويقوم الزركشي بتحليل مجموعة من الآيات المتتالية في سياق واحد معتمدا على المستوى التركيبي والصرفي والدلالي

وما يندرج تحت الصرف فمن تناوله لصيغة الماضي وصيغة المضارع ودلالتهما على التحقق والتجدد والاستمرار، وما يندرج تحت التركيب فمن تناوله للعلاقات التركيبية في قالب العطف مع رصد دلالات أدوات العطف، الفاء على الجواب، والواو على الجمع وعدم التفريق بين المتعاطفين، و"ثم" على التراخي بين شيئين.

وما يندرج تحت الدلالة ما تناوله من دلالة الضمير "هو" على الحصر والاختصاص برفع التوهم، ورصد الدلالة العامة للآيات عموما "وقوله ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾[53]، أتى بالماضي في "خلق"، لأن خلقه مفروغ منه، وأتى بالفاء دون الواو لأنه كالجواب، إذ من صوّر المنيّ قادر على أن يصيره ذا هدى، و"هو" للحصر لأنهم كانوا يزعمون أن آلهتهم تهديهم، ثم قال ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾[54]، فأتى بالمضارع لبيان تجدد الإطعام والسقيا وجاءت الواو دون الفاء لأنهم كانوا يعلمون أنه من إله، وأتى بـ "هو" لرفع ذلك، ودخلت الفاء في ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ

52 البرهان ، ص١٩٨ – ١٩٩ ، ج٣
53 الشعراء ، الآية ٧٨
54 الشعراء ، الآية ٧٩

﴾[55]، لأنه جواب، ولم يقل: "إذا مرضت فهو يشفين"، إذ يفوت ما هو موضوع لإفادة التعقيب ويذهب الضمير المعطى معنى الحصر، ولم يكونوا منكرين الموت من الله، وإنما أنكروا البعث فدخلت "ثم" لتراخي ما بين الإماتة والإحياء "[56]

ملابسات النص

يمثل البحث في ملابسات النص أو ما يحيط به من نصوص الملمح الثاني من الملامح المنهجية عند الزركشي

ولهذا نجد اعتماد المفسرين على أسباب النزول للكشف عن بعض دلالات النص القرآني، وهو ما اعتمد عليه الزركشي أيضا، وأورده النوع الأول من علوم القرآن في كتابه، وهذا يعبر عن أهمية الإحاطة بأسباب النزول في تفسير النص القرآني، فـ "علم أسباب النزول ومعرفة أحوال العرب قبل الإسلام له فوائده الملموسة في مجال الدرس القرآني، وذلك في تقديم إنارات كاشفة في فهم بعض الآيات "[57]

وتلك الأهمية تظهر عند الزركشي من فوائد أسباب النزول "وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته لجريانه مجرى التاريخ، وليس كذلك، بل له فوائد:

منها: وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم

ومنها: تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب

ومنها: الوقف على المعنى، قال الشيخ أبو الفتح القشيري: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز "[58]

أما من الناحية التطبيقية فنجد أن الزركشي يقوم بالاعتماد على أسباب النزول للوقوف على الدلالة الصحيحة للآيات، ومن ذلك الاعتماد على أسباب النزول للاستدلال على وقوع الإخبار بالمفرد عن الجمع في النص القرآني "وقد

55 الشعراء ، الآية ٨٠
56 البرهان ، ص٦٦ ، ج٤
57 محمد و الفتح ، د. طارق سعد شلبي ، ص٢٩
58 البرهان ، ص٦١ ، ج١

يقع الإخبار بلفظ المفرد عن لفظ الجمع، وإن أريد معناه لنكتة، كقوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾[59]، فإن سبب النزول وهو قول أبي جهل: نحن ننتصر اليوم، يقضي بإعراب "منتصر" خبرا "[60]

ومن ذلك البحث في ذكر جبريل وميكائيل– عليهما السلام– في قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾[61]، دون ذكر بقية الملائكة أو تخصيصهما بالذكر بالرغم من دخولهما في عموم كلمة "الملائكة"، ويرجع الزركشي ذلك لأسباب النزول "وفي الآية سؤالان:

أحدهما: لم خص جبريل وميكائيل بالذكر ؟

الثاني: لم قدم جبريل عليه ؟

والجواب عن الأول أنه سبحانه وتعالى خصهما بالحياة، فجبريل بالوحي الذي هو حياة القلوب، وميكائيل بالرزق الذي هو حياة الأبدان، ولأنهما كانا سبب النزول في تصريح اليهود بعداوتهما...."[62]

ويشير إلى أسباب النزول ليوقع المناسبة بين فعل الشرط وجوابه في "قوله تعالى﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[63]، فمناسبة الجزاء للشرط أنه لما أقدم المؤمنون– وهم ثلاثمائة وبضعة عشر– على قتال المشركين– وهم زهاء ألف– متوكلين على الله تعالى، وقال المنافقون ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾[64]، حتى أقدموا على ثلاثة أمثالهم عددا أو أكثر، قال الله تعالى ردا على المنافقين وتثبيتا للمؤمنين ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، في جميع أفعاله "[65]

إن إفراد الزركشي في النوع التاسع من علوم القرآن في كتابه البرهان؛ الدرس للآيات المكية والآيات المدنية وضرورة معرفة مكان نزول الآيات أو

59 القمر ، الآية ٤٤
60 البرهان ، ص٢٧٨ ، ج٢
61 البقرة ، الآية ٩٨
62 البرهان ، ص٤٥١ ، ج٢
63 الأنفال ، الآية ٤٩
64 الأنفال ، الآية ٤٩
65 البرهان ، ص١٢٨ ، ج١

زمانها؛ يعد في حد ذاته مظهرا من المظاهر المهمة للاعتماد على ملابسات النص وظروفه في رحلة الكشف عن دلالاته

وما نعنيه بذلك أن الزركشي ربط بين الآيات المدنية وبين النزول بعد الهجرة، وربط بين الآيات المكية وبين النزول قبل الهجرة، وإذا أخذنا في الاعتبار اختلاف أحوال المسلمين بعد الهجرة وقبلها، ومناسبة آيات النص القرآني لأحوالهم من حيث حاجتهم إلى قواعد الدين وأحكامه وما ينظم حياتهم بعد الهجرة؛ نصل إلى أهمية معرفة المكي والمدني من الآيات للكشف عن دلالات النص القرآني؛ إذ ربط الزركشي بين الآيات المدنية وبين الدلالة الكلية على الحدود والفرائض، وربط بين الآيات المكية وذكر الماضي مما يدعو الناس للإيمان بالله، وهو ما يظهر من تمثله بقول هشام الكلبي "وقال هشام عن أبيه: كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية، وكل ما كان فيه ذكر القرون الماضية فهي مكية "[٦٦]

هذا وقد ربط الزركشي بين الآيات المدنية والخطاب لمن أقر بالأنبياء أي أهل الأديان السماوية، وربط بين الآيات المكية وبين الدين عموما الذي اتفق عليه الأنبياء أو الخطاب للناس، ولهذا فقد كان الخطاب في المكي لجميع الناس، وفي المدني لأهل الكتاب، وما يهمنا هنا هو التمييز في الخطاب– لغير المسلمين– بين المكي والمدني من الآيات، ولا شك أن هذا التمييز يلفتنا إلى ضرورة معرفة المكي والمدني للوقوف على دلالة أسلوب النداء من ناحية، وكيفية تشكيل الخطاب حسب المخاطب وحاله من ناحية أخرى "ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء فخوطب جميع الناس، والسور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين، فخوطبوا: يا أهل الكتاب، يا بني إسرائيل "[٦٧]

ويمثل الحديث الشريف مصدرا من مصادر الكشف عن دلالات النص القرآني؛ إذ يعول الزركشي عليه في العديد من المواضع التي ربما غمضت الدلالة فيها، أو التي جاءت الدلالة فيها مجملة، فيكون الكشف عنها أو تفصيلها بالرجوع إلى الحديث الشريف

وما من شك أن الحديث الشريف يعتبر من النصوص التي يعتمد عليها من خارج النص القرآني، ولهذا نجد أن الزركشي قد أفرد النوع الأربعين من كتابه لبيان معاضدة السنة للقرآن الكريم، فأورد في هذا النوع العديد من آيات النص القرآني التي تتضح دلالاتها بالرجوع إلى الحديث الشريف "اعلم أن القرآن

66 البرهان ، ص٢١٦ ، ج١
67 البرهان ، ص٢٩٧ ، ج١

والحديث أبدا متعاضدان على استيفاء الحق وإخراجه من مدارج الحكمة؛ حتى إن كل واحد منهما يخصص عموم الآخر ويبين إجماله"[٦٨]

ومن الناحية التطبيقية يشير الزركشي إلى عموم العذاب لحدّ الزنا في النص القرآني ويخصصه بحكم الرسول وأمره بالرجم "وقد أقسم النبي– صلى الله عليه وسلم– أن يحكم بينهما بكتاب الله، ولكن الرجم فيه تعريض مجمل في قوله تعالى ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾[٦٩]، وأما تعيين الرجم من عموم ذكر العذاب، وتفسير هذا المجمل فهو مبين بحكم الرسول وبأمره به "[٧٠]

ويشير إلى الرجوع إلى السنة عند غموض الدلالة في النص القرآني، ويمثل لذلك بأحكام الطهارة والصلاة والزكاة وغيرها مما ورد في السنة الشريفة مفصلا "وبيانه إما في آية أخرى، أو في السنة؛ لأنها موضوعة للبيان، قال تعالى ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٧١]

والثاني: ككثير من أحكام الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والمعاملات والأنكحة والجنايات وغيرذلك كقوله تعالى ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾[٧٢]، ولم يذكر كيفية الزكاة ولا نصابها، ولا أوقاصها ولا شروطها ولا أحوالها، ولا من يجب عليه، وكذا لم يبين عدد الصلاة ولا أوقاتها "[٧٣]

ويستند الزركشي على إجابة دعوة الداعي إذا لم تحقق له في الدنيا بحديث الرسول– صلى الله عليه وسلم– في أنواع استجابة الدعاء من التعجيل بها في الدنيا أو التأجيل في الآخرة، أو دفع السوء عن الداعي "ومنه قوله تعالى ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[٧٤]، وكثير من الناس يدعون فلا يستجاب لهم، وبيانه بقوله تعالى﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾[٧٥]، فبين أن الإجابة متعلقة بالمشيئة،

68 البرهان ، ص١٢٤ ، ج٢
69 النور ، الآية ٨
70 البرهان ، ص١٢٤ ، ج٢
71 النحل ، الآية ٤٤
72 الأنعام ، الآية ١٤١
73 البرهان ، ص١٨٠ ، ج٢
74 البقرة ، الآية ١٨٦
75 الأنعام ، الآية ٤١

على أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قد فسر الإجابة بقوله "ما من مسلم دعا الله بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطاه الله إحدى ثلاث خصال، إما يعجل دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها " ، "[٧٦]

الإحصاء

يعد الإحصاء ملمحا من الملامح المنهجية التي اتبعها الزركشي في تناوله للنص القرآني من خلال كتابه البرهان، فالزركشي يقوم بعملية الإحصاء-بجانب إحصاء سور القرآن وحروفه- للدلالات الكلية للنص القرآني، وإحصاء لبعض الألفاظ الواردة فيه وإحصاء لدلالاتها المعجمية، وإحصاء للتراكيب المتكررة والظواهر الأسلوبية المختلفة، علاوة على إحصاء التصانيف والكتب التي تناولت النص القرآني أو علومه "والذي-لا شك فيه- أن المنهج الإحصائي أصبح صاحب اليد الطولى في مجال الأسلوبيات باعتباره نموذجا للدقة العملية التي لا تترك مجالا لذاتية الناقد أو الباحث كي تنفذ إلى العمل الأدبي "[٧٧]

وفيما يلي نمثل لتلك الإحصاءات بما يدلل على اعتماد الزركشي لها باعتبارها ملمحا منهجيا ظاهرا في كتابه البرهان

تميز إيراد الزركشي لعلوم القرآن كما تصورها بإحصاء التصانيف والكتب والمؤلفين لتلك العلوم، وذلك بداية تناوله للعلم الذي يورده، ومن ذلك إحصاء من صنف من المؤلفين في علم المبهمات "علم المبهمات: وقد صنف فيه أبو القاسم السهيلي كتابه المسمى بالتعريف والإعلام، وتلاه تلميذه ابن عساكر في كتابه المسمى بالتكميل والإتمام "[٧٨]

وهذا الوجه من الإحصاء يظهر لنا حرص الزركشي على وصل جهده بجهد السابقين عليه وإثباته الأسماء والكتب والمؤلفين إشارة إلى مبلغ اهتمامه بذلك

أما الوجه الثاني للإحصاء، فيتمثل في إحصاء ورود بعض الألفاظ أو الأدوات في النص القرآني ومن ذلك "بلى" ذاكرا عدد ورودها، والسور التي

76 البرهان ، ص١٨٦ ، ج٢
77 البلاغة و الأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ، ص١٩٨
78 البرهان ، ص١٨٤ ، ج١

وردت فيها "الكلام على بلى: وأما "بلى" فقد وردت في القرآن في اثنين وعشرين موضعا في ست عشرة سورة....."[٧٩]

وإحصاء لورود "نعم" في النص القرآني والمواضع التي وردت فيها مميزا بين التي يوقف عليها عند التلاوة، والتي لا يوقف عليها "وأما "نعم" ففي القرآن في أربعة مواضع: في الأعراف ﴿ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٞ ﴾[٨٠]، والمختار الوقف؛ إذ ليس هو قول أهل النار، و ﴿قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ من قولهم

والثاني والثالث في الأعراف والشعراء ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ ﴾[٨١]

الرابع في الصافات ﴿ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴾[٨٢]، والمختار ألا يوقف على "نعم" في هذه المواضع لتعلقها بما بعدها وبما قبلها لاتصاله بالقول "[٨٣]

ومن اللافت للنظر أن الإحصاء في النصين السابقين له هدف محدد عند الزركشي وهو رصد ما يوقف عليه وما لا يوقف عليه من تلك الألفاظ لتوجيه المتلقي إلى التمييز بين "نعم" التي يوقف عليها وتلك التي لا يوقف عليها لتوضيح اتصال التراكيب أو انفصالها، وما يستتبع ذلك من اكتمال الدلالة أو عدم اكتماله

أما الوجه الثالث للإحصاء فيتمثل في إحصاء بعض الدلالات المعجمية في عموم النص القرآني والهدف من ذلك بيان اختلاف الدلالات المعجمية للفظ باختلاف موضعه أو سياقه

وهذا الشكل من الإحصاء يمكنه أن يكشف عن الملامح الأسلوبية في النص، ويمكنه "إبعاد الحدس لصالح القيم العددية ويجتهد لتحقيق هذا الهدف بتعداد العناصر المعجمية في النص "[٨٤]

لنتأمل نقل الزركشي عن ابن فارس بعض الدلالات المعجمية ومن ذلك دلالة الأسف على الحزن في عموم النص القرآني إلا في مواضع جاءت بمعنى

79 البرهان ، ص٤١٥ ، ج١
80 الأعراف ، الآية ٤٤
81 الأعراف ، الآية ١١٤ ، الشعراء ، الآية ٤٢
82 الصافات ، الآية ١٨
83 البرهان ، ص٤١٧ ، ج١
84 البلاغة و الأسلوبية ، هنريش بليت ، ت د. محمد العمري ، ص٥٨ ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، ١٩٩٩

الغضب والغيظ[85] "كل ما في كتاب الله من ذكر "الأسف" فمعناه الحزن كقوله تعالى في قصة يعقوب عليه السلام﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾[86]، إلا قوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾[87]، فإن معناه "أغضبونا"، وأما قوله في قصة موسى عليه السلام ﴿ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا ﴾[88]، فقال ابن عباس "مغتاظا"، "[89]

أما الوجه الرابع للإحصاء فيتمثل في إحصاء بعض الظواهر اللغوية في النص القرآني، ومما لا شك فيه أن للإحصاء القدرة "على إكمال الصورة التي تقدمها الدراسة للظاهرة؛ إذ تكشف عن مقدار وجودها داخل النص "[90]

ومن الظواهر التركيبية[91] ما يختص بالتقديم والتأخير لبعض المفردات على بعضها الآخر في عموم النص القرآني كتقديم "الضر" على "النفع" في عموم النص القرآني إلا في سبعة مواضع يوردها الزركشي مدللا على أسباب التقديم والتأخير في تلك المواضع حسب علاقاتها بما قبلها، وبالسياق الواردة فيه "ومنه تقديم لفظ "الضرر" على "النفع" في الأكثر؛ لأن العابد يعبد معبوده خوفا من عقابه أولا، ثم طمعا في ثوابه

وحيث تقدم النفع على الضر فلتقدم ما يتضمن النفع، وذلك في سبعة مواضع، ثلاثة منها بلفظ الاسم وهي في الأعراف[92] والرعد[93] وسبأ[94]، وأربعة بلفظ الفعل وهي في الأنعام ﴿ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾[95]، وفي آخر يونس﴿ مَا لَا

85 و منها دلالة " جثيا " على " جميعا " ، إلا في موضع واحد جاءت دلالتها على الجثو على الركبة " و كل شيء في القرآن " جثيا " فمعناه " جميعا " إلا التي في سورة الشريعة (و ترى كل أمة جاثية)الجاثية ٢٨، فإنه أراد تجثو على ركبتيها "انظر البرهان ص١٤٢ ، ج١، و ما بعدها
86 يوسف ، الآية ٨٤
87 الزخرف ، الآية ٥٥
88 الأعراف ، الآية 150 ، طه ، الآية ٨٦
89 البرهان ، ص١٤١ ، ١
90 محمد و الفتح ، د. طارق سعد شلبي ، ص٢٠
91 و من تلك الظواهر التي أحصاها الزركشي تقديم التراكيب الدالة على العتاب على الفعل المتعلق بالله – عز و جل – ليستنبط من تلك الظاهرة دلالة التحريم ، و ذلك في خمسة مواضع أشار إليها الزركشي في النص القرآني " تقديم العتاب على الفعل من الله تعالى يدل على تحريمه فقد عاتب سبحانه في خمسة مواضع من كتابه : في الأنفال و براءة و الأحزاب و التحريم و عبس "انظر البرهان ص١٣ ، ج٢
92 الآية (قل لا أملك لنفسي نفعا و لا ضرا)، الأعراف ، الآية ١٨٨
93 الآية (قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا) ، الرعد ، الآية ١٦
94 الآية (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا و لا ضرا) ، سبأ ، الآية ٤٢
95 الأنعام ، الآية ٧١

يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ ﴾[96]، وفي الأنبياء﴿ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴾[97]، وفي الفرقان ﴿ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ ﴾[98]

أما في الأعراف فلتقدم قوله﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ ﴾[99]، فقدم الهداية على الضلال، وبعد ذلك﴿ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ ﴾[100]، فقدم الخير على السوء، وكذا قدم النفع على الضر

أما في الرعد فلتقدم "الطوع" في قوله ﴿ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾[101]، وأما في سبأ فلتقدم "البسط" في قوله ﴿ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾[102] ، "[103]

ويتمثل الوجه الخامس للإحصاء في حصر بعض التراكيب[104] الواردة في النص القرآني، ومن ذلك التركيب المتكون من "ما" و"إلا" الدال على الاستثناء، وقد أحصى لهذا التركيب في النص القرآني ثلاثة وعشرين موضعا لا يدل فيها هذا التركيب "ما، إلا" على النفي في تلك المواضع "وهنا ضابط، وهو إذا ما أتت بعدها "إلا" في القرآن فهي من نفي إلا في ثلاثة وعشرين موضعا

96 يونس ، الآية ١٠٦
97 الأنبياء ، الآية ٦٦
98 الفرقان ، الآية ٥٥
99 الأعراف ، الآية ١٧٨
100 الأعراف ، الآية ١٨٨
101 الرعد ، الآية ١٥
102 سبأ ، الآية ٣٦
103 البرهان ، ص١٥٥ ، ج١
104 يحصي ورود التركيب العطفي للسموات و الأرض باختلاف التركيب الواقع فيه من حيث حروف الجر أو تكرارها مع التركيب العطفي ذاكرا عدد ورود كل تركيب في النص القرآني بهدف التمييز بين التراكيب في " قوله تعالى (من في السموات و الأرض) و نحوها : جاء في التنزيل في موضع (من في السموات و الأرض) ، و في موضع (من في السموات و من في الأرض) و الأول جاء في تسعة مواضع ، أحدها في الرحمن (يسأله من في السموات و الأرض)الرحمن ٢٩ و الثاني في أربعة مواضع ، أولها في يونس (ألا إن لله من في السموات و من في الأرض)يونس ٦٦ و جاء قوله تعالى (ما في السموات و الأرض) في أحد عشر موضعا ، أولها في البقرة (سبحانه بل له ما في السموات و الأرض كل له قانتون)البقرة ١١٦ و جاء قوله (ما في السموات و ما في الأرض) ، في ثمانية و عشرين موضعا ، أولها في آية الكرسي "انظر البرهان ، ص٧١ ، ج٤

أولها في البقرة قوله تعالى ﴿ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ ﴾[105]، الثاني﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾[106]، الثالث في النساء قوله ﴿ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ ﴾[107]،..... "[108]

والهدف من الإحصاء هنا – كما يبدو لنا– تنبيه المتلقي إلى أن هذه المواضع ليست من الاستثناء حتى لا يخلط بين الدلالة على الاستثناء أو على المصدرية أو الموصولية

ويتمثل الوجه السادس للإحصاء في إحصاء الأقوال والآراء المختلفة للعلماء تجاه شيء ما، ومنها إحصاء الأقوال في أول سورة من المفصل في النص القرآني؛ فرصد اثني عشر قولا "وفي أوله اثنا عشر قولا:

أحدها الجاثية، ثانيها القتال، وعزاه الماوردي للأكثرين، ثالثها الحجرات، رابعها "ق".....، الخامس الصافات، السادس الصف، السابع تبارك، حكى هذه الثلاثة ابن أبي الصيف اليمني في "نكت التنبيه"....."[109]

ويتمثل الوجه السابع للإحصاء عند الزركشي في إحصاء الدلالات الكلية للنص القرآني فنجده يرفض القول أن معاني القرآن لا تحصى "زعم قوم أن معاني القرآن لا تنحصر ولم يتعرضوا لحصرها "[110]، ثم أورد من أحصى الدلالات الكلية للنص القرآني، واتبع ذلك لإحصائها في ست دلالات كلية هي: الخبر والاستفهام والشرط والقسم والأمر والنفي، وقد تناولنا تلك الدلالات بالتفصيل فيما مر بنا من فصول

ومن الجدير بالذكر أن الزركشي ربط بين الإحصاء والدلالة في النص القرآني بوجه من الوجوه، لا يذكر فيه دلالة العدد، ولكن باعتبار الإحصاء للمعدود ظاهرة توجب التوقف عندها للبحث عن الدلالة، فليس المراد دلالة العدد، بل دلالة كثرته فـ "المزية الجوهرية للإحصاء مرتبطة– فيما يبدو– بقدرة الدارس على

105 البقرة ، الآية ٢٢٩
106 البقرة ، الآية ٢٣٧
107 النساء ، الآية ١٩
108 البرهان ، ص٤٠٧ ، ج٤
109 البرهان ، ص٢٧٩ ، ج١
110 البرهان ، ص٣٠٥ ، ج٢

تحويل "الكم" الرقمي للإحصاء إلى "كيف" دلالي به تثري معرفة القارئ بالنص وتحديد عناصره الفاعلة دلاليا "[111]

وقد أحصى الزركشي عدد المواضع التي ذكرت فيها السيدة مريم في النص القرآني لتنزيهها خاصة بذكر عيسى –عليه السلام– باسمها للتأكد من عبوديته لله، ونفي الأب عنه، وفي ذلك الشاهد يلمح إلى دلالة الإحصاء من جهة تكرار ذكر عيسى –عليه السلام– منسوبا لأمه بدون أب وليس دلالة العدد ذاته "لم يذكر الله تعالى امرأة في القرآن وسماها باسمها إلا مريم بنت عمران فإنه ذكر اسمها في نحو ثلاثين موضعا لحكمة ذكرها بعض الأشياخ قال: إن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم ولا يبتذلون أسماءهم يكنون عن الزوجة بالعرس والعيال والأهل ونحوه، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا عنهن ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر والتصريح بها، فلما قالت النصارى في مريم وابنها ما قالت!، صرح الله تعالى باسمها، ولم يكنّ عنها تأكيدا لأمر العبودية التي هي صفة لها، وإجراء للكلام على عادة العرب في ذكر أبنائها، ومع هذا فإن عيسى لا أب له، واعتقاد هذا واجب، فإذا تكرر ذكره منسوبا إلى الأم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله "[112]

وقد انطلق من إحصاء عدد ورود "كلا" في النص القرآني ومواضع ورودها إلى الربط بين ذلك الإحصاء باعتباره ظاهرة، وبين الدلالة بمعنى ورودها بكثرة في الآيات المكية مراعاة لحال أهل مكة من الكفر قبل الهجرة، فجاء تكرارها للتهديد والوعيد وإنكار كفرهم، أما عدم تكرارها أو عدم وجودها في الآيات المدنية لشمولها على خطاب اليهود وحالهم يختلف عن حال أهل مكة فلم ترد فيها مراعاة لحالهم من الذل والضعف "كلا في القرآن على ثلاثة أقسام:

إحداها: ما يجوز الوقف عليه والابتداء به جميعا باعتبار معنيين

والثاني: ما لا يوقف عليه ولا يبتدأ به

والثالث: ما يبتدأ به ولا يجوز الوقف عليه، وجملته ثلاثة وثلاثون حرفا تضمنها خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن، وليس في النصف الأول منها شيء، وللشيخ عبد العزيز الديريني رحمه الله:

وما نزلت "كلا" بيثرب فاعلمن * ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

111 محمد و الفتح ، د. طارق سعد شلبي ، ص٢١
112 البرهان ، ص١٩٢ ، ج١

وحكمة ذلك أن النصف الآخر نزل أكثره بمكة وأكثرها جبابرة؛ فتكررت هذه الكلمة على وجه التهديد والتعنيف لهم، والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلهم وضعفهم "[113]

ومن النصين السابقين نستطيع أن نلمح إلى اعتماد الزركشي للمنهج الإحصائي اللغوي في الكشف عن الدلالة في النص القرآني

التقسيم

يتمثل الملمح المنهجي الرابع عند الزركشي في اعتماده للتقسيم، بما يشبه الخريطة الذهنية، فالزركشي لا يتناول الموضوع أو العلم المدروس مجملا، ولكن يذكر أقسامه، وقد يقسم تلك الأقسام إلى أقسام أخرى

وهذا التقسيم بهذا الشكل يلمّح لنا إلى استقصاء الموضوع المتناول من جوانبه المختلفة، أصوله وفروعه من ناحية، والوصول من الإجمال إلى التفصيل بهدف سهولة رصد الظواهر بتجزيئها إلى أقسام من ناحية أخرى

وفيما يلي نرصد ما يدلل على التقسيم عند الزركشي:

من ذلك تناول الزركشي لأسلوب القسم، فيقسمه إلى القسم المظهر، والقسم المضمر، ثم يقسم المضمر إلى القسم باللام، والقسم بدون أداة "وهو ينقسم باعتبار آخر على مظهر ومضمر: فالمظهر كقوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[114]، ونحوه

والمضمر على قسمين: قسم دلت عليه لام القسم كقوله ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾[115]، وقسم دل عليه المعنى كقوله تعالى﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[116]، تقديره "والله"،"[117]

113 البرهان ، ص٤١١ ، ج١
114 الذاريات ، الآية ٢٣
115 آل عمران ، الآية ١٨٦
116 مريم ، الآية ٧١
117 البرهان ، ص٤٣ ، ج٣

ومن ذلك تقسيم النص القرآني إلى ما يحتمل دلالة محددة، وإلى ما يحتمل دلالات متعددة، ثم يقسم ما يرفع التعدد الدلالي إلى قرائن لفظية وقرائن معنوية، ويقسم القرائن اللفظية إلى متصلة ومنفصلة، ويقسم القرائن اللفظية المتصلة إلى التأويل والبيان، ويقسم القرائن اللفظية المنفصلة إلى نوعين هما التأويل والبيان أيضا، ثم يصل إلى القرائن المعنوية فيذكر بعضها ويعلق عليها بأنها لا تنحصر

ويمكن تمثيل ذلك بالرسم التالي:

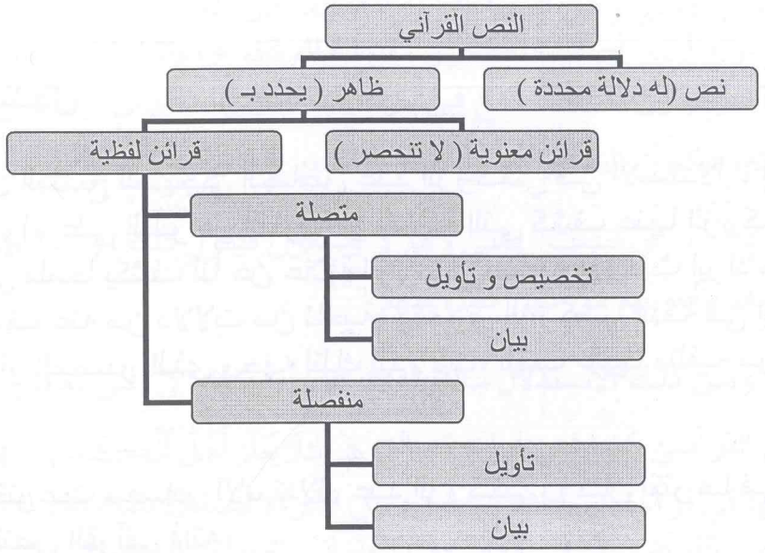

"واعلم أن الكتاب هو القرآن المتلو، وهو إما نص وهو ما لا يحتمل إلا معنى كقوله ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[118]

وإما ظاهر وهو ما دل على معنى مع تجويز غيره، والرافع لذلك الاحتمال قرائن لفظية ومعنوية

واللفظية تنقسم إلى متصلة ومنفصلة، أما المتصلة فنوعان: نوع يصرف اللفظ إلى غير الاحتمال الذي لولا القرينة لحمل عليه ويسمى تخصيصا وتأويلا، ونوع يظهر به المراد من اللفظ ويسمى بيانا.....

أما اللفظية المنفصلة فنوعان أيضا: تأويل وبيان.....

118 البقرة ، الآية ١٩٦

وأما القرائن المعنوية فلا تنحصر، ومن مثله قوله تعالى ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[119]، فإن صيغته الخبر، ولكن لا يمكن حمله على حقيقته، فإنهن قد لا يتربصن فيقع خبر الله بخلاف مخبره وهو محال، فوجب اعتبار هذه القرينة حمل الصيغة على معنى الأمر صيانة لكلام الله تعالى عن احتمال المحال، ونظائره كثيرة فيما ورد من صيغة الخبر والمراد بها الأمر "[120]

الاستدلال

يتمثل الملمح المنهجي الخامس عند الزركشي في الاستدلال، إذ يمثل الاستدلال سواء على الظواهر اللغوية أو الدلالة التي كشف عنها الزركشي في النص القرآني ملمحا يكشف لنا عن علاقة الزركشي بمتلقيه من حيث إيراد ما يقنعه بصحة ما كشف عنه من دلالات من ناحية، وتحري الزركشي الدقة في إيراد ما اعتمد عليه أو المصدر الذي وجهه لتلك الدلالات؛ ليقف عليها متلقيه من ناحية أخرى

وقد تنوعت مصادر الاستدلال عند الزركشي، وكان أكثرها في كتابه الاستدلال **بالنص القرآني ذاته**

ومن ذلك الاستدلال على عودة الضمير إلى غير الأقرب بآية من آيات النص القرآني؛ ليقيس ذلك على آية أخرى، والدافع إلى هذا الاستدلال الاتجاه صوب دلالة محددة

فخلال تناوله للمتشابه من الآيات يرجع الضمير في قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾[121]، على النفس الأولى –خروجا على القاعدة– لتدل على دلالة احتقار المشفوع له، أي النفس الثانية "وذكر الله في الآيتين "النفس" متكررة، ثم أتى بضمير يحتمل رجوعه إلى الأولى أو إلى الثانية، وإن كانت القاعدة عود الضمير إلى الأقرب، ولكن قد يعود

119 البقرة ، الآية ٢٢٨
120 البرهان ، ص٢٠٨ – ٢١٠ ، ج٢
121 البقرة ، الآية ٤٨

إلى غيره كقوله تعالى﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[122]، فالضمير في التعزير والتوقير راجع إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–، وفي التسبيح عائد إلى الله تعالى وهو متقدم على ذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– فعاد الضمير على غير الأقرب

إذا علمت ذلك، فقوله في الأولى ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾[123]، الضمير راجع إلى النفس الأولى وهي الشفاعة لغيرها، فلما كان المراد في هذه الآية ذكر الشفاعة للمشفوع له أخبر أن الشفاعة غير مقبولة للمشفوع احتقارا له وعدم الاحتفاء به، وهذا الخبر يكون باعثا للسامع في ترك الشفاعة إذا علم أن المشفوع عنده لا يقبل شفاعته، فيكون التقدير على هذا التفسير﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾[124]، "لو شفعت" يعني وهم لا يشفعون فيكون ذلك مؤيسا لهم فيما زعموا أن آباءهم ينفعونهم من غير عمل منهم "[125]

ومن ذلك الاستدلال بالقراءات على زيادة "لا" في بعض المواضع من النص القرآني كما في قوله تعالى ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[126]، فيرصد سقوطها في قراءة ابن عباس وغيره من القراء ليستدل بتلك القراءة على زيادتها في النص القرآني كما في المصحف العثماني "ويدل عليه قراءة ابن عباس وعاصم والحميري "ليعلم أهل الكتاب"، وقرأ ابن مسعود وابن جبير "لكي يعلم"، وهاتان القراءتان تفسير لزيادتها "[127]

ويعد الحديث الشريف مصدرا مهما من مصادر الاستدلال عند الزركشي، يلجأ إليه للاستدلال على الظاهرة اللغوية أو دلالتها، ومن ذلك الاستدلال بالحديث الشريف أن الجن ليس من جنس الملائكة؛ ليخرج بذلك بوجود أسلوب تغليب الجنس في الخطاب في النص القرآني، ومنه خطاب الملائكة وإبليس بالملائكة تغليبا لهم على جنس الجن، والدليل الذي ساقه الزركشي أن الحديث الشريف أثبت أن الملائكة خلقت من النور، والجن خلقت من النار "تغليب الجنس الكثير الأفراد على فرد من غير هذا الجنس مغموزا فيما بينهم، بأن يطلق اسم الجنس على الجميع

122 الفتح ، الآية ٩
123 البقرة ، الآية ٤٨
124 البقرة ، الآية ٤٨
125 البرهان ، ص١٥٧ ، ج١
126 الحديد ، الآية ٢٩
127 البرهان ، ص٧٩ ، ج٣

كقوله تعالى ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾[128]، وأنه عُدّ منهم مع أنه كان من الجن تغليبا لكونه جنيا واحدا فيما بينهم، ولأن حمل الاستثناء على الاتصال هو الأصل

ويدل كونه من غير الملائكة ما رواه مسلم في صحيحه "خلقت الملائكة من نور والجن من نار" ، "[129]

ويعد الشعر من مصادر الاستدلال عند الزركشي، يستدل به على الدلالة المعجمية للفظ، أو على ظاهرة لغوية باعتبار الشعر ديوان العرب

ومن ذلك استدلاله ببيت من الشعر على دلالة كلمة "الآية" على "العجب"، "الآية: العجب، تقول العرب: فلان آية في العلم وفي الجمال، قال الشاعر:

آية الجمال ليس له في الـ حسن شبه وما له من نظير

فكأن كل آية عجب في نظمها والمعاني المودعة فيها "[130]

ويستدل ببيت من الشعر على إعادة الضمير على أحد المذكورين في آية من آيات النص القرآني "ونظيره ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾[131]، لأن الطائفة جماعة، وقيل: من عادة العرب إذا ذكر شيئين مشتركين في المعنى تكتفي بإعادة الضمير على أحدهما استغناء بذكره عن الآخر اتكالا على فهم السامع كقول حسان:

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ود ما لم يعاص كان جنونا

ولم يقل "يعاصا"، "[132]

ومن الجدير بالذكر أن الزركشي يستدل بالشعر[133] على مقولاته باعتباره بديلا للنثر فيكمل قوله بالشعر، ومن ذلك الإشارة إلى اختلاف المفسرين في تفسير

---

128 ص ، الآيتان ٧٣ - ٧٤
129 البرهان ، ص٣٠٥ ، ج٣
130 البرهان ، ص٣٠٢ ، ج١
131 الحجرات ، الآية ٩
132 البرهان ، ص١٢٦ ، ج٣
133 و من ذلك أيضا تعليقه على خطأ الزمخشري في تحليل آية من آيات النص القرآني، بأنه متأثر في هذا القول بمذهبه ، و يذكر بيتا من الشعر يعبر عن هوى الزمخشري في اتباع مذهبه " و قد أدمج في هذا الكلام مذهبه في تفضيل الملك على النبي ، و إن لم يكن مقصودا فهو كما قيل :
و ما كنت زوارا و لكن ذا الهوى إلى حيث يهوي القلب تهوي به الرجل " انظر البرهان ، ص٤٧٧ ، ج٢

الآية الواحدة "يكثر في معنى الآية أقوالهم واختلافهم ويحكيه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ.....

كما قيل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير "[134]

وللزركشي مصدر آخر من مصادر الاستدلال نابع من ثقافته ومعرفته بالعلوم الطبيعية، وأطلقنا عليه الاستدلال العلمي بمعنى الاستدلال بما يشبه العلوم الطبيعية على الدلالة أو الظاهرة في النص القرآني "والخبرة الثقافية قد تجد لها مكانا في مجال الدرس الأسلوبي، وهو أمر لا يمكن وضعه تحت ضوابط الأسس الموضوعية، لكنه يفيد في الكشف عن بعض العلاقات بين الدوال ومدلولاتها بطريقة تقترب من الموضوعية "[135]

ومن ذلك يشير الزركشي إلى أقل مدة للحمل والرضاعة للاستدلال على التناسب بين نعم الله على الإنسان، وبين امتنان الإنسان بها "فإن قيل: العادة الغالبة في مدة الحمل تسعة أشهر، وكان المناسب في مقام الامتنان ذكر المعتاد لا الأقل النادر، كما في جانب الفصال!

قلنا: لأن هذه المدة أقل مدة الحمل، ولما كان الولد لا يعيش غالبا إذا وضع لستة أشهر كانت مشقة الحمل في هذه المدة موجودة لا محالة في حق كل مخاطب، فكان ذكره أدخل في باب المناسبة، بخلاف الفصال، لأنه لا حد لجانب القلة فيه، بل يجوز أن يعيش الولد بدون ارتضاع من الأم؛ ولهذا اعتبر فيه الأكثر لأنه الغالب ولأنه اختياري؛ كأنه قيل: حملته ستة أشهر لا محالة إن لم تحمله أكثر "[136]

ويستند على تقديم الشمس على القمر في النص القرآني عموما على قول الحكماء أن نور القمر مستمد من الشمس، أي بما يشبه تبعيته لها في الحقيقة "ومنه تقديم الشمس على القمر في قوله تعالى ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾[137]، وقوله ﴿ وَجَعَلَ

---

134 البرهان ، ص١٥٦ ، ج٢
135 البلاغة و الأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ، ص٢٠٠
136 البرهان ، ص٦ ، ج٢
137 الحج ، الآية ١٨

فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[138]، ولهذا قال تعالى ﴿ جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[139]، والحكماء يقولون: إن نور القمر مستمد من نور الشمس "[140]

ومن ذلك الاستدلال المنطقي[141] على وحدانية الله –سبحانه و تعالى– "ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد بدلالة التمانع المشار إليه في قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[142]، لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري على تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض الاتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، و الإله لا يكون عاجزا "[143]

عرض الآراء

من الملامح المنهجية التي اتبعها الزركشي في كتابه البرهان ودراسة القضايا اللغوية المختلفة في النص القرآني؛ عرض أقوال العلماء ومناقشتها سواء بالتعبير عن رأيه فيها، أو بالاعتماد على رأي غيره وسرد الأدلة على الرأي الصحيح

ومن ذلك عرضه للخلاف بين أقوال القدماء حول ورود البعض وإرادة الكل في النص القرآني، فيورد قولا لأبي عبيدة ذاكرا الآيات التي حللها، وما اعتمد عليه من خارج النص للاستدلال ببيت من الشعر استدل به أبو عبيدة على إيراد البعض والمراد به الكل في بعض آيات النص القرآني "وجوّز أبو عبيدة ورود البعض وإرادة الكل، وخرّج عليه قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم

138 الفرقان ، الآية ٦١
139 يونس ، الآية ٥
140 البرهان ، ص٢٥٢ ، ج٣
141 و من ذلك أيضا الاستدلال المنطقي على تفضيل آل عمران على الناس في زمانهم دون عموم الأزمان " و قوله (و آل عمران على العالمين) آل عمران ٣٣، أي عالمي زمانه ، و لا يصح العموم لأنه إذا فضل أحدهم على العالمين فقد فضل على سائرهم ؛ لأنه من العالمين ، فإذا فضل الآخرين على العالمين فقد فضلهم أيضا على الأول ؛ لأنه من العالمين ، فيصير الفاضل مفضولا و لا يصح "انظر البرهان ، ص٢٦٢ ، ج٢
142 الأنبياء ، الآية ٢٢
143 البرهان ، ص٢٤ ، ج٢

بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾[144]، أي كله، وقوله تعالى ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾[145]، وأنشد بيت لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها

قال: والموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض، ويقال للمنية: علوق وعلاقة"[146]

وبعد عرض نص مقولة أبي عبيدة يقوم الزركشي بالرد على تلك المقولة لإثبات عدم حمل الآيات وبيت الشعر الذي استدل به أبو عبيدة على ذكر البعض والمراد الكل، ويقسم رده قسمين يتخلل أحدهما مقولة لثعلب في الرد على أبي عبيدة ويورد الدليل على إرادة البعض بعدم إجابة الرسول-صلى الله عليه وسلم– على جميع أسئلة اليهود على وجه الحقيقة، وفي القسم الثاني يكون جنس الرد من جنس مقولة أبي عبيدة فيورد خطأه في فهم بيت الشعر الذي استدل به أولا، ثم يستدل ببيت شعر آخر على أن المراد الكل و ليس البعض "وهذا الذي قال فيه أمران:

أحدهما: أنه ظن أن النبي يجب عليه أن يبين في شريعته جميع ما اختلفوا فيه وليس كذلك بدليل سؤالهم عن الساعة وعن الروح وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله

وأما الآية الأخرى، فقال ثعلب: إنه كان وعدهم بشيء من العذاب، عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فقال: يصبكم هذا العذاب في الدنيا–وهو بعض الوعيد– من غير نفي عذاب الآخرة

الثاني: أنه أخطأ في فهم البيت، وإنما مراد الشاعر ببعض النفوس نفسه هو لأنها بعض النفوس حقيقة، ومعنى البيت: أنا إذا لم أرض الأمكنة أتركها إلى أن أموت، أي إذا تركت شيئا لا أعود إليه إلى أن أموت كقول الآخر:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر ترجع "[147]

144 الزخرف ، الآية ٦٣
145 غافر ، الآية ٢٨
146 البرهان ، ص٢٥٧ ، ج٢
147 البرهان ، ص٢٥٨ ، ج٢

ثم يعرض الزركشي الدلالة الصحيحة للآية كما يراها بالاعتماد على وحدة النص القرآني، ووحدة السورة التي وردت فيها الآية، وذلك بالاستدلال بآية أخرى في نهاية السورة ورد فيها دلالة البعض وليس الكل، ويعلق على ذلك أنه تأييد لمقولة ثعلب في الرد على أبي عبيدة "قلت: ويحتمل قوله ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ [148]، أن الوعيد مما لا يستنكر ترك جميعه فكيف بعضه، ويدل قوله في آخر هذه السورة:﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [149]، وفيها تأييد لكلام ثعلب أيضا "[150]

وباستقراء عرض الزركشي لأقوال العلماء في قضية إيراد البعض وإرادة الكل في بعض آيات النص القرآني نستطيع أن نكشف عن هذا الملمح المنهجي للزركشي في عرض القضايا اللغوية وآراء العلماء من حيث عرض الأقوال وأدلتها، والأخذ بما يراه مناسبا أو صحيحا منها طبقا لما استقر عنده من منهج تحليلي، والرد عليها حسب منهجه في هذا التحليل، وهنا اعتمد على إيمانه بوحدة النص القرآني من حيث دلالة بعض الآيات على البعض الآخر من ناحية، والأدلة الملموسة التي يصدقها العقل من عدم إجابة الرسول- صلى الله عليه وسلم- على جميع أسئلة اليهود كما ورد في عموم النص القرآني أو في أسباب النزول مما ينفي إرادة الكل في الآية، علاوة على الاستدلال على الظاهرة من خارج النص من ناحية أخرى

التنظير والتطبيق

من أهم الملامح المنهجية التي اتبعها الزركشي في تناوله للقضايا اللغوية المختلفة في كتابه البرهان ذلك الملمح الذي يتسم بالتنظير أولا ثم التطبيق؛ إذ يعد التطبيق بمثابة الدليل على التنظير وصحته، ويعد التنظير مهما لإجمال الظواهر المختلفة واعتباره قاعدة يمكن الرجوع إليها عند التطبيق

فالاعتماد على التنظير وحده يعد تعميما، وهذا التعميم جعل أحد الدارسين للأسلوب يرفض التصنيفات النظرية دون التطبيق عليها "والأدهى من ذلك الطابع

148 غافر ، الآية ٢٨
149 غافر ، الآية ٧٧
150 البرهان ، ص٢٥٩ ، ج٢

المفرط في التعميم الذي يطبع هذا التصنيف حيث يربط بين الواقعة والأساليب دون أن يعتمد على أي نموذج واقعي "[151]

ويظهر هذا الملمح المنهجي عند الزركشي من التنظير لقواعد في النفي والنهي ويدلل عليها بالتطبيق على الآيات في النص القرآني ليتكامل تناوله لتلك القواعد "اعلم أن نفي الذات الموصوفة قد يكون نفيا للصفة دون الذات، وقد يكون نفيا للذات، وانتفاء النهي عن الذات الموصوفة قد يكون نهيا عن الذات، وقد يكون نهيا عن الصفة دون الذوات، قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [152]، فإنه نهي عن القتل بغير الحق، وقال ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ [153]

ومن الثاني قوله ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [154]، ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [155]، أي فلا يكون موتكم إلا على حال كونكم ميتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة على خلاف حال الإسلام كقول القائل: لا تصل إلا وأنت خاشع، فإنه ليس نهيا عن الصلاة، بل عن ترك الخشوع "[156]

ومن ذلك مقولة نظرية عن ورود الكلام على المقابلة في المستوى التحتي للنص وليس في ظاهره، ويطبق ذلك على آيات من النص القرآني ليدلل على مقولته النظرية "قد يجيء نظم الكلام على غير صورة المقابلة في الظاهر، وإذا تؤمل كان من أكمل المقابلات، ولذلك أمثلة:

منها قوله تعالى ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [157]، فقابل الجوع بالعري، والظمأ بالضحى، والواقف مع الظاهر ربما يحيل أن الجوع يقابل بالظمأ والعري بالضحى

151 البلاغة و الأسلوبية ، هنريش بليت ، ص٥٧
152 الإسراء ، الآية ٣٣
153 الأنعام ، الآية ١٥١
154 المائدة ، الآية ٩٥
155 آل عمران ، الآية ١٠٢
156 البرهان ، ص٣٨٧ ، ج٣
157 طه ، الآيتان ١١٨- ١١٩

والمدقق يرى هذا الكلام في أعلى مراتب الفصاحة؛ لأن الجوع ألم الباطن، والضحى موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية جميع نفي الآفات ظاهرا وباطنا، وقابل الخلو بالخلو، والاحتراق بالاحتراق "[158]

وينظّر للفرق بين التورية والاستخدام معززا ذلك بالشواهد من النص القرآني "كثيرا ما تلتبس التورية بالاستخدام، والفرق بينهما أن التورية استعمال أحد المعنيين في اللفظ وإهمال الآخر، وفي الاستخدام استعمالهما معا بقرينتين

وحاصله أن المشترك إذا استعمل في مفهومين معا فهو الاستخدام، وإن أريد أحدهما مع لمح الآخر باطنا فهو التورية

ومثال الاستخدام قوله تعالى ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [159]، فإن لفظة "الكتاب" يراد بها الأمد المحتوم والمكتوب، وقد توسطت بين لفظتين، فاستخدمت أحد مفهوميها وهو الأمد، واستخدمت "يمحو" المفهوم الآخر وهو المكتوب "[160]

158 البرهان ، ص٤٥٦ ، ج٣
159 الرعد ، الآيتان ٣٨ - ٣٩
160 البرهان ، ص٤٣٧ ، ج٣

الخاتمة

حسبنا أن تكون هذه الدراسة استكمالا لجهد أساتذتنا في ترسيخ جذور الدرس الأسلوبي عند القدماء من السلف خاصة عند الزركشي كما يظهر لنا من كتابه البرهان باعتباره أبرز ما وصل إلينا من تراث علوم القرآن .

وهذا لا يعني أننا نذهب إلى نشأة الدرس الأسلوبي في ظل التراث دون اعتبار للوافد الحديث، بل ما نعنيه أن لكل أدواته المنهجية التي قد تتفق أو تفترق، ونسلم بأن جذور الأسلوبية وإرهاصاتها قد وجدت عند العديد من النقاد واللغويين والبلاغيين القدامى من علمائنا الأجلاء وزخرت مكتبة التراث بأعمالهم النظرية والتطبيقية، كما زخرت المكتبة الحديثة بالدراسات التي أودعها أساتذتنا فيها لترسيخ جذور الأسلوبية وأدواتها عند هؤلاء القدماء .

وقد عمدنا إلى أن تكون هذه الدراسة قراءة راصدة في كتاب البرهان في علوم القرآن تربط بين النتائج التي انتهى إليها الكتاب قديما، ومنجزات الدرس الأسلوبي حديثا، كما نرصد تصور الزركشي للدرس الأسلوبي خاصة فيما قدمه من محاولات تهدف إلى الكشف عن أسلوب عام القرآن الكريم بكل مستوياته بغرض فهم مراد الله منه من ناحية، وتمييزه عن أي نص آخر من النصوص من ناحية أخرى .

ومن هذا المنطلق، فإن هذه الدراسة تقوم على رصد قضايا الأسلوب في كتاب البرهان وتحليلها عن طريق رصد مكونات الأسلوب العام للقرآن الكريم كما أوضحه الزركشي وتحليلها مع رصد أدوات يمكن أن تفيدنا في الدرس الأسلوبي الحديث، وذلك برصد تصور الزركشي لمستويات الأسلوب من صوت وصرف وتركيب وتصوير ودلالة، مع رصد تصور الزركشي لوحدة النص القرآني والكشف عن الأدوات التي تسلح بها في رحلته لإثبات هذه الوحدة، ورصد تصوره لقضايا التلقي وصور التلقي للنص القرآني والقدرة التأثيرية للنص القرآني على المتلقي، مع رصد أدوات الزركشي المنهجية في تناوله لقضايا الأسلوب.

ومن ثم فإن المنهج المتبع في هذه الدراسة المتواضعة ينبع من معطيات الدرس الأسلوبي الحديث، وهو قائم على الاستقراء والتحليل، فيرصد القضايا المختلفة التي تضمنها كتاب البرهان، ويعمد إلى تصنيفها والكشف عن أبعادها من خلال الإفادة من التطور الذي شهده الدرس اللغوي والبلاغي والنقدي الحديث.

فبداية عمدنا إلى القراءات الأول لكتاب البرهان بطريقة شمولية وأعقبت تلك القراءات قراءة متأنية راصدة قضايا الأسلوب وظواهره ظاهرة ظاهرة، وبعد رصد وترتيب تلك الظواهر حددت كل ظاهرة وأفرد لها فصلا من فصول الدراسة للكشف عن أبعادها عند الزركشي على أن ترتيب الفصول حسب الظواهر وليس حسب ترتيب ورودها في أجزاء البرهان، وقد قسمت الدراسة إلى أربعة فصول يسبقها مقدمة وتمهيد ويليها خاتمة وثبت بالمصادر والمراجع وفهرس للدراسة ثم ختمت بملخص للدراسة بالعربية والانجليزية .

تناولت المقدمة التعريف بطبيعة الموضوع والدافع إلى اختياره وأبرز معالم المنهج المتبع في الدراسة وبيان أقسامها وأبرز الصعوبات التي واجهت البحث وكيفية التغلب عليها، وضمنت بإشارات موجزة عن الدراسات السابقة سواء عن الزركشي أو كتابه البرهان.

أما التمهيد فقد تناول الزركشي وعصره وأبرز ملامح المنهج المتبع في الدراسة وأدواته، فتمت الإشارة فيه إلى ألقاب الزركشي وحياته ومماته ومؤلفاته بصورة مقتضبة، والعصر الذي عاش فيه واتسامه بالقوة العسكرية والاقتصادية التي صبغت هذا العصر بالاهتمام بالعلم والعلماء وانتشار المدارس والمكتبات وحوانيت الوراقين مما هيأ للزركشي أسباب العلم، وختم التمهيد بالأدوات المنهجية التي اعتمد عليها البحث في دراسة قضايا الأسلوب عند الزركشي.

أما الفصل الأول فجاء بعنوان "مستويات الأسلوب" ورتبت هذه المستويات حسب ما تصوره أساتذتنا فكان ذلك الترتيب منطقيا بحيث بدأ بالظواهر الإفرادية منتهيا بالظواهر التركيبية، فجاءت الظواهر الصوتية في المبحث الأول، ورصدنا فيه تصور الزركشي لمخارج الأصوات وصفاتها خاصة الحروف المقطعة في القرآن الكريم وتمت الإشارة إلى فطنة الزركشي إلى بعض العلاقات القائمة بين تلك الأصوات ومن ذلك علاقة التقابل، ورصدنا في هذا الجزء من المبحث تجاوز الزركشي صفات الأصوات إلى علاقتها بمستويات الأسلوب في النص القرآني ومن ذلك علاقتها بالتركيب من حيث التأثير في ترتيب المفردات داخل التركيب بالتقديم والتأخير بين تلك المفردات تبعا لتأثير الأصوات المتقاربة التي تحتاج إلى بذل جهد عضلي كبير خلال تلاوة النص القرآني ويتمثل تلافي هذا الجهد بالفصل بين تلك الأصوات وذلك بالتقديم والتأخير.

ومن ذلك أيضا ربط الزركشي بين الصوت والدلالة في النص القرآني ورصد الدلالة الكلية لتكراره متمثلا بإحدى سور النص القرآني، وهنا تمت الإشارة إلى تجاوز الزركشي لرصد دلالة الصوت المفرد إلى رصد الفروق الدلالية بين

المفردات التي تغير رسم أحد أصواتها ونطقه في بعض الآيات إلى الصوت الذي يقابله في صفة واحدة ومن ذلك صوتا السين والصاد في كلمة "بسطة، بصطة" على سبيل المثال، وختم هذا المبحث بتجليات الدرس الصوتي عند الزركشي من خلال تناوله للقراءات وقد رصدنا فيها تصور الزركشي لأثر اختلاف الأصوات على اختلاف القراءات ومثل ذلك باختلاف المد والإمالة وتخفيف الهمزة من قراءة لأخرى متناولا خلال ذلك بعض العلاقات التأثيرية بين الأصوات المتجاورة في النص القرآني مما استتبع الاختلاف بين القراءات حسب تلك العلاقات التأثيرية، ومن ذلك اختلاف الإمالة، وإسقاط الهمزة أو تحويلها إلى صائت من جنس الصائت المؤثر فيها، وهنا تمت الإشارة إلى فطنة الزركشي في الربط بين العلاقات التأثيرية بين الأصوات المتجاورة وتخفيف الجهد العضلي المبذول خلال النطق وقد وصلنا ذلك بالدرس الصوتي الحديث.

وخلال رصدنا لما تناوله الزركشي من صور الاختلاف بين القراءات تمت الإشارة إلى واحدة من أهم الظواهر الأسلوبية عنده، تلك الظاهرة التي ربط فيها الزركشي بين الصوت والخط والدلالة في النص القرآني بصورة ثلاثية من حيث التماثل والتخالف في القراءات بمعنى اختلاف أحد تلك الأركان وثبات الركنين الآخرين حيث يختلف الصوت في الكلمة من قراءة لأخرى ولا يختلف رسمها أو دلالتها وهكذا، وقد وصلنا هذا الجهد للزركشي بأحد الأسلوبيين المعاصرين ممن تناول تلك الظاهرة بصورة ثلاثية تتمثل في الصوت والخط والدلالة من حيث التماثل أو التخالف بين الكلمات.

وجاءت الظواهر الصرفية في المبحث الثاني، ورصدنا فيه تصور الزركشي لأهمية الصيغ الصرفية في الكشف عن الدلالة في النص القرآني عموما، مع رصد العلاقات القائمة بين الصيغ الصرفية ومنها الاشتقاق وربطه بالأصل والفرع، وفي هذا الجزء من المبحث تم رصد تصور الزركشي للعلاقة القائمة في النص بين الصرف وبين مستويات الأسلوب الأخرى، ومن ذلك تأثير الأصوات في التمييز بين الصيغ الصرفية ودلالاتها، وتتمثل علاقته بالتركيب في التناسب بين الصيغ الصرفية الواردة في التركيب، وعلاقة تلك الصيغ بالتصوير ومثل ذلك بقدرة الفعل المضارع على التصوير داخل النص وتأثير ذلك على المتلقي، أما علاقة الصرف بالدلالة –بجانب ما سبق من رصد دلالة الصيغ الصرفية- فتمثل في رصد الفروق الدلالية بين تلك الصيغ وتمت الإشارة لتصور الزركشي لمراتب للصيغ الصرفية تتبعها مراتب دلالية ومن ذلك زيادة الدلالة لصيغة اسم الفاعل مفتعل عن دلالة فاعل ومثل ذلك بقادر ومقتدر في النص القرآني وفي هذه الإشارة تم وصل هذا الجهد للزركشي بمن سبقه من أمثال ابن جني وابن الأثير من خلال قضية قوة اللفظ لقوة المعنى عندهما، وختمنا هذا المبحث بتصور الزركشي للعدول

الصرفي وأسبابه ودلالة ذلك العدول على التقرير والتحقيق والتوكيد وغيرها، ومدى ارتباطه بالسياق في النص القرآني ومثل لذلك بارتباط العدول عن المستقبل إلى الماضي ببعض سياقات القرآن الكريم ومنها سياق الوعيد لإبراز بعض الدلالات مثل التقرير والتحقيق، وفي هذا الجزء من المبحث تمت الإشارة إلى ارتباط العدول الصرفي في النص القرآني بالتصوير عند الزركشي ومثل ذلك بالعدول عن الماضي إلى المضارع للتأثير على المتلقي باستخدام طاقة المضارع التصويرية، وقد وصلنا تصور الزركشي للعدول الصرفي بالتصور الحديث لقضية العدول.

وجاءت الظواهر التركيبية في المبحث الثالث، ورصدنا فيه العلاقات التركيبية المختلفة القائمة بين مكونات التركيب ومن ذلك العلاقة الترتيبية سواء النحوية أو المنطقية، فتمثلت العلاقة الترتيبية النحوية القائمة بين مفردات التركيب في ترتيب مفردات الجملة الاسمية بما تأثر الزركشي فيه بالسابقين عليه من حيث أسبقية المبتدأ، والترتيب في الجملة الفعلية من حيث أسبقية الفعل، وترتيب الصفات والأحوال داخل التركيب من حيث ورود النعت المفرد ثم النعت شبه الجملة ثم النعت الجملة –على سبيل المثال– على الترتيب داخل التركيب.

أما العلاقة الترتيبية الدلالية فتمثلت في ترتيب المفردات داخل التركيب حسب علاقة السبق في الوجود الزمني، أو الشرف، أو التنزيه، أو العدد، أو السببية، أو الرتبة المكانية وغير ذلك من العلاقات القائمة بين المفردات داخل تراكيب النص القرآني، وتمت الإشارة في هذا الجزء من الدراسة إلى فطنة الزركشي في رصد تأثير العلاقات الدلالية القائمة بين المفردات على الترتيب داخل التركيب، وتمت الإشارة أيضا إلى تصور الزركشي لقدرة العلاقات التركيبية على تحقيق التماسك والترابط بين المفردات داخل النص القرآني وتصوره لبناء التركيب داخله.

وتناولنا في هذا المبحث تصور الزركشي لوحدة التركيب واكتماله في النص من خلال درسه للوقف والوصل خلال عملية التلاوة، وذلك عن طريق تحديد الوقف حسب اكتمال التركيب باعتبار التركيب وحدة دلالية قد تختلف عن دلالة مكوناتها ومثل لذلك باكتمال التركيب الوصفي والعطفي والبدلي، وقد رصدنا ذلك من أقواله النظرية، وتطبيقه على النص القرآني، وتمت الإشارة إلى تصوره لوحدة التركيب من حيث الشكل، أو باعتباره وحدة دلالية داخل النص.

كما تناولنا في هذا المبحث علاقة التركيب بالدلالة من خلال درس الزركشي لقضية الإجمال الدلالي داخل النص وتأثير التركيب في ذلك الإجمال أو

الغموض ومثل ذلك بعدم وضوح العلاقة التركيبية بين المفردات وما استتبعه من غموض الدلالة في النص، كما رصدنا دلالات بعض التراكيب عند الزركشي منها دلالة التركيب البدلي والعطفي على التوكيد علاوة على رصد مؤكدات الجملة الاسمية والفعلية، وفي هذا الجزء تمت الإشارة إلى تصور الزركشي للتدرج الدلالي للتوكيد من خلال تدرج مؤكدات الجملة، وربطه بين دلالة التركيب على التوكيد وبين بعض السياقات في النص القرآني ومنها سياقات الوعد والوعيد، كما رصدنا دلالة الذكر على الاختصاص والتعظيم والتغليب ودلالات التكرار على التوكيد والتنبيه والتقرير والتعجب، وتمت الإشارة إلى ارتباط دلالات تلك التراكيب بسياقات الوعد والوعيد والموعظة علاوة على ارتباطها بالتأثير على المتلقي.

ورصدنا فيه أيضا القوالب التركيبية ودلالاتها ومن ذلك تراكيب الشرط والوصف والعطف والبدل وتصور الزركشي لوحدة هذه التراكيب باعتبارها وحدات دلالية داخل النص القرآني، وذلك على المستويين النظري والتطبيقي، وتصوره أيضا للروابط التركيبية القائمة بين مكونات تلك التراكيب، علاوة على رصد دلالاتها المختلفة ومن ذلك دلالات التركيب الشرطي على الإيهام وإظهار الرغبة، والتوبيخ، وإظهار الحال، وتنبيه المتلقي أو تهييجه، والتغليب، ودلالات التركيب الوصفي على المدح والثناء والتعميم والتوكيد وغير ذلك من الدلالات، ودلالات التركيب العطفي على المشاركة في المعنى النحوي ودلالات العموم والخصوص والترادف والمغايرة، ودلالات التركيب البدلي على البيان ورفع الإبهام والتوكيد، وتمت الإشارة في هذا الجزء من الدراسة على ربط الزركشي بين تلك التراكيب وبين السياق في النص القرآني ومن ذلك ارتباط الوصف بسياقات الإيجاز والمدح والذم، والربط بين تلك التراكيب وبين تأثيرها على المتلقي ومن ذلك تأثير الشرط عليه بتهييجه أو حمله على الإقرار، وفي كل رصد الزركشي العلاقات التركيبية والدلالية القائمة بين مكونات كل تركيب.

وختم هذا المبحث بتصور الزركشي للعدول التركيبي ودلالاته من خلال الالتفات والحذف والزيادة والتقديم والتأخير والاعتراض، وقد عبر الزركشي عن ذلك العدول بالنقل أو بالخروج عن الأصل أو قال ولم يقل، وغالبا التعبير عنه بالعدول صراحة.

أما الالتفات فقد تأثر في رصده بطريقة كمية وكيفية بابن الأثير وتمت الإشارة إلى ذلك التأثر، وقد ارتبط العدول بالالتفات عند الزركشي ببعض الدلالات منها التعجب والتوبيخ والتعظيم والخصوص وقد تمت الإشارة إلى تصور الزركشي للعلاقة بين العدول بالالتفات وبين المتلقي من حيث التأثير عليه.

أما الحذف فقد تخلله تصور الزركشي للصورة المثالية للتركيب من حيث الشكل أو الدلالة على المستويين النظري والتطبيقي وتمت الإشارة إلى الإجراءات التطبيقية التي اتخذها الزركشي وتصب في تصوره لتلك الصورة المثالية للتركيب ومن ذلك تقدير المحذوف من خلال السياق الكلي للنص القرآني أو الجزئي للآية أو تقدير دلالة العقل على المحذوف، والإشارة أيضا إلى تصور الزركشي للتناسب بين التراكيب في النص القرآني بفضل اعتماد العدول بالحذف فيها، وتم رصد تصور الزركشي للعلاقة بين العدول بالحذف وبين الدلالة من حيث تأثيره على الإجمال الدلالي من ناحية، ورصد دلالات العدول بالحذف في النص القرآني من ناحية أخرى، ومن تلك الدلالات التفخيم والتعظيم والتنبيه والفاعلية والاحتقار والتوكيد والتعميم، وفي هذا الجزء تمت الإشارة إلى ربط الزركشي بين دلالات العدول بالحذف على التفخيم والتعظيم وبين التأثير على المتلقي من حيث الوصول إلى تلك الدلالات بعد جهد مبذول، وهذا الجهد هو الذي وجه المتلقي إلى تعظيم ما وصل إليه من خلال عملية الكشف عن العدول بالحذف.

أما العدول بالزيادة فقد تم فيه رصد تصور الزركشي للزائد في النص القرآني باعتبار أنه لا يوجد زائد فيه من حيث الدلالة، بل للزائد دلالات منها التوكيد على سبيل المثال.

أما العدول بالتقديم والتأخير فقد رصدنا فيه تصور الزركشي للعلاقة بين هذا النوع من العدول وبين الدلالة في النص القرآني من حيث تأثيره في الإجمال الدلالي من ناحية، وتأثيره في وضوح الدلالة وبيانها من ناحية أخرى، ورصدنا دلالات العدول بالتقديم والتأخير كما تصوره الزركشي نظريا وتطبيقيا، ومن ذلك الدلالة على الأهمية والتعجب والتبكيت والحصر والاختصاص، وفي هذا الجزء تمت الإشارة إلى تناول الزركشي لأسباب العدول بالتقديم والتأخير ومن أبرز تلك الأسباب عنده تحقيق التناسب بين التراكيب داخل النص القرآني.

أما العدول بالاعتراض فقد رصدنا فيه تصور الزركشي لتأثيره في نسق التراكيب وكما رصدنا دلالات الاعتراض عند الزركشي ومن ذلك التوكيد والتقرير والتعظيم والتنزيه والبيان والتخصيص.

وجاءت الظواهر الدلالية في المبحث الرابع، ورصدنا فيه تجليات الدرس الدلالي عند الزركشي من خلال تناوله لقضية التفسير والتأويل، ورصدنا فيها اهتمام الزركشي بالدلالة في النص القرآني من خلال اعتماده تطبيقيا على تفضيل بعض الآيات أو السور على البعض الآخر من حيث الدلالة ومن ذلك أفضلية سورة الإخلاص على آية الكرسي لأنها تدل على التوحيد في أقل عدد من الكلمات، أما

تناول الزركشي للتفسير والتأويل فيكشف عن التدرج الدلالي من التفسير في ظاهر النص إلى التأويل في باطن النص من ناحية، وارتباط التفسير بالدلالة المحددة وارتباط التأويل بالتعدد الدلالي في النص القرآني وارتباطهما معا بعدة علوم منها علوم العربية من ناحية أخرى.

ورصدنا تصور الزركشي للعلاقات الدلالية القائمة بين مفردات النص وتراكيبه ومن ذلك التناسب والطباق والمقابلة، وتمت الإشارة في هذا الجزء من الدراسة إلى تصور الزركشي للروابط الدلالية القائمة بين المفردات والآيات داخل النص القرآني بما يحقق له التماسك والترابط، هذا بجانب تصوره لتلك العلاقات بطريقة كمية نابعة من العدد قد تتجاوز الآية الواحدة إلى العديد من الآيات.

ورصدنا في الطباق تصور الزركشي لأنواعه من اللفظي والمعنوي والخفي وتميز ذلك التصور بالتماس الطباق من باطن النص أو باستدعاء المذكور لعنصر آخر من خارج النص بما يشبه الطريقة المرحلية في رصده للطباق.

ورصدنا في المقابلة تصور الزركشي لأنواعها من التناظر والتخالف والتناقض بما يعبر عن العلاقات التقابلية القائمة بين المتقابلات واتساع تلك العلاقات لتمتد لقطاع أكبر من الآيات.

كما رصدنا أدوات الزركشي في استخراج الدلالة وتصوره للأدوات اللغوية وغير اللغوية، وارتباط تلك الأدوات بالإجمال الدلالي في النص القرآني ورصدنا من تلك الأدوات ملاحظة العلاقات الدلالية بين المفردات ومن ذلك علاقة الضد، والأخذ بمجمل الآية باعتبارها وحدة دلالية، وملاحظة العلاقات التركيبية القائمة بين المفردات واتصال التركيب، والبحث في الدلالة الكلية للسياق، والتطور الدلالي للمفردات وملاحظة المعنى الأصلي التي نقلت عنه الكلمة، كما تمت الإشارة في هذا الجزء من الدراسة إلى اعتماد الزركشي على الأدوات اللغوية وغير اللغوية للكشف عن الدلالة في النص القرآني ومن ذلك الاعتماد على أسباب نزول الآيات، وختمنا هذا الجزء بالكشف عن تصور الزركشي للأدوات الصرفية والنحوية والسياق باعتبارها أدوات تكشف عن دلالة الكلمة بجانب الدلالة المعجمية لها.

ثم رصدنا تصور الزركشي لأقسام الدلالة وما تناوله من الدلالات الكلية والجزئية فكانت الدلالات الكلية عنده ست دلالات هي الخبر والاستخبار والشرط والقسم والأمر والنفي موردا تحت كل دلالة من تلك الدلالات دلالات صغرى تتفرع منها، وتحت الدلالات الصغرى دلالات أصغر منها بما يشبه الخريطة الذهنية، وفي هذا الجزء تمت الإشارة إلى تأثر الزركشي بمن سبقه من العلماء مثل الأخفش وابن

فارس وأشرنا إلى أوجه التماثل والتخالف بين الزركشي وبين غيره من العلماء، كما أشرنا إلى من تأثر به مثل السيوطي، وتمت الإشارة إلى كيفية ربط الزركشي تلك الدلالات الصغرى بالدلالات الكلية وذكره أسباب هذا الربط وكان ذلك بالاعتماد على ما فهمه من السياق أو أسباب النزول أو قول لأحد العلماء.

كما رصدنا في هذا الجزء تصور الزركشي لأقسام دلالات اللفظ من الدلالة اللغوية والشرعية والعرفية والاصطلاحية علاوة على تقاطع تلك الدلالات مع بعضها البعض واعتماده لترتيب هذه الدلالات من حيث أولوية الأخذ بها داخل النص القرآني.

وأعقبنا ذلك بتصور الزركشي للتعدد الدلالي في النص القرآني على مستوى الآية أو المفردات وتمثل تناول الزركشي للتعد الدلالي للآيات في وجهين الأول رصد أقوال العلماء والمفسرين عن دلالات الآية، والثاني تناول الزركشي الآية أو تراكيبها بوجوه دلالية عدة، كما رصدنا ما ساقه الزركشي للألفاظ والأدوات ذات التعدد الدلالي على مستوى النص القرآني.

وأعقبنا ذلك بالكشف عن تصور الزركشي للفروق الدلالية بين المفردات وتمت الإشارة في هذا الجزء إلى اعتماد الزركشي على الأصوات لرصد الفروق الدلالية بين المفردات.

كما رصدنا تصور الزركشي للعدول الدلالي وأسبابه وتمت الإشارة في هذا الجزء من الدراسة إلى تصور الزركشي لبقاء دلالتين للكلمة في النص الأولى الدلالة المعدول عنها والثانية الدلالة المعدول إليها، كما أشير إلى إثبات الزركشي لدليل العدول الدلالي وذلك بالبحث في متعلقات الفعل أو البحث في السياق.

وختمنا هذا المبحث بتصور الزركشي للسياق وأنماطه ودلالته في النص، وكشفنا عن تصور الزركشي من الناحية التطبيقية لأربعة أنماط من السياقات تشمل النص القرآني كله وتلك الأنماط تبدأ بسياق الآية وتنتهي بالسياق الكلي للنص القرآني مرورا بسياق جزئي لمجموعة من الآيات المرتبة داخل السورة، وسياق السورة.

أما سياق الآية فيظهر من اعتبار الزركشي لها وحدة دلالية يستدل بأولها على آخرها أو العكس، وهذا الاستدلال يكون لتوضيح الدلالة أو الاستدلال على بعض ظواهر التركيب فيها، أما سياق مجموعة آيات متتالية في سورة واحدة فيظهر من استدلال الزركشي من الآية التي تسبق الآية المتناولة أو الآية التي تليها وذلك الاستدلال لتوضيح الدلالة أو للكشف عن ظاهرة تركيبية فيها، ويختلف سياق

السورة عن السياق قبله في أن الآيات المستدل بها تكون في أي موقع من السورة ولا تسبق الآية المتناولة أو تليها مباشرة، أما السياق الرابع فيتمثل في الاستدلال أو الجمع بين أكثر من آية في مواقع مختلفة من النص القرآني وهذا السياق نابع عند الزركشي من تصوره لوحدة النص القرآني.

وأعقب تلك الأنماط الكشف عن تصور الزركشي لأهمية السياق من حيث تأثيره في مستويات الأسلوب خاصة الدلالة، ورصدنا في هذا الجزء تصور الزركشي لتأثير السياق في الكشف عن الدلالة المعجمية للمفردات، وتأثيره في الكشف عن دلالة التركيب وظواهره ومن ذلك تأثيره في العدول بالتقديم والتأخير لمناسبة السياق، علاوة على التناسب بينه وبين المفردات والتراكيب الواقعة فيه، ومن ذلك إفراد الكلمة في بعض سياقات النص القرآني وجمعها في سياق آخر ومثل لذلك بارتباط كلمة الريح بسياق العذاب، وارتباط كلمة الرياح بسياق الرحمة في النص القرآني، وتمت الإشارة إلى امتداد التناسب إلى حال المتلقي من حيث مناسبة سياقات الترغيب والترهيب لحاله من الكفر والإيمان.

وجاءت الظواهر التصويرية في المبحث الخامس، ورصدنا فيه الصورة الجزئية من التشبيه والاستعارة والكناية، والصورة الكلية الجامعة بين الصور الجزئية وتناول الزركشي للتمثيل وربط ذلك كله بالدلالة في تصور الزركشي مع رصد إفادته من البلاغيين القدامى، وتمت الإشارة إلى تصور الزركشي للصورة في النص القرآني وارتباطها بالدلالة ووضوحها من حيث اعتماد الزركشي في الغرض منها إلى إخراج ما لا يدرك بسهولة إلى ما يدرك بسهولة وفي هذا الصدد وجدنا تصور الزركشي لأطراف الصورة باعتماد المحسوسات أساسا لتلك الأطراف مع حرصه على ربط الصورة بالدلالة والسياق في النص القرآني وبالتأثير في المتلقي، وبدا لنا في هذا الجزء من الدراسة حرص الزركشي على اكتمال البنية التصويرية تركيبيا ودلاليا من خلال بعض الإجراءات العملية منها تقدير المحذوف ورصد أطراف الصورة والعلاقات التركيبية والدلالية القائمة بينها، كما بدا حرصه على الربط بين الصورة والسياق من خلال تأثير السياق فيها بالتدرج من الأدنى إلى الأعلى في التشبيه على سبيل المثال في سياق المدح، وبالعكس في سياق الذم، ويظهر حرصه على الربط بين الصورة والمتلقي من خلال نقل المتلقي من السماع إلى التخييل كما اتضح ذلك من تناوله لأغراض الاستعارة.

أما تصور الزركشي للصورة الممتدة في النص القرآني فقد تميز بالاهتمام بالصورة بصرف النظر عن الصور الجزئية المكونة لها، وجاء ذلك الاهتمام بهذه الكيفية نتيجة لاهتمام الزركشي بالدلالة ووضوحها في النص القرآني ورصد

تأثيرها في المتلقي كما هو الحال في تناوله للصور الجزئية، وختمنا هذا المبحث برصد بعض الصور الممتدة في النص القرآني التي تناولها الزركشي بالتحليل وربطها بالسياق والمتلقي.

وجاء الفصل الثاني كاشفا عن تصور الزركشي لوحدة النص عموما ووحدة النص القرآني خصوصا وذلك على المستويين النظري والتطبيقي، ووصلنا ذلك التصور بقضية وحدة النص في التصور الحداثي لها، واتسم الكشف عن تصور الزركشي لوحدة النص برصد القضايا التي تفضي إلى وحدة النص القرآني ومن ذلك قضية موهم الاختلاف وقد تناول في تلك القضية نفي الاختلاف بين آيات النص القرآني عموما موردا على سبيل المثال عودة الألفاظ المختلفة في القصص المتكرر إلى أصل واحد، ورصد الفرق بين الحقيقة والمجاز في نسبة الفعل إلى الفاعل وذلك لرفع وهم الاختلاف.

وقمنا برصد الإجراءات العملية التي اتخذها الزركشي في هذا الصدد من رصد لسمات النص مما أورده الزركشي نظريا وتطبيقيا ومن ذلك اتسام النص القرآني بتتابع سياقات بعينها مثل تتابع سياقات الأحكام والوعد والوعيد والتوحيد والتنزيه، وكيفية افتتاح السور وغير ذلك من سمات النص القرآني.

ومن أبرز تلك السمات ما رصدناه من تصور الزركشي لسبعة أنماط للتناسب بين أجزاء النص القرآني بما يفضي إلى التناسب العام بينها باعتبارها سمة أساسية من سمات النص القرآني، والتناسب عنده يعبر عن المقاربة والارتباط بين أجزاء النص القرآني سوره وآياته ويتوزع على التناسب الدلالي والتركيبي والصوتي، وتمثلت تلك الأنماط في تناسب الآيات داخل السورة الواحدة وتميز هذا النمط ببحثه عن الرابط التركيبي من العطف بين آيات السورة الواحدة أو الرابط الدلالي بينها ومثل ذلك بآيات سورة الإسراء وغيرها من السور.

وتناسب فاتحة السورة مع خاتمتها ومثل ذلك بالآيات أول سورة القصص الدالة على خروج موسي عليه السلام من مصر ثم نصرته وعودته إليها والآيات في آخرها الدالة على خروج محمد عليه الصلاة والسلام من مكة ثم نصرته وعودته إليها.

وتناسب فاتحة السورة مع خاتمة السورة قبلها وتمت الإشارة في هذا الجزء إلى إيراد الزركشي لآية من سورة تجمع بين شطر آية في خاتمة سورة وبين شطر آية في فاتحة السورة التي تليها ليعبر عن الربط التركيبي بين السورتين بجانب الربط الدلالي بينهما.

وتناسب فاتحة السورة مع فاتحة السورة قبلها ومثل لذلك بفاتحة سورة الإسراء وفاتحة سورة الكهف.

والتناسب بين السور المتتالية وكان رصده في هذا النمط عن طريق المقابلة الدلالية بين الآيات في سورتين متتاليتين ومن ذلك آيات سورة الماعون وسورة الكوثر.

وتناسب ترتيب السور في المصحف العثماني وكان رصده في هذا النمط للتناسب الصوتي والتركيبي والدلالي ومثل لذلك بالحواميم وغيرها ثم اتبع ذلك بالتطبيق على سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة.

والتناسب بين السورة واسمها ومثل لذلك بالسور التي تبدأ بالحروف المقطعة وتناسب تكرارها في السورة عن غيرها من الحروف.

ورصدنا من تلك الإجراءات تفسير الزركشي للنص بالنص بالاعتماد على أقواله النظرية التي تفضي بأن أفضل وسيلة للتفسير هي تفسير القرآن بالقرآن ثم اتبعنا ذلك بالتطبيق عنده عن طريق وصوله للدلالة في آية بالبحث في سياقاتها الجزئية أو في السياق العام للنص القرآني، أو خلال عملية الاستدلال على الظواهر التركيبية ومن ذلك الحذف.

ورصدنا في هذا الفصل أيضا دور التكرار والمقارنة باعتبارهما من الإجراءات العملية التي اتخذها الزركشي ليعبر عن تصوره لوحدة النص القرآني، فتناول تكرار التراكيب والقصص في النص القرآني بطريقة كمية وكان ذلك من خلال قضية المتشابه، وفي المقارنة تناول الزركشي بطريقة تطبيقية العلاقات التركيبية والدلالية القائمة بين الآيات المتشابهة في النص القرآني رابطا بينها وبين السياق من حيث تأثيره في عدم تطابقها تركيبيا ودلاليا ومن ذلك التقديم في بعضها والتأخير في البعض الآخر، أو الحذف في بعضها والذكر في البعض الآخر، والتكرار والمقارنة يتطلبا من الزركشي نظرا كليا في عموم النص القرآني لرصد التكرار أو تناول الآيات بالمقارنة.

وتناول الفصل الثالث قضايا التلقي عند الزركشي، ورصدنا تصور الزركشي لصور التلقي من تلقي سمعي وبصري وربط الزركشي بين تلك الصور وبين الدلالة في النص، وتمثل التلقي السمعي عند الزركشي في تناوله للسجع والفواصل ورصد الفرق بينهما من حيث تبعية الفاصلة للدلالة وتبعية الدلالة للسجع، وقد ربط بين الفاصلة وبين تأثيرها في درجة استحسان المتلقي للتلاوة من ناحية وبين الكشف عن الدلالة من ناحية أخرى، مع رصده لكيفية بناء الفاصلة في

النص القرآني للتأثير على المتلقي من خلال بنائها على الوقف، أو على الصيغ الصرفية لإحداث التأثير الصوتي عليه، وتمت الإشارة في هذا الجزء إلى تفصيل خطوات تأثير الفاصلة في المتلقي من حيث الألفة ثم التوقع للفاصلة ثم متعة الظفر بما توقعه منها.

أما التلقي البصري للنص القرآني فتظهر أهميته من تصور الزركشي لأفضلية تلقيه بالقراءة على السماع، ويتمثل عنده في تأثير خط المصحف على المتلقي والكشف عن الدلالة في النص القرآني من خلال الاختلاف بينه وبين الخط المعتاد من ناحية، واختلاف رسم بعض الكلمات في النص القرآني من موقع لآخر تبعا لاختلاف الدلالة من ناحية أخرى.

وقد رصد تحت هذا الاختلاف بين خط المصحف وبين الخط المعتاد الاختلاف بالزيادة من حيث زيادة الألف أو الواو أو الياء في رسم بعض الكلمات لتضفي دلالات التمكن في الوجود أو التعظيم أو الاختصاص بدلالة باطنة.

والاختلاف بالنقصان أو الحذف من حيث حذف الألف أو الواو أو الياء أو النون من رسم بعض الكلمات لتنبيه المتلقي على الفرق الدلالي بين الأمور العلوية غير المدركة بالحس وترتبط بدلالة التعظيم، وبين الأمور السفلية المدركة بالحس وترتبط بدلالة أقل في التعظيم من الأولى، أو لإضفاء الدلالة على سرعة الحدوث كما في حذف الواو من بعض الأفعال، أو لإضفاء دلالة العموم كما في حذف الياء من بعض الكلمات، أو لإضفاء دلالة الحقارة كما في حذف النون من بعض الكلمات وغير ذلك من الدلالات، وكل ذلك في إطار إدراك المتلقي للفرق بين خط المصحف والخط المعتاد، أو لإدراكه بصريا للزائد أو الناقص في خط المصحف.

كما رصدنا تصور الزركشي للعدول في الرسم بين الحروف من حيث العدول عن رسم بعض الحروف إلى رسم حروف أخرى لتنبيه المتلقي خلال إدراكه بصريا لهذا العدول في الرسم إلى الدلالة في النص القرآني ومن ذلك ما مثل له الزركشي بالعدول عن رسم الألف إلى الواو في بعض الكلمات لإضفاء دلالة التعظيم، والعدول عن رسم التاء المربوطة إلى رسم التاء المفتوحة في بعض الكلمات للدلالة على أن مقتضى التاء فعل وأثر ظاهر في الوجود وغير ذلك من الدلالات.

ومن ذلك الاختلاف أيضا في وصل الكلمات أو فصلها من موضع لآخر في النص القرآني ومن ذلك وصل "كل" بـ "ما" أو فصلها عنها لتضفي بالوصل رسما

دلالة الوصل في الوجود ومثل له الزركشي باتصال مذهب اليهود في قتل الأنبياء ومعاداتهم لهم في كل العصور على اختلاف أجيال اليهود.

وأعقبنا صور التلقي برصد تصور الزركشي لأحوال التلقي ودرجاته وتصوره مراعاة الصياغة لأحوال المتلقي، وكشفنا عن تصور الزركشي لدرجات المتلقين من عدة زوايا منها تفاوتهم في إدراك الدلالة ومثل لذلك بمن يدرك التفسير وحده ومن يتجاوزه إلى إدراك التأويل ومن يدرك المحكم ومن يتجاوزه إلى إدراك المتشابه.

ومنها تصنيف المتلقين حسب درجة إدراكهم للدلالة وتجاوبهم مع النص ووسيلة الإدراك إلى درجة العامة ويدركون ظاهر النص ووسيلة إدراكهم السمع، ودرجة الخاصة ويدركون الإشارات ووسيلة إدراكهم العقل، والأولياء ويدركون اللطائف ووسيلة إدراكهم المشاهدة، والأنبياء ويدركون الحقائق ووسيلة إدراكهم الاستسلام.

ومنها تصنيف المتلقين حسب درجة استغراقهم في النص وهي درجة المؤمنين العارفين ثم المقربين ثم أصحاب اليمين، وغير ذلك من تلك التصنيفات.

أما مراعاة الصياغة لأحوال المتلقي فتتمثل في رصد تصور الزركشي النظري والتطبيقي لتلك المراعاة وتحليل الظواهر اللغوية في النص القرآني على أساسها ومنها على سبيل المثال ذكر الاسم الموصول "من" للأصنام في خطاب المشركين دون "ما" لمراعاة أحوالهم من خلعهم العقلية والألوهية عليها، ومنها خطاب الناس والمؤمنين على حسب حالهم من الإيمان والكفر، وتمت الإشارة في هذا الجزء من الدراسة إلى إرجاع الزركشي السبب في اختلاف أقوال المفسرين في الآية الواحدة إلى مراعاة حال السائل عن التفسير.

كما رصدنا في ختام هذا الفصل تصور الزركشي للعلاقة بين المتلقي والنص التي اتسمت عنده بالتجاوب والتأثير، وقد رصدنا تصوره للتجاوب والتأثير في مواضع عديدة من كتاب البرهان، ومن تلك المواضع إيراد الزركشي لخبر إسلام النجاشي عندما سمع آيات النص القرآني بما يشبه تجاوب النجاشي مع الآيات بالتدريج من التصديق حتى الإسلام، ومن ذلك أيضا رصد تناوله للآداب التي تتبع عند تناول القرآن الكريم وتلاوته، ومن تلك الآداب التجاوب مع صياغة النص القرآني، فسياق الرحمة يوجب على المتلقي الإحساس بالرحمة والفرح بها، والتأثر بالبشرى، وسياق العذاب يوجب عليه التأمل والتدبر والاعتراف بالإيمان بالله وحده

ومسألته أن يبعده عن العذاب، وفي سياق النداء يرصد تأثر البعض به من المتلقين بالإجابة بقولهم "لبيك ربي وسعديك".

وجاء في ختام تلك الفصول الكشف عن الأدوات المنهجية- وذلك في الفصل الرابع- التي تسلح بها الزركشي في رحلته للكشف عن الدلالة في النص القرآني وتناوله لقضايا الأسلوب، ووصلت تلك الأدوات بما يتفق أو يفترق مع الأدوات المنهجية الحداثية بهدف ترسيخ جذور تلك الأدوات في تراثنا من ناحية، والكشف عن أدوات قد تفيدنا في الدرس الأسلوبي الحديث من ناحية أخرى.

ومن أهم تلك الأدوات اعتماد الزركشي للجمع بين مستويات الأسلوب كما رصدناها عنده في تصوره الشامل لتلك المستويات مجموعة خلال تناوله للنص القرآني بالتحليل وذلك على المستويين النظري والتطبيقي بما يعبر عن وحدة الأسلوب عنده فجاء تحت عنوان وحدة الأسلوب، وتميز تصور الزركشي للمستوى الدلالي باعتباره الجامع بين تلك المستويات من ناحية وتقاطع تلك المستويات عموما في النص من ناحية أخرى، وقد اتضح هذا عنده من شقين الأول الإطار النظري في رصده لقانون التفسير أو الأدوات التي يحتاجها المفسر للكشف عن الدلالة وتوزعت على مستويات الأسلوب من الإفراد إلى التركيب، وجاء ذلك خاصة من خلال تناوله لقضية الإجمال الدلالي، والشق الثاني تمثل في الجانب التطبيقي عند الزركشي من خلال تطبيق قانونه في التفسير على النص من خلال المفاضلة بين آية منه وقول مأثور أو تحليل بعض الآيات.

وقد اعتمد في تفضيله لآية على قول مأثور على مستويات الأسلوب فكان التفضيل من خلال رصد صفات الأصوات ومخارجها والتناسب العام بينها وبين السياق وكيفية تتابع الأصوات وأثرها على المتلقي، ورصد الفروق الدلالية بين الصيغ الصرفية وتناسبها مع السياق في الآية أو تنافرها النابع من تكرارها في القول المأثور، ورصد العلاقات التركيبية القائمة بين المفردات وظواهر التركيب، ورصد العلاقات الدلالية القائمة بين المفردات علاوة على دلالاتها المعجمية ومدى وضوح الدلالة في الآية وغموضها في القول المأثور، ورصد تأثير الصورة على المتلقي باستدعاء المقابل في الآية وخلو المثل منها.

أما تناول الزركشي للآيات بالتحليل فقد اعتمد أيضا على رصد الظواهر التي تندرج تحت مستويات الأسلوب، من رصد لتناسب الأصوات والصيغ الصرفية والعدول التركيبي ودلالته ودلالة التركيب الكلية ورصد الدلالة المعجمية وتأثير ذلك كله على المتلقي.

ورصدنا تحت السمة المنهجية الثانية اعتماد الزركشي في استخراج الدلالة في النص القرآني أو تفسير الظواهر اللغوية على البحث في ملابسات النص وما يحيط به خاصة عند الإجمال الدلالي في النص القرآني وقد اعتمد الزركشي في ذلك على أسباب النزول والمكي والمدني والحديث الشريف تنظيرا وتطبيقا.

كما رصدنا تحت السمة المنهجية الثالثة اعتماده للإحصاء، ورصدنا قيام الزركشي بعملية الإحصاء- بجانب إحصاء سور القرآن وحروفه- للدلالات الكلية للنص القرآني، وإحصاء لبعض الألفاظ الواردة فيه وعدد ورودها، وفي هذا الجزء تمت الإشارة إلى أن الزركشي ربط بين الإحصاء والدلالة في النص القرآني بوجه من الوجوه، لا يذكر فيه دلالة العدد، ولكن باعتبار الإحصاء للمعدود ظاهرة توجب التوقف عندها ومن ذلك دلالة تكرار "كلا" في السور المكية دون المدنية وربط تلك الدلالة بالتهديد والوعيد.

وإحصاء للدلالات المعجمية المختلفة والهدف من ذلك بيان اختلاف الدلالات المعجمية للفظ باختلاف موضعه أو سياقه، ومن ذلك دلالة الأسف على الحزن في عموم النص القرآني إلا في مواضع جاءت بمعنى الغضب والغيظ.

وإحصاء للتراكيب المتكررة والظواهر الأسلوبية المختلفة، علاوة على إحصاء التصانيف والكتب التي تناولت النص القرآني أو علومه وذلك بداية العلم الذي يتناوله الزركشي.

ورصدنا تحت السمة المنهجية الرابعة اعتماد الزركشي للتقسيم، بما يشبه الخريطة الذهنية، فالزركشي لا يتناول الموضوع أو العلم المدروس مجملا، ولكن يذكر أقسامه، وقد يقسم تلك الأقسام إلى أقسام أخرى، وهذا التقسيم بهذا الشكل يلمّح لنا إلى استقصاء الزركشي الموضوع المتناول من جوانبه المختلفة أصوله وفروعه من ناحية، والوصول من الإجمال إلى التفصيل بهدف سهولة رصد الظواهر بتجزيئها إلى أقسام من ناحية أخرى، ومن ذلك تناول الزركشي لأسلوب القسم، فقسمه إلى القسم المظهر، والقسم المضمر، ثم قسم المضمر إلى القسم باللام، والقسم بدون أداة، ومن ذلك أيضا تقسيم النص القرآني إلى ما يحتمل دلالة محددة، وإلى ما يحتمل دلالات متعددة، ثم قسم ما يرفع التعدد الدلالي إلى قرائن لفظية وقرائن معنوية، وقسم القرائن اللفظية إلى متصلة ومنفصلة، وقسم القرائن اللفظية المتصلة إلى التأويل والبيان، وقسم القرائن اللفظية المنفصلة إلى نوعين هما التأويل والبيان أيضا، ثم يصل إلى القرائن المعنوية فيذكر بعضها ويعلق عليها بأنها لا تنحصر وقد مثلنا ذلك برسم توضيحي.

ورصدنا تحت السمة المنهجية الخامسة اعتماد الزركشي للاستدلال، إذ يمثل الاستدلال سواء على الظواهر اللغوية أو الدلالة التي كشف عنها الزركشي في النص القرآني ملمحا يكشف لنا عن علاقة الزركشي بمتلقيه من حيث إيراد ما يقنعه بصحة ما كشف عنه من دلالات من ناحية، وتحري الزركشي الدقة في إيراد ما اعتمد عليه أو المصدر الذي وجهه لتلك الدلالات؛ ليقف عليها متلقيه من ناحية أخرى.

وقد تنوعت مصادر الاستدلال عند الزركشي فمنها القرآن نفسه، والقراءات، والحديث الشريف، والشعر، والاستدلال العلمي، وكان أكثرها في كتابه الاستدلال بالنص القرآني ذاته، ومن ذلك الاستدلال على عودة الضمير إلى غير الأقرب بآية من آيات النص القرآني؛ ليقيس ذلك على آية أخرى، والدافع إلى هذا الاستدلال الاتجاه صوب دلالة محددة، ثم الاستدلال بالقراءات ومن ذلك الاستدلال على زيادة "لا" في بعض المواضع من النص لتضفي دلالة التوكيد على الآية.

ويعد الحديث الشريف مصدرا مهما من مصادر الاستدلال عند الزركشي، يلجأ إليه للاستدلال على الظاهرة اللغوية أو دلالتها، ومن ذلك الاستدلال بالحديث الشريف أن الجن ليس من جنس الملائكة؛ ليخرج بذلك بوجود أسلوب تغليب الجنس في الخطاب في النص القرآني، ومنه خطاب الملائكة وإبليس بالملائكة تغليبا لهم على جنس الجن، والدليل الذي ساقه الزركشي أن الحديث الشريف أثبت أن الملائكة خلقت من النور، والجن خلقت من النار.

ويعد الشعر من مصادر الاستدلال عند الزركشي، يستدل به على الدلالة المعجمية للفظ، أو على ظاهرة لغوية باعتبار الشعر ديوان العرب، ومن ذلك استدلاله ببيت من الشعر على دلالة كلمة "الآية" على "العجب".

وللزركشي مصدر آخر من مصادر الاستدلال نابع من ثقافته ومعرفته بالعلوم الطبيعية، وأطلقنا عليه الاستدلال العلمي بمعنى الاستدلال بما يشبه العلوم الطبيعية على الدلالة أو الظاهرة في النص القرآني، ومن ذلك ما أشار إليه الزركشي إلى أقل مدة للحمل والرضاعة للاستدلال على التناسب بين نعم الله على الإنسان، وبين امتنان الإنسان بها.

ورصدنا تحت السمة المنهجية السادسة اعتماد الزركشي على عرض الآراء، وهي من الملامح المنهجية التي اتبعها الزركشي في كتابه البرهان ودراسة القضايا اللغوية المختلفة في النص القرآني؛ وتميز هذا الجزء بعرض أقوال العلماء ومناقشتها سواء بالتعبير عن رأيه فيها، أو بالاعتماد على رأي غيره وسرد الأدلة

على الرأي الصحيح، ومن ذلك عرضه للخلاف بين أقوال القدماء حول ورود البعض وإرادة الكل في النص القرآني، فأورد قولا لأبي عبيدة ذاكرا الآيات التي حللها، وما اعتمد عليه من خارج النص للاستدلال ببيت من الشعر استدل به أبو عبيدة على إيراد البعض والمراد به الكل في بعض آيات النص القرآني، وبعد عرض نص مقولة أبي عبيدة قام الزركشي بالرد على تلك المقولة لإثبات عدم حمل الآيات وبيت الشعر الذي استدل به أبو عبيدة على ذكر البعض والمراد الكل، وقسم رده قسمين تخلل أحدهما مقولة لثعلب في الرد على أبي عبيدة وأورد الدليل على إرادة البعض بعدم إجابة الرسول- صلى الله عليه وسلم- على جميع أسئلة اليهود على وجه الحقيقة، وفي القسم الثاني يكون جنس الرد من جنس مقولة أبي عبيدة فأورد خطأه في فهم بيت الشعر الذي استدل به أولا، ثم استدل ببيت شعر آخر على أن المراد الكل وليس البعض.

ورصدنا تحت السمة المنهجية الأخيرة اعتماد الزركشي للتنظير والتطبيق، إذ يعد التطبيق بمثابة الدليل على التنظير وصحته، ويعد التنظير مهما لإجمال الظواهر المختلفة واعتباره قاعدة يمكن الرجوع إليها عند التطبيق، ومن ذلك التنظير لقواعد في النفي والنهي والتدليل عليها بالتطبيق على الآيات في النص القرآني ليتكامل تناوله لتلك القواعد.

وقد أعقبنا تلك الفصول بهذه الخاتمة التي تناولت التعريف بفصول الدراسة ومباحثها وجزئياتها والإشارة إلى أبرز ما رصدناه فيها، وأعقبنا الخاتمة بثبت بالمصادر والمراجع وفهرس مفصل لفصول الدراسة ومباحثها ثم تنتهي بملخص باللغتين العربية والانجليزية.

ومن أهم ملامح المنهج الذي اتبعناه في هذه الدراسة الحرص على أن يكون الرصد والتحليل في إطار كتاب البرهان دون أن نقحم فيه ما لم يتطرق إليه الزركشي مما توصل إليه الدرس الأسلوبي الحديث، وهذا لا يعني أن الأدوات المنهجية كانت معدة بالفعل، بل تناولنا منها ما جاء مناسبا للكتاب موضوع الدراسة

هذا وقد اعتمدنا على النسخة المحققة من قبل د. محمد متولي منصور لكتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي لما اعتمده المحقق من منهج علمي بدأ من حيث انتهى محمد أبو الفضل إبراهيم في نسخته المحققة للكتاب، وذلك بمزيد من التنقيح من خلال المعارضة بين المخطوطات المختلفة للكتاب بطريقة أوسع وأشمل، علاوة على إرجاعه للنصوص التي أوردها الزركشي لأصحابها وذكر مصادرها الأصلية.

والحمد لله رب العالمين

المصادر و المراجع

- القرآن الكريم
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، أحمد البنا الدمياطي، ت شعبان محمد اسماعيل ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٧
- أثر الدلالت اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير و التنوير ، مشرف بن أحمد جمعان الزهراني ، رسالة دكتوراة ، كلية الدعوة و أصول الدين ، جامعة أم القرى ، ١٤٢٧ هـ
- أثر النظم في تناسب المعاني في سورة العنكبوت ، مقبولة علي مسلم الحصيني ، رسالة ماجستير ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، ٢٠٠٧
- أساس البلاغة ، الزمخشري ، كتاب الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠
- أسئلة بيانية في القرآن الكريم ، د. فاضل صالح السامرائي ، مكتبة الصحابة ، الإمارات ، ٢٠٠٨
- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، ت محمود محمد شاكر ، المدني ، القاهرة ، ١٩٩١
- أسرار التكرار في القرآن ، الكرماني ، ت عبد القادر أحمد عطا ، دار الفضيلة
- أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم ، عبد الكريم محمود يوسف ، م الغزالي ، دمشق ، ٢٠٠٠
- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ، د. حسن طبل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٨،
- أشكال التخييل ، د. صلاح فضل ،لونجمان ، القاهرة ، ١٩٩٦
- إعجاز القرآن ، الباقلاني ، ت السيد صقر ، دار المعارف ، ط٥ ، ١٩٩٥
- الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ت محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، ط٢ ، ١٩٨٩
- الأدب و الدلالة ، تودوروف ، ت د. محمد نديم خشفة ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ١٩٩٦
- الاستعارة في النقد الأدبي الحديث ، يوسف أبو العدوس ، الأهلية للنشر و التوزيع ، الأردن ، ١٩٩٧
- الأسس الجمالية في النقد الأدبي ، د. عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط٣ ، ٢٠٠١
- الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ، د. سعد مصلوح ، عالم الكتب ، ط٣ ، ١٩٩٢
- الأسلوبية ، بيير جيراو ، ترجمة منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ط٢ ، ١٩٩٤
- الأسلوبية الصوتية ، د. محمد الصالح الضالع ، دار غريب ، القاهرة ٢٠٠٢

- الأسلوبية مدخل نظري ، د. فتح الله أحمد سليمان ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٤
- الأسلوبية منهجا و نقدا ، د. محمد عزام ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨٩
- الأسلوبية و الأسلوب،د.عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب،طرابلس
- الأسلوبية و البيان العربي للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، و الدكتور محمد فرهود ، و الدكتور عبد العزيز شرف ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٤١٢ هـ
- الأسلوبية و الخطاب الشعري ، محمود أحمد الطويل ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٦
- الأسلوبية و نظرية النص ، د. إبراهيم خليل ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، ١٩٩٧
- الأسلوب و النحو ،د. محمد عبد الله جبر ، دار الدعوة ، الاسكندرية ، ١٩٨٨
- الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٩
- الأقصى القريب ، التنوخي ، مكتبة السعادة ، القاهرة ، ١٩٢٧
- الألسنية التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية ، د. ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٦
- الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى ، الرماني ، ت د. فتح الله صالح علي المصري ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٩٨٧ الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ، الانجلو ، القاهرة ، ١٩٩٩
- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، ت د. عبد القادر حسين ، ط الآداب ، القاهرة ، ١٩٩٦
- البحث البلاغي عند العرب ، د. أحمد مطلوب ، دار الجاحظ ، بغداد ، ١٩٨٢
- البحث اللغوي عند العرب ، د. أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، ط٦ ، ١٩٨٨
- البرهان الكاشف عن سر الإعجاز ، ابن الزملكاني ، ت أحمد مطلوب و خديجة الحديثي ، دار المأمون ، بغداد ، ١٩٧٦
- البرهان في علوم القرآن بدر الدين الزركشي ، تحقيق ، د. محمد متولي منصور ، دار التراث ، القاهرة ،٢٠٠٨
- التبيان في أيمان القرآن ، ابن قيم الجوزية ، ت . عبد الله بن سالم البطوطي ، دار عالم الفوائد
- البعد التصويري في القرآن الكريم سورة يوسف نموذجا ، مريم سعود ، رسالة ماجستير ، قسم اللغة العربية و آدابها ، كلية الآداب و اللغات ، جامعة الجزائر ، ٢٠٠٦
- البلاغة و الأسلوبية،د.محمد عبد المطلب ، لونجمان ، القاهرة ١٩٩٤

- البلاغة و الأسلوبية ، د. هنريش بليت ، ت . د محمد العمري ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، ١٩٩٩
- البنيوية ، جان بياجيه ، ت عارف منيمنه و بشير أوبري ، دار عويدات ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٥
- البنيوية التكوينية و النقد الأدبي ، لوسيان جولدمان و آخرون ، ت . محمد سبيلا ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ١٩٨٤
- البنيوية و ما بعدها ، جون ستروك ، ت محمد عصفور ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون ، الكويت ، ١٩٩٦
- البيان و التبيين ، الجاحظ ، ت عبد السلام هارون ، دار الفكر، القاهرة
- التحليل النصي ، رولان بارت ، ت. عبد الكبير الشرقاوي ، دار التكوين ، دمشق ، ٢٠٠٩
- التركيب اللغوي للأدب ، لطفي عبد البديع ،دار المريخ ، الرياض ، ١٩٨٩
- التطور الدلالي ، د. عوده خليل أبو عوده ، مكتبة المنار ، الأردن ، ١٩٨٥
- التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآني ، جنان منصور كاظم الجبوري ، رسالة دكتوراة ، كلية التربية ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥
- التلقي و التأويل ، د. محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٩٤
- الجهود النحوية لبدر الدين الزركشي ، علي سعد الخولي ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٨
- الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات ، د. عبد البديع النيرباني ، دار الغوثاني ، دمشق ، ٢٠٠٦
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، الثعالبي ، ت. علي محمد عوض و آخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت
- الخصائص ، ابن جني ، ت د. محمد على النجار ، دار الكتب المصرية
- الدرس التطبيقي في النقد العربي ، د.طارق سعد شلبي ، زهرة المدائن ، القاهرة ، ٢٠٠١
- السجع في القرآن ، د. إبراهيم عوض ، الأهرام للنشر ، ١٩٩٥
- الشاعر و النص و المتلقي عند حازم القرطاجني ، نصيرة مخربش ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، جامعة العقيد الحاج لخضر ، ٢٠٠٦
- الشعرية ، تودوروف ، ت شكري المبخوت و رجاء سلامة ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ١٩٨٧
- الصاحبي في فقه اللغة ، أحمد ابن فارس ، النسخة الالكترونية لموقع الوراق على الشبكة الدولية
- الصوت و الصورة في الشعر الجاهلي ، د. طارق سعد شلبي ، البراق ، القاهرة ، ٢٠٠٦

- الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، د. صلاح الدين عبد التواب ، لونجمان ، القاهرة ، ١٩٩٥
- العلامة و العلامية ، د. محمد عبد المطلب ،الوطن العربي ، بيروت ، ١٩٨٨
- الغريبين في القرآن و الحديث ، الهروي ، ت . أحمد فريد المزيدي ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة ، ١٩٩٩
- الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، ت . محمد إبراهيم سليم ، دار العلم و الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٨
- الفن و مذاهبه ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، ١٩٩٥
- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التنزيل ، الزمخشري ، مكتبة الأشراف ، بيروت ، ١٩٩٣
- اللغة و المعنى و السياق ، جون لاينز ، ت د. عباس صادق الوهاب ، دار الشئون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٧
- المتشابه اللفظي في القرآن الكريم و أسراره البلاغية ، صالح بن عبد الله بن محمد الشثري ، رسالة دكتوراة ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، ٢٠٠١
- المثل السائر ، ابن الأثير ، ت محمد محي الدين ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٠
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٩٢
- المجيد في إعجاز القرآن المجيد ، ابن خطيب زملكا ، ت د. شعبان صلاح ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٩
- المدخل إلى علم اللغة ، د. رمضان عبد التواب ، الخانجي ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٧
- المنهج الصوتي للبنية العربية ، د. عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠
- النحو و الدلالة ، د. محمد حماسة عبد اللطيف ، دار الشروق ، ٢٠٠٠
- النص و الأسلوبية ، عدنان بن ذريل ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٠
- الوحدة في شعر ابن قيس الرقيات . د. طارق سعد شلبي ، زهرة المدائن ، القاهرة ، ٢٠٠٣
- الوشي المرقوم في حل المنظوم ، ابن الأثير ، ت . يحيي عبد العظيم ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٤
- إنباء الغمر بانباء العمر ، ابن حجر العسقلاني ، مكتبة المصطفى الالكترونية على الشبكة الدولية
- إنتاج الدلالة الأدبية ، د. صلاح فضل ، مؤسسة مختار للنشر ، القاهرة ، ١٩٨٧

- أهم القضايا النحوية و الصرفية من كتاب البرهان في علوم القرآن ، عاطف محمد عبد المجيد أبو سعيد ، رسالة ماجستير ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، ١٩٨٦
- بحوث في القراءة و التلقي ، فيرناند هالين و آخرون ، ت.د. محمد خير البقاعي ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ١٩٩٨
- بديع القرآن ، ابن أبي الإصبع المصري ، ت حفني محمد شرف ، نهضة مصر ، ١٩٩٥
- بديع القرآن من كتاب البرهان ، عبد المجيد عبد المجيد هنداوي جعفر ، رسالة ماجتير ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، ١٩٨٨
- بعض السمات الصوتية في القرآن ، أحمد عوض العربي ، رسالة دكتوراة ، كلية اللغات و الترجمة ، جامعة الأزهر ، ١٩٨٨
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، د. عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب ، ١٩٩٩
- بلاغة الخطاب و علم النص ، د. صلاح فضل ، عالم المعرفة ، ١٩٩٢
- بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم ، محمد مشرف خضر ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا
- بلاغة العطف في القرآن الكريم ، د. عفت الشرقاوي ، النهضة العربية ، ١٩٨١
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د. فاضل صالح السامرائي ، العاتك للنشر ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٦
- بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، د. محمد عبد المطلب ، دار المعارف ، ط٢ ، ١٩٩٥
- تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، ت . السيد صقر ، مكتبة التراث ، القاهرة ، ١٩٨٩
- تعدد المعنى في القرآن ، د. ألفة يوسف ، دار سحر للنشر ، تونس
- تفسير التحرير و التنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية ، ١٩٨٤
- تفسير السمعاني ، أبو المظفر السمعاني ، دار الوطن ، الرياض ، ١٩٩٧
- تفسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، وزارة الشئون الإسلامية ، السعودية ، ١٤٢٢ هـ
- توظيف البناء الصرفي في الشعر الجاهلي ، د. طارق سعد شلبي ، زهرة المدائن ، القاهرة ، ٢٠٠٣
- ثقافة المفسر عند الزركشي ، ليلى محمد مسعود عبد المنعم ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني و الخطابي و عبد القاهر الجرجاني ، ت د. محمد خلف الله أحمد ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، ط٣ ، ١٩٧٦

- جدلية الإفراد و التركيب،د.محمد عبد المطلب ، القاهرة ، ١٩٩٠
- جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم ، د. أسامة عبد العزيز جاب الله ، طنطا ، ٢٠٠٨
- جماليات الصوت و خصائص الصورة في القرآن الكريم ، د. طارق سعد شلبي ، القاهرة ، ١٩٩٩
- جماليات تحول الوحدة الصرفية لدى النحاة و البلاغيين ، د. سامي عوض ، عادل نعامة، مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث ، سلسلة الآداب و العلوم الإنسانية ، المجلد(٢٨)، العدد (١) ، ٢٠٠٦
- دراسات في علم التراكيب اللغوية و الأصوات ، د. البدراوي زهران ، القاهرة ، ١٩٩٦
- دراسات و تعليقات في اللغة ، د. رمضان عبد التواب ، الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٤
- دراسة أسلوبية في سورة الكهف ، مروان محمد سعيد عبد الرحمن، رسالة ماجستير كلية الدراسات العليا ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، فلسطين ، ٢٠٠٦
- دراسة الصوت اللغوي ، د. أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧
- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، ت محمود محمد شاكر ، الخانجي ، ١٩٨٤
- دلالة الألفاظ ، د. إبراهيم أنيس ، الانجلو ، ٢٠٠٤
- دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ، ت د. كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٥
- رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية ، غانم قدوري الحمد ، بغداد ، ١٩٨٢
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، الألوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٨٨
- سر صناعة الإعراب ، ابن جني ت د . حسن هنداوي ، جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، القصيم ، المملكة العربية السعودية ، د.ت
- سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، ت . د. عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٩
- سلاسل الذهب ، الزركشي ، تحقيق و تقديم د. صفية أحمد خليفة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٨
- سلطة النص ، عبد الهادي عبد الرحمن ، سينا للنشر ، ط٢ ، ٢٠٠٣
- شذرات الذهب ، ابن العماد ، ت محمود الأرناؤوطي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٦
- شعر الدعوة عند حسان بن ثابت،د.طارق سعد شلبي، زهرة المدائن،القاهرة،٢٠٠٣

- شفرات النص ، د. صلاح فضل ، عين للدراسات الإنسانية ، ط٢ ، ١٩٩٥
- طبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة ، موقع مكتبة المصطفي الالكترونية على الشبكة الدولية
- ظاهرة العدول في البلاغة العربية ، عبد الحفيظ مراح ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الجزائر ، ٢٠٠٦
- علم الأسلوب ، د. صلاح فضل ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٨
- علم الدلالة ، د. أحمد مختار عمر ،عالم الكتب ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٩٨
- علم الدلالة ، د. منقور عبد الجليل ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،٢٠٠١
- علم الدلالة ،جون لاينز ، ت. مجيد عبد الحليم الماشطة . جامعة البصرة ، البصرة ١٩٨٠
- علم الدلالة العربي ، د. فايز الداية ، دار الفكر العربي ، دمشق ،ط ٢ ، ١٩٩٦
- علم اللغة ، د. علي عبد الواحد وافي ، نهضة مصر ، ط١٠ ، القاهرة ، ١٩٩٧
- علم النص ، جوليا كريستيفا ، ت فريد الزاهي ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ١٩٩١
- علم لغة النص ، د. سعيد بحيري ، لونجمان ، القاهرة ، ١٩٩٦
- علوم القرآن بين البرهان و الإتقان ، د. حازم سعيد حيدر ، دار الزمان ، المدينة المنورة ، ١٤٢٠ هـ
- عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، ت د. محمد زغلول سلام ، منشأة دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٨٤
- عنوان الدليل من مرسوم خطط التنزيل ، أبو العباس أحمد بن البناء المراكشي ، ت د. هند شلبي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٠
- فصول في فقه اللغة ، د. رمضان عبد التواب ، الخانجي ، القاهرة ، ط٦ ، ١٩٩٩
- فلسفة البلاغة بين التقنية و التطوير ، رجاء عيد ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ط٢، ١٩٨٨
- فن الشعر ، د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٧٩
- فوائد في مشكل القرآن ، عز الدين بن عبد السلام ، ت د. سيد رضوان علي ، دار الشروق ، جدة ، ط٢ ، ١٩٨٢
- في التحليل اللغوي للنص الروائي ، د. طارق سعد شلبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٨
- في النص الشعري، د.طارق سعد شلبي ، القاهرة ، ٢٠٠٣
- في علم الدلالة ، د. عبد الكريم محمد حسن جبل ، دار المعرفة الجامعية ،الاسكندرية ، ١٩٩٧

- قراءات في الشعر العربي الحديث ، د. محمد عبد المطلب ، القاهرة ، ٢٠٠٤
- قراءة الصور و صور القراءة ، د. صلاح فضل ، دار الشروق ، ١٩٩٧
- قراءة النص و جماليات التلقي و د. محمود عباس عبد الواحد ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦
- قراءة ثانية في شعر امرئ القيس ، د. محمد عبد المطلب ، لونجمان ، ١٩٩٦
- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ، د. محمد عبد المطلب ، القاهرة ، ١٩٩٠
- قضية السجع بين القدماء و المحدثين ، د. محمد يونس ، القاهرة ، ١٩٨٦
- مباحث علم المعاني في كتاب البرهان ، خليفة قرني محمد قرني ، رسالة ماجستير ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، ١٩٨٨
- مباحث في علوم القرآن ، د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٨
- محمد و الفتح قراءة في جماليات البيان القرآني ، د. طارق سعد شلبي ، دار الفردوس ، القاهرة ، ٢٠٠١
- مدخل إلى علم الأسلوب ، د . شكري محمد عياد ، مكتبة الجيزة ، ١٩٩٢
- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، مكتبة المثنى ، بيروت ، ١٩٥٧
- مفاهيم نقدية، رينيه ويليك ، ت د. محمد عصفور ، عالم المعرفة ، القاهرة ، ١٩٨٧
- مفتاح العلوم ، السكاكي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٢
- مفهوم الخيال و وظيفته في النقد القديم و البلاغة ، فاطمة سعيد أحمد حمدان ، رسالة دكتوراة ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، ١٩٨٩
- من مباحث البلاغة و النقد بين ابن الأثير و العلوي ، د. نزيه عبد الحميد فراج ، مكتبة وهبه ، ١٩٩٧
- منهاج البلغاء ، حازم القرطاجني ، ت محمد الحبيب ، تونس ، ١٩٦٦
- من وظائف الصوت اللغوي ، د. أحمد كشك ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٨
- موسيقى الشعر ، د. إبراهيم أنيس ، الانجلو المصرية ، ط٤ ، ١٩٩٧
- موسيقى الشعر العربي ، د. حسني عبد الجليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩
- نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د. صلاح فضل ، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٣
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدين الرازي ، ت.د نصر الله حاجي مفتي أوغلي ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤
- هدية العارفين أسماء المؤلفين و آثار المصنفين ، اسماعيل باشا البغدادي ، وكالة المعارف ، استانبول ، ١٩٥٥

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

المقدمة ..... أ - و

التمهيد ..... ١ - ٨

- الزركشي وعصره ١

- المنهج وأدواتـــه ٤

الفصل الأول " مستويات الأسلوب " ٩-١٦٨

- المبحث الأول " المستوى الصوتي " ..... ١٠ - ٢٣

مخارج الأصوات وصفاتـها ١٠

الصـــــوت والـــدلالة ١٥

الدرس الصوتي في القراءات ١٧

- المبحث الثاني " المستوى الصرفي " ..... ٢٤ - ٣٥

الصرف والدلالة ٢٤

العدول الصرفـي ٣٢

- المبحث الثالث " المستوى التركيبي " ..... ٣٦ - ٨٦

العلاقات التركيبية ٣٨

وحـــدة التركيب ٤٥

دلالـــة التركيب ٤٧

القوالب التركيبية ٥٤

- التركيب الشرطي ٥٤

- التركيب الوصفي ٥٩

- التركيب العطفي ٦٤

- التركيب البدلـــي ٦٧

العدول التركيبي ٦٨

- الالـــتـــفـــات ٦٨

- الـــــحـــــذف ٧٢

- الـــــزيـــــادة ٧٩

- التقديم والتـأخير ٨١

- الاعـــــتراض ٨٤

- المبحث الرابع " المستوى الدلالي " ..... ٨٧ - ١٤٢

أهمية الدلالة وتجليات الدرس الدلالي ٩٠

العـــــلاقات الدلالية ٩٥

- التناسب ٩٥

- الطبـاق ٩٨

- المقابلة ١٠٠

أدوات استخراج الدلالة ١٠٣

أقـــــــــسام الدلالة ١٠٧

- الدلالة الكليـة ١٠٧

- دلالات اللفظ ١١٨

التـــــــعدد الدلالي ١٢٠

- الوجوه الدلالية للآية ١٢٠
- تـعدد دلالات اللفظ ١٢٣
- تـعدد دلالات الأداة ١٢٥
الفـــــروق الدلالية ١٢٧
الـــــعدول الدلالي ١٢٨
الســـــياق ١٣٠
- أنمـــــاط السياق ١٣٠
- دلالة السياق وتأثيره ١٣٧
- المبحث الخامس " المستوى التصويري " ..... ١٤٣ - ١٦٨
الصورة الجزئية ١٤٣
- التشبيـــه ١٤٦
- الاستعارة ١٥٢
- الكنايـــة ١٥٩
الصورة الممتدة ١٦٥
الفصل الثاني " وحدة النص " ١٦٩- ١٩٥
- مـــوهم الاختلاف ١٧٠
- سمـــــات النص ١٧٣
- السمات العامة ١٧٣
- التنـــاسب ١٧٦
- تفسير النص بالنص ١٨٧

- التـــــكرار ١٩٠
- المقـــــارنة ١٩٢
الفصل الثالث " التلقي " ..... ١٩٦ - ٢٢٥
- صـــــور التلقي ١٩٨
- التلقي السمعي ١٩٨
- التلقي البصري ٢٠١
- أحـــــوال التلقي ٢١٣
- درجـــات التلقي ٢١٣
- مراعاة أحوال المتلقي ٢١٦
- العلاقة بين النص والمتلقي ٢٢٠
الفصل الرابع "منهج الزركشي في دراسة قضايا الأسلوب" ..٢٢٦-٢٦٢
- وحـدة الأسلوب ٢٢٧
- التنظير ٢٢٧
- التطبيق ٢٣٦
- ملابسات النص ٢٤٢
- أسباب النـزول ٢٤٤
- المكي والمدني ٢٤٥
- الحديث الشريف ٢٤٦
- الإحصـــــاء ٢٤٦
- التقســـــيم ٢٥٢

- الاســـــــتدلال ٢٥٤
- عـــــرض الآراء ٢٥٨
- التنظير والتطبيق ٢٦٠
الخـــــــــاتمة ..... ٢٦٣ - ٢٧٩
المصادر والمراجع ..... ٢٨٠ - ٢٨٧
فهرس المحتويـــات ٢٨٨- ٢٩٢

ملخص الرسالة

حسبنا أن تكون هذه الدراسة استكمالا لجهد أساتذتنا في ترسيخ جذور الدرس الأسلوبي عند القدماء من السلف خاصة عند الزركشي كما يظهر لنا من كتابه البرهان باعتباره أبرز ما وصل إلينا من تراث علوم القرآن.

ومن هذا المنطلق، فإن هذه الدراسة تقوم على رصد قضايا الأسلوب في كتاب البرهان وتحليلها عن طريق رصد مكونات الأسلوب العام للقرآن الكريم كما أوضحه الزركشي وتحليلها مع رصد أدوات يمكن أن تفيدنا في الدرس الأسلوبي الحديث، وذلك برصد تصور الزركشي لمستويات الأسلوب من صوت وصرف وتركيب وتصوير ودلالة، مع رصد تصور الزركشي لوحدة النص القرآني والكشف عن الأدوات التي تسلح بها في رحلته لإثبات هذه الوحدة، ورصد تصوره لقضايا التلقي وصور التلقي للنص القرآني والقدرة التأثيرية للنص القرآني على المتلقي، مع رصد أدوات الزركشي المنهجية في تناوله لقضايا الأسلوب.

ومن ثم فإن المنهج المتبع في هذه الدراسة المتواضعة ينبع من معطيات الدرس الأسلوبي الحديث، وهو قائم على الاستقراء والتحليل، فيرصد القضايا المختلفة التي تضمنها كتاب البرهان، ويعمد إلى تصنيفها والكشف عن أبعادها من خلال الإفادة من التطور الذي شهده الدرس اللغوي والبلاغي والنقدي الحديث.

فبداية عمدنا إلى القراءات الأول لكتاب البرهان بطريقة شمولية وأعقب تلك القراءات قراءة متأنية راصدة قضايا الأسلوب وظواهره ظاهرة ظاهرة، وبعد رصد وترتيب تلك الظواهر حددت كل ظاهرة وأفرد لها فصلا من فصول الدراسة للكشف عن أبعادها عند الزركشي على أن ترتيب الفصول حسب الظواهر وليس حسب ترتيب ورودها في أجزاء البرهان، وقد قسمت الدراسة إلى أربعة فصول يسبقها مقدمة وتمهيد ويليها خاتمة وثبت بالمصادر والمراجع وفهرس للدراسة ثم ختمت بملخص للدراسة بالعربية والانجليزية.

تناولت المقدمة التعريف بطبيعة الموضوع والدافع إلى اختياره وأبرز معالم المنهج المتبع في الدراسة وبيان أقسامها وأبرز الصعوبات التي واجهت البحث وكيفية التغلب عليها، وضمنت بإشارات موجزة عن الدراسات السابقة سواء عن الزركشي أو كتابه البرهان.

أما التمهيد فقد تناول الزركشي وعصره وأبرز ملامح المنهج المتبع في الدراسة وأدواته.

أما الفصل الأول فجاء بعنوان "مستويات الأسلوب" ورتبنا هذه المستويات حسب ما تصوره أساتذتنا فكان ذلك الترتيب منطقيا بحيث بدأ بالظواهر الإفرادية منتهيا بالظواهر التركيبية، فجاءت الظواهر الصوتية في المبحث الأول، ورصدنا فيه تصور الزركشي لمخارج الأصوات وصفاتها خاصة الحروف المقطعة في القرآن الكريم، وتمت الإشارة إلى فطنة الزركشي إلى بعض العلاقات القائمة بين تلك الأصوات ومن ذلك علاقة التقابل، ورصدنا في هذا الجزء من المبحث تجاوز الزركشي صفات الأصوات إلى علاقتها بمستويات الأسلوب في النص القرآني ومن ذلك علاقتها بالتركيب من حيث التأثير في ترتيب المفردات داخل التركيب بالتقديم والتأخير بين تلك المفردات تبعا لتأثير الأصوات المتقاربة التي تحتاج إلى بذل جهد عضلي كبير خلال تلاوة النص القرآني ويتمثل تلافي هذا الجهد بالفصل بين تلك الأصوات وذلك بالتقديم والتأخير، وختم هذا المبحث بتجليات الدرس الصوتي عند الزركشي من خلال تناوله للقراءات وقد رصدنا فيها تصور الزركشي لأثر اختلاف الأصوات على اختلاف القراءات ومثل ذلك باختلاف المد والإمالة وتخفيف الهمزة من قراءة لأخرى.

وخلال رصدنا لما تناوله الزركشي من صور الاختلاف بين القراءات تمت الإشارة إلى واحدة من أهم الظواهر الأسلوبية عنده، تلك الظاهرة التي ربط فيها الزركشي بين الصوت والخط والدلالة في النص القرآني بصورة ثلاثية من حيث التماثل والتخالف في القراءات بمعنى اختلاف أحد تلك الأركان وثبات الركنين الآخرين حيث يختلف الصوت في الكلمة من قراءة لأخرى ولا يختلف رسمها أو دلالتها وهكذا، وقد وصلنا هذا الجهد للزركشي بأحد الأسلوبيين المعاصرين ممن تناول تلك الظاهرة بصورة ثلاثية تتمثل في الصوت والخط والدلالة من حيث التماثل أو التخالف بين الكلمات.

وجاءت الظواهر الصرفية في المبحث الثاني، ورصدنا فيه تصور الزركشي لأهمية الصيغ الصرفية في الكشف عن الدلالة في النص القرآني عموما، مع رصد العلاقات القائمة بين الصيغ الصرفية ومنها الاشتقاق وربطه بالأصل والفرع، وفي هذا الجزء من المبحث تم رصد تصور الزركشي للعلاقة القائمة في النص بين الصرف وبين مستويات الأسلوب الأخرى، علاوة على رصد الفروق الدلالية بين تلك الصيغ، وتمت الإشارة لتصور الزركشي لمراتب للصيغ الصرفية تتبعها مراتب دلالية، وختمنا هذا المبحث بتصور الزركشي للعدول الصرفي وأسبابه ودلالة ذلك

العدول، ومدى ارتباطه بالسياق في النص القرآني، وتمت الإشارة إلى ارتباط العدول الصرفي في النص القرآني بالتصوير عند الزركشي.

وجاءت الظواهر التركيبية في المبحث الثالث، ورصدنا فيه العلاقات التركيبية المختلفة القائمة بين مكونات التركيب ومن ذلك العلاقة الترتيبية سواء النحوية أو المنطقية، وتمت الإشارة في هذا الجزء من الدراسة إلى فطنة الزركشي في رصد تأثير العلاقات الدلالية القائمة بين المفردات على الترتيب داخل التركيب، وتمت الإشارة أيضا إلى تصور الزركشي لقدرة العلاقات التركيبية على تحقيق التماسك والترابط بين المفردات داخل النص القرآني وتصوره لبناء التركيب داخله.

وتناولنا في هذا المبحث تصور الزركشي لوحدة التركيب واكتماله في النص من خلال درسه للوقف والوصل خلال عملية التلاوة، وذلك عن طريق تحديد الوقف حسب اكتمال التركيب باعتبار التركيب وحدة دلالية قد تختلف عن دلالة مكوناتها ومثل لذلك باكتمال التركيب الوصفي والعطفي والبدلي

كما تناولنا في هذا المبحث علاقة التركيب بالدلالة من خلال درس الزركشي لقضية الإجمال الدلالي داخل النص وتأثير التركيب في ذلك الإجمال أو الغموض، كما رصدنا دلالات بعض التراكيب عند الزركشي منها دلالة التركيب البدلي والعطفي علاوة على رصد مؤكدات الجملة الاسمية والفعلية، وفي هذا الجزء تمت الإشارة إلى تصور الزركشي للتدرج الدلالي للتوكيد من خلال تدرج مؤكدات الجملة، وربطه بين دلالة التركيب على التوكيد وبين بعض السياقات في النص القرآني ومنها سياقات الوعد والوعيد، كما رصدنا دلالة الذكر ودلالات التكرار، وتمت الإشارة إلى ارتباط دلالات تلك التراكيب بسياقات الوعد والوعيد والموعظة علاوة على ارتباطها بالتأثير على المتلقي.

ورصدنا فيه أيضا القوالب التركيبية ودلالاتها ومن ذلك تراكيب الشرط والوصف والعطف والبدل وتصور الزركشي لوحدة هذه التراكيب باعتبارها وحدات دلالية داخل النص القرآني، وتمت الإشارة في هذا الجزء من الدراسة على ربط الزركشي بين تلك التراكيب وبين السياق في النص القرآني وتأثيرها على المتلقي وفي كل رصد الزركشي العلاقات التركيبية والدلالية القائمة بين مكونات كل تركيب.

وختم هذا المبحث بتصور الزركشي للعدول التركيبي ودلالاته من خلال الالتفات والحذف والزيادة والتقديم والتأخير والاعتراض، وقد عبر الزركشي عن ذلك العدول بالنقل أو بالخروج عن الأصل أو قال ولم يقل، وغالبا التعبير عنه

بالعدول صراحة، وقد تمت الإشارة إلى تصور الزركشي للعلاقة بين العدول وبين المتلقي من حيث التأثير عليه، ورصد تصور الزركشي للصورة المثالية للتركيب من حيث الشكل أو الدلالة على المستويين النظري والتطبيقي وتمت الإشارة إلى الإجراءات التطبيقية التي اتخذها الزركشي وتصب في تصوره لتلك الصورة المثالية للتركيب والإشارة أيضا إلى تصور الزركشي للتناسب بين التراكيب في النص القرآني بفضل اعتماد العدول.

وجاءت الظواهر الدلالية في المبحث الرابع، ورصدنا فيه تجليات الدرس الدلالي عند الزركشي من خلال تناوله لقضية التفسير والتأويل، ورصدنا فيها اهتمام الزركشي بالدلالة في النص القرآني من خلال اعتماده تطبيقيا على تفضيل بعض الآيات أو السور على البعض الآخر من حيث الدلالة ورصدنا تصور الزركشي للعلاقات الدلالية القائمة بين مفردات النص وتراكيبه ومن ذلك التناسب والطباق والمقابلة، وتمت الإشارة في هذا الجزء من الدراسة إلى تصور الزركشي للروابط الدلالية القائمة بين المفردات والآيات داخل النص القرآني بما يحقق له التماسك والترابط، هذا بجانب تصوره لتلك العلاقات بطريقة كمية نابعة من العدد قد تتجاوز الآية الواحدة إلى العديد من الآيات.

كما رصدنا أدوات الزركشي في استخراج الدلالة وتصوره للأدوات اللغوية وغير اللغوية، وارتباط تلك الأدوات بالإجمال الدلالي في النص القرآني ورصدنا من تلك الأدوات ملاحظة العلاقات الدلالية بين المفردات، والأخذ بمجمل الآية باعتبارها وحدة دلالية، وملاحظة العلاقات التركيبية القائمة بين المفردات واتصال التركيب، والبحث في الدلالة الكلية للسياق، والتطور الدلالي للمفردات وملاحظة المعنى الأصلي التي نقلت عنه الكلمة، وختمنا هذا الجزء بالكشف عن تصور الزركشي للأدوات الصرفية والنحوية والسياق باعتبارها أدوات تكشف عن دلالة الكلمة بجانب الدلالة المعجمية لها.

ثم رصدنا تصور الزركشي لأقسام الدلالة وما تناوله من الدلالات الكلية والجزئية فكانت الدلالات الكلية عنده ست دلالات هي الخبر والاستخبار والشرط والقسم والأمر والنفي موردا تحت كل دلالة من تلك الدلالات دلالات صغرى تتفرع منها، وتحت الدلالات الصغرى دلالات أصغر منها بما يشبه الخريطة الذهنية، وذكر الزركشي أسباب الربط بين الدلالات الكلية والفرعية وكان ذلك بالاعتماد على ما فهمه من السياق أو أسباب النزول أو قول لأحد العلماء.

كما رصدنا في هذا الجزء تصور الزركشي لأقسام دلالات اللفظ من الدلالة اللغوية والشرعية والعرفية والاصطلاحية علاوة على تقاطع تلك الدلالات مع

بعضها البعض واعتماده لترتيب هذه الدلالات من حيث أولوية الأخذ بها داخل النص القرآني.

وأعقبنا ذلك بتصور الزركشي للتعدد الدلالي في النص القرآني على مستوى الآية أو المفردات.

وأعقبنا ذلك بالكشف عن تصور الزركشي للفروق الدلالية بين المفردات وتمت الإشارة في هذا الجزء إلى اعتماد الزركشي على الأصوات لرصد الفروق الدلالية بين المفردات.

كما رصدنا تصور الزركشي للعدول الدلالي وأسبابه وتمت الإشارة في هذا الجزء من الدراسة إلى تصور الزركشي لبقاء دلالتين للكلمة في النص الأولى الدلالة المعدول عنها والثانية الدلالة المعدول إليها، كما أشير إلى إثبات الزركشي لدليل العدول الدلالي وذلك بالبحث في متعلقات الفعل أو البحث في السياق.

وختمنا هذا المبحث بتصور الزركشي للسياق وأنماطه ودلالته في النص، وكشفنا عن تصور الزركشي من الناحية التطبيقية لأربعة أنماط من السياقات تشمل النص القرآني كله وتلك الأنماط تبدأ بسياق الآية وتنتهي بالسياق الكلي للنص القرآني مرورا بسياق جزئي لمجموعة من الآيات المرتبة داخل السورة، وسياق السورة.

وأعقب تلك الأنماط الكشف عن تصور الزركشي لأهمية السياق من حيث تأثيره في مستويات الأسلوب خاصة الدلالة، ورصدنا في هذا الجزء تصور الزركشي لتأثير السياق في الكشف عن الدلالة المعجمية للمفردات، وتأثيره في الكشف عن دلالة التركيب وظواهره، وتمت الإشارة إلى التناسب بين السياق ومكوناته، وبينه وبين حال المتلقي من حيث مناسبة سياقات الترغيب والترهيب لحاله من الكفر والإيمان.

وجاءت الظواهر التصويرية في المبحث الخامس، ورصدنا فيه الصورة الجزئية من التشبيه والاستعارة والكناية، والصورة الكلية الجامعة بين الصور الجزئية وتناول الزركشي للتمثيل وربط ذلك كله بالدلالة في تصور الزركشي مع رصد إفادته من البلاغيين القدامى، وتمت الإشارة إلى تصور الزركشي للصورة في النص القرآني وارتباطها بالدلالة ووضوحها من حيث اعتماد الزركشي في الغرض منها إلى إخراج ما لا يدرك بسهولة إلى ما يدرك بسهولة، مع حرصه على ربط الصورة بالدلالة والسياق في النص القرآني وبالتأثير في المتلقي، وبدا لنا في هذا الجزء من الدراسة حرص الزركشي على اكتمال البنية التصويرية تركيبيا ودلاليا

من خلال بعض الإجراءات العملية منها تقدير المحذوف ورصد أطراف الصورة والعلاقات التركيبية والدلالية القائمة بينها.

أما تصور الزركشي للصورة الممتدة في النص القرآني فقد تميز بالاهتمام بالصورة بصرف النظر عن الصور الجزئية المكونة لها، وجاء ذلك الاهتمام بهذه الكيفية نتيجة لاهتمام الزركشي بالدلالة ووضوحها في النص القرآني ورصد تأثيرها في المتلقي كما هو الحال في تناوله للصور الجزئية، وختمنا هذا المبحث برصد بعض الصور الممتدة في النص القرآني التي تناولها الزركشي بالتحليل وربطها بالسياق والمتلقي.

وجاء الفصل الثاني كاشفا عن تصور الزركشي لوحدة النص عموما ووحدة النص القرآني خصوصا وذلك على المستويين النظري والتطبيقي، ووصلنا ذلك التصور بقضية وحدة النص في التصور الحداثي لها، واتسم الكشف عن تصور الزركشي لوحدة النص برصد القضايا التي تفضي إلى وحدة النص القرآني ومن ذلك قضية موهم الاختلاف وقد تناول في تلك القضية نفي الاختلاف بين آيات النص القرآني عموما

وقمنا برصد الإجراءات العملية التي اتخذها الزركشي في هذا الصدد من رصد لسمات النص مما أورده الزركشي نظريا وتطبيقيا، ومن أبرز تلك السمات ما رصدناه من تصور الزركشي لسبعة أنماط للتناسب بين أجزاء النص القرآني بما يفضي إلى التناسب العام بينها باعتبارها سمة أساسية من سمات النص القرآني، والتناسب عنده يعبر عن المقاربة والارتباط بين أجزاء النص القرآني سوره وآياته ويتوزع على التناسب الدلالي والتركيبي والصوتي، وتمثلت تلك الأنماط في تناسب الآيات داخل السورة الواحدة، وتناسب فاتحة السورة مع خاتمتها، وتناسب فاتحة السورة مع خاتمة السورة قبلها، وتناسب فاتحة السورة مع فاتحة السورة قبلها، والتناسب بين السور المتتالية، وتناسب ترتيب السور في المصحف العثماني، والتناسب بين السورة واسمها.

ورصدنا من تلك الإجراءات تفسير الزركشي للنص بالنص بالاعتماد على أقواله النظرية التي تفضي بأن أفضل وسيلة للتفسير هي تفسير القرآن بالقرآن ثم اتبعنا ذلك بالتطبيق عنده عن طريق وصوله للدلالة في آية بالبحث في سياقاتها الجزئية أو في السياق العام للنص القرآني، أو خلال عملية الاستدلال على الظواهر التركيبية.

ورصدنا في هذا الفصل أيضا دور التكرار والمقارنة باعتبارهما من الإجراءات العملية التي اتخذها الزركشي ليعبر عن تصوره لوحدة النص القرآني، فتناول تكرار التراكيب والقصص في النص القرآني بطريقة كمية، وفي المقارنة تناول الزركشي بطريقة تطبيقية العلاقات التركيبية والدلالية القائمة بين الآيات المتشابهة في النص القرآني رابطا بينها وبين السياق من حيث تأثيره في عدم تطابقها تركيبيا ودلاليا، وتمت الإشارة إلى أن التكرار والمقارنة يتطلبا من الزركشي نظرا كليا في عموم النص القرآني لرصد التكرار أو تناول الآيات بالمقارنة.

وتناول الفصل الثالث قضايا التلقي عند الزركشي، ورصدنا تصور الزركشي لصور التلقي من تلقي سمعي وبصري وربط الزركشي بين تلك الصور وبين الدلالة في النص، وتمت الإشارة في التلقي البصري إلى تفصيل الزركشي خطوات تأثير الفاصلة في المتلقي من حيث الألفة ثم التوقع للفاصلة ثم متعة الظفر بما توقعه منها.

أما التلقي البصري للنص القرآني فتظهر أهميته من تصور الزركشي لأفضلية تلقيه بالقراءة على السماع، ويتمثل عنده في تأثير خط المصحف على المتلقي والكشف عن الدلالة في النص القرآني من خلال الاختلاف بينه وبين الخط المعتاد من ناحية، واختلاف رسم بعض الكلمات في النص القرآني من موقع لآخر تبعا لاختلاف الدلالة من ناحية أخرى.

وقد رصد تحت هذا الاختلاف بين خط المصحف وبين الخط المعتاد الاختلاف بالزيادة من حيث زيادة الألف أو الواو أو الياء في رسم بعض الكلمات لتضفي بعض الدلالات، والاختلاف بالنقصان أو الحذف من حيث حذف الألف أو الواو أو الياء أو النون من رسم بعض الكلمات لتنبيه المتلقي على الفرق الدلالي بين الأمور العلوية غير المدركة بالحس، وكل ذلك في إطار إدراك المتلقي للفرق بين خط المصحف والخط المعتاد، أو لإدراكه بصريا للزائد أو الناقص في خط المصحف.

كما رصدنا تصور الزركشي للعدول في الرسم بين الحروف من حيث العدول عن رسم بعض الحروف إلى رسم حروف أخرى لتنبيه المتلقي خلال إدراكه بصريا لهذا العدول في الرسم إلى الدلالة في النص القرآني ومن ذلك الاختلاف أيضا في وصل الكلمات أو فصلها من موضع لآخر في النص القرآني.

وأعقبنا صور التلقي برصد تصور الزركشي لأحوال التلقي ودرجاته وتصوره مراعاة الصياغة لأحوال المتلقي، وكشفنا عن تصور الزركشي لدرجات

المتلقين من عدة زوايا منها تفاوتهم في إدراك الدلالة ومنها تصنيف المتلقين حسب درجة إدراكهم للدلالة وتجاوبهم مع النص ووسيلة الإدراك

كما رصدنا في ختام هذا الفصل تصور الزركشي للعلاقة بين المتلقي والنص التي اتسمت عنده بالتجاوب والتأثير.

وجاء في ختام تلك الفصول الكشف عن الأدوات المنهجية-وذلك في الفصل الرابع-التي تسلح بها الزركشي في رحلته للكشف عن الدلالة في النص القرآني وتناوله لقضايا الأسلوب، ووصلت تلك الأدوات بما يتفق أو يفترق مع الأدوات المنهجية الحداثية بهدف ترسيخ جذور تلك الأدوات في تراثنا من ناحية، والكشف عن أدوات قد تفيدنا في الدرس الأسلوبي الحديث من ناحية أخرى.

ومن أهم تلك الأدوات اعتماد الزركشي للجمع بين مستويات الأسلوب كما رصدناها عنده في تصوره الشامل لتلك المستويات مجموعة خلال تناوله للنص القرآني بالتحليل وذلك على المستويين النظري والتطبيقي بما يعبر عن وحدة الأسلوب عنده فجاء تحت عنوان وحدة الأسلوب وقد اتضح هذا عنده من شقين الأول الإطار النظري في رصده لقانون التفسير أو الأدوات التي يحتاجها المفسر للكشف عن الدلالة، والشق الثاني تمثل في الجانب التطبيقي عند الزركشي من خلال تطبيق قانونه في التفسير على النص من خلال المفاضلة بين آية منه وقول مأثور أو تحليل بعض الآيات.

ورصدنا تحت السمة المنهجية الثانية اعتماد الزركشي في استخراج الدلالة في النص القرآني أو تفسير الظواهر اللغوية على البحث في ملابسات النص وما يحيط به خاصة عند الإجمال الدلالي في النص القرآني وقد اعتمد الزركشي في ذلك على أسباب النزول والمكي والمدني والحديث الشريف تنظيرا وتطبيقا.

كما رصدنا تحت السمة المنهجية الثالثة اعتماده للإحصاء، ورصدنا قيام الزركشي بعملية الإحصاء للدلالات الكلية للنص القرآني، وإحصاء لبعض الألفاظ الواردة فيه وعدد ورودها، وفي هذا الجزء تمت الإشارة إلى أن الزركشي ربط بين الإحصاء والدلالة في النص القرآني بوجه من الوجوه، لا يذكر فيه دلالة العدد، ولكن باعتبار الإحصاء للمعدود ظاهرة توجب التوقف عندها

ورصدنا تحت السمة المنهجية الرابعة اعتماد الزركشي للتقسيم، بما يشبه الخريطة الذهنية، فالزركشي لا يتناول الموضوع أو العلم المدروس مجملا، ولكن يذكر أقسامه، وقد يقسم تلك الأقسام إلى أقسام أخرى

ورصدنا تحت السمة المنهجية الخامسة اعتماد الزركشي للاستدلال، إذ يمثل الاستدلال سواء على الظواهر اللغوية أو الدلالة التي كشف عنها الزركشي في النص القرآني ملمحا يكشف لنا عن علاقة الزركشي بمتلقيه من حيث إيراد ما يقنعه بصحة ما كشف عنه من دلالات من ناحية، وتحري الزركشي الدقة في إيراد ما اعتمد عليه أو المصدر الذي وجهه لتلك الدلالات؛ ليقف عليها متلقيه من ناحية أخرى، وقد تنوعت مصادر الاستدلال عند الزركشي فمنها القرآن نفسه، والقراءات، والحديث الشريف، والشعر، والاستدلال العلمي، وكان أكثرها في كتابه الاستدلال بالنص القرآني ذاته

ورصدنا تحت السمة المنهجية السادسة اعتماد الزركشي على عرض الآراء، وهي من الملامح المنهجية التي اتبعها الزركشي في كتابه البرهان ودراسة القضايا اللغوية المختلفة في النص القرآني؛ وتميز هذا الجزء بعرض أقوال العلماء ومناقشتها سواء بالتعبير عن رأيه فيها، أو بالاعتماد على رأي غيره وسرد الأدلة على الرأي الصحيح.

ورصدنا تحت السمة المنهجية الأخيرة اعتماد الزركشي للتنظير والتطبيق، إذ يعد التطبيق بمثابة الدليل على التنظير وصحته، ويعد التنظير مهما لإجمال الظواهر المختلفة واعتباره قاعدة يمكن الرجوع إليها عند التطبيق

وقد أعقبنا تلك الفصول بخاتمة تناولت التعريف بفصول الدراسة ومباحثها وجزئياتها والإشارة إلى أبرز ما رصدناه فيها، وأعقبنا الخاتمة بثبت بالمصادر والمراجع وفهرس مفصل لفصول الدراسة ومباحثها ثم تنتهي بملخص باللغتين العربية والانجليزية.

والحمد لله رب العالمين

diversified sources of inference when Zarkashi mismatch Koran itself, and readings, and the Hadith, and poetry, and infer scientific, and it was most in his book inferred Quranic text itself

unity of the Quranic text, addressed the repeat structures and the stories in the Qur'anic text in a quantitative manner, and in the comparison address Zarkashi manner practical relations of synthetic and semantic between verses similar in the text a link between them and the context in terms of its impact on non-conformity synthesis and Preview, and it was noted that repetition and be subject to a comparison of Zarkashi view across the whole of the Qur'anic text to monitor recurrence or taking verses in comparison.

And Chapter III issues receive when Zarkashi, and detected the perception Zarkashi images receive from receiving audio and visual and link Zarkashi between those images and the significance in the text, and reference was made in the receive optical to detail Zarkashi steps impact point in the recipient in terms of familiarity and expectation of a comma and then the nail fun including expected of them.

The receive visual of the Qur'anic text appears important to visualize Zarkashi for preference receiving reading to hear, and is has the effect of the line of the Koran on the receiver and detection significance in the text through the difference between him and the line from the usual one hand, and the different drawing some of the words in the text Quranic from one location to another depending on the different semantics on the other hand.

And may monitor under this difference between the line of the Koran, and between the line normal variation increase in terms of increased a thousand or F or Z in making some words to give some indications, and the differences decrease or deletion in terms of deleting a thousand or F or Z or Noon to draw some of the words to alert the recipient to the semantic difference between the upper matters is the perceived sense, and all within the recipient understand the difference between line and line Qur'an usual, or to visually aware of plus or minus in the line of the Koran.

of the degree recipients from several angles, including Tvautem to recognize the significance and those compiled by the recipients according to the degree of their awareness of the significance and appeal of the text and the way perception

Also detected at the end of this chapter Zarkashi perception of the relationship between the recipient and the text that characterized him and responding to the impact.

And came at the end of those chapters to detect methodological tools - and that in the fourth quarter - that's arming the Zarkashi in his journey to

detect significance in the text and addressed the issues of method, and have found these tools in line or separated with the methodological tools modernist view to deepen the roots of those tools in our hand, and detection tools may benefit us in the modern stylistic lesson on the other hand.

The most important of these tools adopt Zarkashi to combine the levels of the method as Rsdnaha him in his conception of destruction to those levels set during the eating of the Qur'anic text analysis and on both theoretical and applied so as to reflect the unity of method has came under the title of the unity of method and has shown this has a twofold The first theoretical framework in the monitoring of the Interpretation Act or the tools needed by the interpreter to detect significance, and the second part was the practical side when Zarkashi through the application of its law in Altfisseraly text through the comparison between a verse and aphorism or analysis of some of the verses.

And detected under the second attribute is the methodology adopted Zarkashi in the extraction of significance in the text or the interpretation of linguistic phenomena to look into the circumstances of the text and what surrounds it, especially when overall semantic in the text and has been adopted Zarkashi at the reasons down and Mecca, and civil and Hadith demagoguery and application.

Also detected under the consistency third adoption of Statistics, and detected by Zarkashi process statistics for indications of College of the Qur'anic text, and a census of some of the terms contained therein and the number and received, and in this part was pointed out that Zarkashi link between statistics and significance in the text in some way , does not mention the significant number, but as the statistics of the phenomenon had to be counted then stop

And detected under the fourth attribute methodology Zarkashi adoption of the division, similar to the mental map, Valzerkachi does not address the subject or science considered an outline, but little sections, and may be divided by those sections to other sections

And detected under the consistency of the Fifth adoption Zarkashi to deduce, as an inference whether the phenomena of language or semantics revealed by the Zarkashi in the text feature reveals relationship Zarkashi Bmtlekaya in terms of revenues what convinces him healthy revelations of semantics on the one hand, and investigate Zarkashi accuracy of the revenue of what it was used or the source from which the face of such indications; to stand by the recipient on the other hand, and has

the condition and the department and command and defense resource under each sign of the semantic connotations junior branch of them, and under the semantic micro-semantics smaller which, similar to the mental map, and the reasons for the link between Zkralzerkachi semantic Colleges and sub and that was based on his understanding of the context or reasons to go down or say one of the scientists.
Also detected in this part of the sections of perception Zarkashi word semantics and linguistic significance of Shariah and customary and conventional as well as at the intersection of those signs with each other, and to arrange the adoption of these indications of where the introduction of priority within the Qur'anic text..

And we ended this section, perception Zarkashi of the context and patterns and significance in the text, and uncovered imagine Zarkashi in practice for four types of contexts, including the Quranic text above, and those patterns begin the context of the verse and ends the context overall of the Qur'anic text, through the context of a partial set of verses rank within the Sura, and the context of the sura.
And followed those patterns detected imagine Zarkashi of the importance of context in terms of its effect on the levels of the method as private significance, and we spotted in this part perception Zarkashi of the impact of context in the identification of significant lexical vocabulary, and its effect on the disclosure about the significance of structure and phenomena, and reference was made to the proportionality between context and its components, and between him and the recipient of the event where appropriate contexts carrot and intimidation in a state of disbelief and faith.
And came phenomena visual in Section V, and we detected a partial picture of simile and metaphor and metonymy, and is University College between the partial images and eating Zarkashi to represent and bind all give indications of the conception Zarkashi monitor with his testimony from Albulageyen old, and reference was made to imagine Zarkashi of the image in the text and linked to give indications and clarity in terms of adopting Zarkashi for the purpose for which the output is not easily understand to easily understand, with his eagerness to link to an image tell people and context in the text and influence in the recipient, and it seemed to us in this part of the study Zarkashi keen on the completion of the structure and synthesis imaging Tagged through some practical measures, including assessment and monitoring of the Parties to the

deleted image and Structural and semantic relations between them.
The perception Zarkashi of the image extended in the Quranic text has been marked by attention to the image regardless of the partial images of its constituent, and said that interest in this manner is a result of the attention Zarkashi tell people, and clarity in the text and monitor their effects in the recipient as is the case in the handling of images District, and we ended This section monitors some of the images in the period covered by the Qur'anic text Zarkashi analysis and linked to the context and the recipient.
And came second quarter, revealing the perception Zarkashi for the unity of the text in general, and the unity of the Holy Quran in particular and on both theoretical and applied, and we got that perception issue of the unity of the text in the perception modernist her, and was characterized by detection imagine Zarkashi for the unity of the text to monitor the issues that lead to a Quranic text and that the issue of illusory difference and have dealt with in that case denied the difference between the verses of the Quranic text in general
And we monitor the practical measures taken by the Zarkashi in this regard to monitor for text attributes, which reported Zarkashi theoretical and practical, and most prominent of the features Rsdnah from the perception of Zarkashi of seven patterns of fit between the parts of the Qur'anic text, leading to the proportionality year, including as an essential feature of Quranic text, and proportionality have expressed approach and the link between the parts of the text of Al Quran and its verses and distributed on the proportionality of semantic and structural and voice, and was fit those patterns in the verses in Sura one, and fit the opening Sura with its conclusion, and fit the opening sura with a conclusion before the sura, and fit the opening Sura with Sura before opening, and proportionality between successive wall, and fit the order of the Ottoman Wall in the Koran, and proportionality between Sura and its name.
And detected from these procedures interpret Zarkashi text text based on his statements theoretical result that the best way to explain the interpretation of the Qur'an by the Qur'an and then we follow that the application has through the arrival of the indication in the verse of research in contexts of partial or in the general context of the Qur'anic text, or through a process of reasoning to synthetic phenomena.
And we identify in this chapter also the role of repetition and comparison as of practical actions taken by the Zarkashi to express his vision of the

And came phenomena morphological in Section II, we detected the perception of Zarkashi of the importance of formulas morphological in the detection of Semantics in the text in general, with the monitoring of the existing relations between the formulas morphological and including the derivation and linked to the origin and the branch,

and in this part of the study has been monitoring the perception of Zarkashi for the relationship in the text between the formulas morphological and between the levels of stylistic,

as well as to monitor the differences Results of those formulas morphological, and reference was made to visualize Zarkashi the hierarchy of formulas morphological followed by orders of meaning, and we ended this part with the perception of Zarkashi for reverse the formulas morphological and its causes and Semantic that reverse, and how it relates to context in the text,

And synthetic phenomena came in the third section, and we detected the structural relations existing between the various components of the composition and the relationship of ordinal either grammatical or logical, and reference was made in this part of the study that Zarkashi acumen to monitor the impact of the semantic relations between words in order to installation, and reference was made also to the perception of Zarkashi for the ability synthetic relations to achieve coherence and interdependence between the vocabulary within the Qur'anic text and vision to build a structure inside it.

And we studied in this section,the perception of Zarkashi for the unity of the structure in the text through his study the structure

As we discussed in this section, Structural relationship tell people through the study of Zarkashi to the issue of overall semantic within the text and the effect of composition in the whole or ambiguity, as we detected indications of some structures at Zarkashi including significant structure Alibdli and Atfy addition to monitoring Mwkdat nominal sentence and the actual, and in This section has reference to the perception Zarkashi to include semantic assurance through include Mwkdat sentence, and links between the significant structure on the assertion and between some of the contexts in the text and including the contexts of promise and warning, as we spotted a sign above and

implications of repetition, and reference was made to link implications of these structures and contexts promise warnings and advice as well as they relate to impact on the receiver.

And we detected it also templates Structural and implications and that structures of the condition and the description and compassion and allowance, and imagine Zarkashi for the unity of these structures as units tag in the Quranic text, and reference was made in this part of the study to link Zarkashi between these structures and the context in Quranic text and its impact on the receiver and monitor in each Zarkashi Structural and semantic relations between the components of each installation.

And seal this section, perception Zarkashi to reverse structural and indicative of the attention and deletions, and increase and presentation and the delay and the objection, and may cross Zarkashi for the reverse transport or go out of their origin, he said, did not say, and often expressed in reverse explicitly, and has been referred to the perception Zarkashi of the relationship between the reverse and the receiver in terms of influence, and monitor the perception Zarkashi of the image ideal for installation in form or significance at both the theoretical and applied and it was pointed out practical procedures taken by the Zarkashi and are in the vision of the ideal image for installation and also the reference to the perception Zarkashi to fit between the structures in the text thanks to the adoption of the termination.

And came phenomena Results in Section IV, we identify the manifestations of the lesson Semantic When Zarkashi through addressing the issue of interpretation and exegesis, and we detected the attention Zarkashi give indications in the text through the adoption of practical on the preference of some verses or the fence on the others in terms of significance and detected imagine Zarkashi Relations Results between the vocabulary of the text and his compositions and that of proportionality and counterpoint and the interview, and reference was made in this part of the study to the perception Zarkashi of the links Results between vocabulary and verses in the Qur'anic text in order to achieve a cohesion and coherence, this next conceived of those relationships in a quantitative manner stems from the number may exceed one verse to many of the verses.

Then we spotted imagine Zarkashi of the sections of significance, and what addressing indications of the College and District were indications College has six indications are the news and intelligence and

Summary of the Study

Suffice it to this study to be a complement to effort in establishing the roots of our teachers lesson stylistic advances of the ancients, especially when Zarkashi as it appears to us as proof of his highlights came to us from the heritage of the Qur'anic sciences.
From this standpoint, this study is based on monitoring issues, the method in the porhan book of and analysis by monitoring the components of the overall style of the Koran, as indicated by Zarkashi and analyzed with the monitoring tools that can benefit us in the lesson stylistic modern, and by monitoring the perception of Zarkashi levels of the method of Voice and **Morphology** and **fiction** and **Semantics**, with the monitoring of perception of Zarkashi for the unity of the Holy Quran and detection tools that arm them on the trip to prove this unit, and monitor the perception of the issues receive and types of the reception of the Qur'anic text and the ability influential of the Qur'anic text to the recipient, with the monitoring of Tools Zarkashi methodology in dealing with the issues of method.
And then the approach used in this study stems from the modest data Lesson stylistic modern, and is based on extrapolation and analysis various issues contained in this book , and he goes to classification and disclosure of its dimensions by utilizing the development witnessed by the language lesson and rhetorical and critical .

Beginning we read the porhan book in a holistic manner and was followed by readings read carefully stylistic issues and phenomena phenomenon phenomenon, and after the monitor and the order of those phenomena identified every phenomenon and devoted a chapter of the chapters of the study to detect the dimensions when Zarkashi that the order of chapters by phenomena and not in the order they are received in parts of the book, and the study was divided into four chapters preceded by an introduction and followed by a boot and and proven sources, references and an index for the study then concluded by a summary of the study of Arabic and English.

,the introduction studied nature of the subject and the motive to his choice and the most prominent features of the approach in the study and the parts of the study and highlighted the difficulties faced by the

research and how to overcome them, and included brief references from previous studies to the book of Zarkashi .

The boot has studied Zarkashi and his time and most prominent features of the approach in the study and its tools.
The first chapter came entitled "stylistic levels" and we arranged these levels, as envisioned our teachers was that order logically

in the first section, spotted the perception of Zarkashi for the exits sounds , especially the cut letters in the Quran Karim, and reference was made to Zarkashi acumen to some relationships between those sounds and juxtaposition of these sounds

and we spotted in this part of the study Zarkashi recipes sounds into their relationship to stylistic levels in the Quranic text and its relationship to composition in terms of impact in the order of the vocabulary within the structure apply and the delay between the vocabulary depending on the impact of sounds converged that you need to make an effort muscle considerably during the recitation of the Qur'anic text and is to avoid this effort, the separation between those sounds and that apply and the delay,

in the end of this part the lesson of voice from Zarkashi by approaching readings and had spotted the Zarkashi imagine the impact of different sounds on different readings and such that depending on the tide and tilt and hamza from reading to another .

During the perception of Zarkashi for types of the difference between the readings was noted to one of the most important stylistic phenomena , a phenomenon that was linked by Zarkashi between sound and the font and Semantics in the text

they are three in terms of symmetry the sense of the difference one of those essential and the stability of the other two pillars vary the sound of the word read to the other and does not differ write or Semantics, and so on, and this effort has linked between Zarkashi and one of contemporaries who deal with that issue in three is in the sound and the font and Semantics in terms of symmetry or allelo between words ..

Ain Shams University

Faculty of Arts

Department of Arabic Language and Literature

issues of stylistic in the heritage of Quran sciences "alporhan in Qur'an Sciences, by Zarkashi as example

Search for a Ph.D. in Arabic Language and Literature

Researcher

Karim Farouk Ahmed Abdel Dayem el Kholi

Supervision

p Dr. Tarek Saad Shalaby.

Dr. Islam Hassan El Sharkawy